① التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

١- القواعد الحسان لتفسير القرآن

٢- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن

الجزء الثامن

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م




بسم الله الرحمن الرحيم
فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

تتشرف الجمعية الخيرية الصالحية في عنيزة بأن يكون من بواكير أعمالها المفيدة، إن شاء الله، إصدار المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي، رحمه الله.

وقد قام بهذه المهمة النبيلة مركز صالح بن صالح الثقافي التابع للجمعية، تنفيذاً لواجباته في نشر الثقافة والعلم، وتيسير المفيد من المراجع النافعة.

وقد تضمن الجزء الأول من المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ، رحمه الله، «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» ترجمة وافية للمؤلف الجليل وسرداً لبعض مؤلفاته.

وتحقيقاً لأحد الأهداف الرئيسية للجمعية، ممثلة في مركز صالح بن صالح الثقافي، تم الاستئذان من ورثة الشيخ عبد الرحمن، رحمه الله، بإعادة طباعة ما صدر من مؤلفاته، مضافاً إليها ما تيسر الحصول عليه من مؤلفات ورسائل مخطوطة وذلك على هيئة مجموعة كاملة تتضمن فروع التفسير والفقه والإرشاد والفتاوي والعلوم الشرعية والعربية والثقافة الإسلامية، وسوف تصدر إن شاء الله تباعاً.

كما تمت الموافقة من الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برقم ١/٤٦٥/ش بتاريخ ١٤٠٧/٨/١ هـ لاعتماد الطبعة

التي أصدرتها الرئاسة للتفسير وتصويره، ووافقت وزارة الإعلام مشكورة، كما وافقت وكالة الوزارة لشؤون الرعاية الاجتماعية ـ وهي الجهة المشرفة على الجمعيات الخيرية ـ على هذه الخطوة.

وتنوي الجمعية بإذن الله الاستمرار في هذا البرنامج لنشر ما ترى نفعه من المراجع، وبصفة خاصة من إنتاج أبناء منطقة القصيم أو ما يتعلق بهذه المنطقة في إطار مشروع وحدة المعلومات الخاصة بهذه المنطقة في مكتبة مركز صالح بن صالح الثقافي في عنيزة.

ومن أجل تمكين أكبر عدد من الراغبين في الحصول على مؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي وغيرها من إصدارات المركز، فقد تقرر أن تخصص نسبة منها للبيع بدور النشر والمكتبات، وتخصيص نسبة أخرى للإهداء حسبما ترى الجمعية.

وتم تحديد البيع بسعر رمزي للدفعة الأولى من المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السِّعدي وعددها ثمانية مجلدات تشمل التفسير بأجزائه السبعة، وكتاب «القواعد الحسان لتفسير القرآن»، وكتاب «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن». وهذان الكتابان في مجلد واحد.

والله الموفق؟

الجمعية الخيرية الصالحية

بعنـــيزة

مصنفات المؤلف

١ ــ تفسير القرآن الكريم المسمى «تيسير الكريم المنان» في ثماني مجلدات أكمله في عام ١٣٤٤ ولم يطبع.

٢ ــ حاشية على الفقه استدراكاً على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي. ولم تطبع.

٣ ــ إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب؛ رتّبه على السؤال والجواب، طبع بمطبعة الترقي في دمشق عام ١٣٦٥ على نفقة المؤلف ووزعه مجاناً.

٤ ــ الدرَّة المختصرة في محاسن الإسلام. طبع في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦.

٥ ــ الخطب العصرية القيمة، لما آل إليه أمر الخطابة في بلده، اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر في المواضيع المهمة التي يحتاج الناس إليها، ثم جمعها وطبعها مع الدرَّة المختصرة في مطبعة أنصار السُّنة على نفقته ووزعها مجاناً.

٦ ــ القواعد الحسان لتفسير القرآن. طبعها في مطبعة أنصار السُّنة عام ١٣٦٦. وهو القسم الأول من هذا المجلد.

٧ ــ تنزيه الدين وحملته ورجاله، مما افتراه القصيمي في أغلاله. طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز «الشيخ محمد أفندي نصيف» عام ١٣٦٦.

٨ ــ الحق الواضح المبين، في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين.

٩ ــ توضيح الكافية الشافية. وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم.

١٠ ــ وجوب التعاون بين المسلمين. وموضوع الجهاد الديني، وهذه الثلاثة الأخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزعها مجاناً.

١١ ــ القول السديد في مقاصد التوحيد، طبع في مصر «بمطبعة الإمام» على نفقة عبد المحسن أبا بطين عام ١٣٦٧.

١٢ ــ مختصر في أصول الفقه، لم يطبع.

١٣ ــ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، وهو القسم الثاني من هذا المجلد.

وله فوائد منثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد إليه من بلده وغيره ويجيب عليها؛ وله تعليقات شتى على كثير مما يمرُّ عليه من الكتب. وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً. ومما كتب نظم ابن عبد القوي المشهور، وأراد أن يشرحه شرحاً مستقلاً فرآه شاقًّا عليه، فجمع بينه وبين الإنصاف بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح له، ولهذا لم نعدَّه من مصنفاته.

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق؛ ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته، لا لينال منها عرضاً زائلاً، أو يستفيد منها عرض الدنيا، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها. فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً. ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه.





تأليف العلامة المحقق الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

من أفاضل علماء عنيزة

جعله الله هادياً مهديًا، وهداه إلى الحق صراطاً سوياً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له. ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفـع، تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومَخبرها أجل من وصفها. فإنها تفتـح للعبد من طرق التفاسير، ومناهج الفهم عن الله: ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة. أرجو الله وأسأله أن يتم ما قصدنا إلى إيراده، ويفتـح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سبباً للوصول إلى العلم النافـع، والهدى الكامل.

فاعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الإطلاق، وأفضلها وأوجبها، وأحبها إلى الله. لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآيـاتـه. وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أسنى المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن، لم يكن ذلك كثيراً في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة. وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة، ويهيـىء الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود. لأنه إذا انفتح للعبد الباب وتمهدت بفهم القاعدة الأسباب، وتدرب منها بعدة أمثلة، توضحها وتبين طريقها ومنهجها، لم يحتج إلى زيادة البسط، وكثرة التفاصيل. ونسأله تعالى أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه وإحسانه.



القاعدة الأولى

في كيفية تلقي التفسير

كل من سلك طريقاً وعمل عملاً، وأتاه من أبوابه، وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته، كما قال تعالى:

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٩]

وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه. ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها، بل هو أساسها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق، وإرشادهم؛ وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

فعلى الناس أن يتلقوا معنى كلام الله كما تلقاه الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلونها على الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويطبقونها على جميع ما يشهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائمون بها، أو مخلون بحقوقها ومطلوبها؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه

خطاب من عالم الغيب والشهادة، موجَّه إليهم، مطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

فمن سلك هذا الطريق، وجَدَّ واجتهد في تدبر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته واستنارت بصيرته؛ واستغنى بهذا الطريق عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية. وخصوصاً إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانباً قوياً، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه. فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه بيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح؛ مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزَّلها على كل واقع وحادث، سابق أو لاحق، ظهر له عظم موقعها، وكثرة فوائدها وثمرتها.

ويلحق بهذه القاعدة:

القاعدة الثانية

العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب

وهذه القاعدة نافعة جداً؛ بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير؛ وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع في الغلط والارتباك الخطير.

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم. فمتى راعيت هذه القاعدة حق الرعاية، عرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول: إنما هو على سبيل المثال لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورة عليها. فقولهم: نزلت في كذا وكذا، معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يراد بها. فإن القرآن ــ كما تقدم ــ إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها، حيث تكون وأنَّى تكون.

والله تعالى قد أمرنا بالتفكُّر والتدبُّر لكتابه، فإذا تدبَّرنا الألفاظ العامة،

وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة، فلأي شيء نخرج بعض هذه المعاني، مـع دخول ما هو مثلها ونظيرها فيها؟ ولهذا قال ابن مسعود، رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا، فأرعها سمعك، فإنه إما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه».

فمتى مر بك خبر عن صفات الله وأسمائه، وعما يستحقه من الكمال، وما يتنزه عنه من النقص: فأثبت له جميـع ذلك المعنى الكامل الذي أثبته سبحانه لنفسه، ونزِّهه عن كل ما نزه نفسه عنه.

وكذلك إذا مر بك خبر عن رسله وكتبه، واليوم الآخر، وعن جميـع الأمور السابقة واللاحقة، فاجزم جزماً لا شك فيه أنه على حقيقته، بل هو أعلا أنواع الحق والصدق

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٢]

وَ﴿ . . . حَدِيثًا﴾ [سورة النساء: الآية ٨٧]

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلى جميـع الأمة. وكذلك في النهي.

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصل كل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل كل الشر والخسران.

فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله والقيام بها. والقرآن قد جمـع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها، بأوضـح الألفاظ، وأحسنها؛ قال تعالى:

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

يوضـح ذلك ويبينه، وينهج طريقته:

القاعدة الثالثة

الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق، بحسب ما دخلت عليه. وقد نصى على ذلك أهل الأصول، وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان. فمثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾

إلى قوله تعالى

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

يدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوت والصدق إلى آخرها. وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رتب عليها من المغفرة والأجر العظيم .وبنقصانها ينقص، وبعدمها يفقد، وهكذا كل وصف رتب عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك كل وصف نهى الله عنه ورتب عليه وعلى الاتصاف به عقوبة وشراً ونقصاً، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور؛ وكذلك مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾

[سورة المعارج: الآيات ١٩ ـ ٣٥]

عام لجنس الإنسان. فكل إنسان هذا وصفه إلا من استثنى الله بقوله:

﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ـ إلى آخرها﴾ الآية ٢٢

كما أن قوله:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [سورة العصر: الآيتان ١ و٢]

دال على أن كل إنسان عاقبته ومآله إلى الخسار

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾

[سورة العصر: الآية ٣]

وأمثال ذلك كثير.

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنى، فإن في القرآن منها شيئاً كثيراً، وهي أجل علوم القرآن، بل هي المقصد الأول للقرآن.

فمثلاً يخبر الله عن نفسه: أنه الرب الحي القيوم، وأنه الملك والعليم والحكيم، والعزيز والرحيم، والقدوس السلام، والحميد المجيد.. فالله هو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها، وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها له، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يشارك الله أحد في معنى من معاني الربوبية:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١]

لا بشر ولا ملك، بل هم جميعاً عبيد مربوبون لربهم بكل أنواع الربوبية، مقهورون خاضعون لجلاله وعظمته؛ فلا ينبغي أن يكون أحد منهم نِدًّا، ولا شريكاً لله في عبادته وإلهيته. فبربوبيته سبحانه يربى الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم: خلقاً ورزقاً وتدبيراً وإحياءً وإماتة. وهم يشكرونه على ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده، فيؤلهونه ولا يتخذون من دونه وليًا ولا شفيعاً. فالإلهية حق له سبحانه على عباده بصفة ربوبيته، وأنه الملك الذي له جميع معاني الملك . وهو الملك الكامل والتصرف النافذ. وأن الخلق كلهم مماليك لله، عبيد تحت أحكام ملكه القدرية والشرعية، والجزائية، وأنه العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي أحاط علمه بالبواطن والظواهر والخفيات والجليات والواجبات والمستحيلات والجائزات، والأمور السابقة واللاحقة والعالم العلوي والسفلي والكليات والجزئيات. وما يعلم الخلق وما لا يعلمون:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥]

وأنه الحكيم الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه وقدره وخلقه، وجميع ما شرعه؛ لا يخرج عن حكمته، لا مخلوق ولا مشروع.

وأنه العزيز الذي له جميع معاني العزة على وجه الكمال التام من كل وجه، عزة القوة وعزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وأن جميع الخلق في غاية الذل ونهاية الفقر، ومنتهى الحاجة والضرورة إلى ربهم، وأنه الرحمن الرحيم، الذي له جميع معاني الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يخل مخلوق من إحسانه وبره طرفة عين. تبلغ رحمته حيث يبلغ علمه:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [سورة غافر: الآية ٧]

وأنه القدوس السلام، المعظم المنزَّه عن كل عيب وآفة ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له نِدٌّ من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى، اِعتبِرْها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من أبواب معرفة الله. بل أصل معرفة الله تعالى معرفة ما تحتوي عليه اسماؤه الحسنى، وتقتضيه من المعاني العظيمة، بحسب ما يقدر عليه العبد، وإلا فلن يبلغ علم أحد من الخلق بذلك، ولن يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾

[سورة المائدة: الآية ٢]

يشمل جميع أنواع البر والخير،وتشمل التقوى جميع ما ينبغي ويلزم اتقاؤه من أنواع المخوفات والمعاصي والمحرمات؛ والإثم: اسم جامع لكل ما يؤثم، ويوقع في المعصية؛ كما أن العدوان اسم جامع يدخل فيه جميع أنواع التعدِّي على الناس في الدماء والأموال والأعراض، والتعدِّي على مجموع الأمة وعلى الحكومات والتعدي لحدود الله.

و«المعروف» في القرآن: اسم جامع لكل ما عرف حسنه وجماله شرعاً وعقلاً، وعكسه: المنكر والسوء والفاحشة.

وقد نبه النبي ﷺ أمته إلى هذه القاعدة، وأرشدهم إلى اعتبارها، إذ علمهم أن يقولوا في التشهُّد في الصلاة «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فقال: «فإنكم إذا قلتم ذلك سلمتم على كل عبد لله صالح من أهل السماء والأرض». وفي القرآن كثير جداً من هذا.

القاعدة الرابعة

إذا وقعت النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام: دلت على العموم. كقوله تعالى:

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة النساء: الآية ٣٦]

فإنه نهى عن الشرك به في النِّيات، والأقوال والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر والخفيّ، والجليّ. فلا ينبغي أن يجعل العبد لله نِدًّا ومشاركاً في شيء من ذلك.

ونظيرها قوله:

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢]

وقوله في وصف يوم القيامة:

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة الأنفطار: الآية ١٩]

يعُمُّ كلَّ نفس، وأنها لا تملك في هذا اليوم شيئاً من الأشياء، لأي نفس أخرى، مهما كانت الصلة، لا إيصال شيء من المنافع، ولا دفع شيء من المضار. وكقوله تعالى:

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [سورة يونس: الآية ١٠٧]

فكل ضُرٍّ قدره الله على العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كائناً من كان كشفه بوجه من الوجوه.

ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية: إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.

وقوله:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢]

وقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٣].

يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب، أو دفع مكروه، فإن الله هو المنفرد بذلك وحده.

وقوله: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ ﴾ [سورة فاطر: الآية ٣]

وإذا دخلت «من» صارت نصًّا في العموم، كهذه الآية:

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [سورة الحاقَّة: الآية ٤٧].

وقوله في غير آية:

﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٩]

ولها أمثلة كثيرة جداً.

القاعدة الخامسة

المقرر: أن المضاف يفيد العموم، كما يفيد ذلك اسم الجمع.

فكما أن قوله تعالى:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ـ إلى آخرها ـ ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٣]

يشمل كل أمٍّ انتسبْتَ إليها، وإن علت، وكل بنت انتسبت إليك وإن نزلت ــ إلى آخر المذكورات، فكذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٣]

فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية؛ وقوله:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[سورة الأنعام :الآية ١٦٢]

فإنها تعم الصلوات كلها، والأنساك كلها. وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته، الجميع من الله فضلاً وإحساناً، وأنك قد أتيت ما أتيت منه واوقعته وأخلصته لله وحده. لا شريك له.

وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥]

على أحد القولين: أنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحج: اتَّخِذُوه معبداً.

وأصرح من هذا قوله:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٣]

وهذا شامل لكل ما كان عليه إبراهيم من التوحيد والإخلاص لله تعالى، والقيام بحق العبودية.

وأعم من ذلك وأشمل: قوله تعالى لما ذكر الأنبياء:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠]

فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى، الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدي المستقيم. وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف: أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد

شرعنا بخلافه، وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه. وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣]

وهذا يعم جميع ما شرعه لعباده، فعلاً وتركاً، اعتقاداً وانقياداً، وأضافه إلى نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصبه لعباده. كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله:

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٧]

لكونهم هم السالكين له. فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين الذي كانوا دائمين عليه من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال؛ وكذلك قوله:

﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [سورة الكهف: الآية ١١٠]

يدخل في ذلك جميع العبادات الظاهرة والباطنة، العبادات الاعتقادية والعملية، كما أن وصف الله لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلى الله كقوله:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١]

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣]

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [سورة الفرقان: الآية ١]

تدل على أنه وفّى جميع مقامات العبودية، حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية. وقوله:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتم، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.

وقوله: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٠]

وقوله: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾
[سورة النحل: الآية ٤٠]

يشمل جميع أوامره القدرية الكونية. وهذا في القرآن شيء كثير.

القاعدة السادسة

في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده

القرآن كله لتقرير التوحيدِ ونفي ضده. وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الإلٰهية وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له؛ ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعو قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه، وأن الكتب والرسل، بل الفِطَر والعقول السليمة كلها اتفقت على هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها، وأن من لم يدن بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده، فعمله باطل:

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٥]

﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٨]

ويدعو العباد إلى ما تقرر في فِطَرِهم وعقولهم من أن الله المنفرد بالخلق والتدبير، والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة: هو الذي يستحق العبادة وحده. ولا ينبغي أن يكون شيء منها لغيره. وأن سائر الخلق ليس عندهم أي قدرة على خلق، ولا نفع ولا دفع ضر عن أنفسهم فضلاً عن أن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئاً.

ويدعوهم أيضاً إلى هذا الأصل بما يتمدح به، ويثني على نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة والمجد، والجلال والكمال وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحق من أخلصت له القلوب والأعمال الظاهرة والباطنة.

ويقرر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده. فلا يحكم غيره شرعاً ولا جزاء:

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٠].

وتارة يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعاً وعقلاً وفِطرة، على جميع العبيد. ويذكر مساوىء الشرك وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضل من الأنعام سبيلاً.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات الشرك والله أعلم.

القاعدة السابعة

في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد ﷺ

هذا الأصل الكبير: قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ؛ فأخبر أنه صدق المرسلين، ودعا إلى ما دَعَوْا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد ﷺ، وما نزهوا عنه من النقائص والعيوب، فرسولنا محمد أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه. وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب. فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف، لم توجد في غيره. وقرر نبوته بأنه أميّ، لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحداً من أهل العلم بالكتب السابقة، بل لم يفجأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب، الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أتوا

ولا قدروا، ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون قد تقوَّله على ربه، أو أن يكون على الغيب ظنيناً.

وأعاد في القرآن وأبدى في هذا النوع، وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة على الوجه الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد ثم يخبر تعالى: أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطولة:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾

[سورة القصص: الآية ٤٤]

ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال:

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٢].

فهذه الأمور والإخبارات المفصلة التي يفصلها الرسول بما أوحي إليه تفصيلاً، صحح به أكثر الأخبار والحوادث التي كانت في كتب أهل الكتاب محرفة ومشوهة بما أضافوا إليها من خرافات وأساطير، حتى ما يتعلق منها بعيسى وأمه وولادتها ونشأتها، وبموسى وولادته ونشأته، كل ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهل الكتاب على حقيقته حتى جاء القرآن. فقص ذلك على ما وقع وحصل. مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم، وأخرس ألسنتهم حتى لم يقدر أحد منهم ممن كان في وقته، ولا ممن كانوا بعد ذلك ــ أن يكذبوا بشيء منها، فكان ذلك من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً.

وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله، وتمام قدرته. وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض هو مقتضى حكمة ورحمة العزيز الحكيم. وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله، وفي قدرته، وفي رحمته، بل وفي ربوبيته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبي على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده. كما هو ظاهر للمتأملين.

وتارة يقرر نبوته بما جمع له وكلمه به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عال سام فلرسول الله ﷺ أعلاه وأكمله.

فمن عظمت صفاته، وفاقت نعوته جميع الخلق، التي أعلاها: الصدق والأمانة، أليس هذا أكبر الأدلة على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟

وتارة يقررها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين، إما باسمه اللقب أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمته وأوصاف بيئته. كما في قوله تعالى:

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [سورة الصف: الآية ٦].

وتارة يقرر رسالته بما أخبره به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة، التي وقعت في زمان، مضى على زمانه، أو وقعت في زمانه والتي لا تزال تقع في كل وقت؛ فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا كان له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

وتارة يقررها بحفظه إياه وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه، وجدهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم. والله يعصمه ويمنعه منهم وينصره عليهم. وما ذاك إلا لأنه رسوله حقًا، وأمينه على وحيه والمبلغ ما أمر به.

وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به، وهو القرآن الذي:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾
[سورة فصلت: الآية ٤٢]

ويتحدى أعداءه ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة، فعجزوا ونكصوا وباءوا بالخيبة والفشل. وهم أهل اللسن المبرِّزون في

ميدان القول والفصاحة، ومع ذلك ما استطاعوا ـ مع شدة حرصهم ومحاولتهم ـ أن يأتوا بسورة منه، وما استطاعوا ولا قدروا ـ مع شدة حرصهم ومحاولتهم ـ أن يجدوا فيه نقصاً أو عيباً ينزل به عن أعلى درجات الفصاحة التي ملكت أزمة قلوبهم فلجأوا إلى السيف وإراقة دمائهم، وما كانوا يعمدون إلى هذا لولا أنهم لم يجدوا سبيلاً إلى محاربته بالقول، وما كانوا يزعمونه عندهم علوماً وحِكماً فكان عدولهم إلى السيف وإراقة الدماء أكبر الأدلة على صدق الرسول، وأنه لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى، وأقطع البراهين على أنه الحق والهدى من عند الله الذي جمع الله فيه لرسوله وللمؤمنين به كل ما يكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة في كل شؤونهم. وأن هذا القرآن لأكبر أدلة رسالته وأجلها وأعمها.

والله تعالى يقرر أن القرآن كاف جداً أن يكون هو الدليل الوحيد على صدق رسوله ﷺ في مواضع عدة. منها قوله:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٥١].

وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات، الدال كل واحد منها بمفرده ـ فكيف إذا اجتمعت ـ على أنه رسول الله الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وتارة يقررها بعظيم شفقته ﷺ على الخلق، وحنوه الكامل على أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم. وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا برًّا وإحساناً إلى الخلق منه. وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة، ومعانٍ مفصلة وأساليب عجيبة. وأمثلتها تفوق العد والإحصاء. والله أعلم.

القاعدة الثامنة

طريقة القرآن في تقرير المعاد

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها وهي: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد، وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه الكريم. وقرره بطرق متنوعة.

منها: إخباره ـ وهو أصدق القائلين ـ عنه، وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى، مع إكثار الله من ذكره. فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه، كقوله:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [سورة القيامة: الآية ١].

ومنها الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء. فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها تذكيره للعباد بالنشأة الأولى، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً، لا بد أن يعيدهم كما بدأهم. وأن الإعادة أهون عليه. وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرض الهامدة الميتة، بعد موتها. وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك. وهو خلق السموات والأرض، والمخلوقات العظيمة. فمتى أثبت المفكرون ذلك، ولن يقدروا على إنكاره، فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتى؟ وقرر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين، لا يؤمرون ولا يُنْهَوْنَ، ولا يثابون ولا يعاقبون. وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضية والقرون الغابرة. وكيف نجَّى الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث؟ ونوع عليهم

العقوبات؟ وأحل بهم المثلات، فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده، ليهلك من هلك عن بيِّنة، ويحيـي من حيًّا عن بينة.

ومن ذلك: ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا، كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل. والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشهـا، وقصّة إبـراهيم الخليل والـطيور، وإحيـاء عيسى ابن مريم للأموات، وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار، ليعلموا أنه قويّ ذو اقتدار، وأن العباد لا بد أن يردوا دار القرار. إما الجنة أو النار.

وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة. والله أعلم.

القاعدة التاسعة

في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن، أي بأقرب طريق، موصلٍ للمقصود محصِّل للمطلوب. ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية، هي أحسنها وأقربها.

فأكثر ما يدعوهم إلى الخير، وينهاهم عن الشر بالوصف الذي منَّ عليهم به. وهو الإيمان. فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، اتركوا كذا. لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحث على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه ومكمِّلاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خلق حميد، والتجنب لكل خلق رذيل.

فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي، ولهذا أجمـع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميـع شرائـع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة، من الكتاب والسنة ــ وهذا أحدها، حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله: «يا أيها الذين آمنوا» أو يعلق فعل ذلك على الإيمان وأنه لا يتم الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني: أن يدعوهم بقوله: «يا أيها الذين آمنوا» افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة، التي هي أجل المنن، أي: يا من منَّ الله عليهم بالإيمان، قوموا بشكر هذه النعمة، بفعل كذا، وترك كذا.

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطنة.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر. وهو الانقياد التام لأمره ونهيه. وتارة يدعو المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة، وأن النعم تقتضي منهم القيام بشكرها. وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب، وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى، وما له من الحق العظيم على عباده، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً ويتعبدوا له وحده، ويدعوه بأسمائه الحسنى، وصفاته المقدسة.

فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير وإجلال وإكرام، وتودُّد إليه، وتقرب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك، لأجل أن يتخذوه وحده وليًّا وملجأ، وملاذاً ومعاذاً، ومَفْزَعاً إليه في الأمور كلها، وينيبوا إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليته الخاصة تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنِّيه ويغرُّه. حتى يفوِّته المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك.

وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثهم على ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المبدلة. لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام. كقوله:

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٩٥].

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [سورة ؛الأنعام: الآية ٥٢]

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٥].

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾
[سورة الحديد: الآية ١٦]

إلى غير ذلك من الآيات.

القاعدة العاشرة

في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم

يدعوهم إلى الإسلام، والإيمان بمحمد ﷺ، بما يضعه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالة محمد ﷺ ليهتدي من قصد الحق، والإنصاف، وتقوم الحجة على المعاند.

وهذه أعظم طريق يدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام.

فإن محاسن دين الإسلام ومحاسن النبي ﷺ وآياته وبراهينه فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبهتهم، وما يحتجون به. فإن الحق إذا اتضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال.

ويدعوهم بما يخوفهم من أحداث الأمم وعقوبات الدنيا والآخرة، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة. وأنها إنما تقوم على الغفلة والتكذيب لآيات الله الكونية والعلمية بالوقوع تحت سلطان الجهل والتقليد الأعمى للآباء والشيوخ والسادة؛ ويحذرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء فإنهم

رؤساء الشر، ودعاة النار، وأنهم لا بد أن تقتطع نفوسهم على ما عملوه وقدموه حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول. ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصداقتهم وموالاتهم ستتبدل بغضاء وعداوة.

ويدعوهم أيضاً بنحو ما يدعو المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته، وامتثال أمره، واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضاً بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح، ويقارن بينها وبين دين الإسلام، ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره، وما يتعين اختياره، ويدعوهم بالتي هي أحسن. فإذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعدهم بالعقوبات الصوارم. وبين للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلاً وضلالاً، أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف؛ وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد.

ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى. وأنها رياسات وأغراض نفسية، وأنهم لما آثروا الباطل على الحق طبع على قلوبهم، وختم عليها، وسد عليهم طرق الهدى: عقوبة لهم على إعراضهم وتوليهم الشيطان، وإعراضهم عن الرحمن. وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم. وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة.

فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية والله أعلم.

القاعدة الحادية عشرة

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه، مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني، التي لم يعرج في اللفظ على ذكرها.

وهذه القاعدة: من أجلِّ قواعد التفسير، وأنفعها. وتستدعي قوة فكر،

وحسن تدبر وصحة قصد. فإن الذي أنزله للهدى والرحمة. هو العالِمُ بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكنُّ الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه.

ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دلّ عليه اللفظ من المعاني. فإذا فهمتها فهماً جيِّداً، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها. وأَكْثِرْ من هذا التفكير وداوم عليه، حتى يصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة. فإن القرآن حق. ولازم الحق حق. وما يتوقف على الحق حق. وما يتفرع عن الحق حق. ذلك كله حق ولا بدّ.

فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقاً ونوراً انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجلية والأخلاق السامية والآداب الكريمة العالية.

ولنمتثل لهذا الأصل أمثلة توضحه.

منها: في أسماء الله الحسنى «الرحمن الرحيم» فإنها تدل بلفظها على وصفه بالرحمن، وسعة رحمته.

فإذا فهمت أنّ الرحمة التي لا يشبهها رحمة: هي وصفة الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين: عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته، وكمال قدرته وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته. لتوقف الرحمة على ذلك كله. ثم استدللت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة. ولهذا يعلل الله تعالى كثيراً من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها.

منها قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨]

فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلى أهلها: استدللت بذلك على وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها، وأنك لا تنال رضا الله إلا بأدائها لأهلها.

وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل استدللت بذلك على كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار، لا بد أن يكون عالماً بما يحكم به: فإن كان حاكماً عامًّا، فلا بد أن يحصل من العلم ما يؤهله لذلك. وإن كان حاكماً ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين، حيث أمر الله أن نبعث حَكَماً من أهله وحَكَماً من أهلها، فلا بد أن يكون عارفاً بهذه الأمور التي يريد أن يحكم فيها، ويعرف الطريق التي توصله إلى الصواب منها.

وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد؛ فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور كثيرة.

ومن المعلوم: أن امتثال أمره واجتناب نهيه: يتوقف على معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه. فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمر الذي لا يعرفه، أو يتجنب الأمر الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمره لعباده: أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر. ليأمروا بهذا، وينهوا عن هذا. فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وما لا يحصل ترك المنهى عنه إلا به فهو واجب.

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به. والعلم بضد ذلك متقدم على تركه، لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصداً وتقرباً وتعبُّداً حتى يعرفه ويميزه عن غيره.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد، والحث عليه. من لازم ذلك الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به: من تعلم الرمي بكل ما يرمى به والركوب لكل ما يركب، وعمل آلاته وصناعاته. مع أن ذلك كله داخل دخول مطابقة في قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

فإنها تتناول كل قوة عقلية وبدنية، وسياسية وصناعية ومالية، ونحوها.

ومن ذلك أن الله استشهد بأهل العلم على توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته. وهذا يدل على عدالتهم وأنهم حجة من الله تعالى على من كذب بمنزلة آياته وأدلته.

ومن ذلك: أن سؤال عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم للمتقين إماماً: يقتضي سؤالهم الله جميع ما تتم به الإمامة في الدين: من علوم ومعارف جليلة، وأعمال صالحة وأخلاق فاضلة. لأن سؤال العبد لربه شيئاً سؤالٌ له ولما لا يتم إلّا به. كما إذا سأل العبدُ اللّهَ الجنةَ، واستعاذ به من النار: فإنه يقتضي سؤاله كل ما يقرِّب إلى هذه ويبعد من هذه.

ومن ذلك: أن الله أمر بالصلاح والإصلاح. وأثنى على المصلحين. وأخبر أنه لا يصلح عمل المفسدين. فيستدل بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم، وكل أمر يُعين على ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه؛ وأن كل فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد، كما قال شعيب ﷺ:

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٣]

و ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٥]

يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به، والأمر بكل ما فيه حث وتحريض على القتال وما يتوقف على ذلك، ويتبعه من الاستعداد والتمرن على أسباب الشجاعة والسعي في القوة المعنوية من التآلف واجتماع الكلمة، ونحو ذلك.

ومن ذلك: الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية، والتذكير بها، وتعليمها. فإن كل أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلى المكلَّفين يدخل في ذلك، حتى

إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية، ووجدت أسبابها، وكانت تخفى عادة على أكثر الناس، كثبوت الصيام، والفطرة، والحج وغيره بالأهلة إبلاغها بالأصوات والرمي، وإبلاغها بما هو أبلغ من ذلك، كالبرقيات ونحوها. وكذلك يدخل فيه كل ما أعان على إيصال الأصوات إلى السامعين، من الآلات الحادثة، فحدوثها لا يقتضي منعها. فكل أمر ينفع الناس فإن القرآن لا يمنعه، بل يدل عليه لمن أحسن الاستدلال والانتفاع به.

وهذا من آيات القرآن، وأكبر براهينه أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقض شيئاً منه؛ فإنه يرد بما تشهد به العقول جملة وتفصيلا؛ ويرد بما لا تهتدي إليه العقول.

وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة وتمنعه، فهذا محال. والحس والتجربة شاهدان بذلك. فإنه مهما توسعت الاختراعات وعظمت الصناعات، وتبحرت المعارف الطبيعية، وظهر للناس في هذه الأوقات ما كانوا يجهلونه قبل ذلك: فإن القرآن ولله الحمد لا يخبر بإحالته، بل نجد بعض الآيات فيها إجمال أو إشارات تدل عليه.

وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في غير هذا الموضع، والله أعلم وأحكم وبالله التوفيق.

القاعدة الثانية عشرة

الآيات القرآنية التي يفهم منها قصار النظر التعارض: يجب حمل كل نوع منها على ما يليق ويناسب المقام كل بحسبه.

وهذا في مواضع متعددة من القرآن.

منها: الإخبار في بعض الآيات: ان الكفار لا ينطقون، ولا يتكلمون يوم القيامة. وفي بعضها: أنهم ينطقون ويحاجون ويعتذرون، ويعترفون. فمجمل كلامهم ونطقهم: أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر ويقسمون على ذلك. ثم إذا ختم على ألسنتهم وأفواههم،

وشهدت عليهم جوارحهم بما كانوا يكسبون، ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم، أخرسوا فلم ينطقوا.

وكذلك الإخبار بأن الله تعالى لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة مع أنه أثبت الكلام لهم معه. فالنفي واقع على الكلام الذي يسرهم، ويجعل لهم نوع اعتبار.

وكذلك النظر والإثبات واقع على الكلام الواقع بين الله وبينهم، على وجه التوبيخ لهم والتقريع. فالنفي يدل على أن الله ساخط عليهم، غير راض عنهم. والإثبات يوضح أحوالهم ويبين للعباد كمال عدل الله بهم. إذ هو يضع العقوبة موضعها.

ونظير ذلك: أن في بعض الآيات أخبر أنه لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان؛ وفي بعضها: انه يسألهم:

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٩٢].

و ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٥].

ويسألهم عن أعمالهم كلها.

فالسؤال المنفي: هو سؤال الاستعلام.. والاستفهام عن الأمور المجهولة. فإنه لا حاجة إلى سؤالهم، مع كمال علم الله واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم وجليل أمورهم ودقيقها.

والسؤال المثبت: واقع على تقريرهم بأعمالهم، وتوبيخهم وإظهار أن الله حكم فيهم بعدله وحكمته.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يوم القيامة. وفي بعضها: أثبت لهم ذلك. فالمثبت هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بين الناس كقوله:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾

[سورة عبس: الآيات ٣٤ ــ ٣٦].

والمنفي: هو الانتفاع بها. فإن الكفار يدَّعون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة: فأخبر تعالى أنه:

﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[سورة الشعراء: الآيتان ٨٨ و ٨٩]

ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أن النسب نافع يوم القيامة، كما في إلحاق ذرية المؤمنين بآبائهم في الدرجات، وإن لم يبلغوا منزلتهم؛ وأن الله يجمع لأهل الجنات والدرجات العالية مَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. فهذا لما اشتركوا في الإيمان، وأصل الصلاح: زادهم من فضله وكرمه، من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئاً.

ومن ذلك: الشفاعة؛ فإنه أثبتها في عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيَّدها في بعض المواضع بإذنه ولمن ارتضى من خلقه. فتعين حمل المطلق على المقيد. وأنها حيث نفيت فهي الشفاعة التي بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله وعمله. وحيث أثبتت، فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه.

ومن ذلك: أن الله أخبر في آيات كثيرة: أنه لا يهدي القوم الكافرين، والفاسقين، والظالمين، ونحوها.

وفي بعضها: أنه يهديهم ويوفقهم. فتعين حمل المنفيات على من حقت عليه كلمة الله. لقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾

[سورة يونس: الآيتان ٩٦ و ٩٧]

وحمل المثبتات على من لم تحق عليهم الكلمة.

وإنما حقت كلمة الله بالعذاب والطرد على من ارتكسوا في حمأة التقليد وغرقوا في بحر الغفلة، وأبوا أن يستجيبوا لداعي آيات الله الكونية والعلمية:

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصف: الآية ٥]

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد: الآية ١٧]

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أنه العلي الأعلى، وأنه فوق عباده وعلى عرشه. وفي بعضها: أنه مع العباد، أينما كانوا، وأنه مع الصابرين والصادقين والمحسنين، ونحوهم؛ فعلوُّه تعالى أمر ثابت له، وهو من لوازم ذاته.

ودنوه، ومعيته لعباده: لأنه أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد؛ فهو على عرشه عليٌّ على خلقه، ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم. ولا منافاة بين الأمرين، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته. وما يتوهم بخلاف ذلك فإنه في حق المخلوقين.

وأما تخصيص المعية بالمحسنين ونحوهم، فهي معية أخص من المعية العامة، تتضمن محبتهم وتوفيقهم، وكلاءتهم، وإعانتهم في كل أحوالهم، فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فهي من هذا النوع، وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب فهي من النوع الأول.

ومن ذلك: النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين وعن موادتهم والاتصال بهم، وفي بعضها الأمر بالإحسان إلى من له حق على الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين والجار، ونحوهم.

فهذه الآيات العامات من الطرفين، قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [سورة الممتحنة: الآيتان ٨ و٩]

فالنهي واقع على التولِّي. والمحبة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبر، واقع على الإحسان لأجل القرابة أو لأجل الجيرة أو الإنسانية على وجه لا يخل بدين الإنسان.

ومن ذلك: أنه أخبر في بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات. وفي بعضها أنه لما أخبر عن خلق السموات، أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها.

فهذه الآية تفسر المراد، وأن خلق الأرض متقدم على خلق السموات. ثم لما خلق الله السموات بعد ذلك دحا الأرض فأودع فيها جميع مصالحها المحتاج إليها سكانها.

ومن ذلك: أنه تارة يخبر أنه بكل شيء عليم، وتارة يخبر بتعلق علمه ببعض أعمال العباد، وببعض أحوالهم؛ وهذا الأخير فيه زيادة معنى، وهو يدل على المجازاة على ذلك العمل، سواء كان خيراً أو شراً، فيتضمن مع إحاطة علمه الترغيب والترهيب.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة، وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي، والإخلاد إلى السكون؛ فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة، ولا قدرة على الجهاد باليد. والآيات الأخرى حين قووا وصار ذلك عين المصلحة، والطريق إلى قمع الأعداء.

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلى أسبابها التي وقعت وتقع بها، وتارة يضيفها إلى عموم قدره، وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته، ومشيئته. فيفيد مجموع الأمرين إثبات التوحيد، وتفرد الباري بإيقاع الأشياء بقدرته ومشيئته وإثبات الأسباب والمسببات والأمر بالمحبوب منها، والنهي عن المكروه، وإباحة مستوى الطرفين، فيستفيد المؤمن الجد والاجتهاد في الأخذ بالأسباب النافعة، وتدقيق النظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله، وأن لا يتكل على نفسه في أمر من الأمور بل يتكل على الله ويستعين بربه.

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة فمن الله، وما أصاب من سيئة

فمن نفسه، ليعرف عباده أن الخير والحسنات والمحابَّ تقع بمحض فضله، وجوده، وإن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد. فإنه هو الذي أنعم بالأسباب وهو الذي يسَّرها، وأن السيئات ـ وهي المصائب التي تصيب العبد ـ فإنما أسبابها من نفس العبد، وبتقصيره في حقوق ربه، وتعديه لحدوده. فالله، وإن كان هو المقدر لها، فإنه قد أجراها على العبد بما كسبت يداه. ولهذا أمثله يطول عدها.

القاعدة الثالثة عشرة

طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن. ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها من أوضح الحجج، وأقواها، وأقومها، وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، على وجهٍ لا تشويش فيه، ولا إزعاج.

فتأمل محاجة الرسل مع أممهم وكيف دعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المنفرد بالربوبية، والمتوحد بالنعم. وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم. وأن أحداً من الخلق ليس يقدر على رفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع، فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافه به لا بد أن ينقاد للدين الحق، الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها.

وكثيراً ما يحتج على المشركين في شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء، فيتعين أن يكون هو المعبود وحده.

فانظر إلى هذا البرهان، كيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلى أنه لا تنبغي العبادة إلا لمن هذا شأنه. ذلك أن آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له.

ويجادل المبطلين أيضاً بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغني عن نفسها فضلاً عن عابديها شيئاً.

ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ الذي جاء مصدِّقاً لما سبقه من الرسالات التي مقصدها جميعها واحد، وهو فك أغلال التقليد عن قلوب بني آدم لينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكر في آيات ربهم، فيعرفوا بذلك أنه الإلّه الحق، وأن كل ما اتخذه الناس بوحي شياطين الإنس والجن من آلهة، فلا يخرج شيء منها عن أن يكون أثراً من آثار هذه الآيات، وأنها لذلك لا تليق بأي وجه لمشاركة ربها وخالقها في الآلهية، ولا ينبغي أن تعطى إلا حقها في المخلوقية والعبودية.

وأن الخالق الذي ليس كمثله شيء هو المستحق لكل أنواع العبادة، وأن لا يعبد إلا بما أحب وشرّع.

وينقُضُ على رؤساء المشركين ودعاة الباطل دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم بالزور، ببيان ما يضادُّ ذلك من أحوالهم وأوصافهم ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه، وأن صدق رسوله محمد ﷺ وحقيقة هذا تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له. فماذا بعد الصدق إلا الكذب؟ وبعد الحق إلّا الضلال؟

وهذا الأصل في القرآن كثير. فإنه يفيد في الدعوة للحق، ورد كل باطل ينافيه.

ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق، العبد الفقير العاجز من كل وجه، شيئاً من حقوق الرب الخالق الغني، الكامل من جميع الوجوه.

ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذا الكتاب ومن هذه الشريعة. وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين.

ويأمر نبيه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكصون عنها، لعلمهم أنه رسول الله الصادق، الذي لا ينطق عن الهوى وأنهم لو باهلوه لهلكوا.

وفي الجملة لا تجد طريقاً نافعاً فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن على أكمل الوجوه.

القاعدة الرابعة عشرة

حذف المتعلق المعمول فيه: يفيد تعميم المعنى المناسب له

وهذه قاعدة مفيدة جدًّا، متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة.

وذلك أن الفعل وما هو معناه متى قيد بشيء تقيد به. فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم. ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيراً من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة.

ولذلك أمثلة كثيرة جدًّا:

منها: أنه قال في عدة آيات:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة النور: الآية ٦١]

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٢]

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١]

فيدل ذلك على أن المراد: لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علَّمَكُمُوه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة. ولعلكم تذكرون، فلا تنسون ولا تغفلون، فتكونون دائماً متيقظين مرهفي الحواس، تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية. ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من الغفلة والجهل والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصي. ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام.

ولهذا كان قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٣]:

يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي لعلكم تتقون المحارم عموماً، ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين من قول الزور والعمل به، ومن كل الأحوال والصفات السيئة الخبيثة، وتتقون وتتجنبون المفطرات والممنوعات، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهـون، وتتخلقون بأخلاقها. وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ مثل قوله:

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١]

أي المتقين لكل ما يتقى مما يقتل الإنسانية الكريمة من الغفلة والجهل والتقليد والكفر والفسوق والعصيان، المتقين الآخذين بكل أسباب القوة على شكر الله بأداء الفرائض والنوافل التي هي خصال التقوى.

وكذلك قوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١]

أي إن الذين كانت التقوى وصفهم، واليقظة والتدبر لسنن الله وآياته حالهم، وترك المحارم شعارهـم، متى زين لهم الشيطان بعض الذنوب ولبَّس عليهم الطريق، وحاول تخديرهم بالشبهات أو الشهوات ـ تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلى المتاب إجلالاً لعظمة الله وما يقتضيه، وحرصاً على نعم الله، والهدى والإيمان وما توجبه التقوى. وتذكروا عقابه ونكاله، وتـذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص، وما تسلبه من الكمالات. فإذا هم مبصرون من أين أُتوا، مبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه. فبادروا بالتوبة النَّصوح والرجوع إلى صراط الله المستقيم. فعادوا إلى مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئاً مدحوراً.

وكذلك ما ذكره على وجه الإطلاق عن المؤمنين بلفظ «المؤمنين» وبلفظ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة الأنفعال: الآية ٧٢]

ونحوها فإن حقيقة معنى كلمة «إيمان» التصديق الحاصل عن علم وفهم وفقه لمن يكون منه هذا الإيمان بأي شيء، يوجب له ولا بد إذعاناً وانقياداً لما يدعو إليه هذا الإيمان بذلك الشيء. ومن ذلك قول إخوة يوسف لأبيهم:

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [سورة يوسف: الآية ١٧]

فإذا فهمت هذا علمت أن الإيمان يقصد منه في القرآن: الإيمان بسنن الله وآياته في الأنفس وفي الآفاق، والإيمان بنعم الله وآلائه، وأنها من العليم الحكيم. الذي ما خلق شيئاً لعباً ولا باطلاً، ولا أنزل ولا شرع شيئاً لعباً ولا باطلاً، وأن كل ذلك بالحق الثابت الذي لن يتغير ولن يتبدل ـ فعرفت بذلك أنه يدخل فيه جميع ما يجنب الإيمان به من السنن والآيات الكونية والعلمية والأصول والعقائد والأعمال والأحكام مع أنه قيَّد ذلك في بعض الآيات مثل قوله:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]
ونحوها.

وكذلك ما أمر به من الصلاح والإصلاح، وما نهى عنه من الفساد والإفساد مطلقاً، يدخل فيه كل صلاح في الدنيا والدين كما يدخل في النهي كل فساد كذلك. وكذلك قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٣]

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٥]

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٦]

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٦٠].

يدخل في ذلك كله: الإحسان في سنن الله وآياته ونعمه وآلائه ليثمر ذلك الإحسان في عبادة الخالق بأن تعبد الله كأنَّك تراه. فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك.

والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان من قولٍ وفعل وجاه، وعلم ومال وغيرها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [سورة التكاثر: الآية ١]

فحذف المتكاثر به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة: من الرياسات والأموال والجاه والضيعات، والأولاد، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس الغافلة عن حكمة الله وسننه فيلهيها ذلك عن طاعة الله.

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [سورة العصر: الآيتان ١ و٢]

أي في خسارة لازمة من جميع الوجوه، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وقوله ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] و[سورة الأنبياء: الآية ٧]

فذكر المسؤولين وأطلق المسؤول عنه، ليعم كل ما يحتاج العبد أن يعلمه.

وكذلك أمره بالصبر ومحبته للصابرين وثنائه عليهم وبيان كثرة أجورهم، من غير أن يقيد ذلك بنوع، ليشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي: الصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله.

ومقابل ذلك ذمه للكافرين والظالمين والفاسقين والمشركين، والمنافقين، والمعتدين ونحوهم، من غير أن يقيده بشيء ليشمل ذلك جميع المعنى.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦]

ليشمل كل حصر ومنع. ومنه قوله:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٩]

ليعم كل خوف.

وقد يقيد ذلك ببعض الأمور فيتقيد به ما سبق الكلام لأجله.

وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر الأمثلة عليه لطالت. ولكن قد فتح لك الباب، فامش على هذا السبيل المفضي إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم.

القاعدة الخامسة عشرة

جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات، لتطمين القلوب، وزيادة الإيمان. وهذا في عدة مواضع من كتابه.

فمن ذلك: النصر. قال في إنزال الملائكة به: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٠]

وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٦].

وأعم من ذلك كله قوله:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾

[سورة يونس: الآيات ٦٢ ـ ٦٤]

وهي البشرى كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أراد لهم الخير، وأنهم من أوليائه وصفوته. فيدخل فيه: الثناء الحسن والرؤيا الصالحة. ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق للهدى والعلم والإيمان، والتيسير لليسرى، وتجنيبهم العسرى.

ومن ذلك: بل ألطفه أنه يجعل الشدائد مبشِّرات بالفرج والعسرَ مؤذِناً باليسر.

وإذا تأملت ما قصه عن أنبيائه وأصفيائه، وكيف إنه لما اشتدت بهم

الحال، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله؟ يأتيهم الجواب من لطف الله بهم، ومن إيمانهم به وبحكمته ورحمته، وأخذهم سبيل سننه التي جعلها أسباباً مؤدية إلى النصر، فيجيبهم الحق من كل ذلك:

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٤]

رأيت من ذلك العجب العجاب.

وقال تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [سورة الشرح: الآيتان ٥ و٦]

وقال ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» وأمثلة ذلك كثيرة. والله أعلم.

القاعدة السادسة عشرة

حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر، وشدته في مقامات الوعيد.

وذلك كقوله:

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾
[سورة السجدة: الآية ١٢]

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ﴾ [سورة سبأ: الآية ٥١]

﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾
[سورة البقرة: الآية ١٦٥]

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٠]

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢٧].

فحذف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذكره، ليدل على عظمة ذلك المقام، وأنه لهوله وشدته وفظاعتـه لا يمكن أن يعبر عنه بلفظ ولا أن يدرك بالوصف. مثله قوله تعالى:

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [سورة التكاثر: الآية ٥]

أي لو علمتم علم اليقين لما أقمتم على ما أنتم عليه من التفـريط والغفلة واللهو.

القاعدة السابعة عشرة

بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أفرد دل على المعنى العام المناسب له. وإذا قرن مـع غيره دل على بعض المعنى. ودل ما قرن معه على باقيه.

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة.

منها: الإيمان، أفرده وحده في آيات كثيرة، وقرنه مـع العمل الصالح، والصفات الكريمة في آيات كثيرة.

فالآيات التي أفرد فيها يدخل فيه جميـع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة. ولهـذا يرتب الله عليـه حصول الثـواب، والنجاة من العقـاب. ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره. وهـو عند السلف: قـول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح.

والآيات التي قرن فيها العمل الصالح: كقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٧]

يفسر الإيمان فيها بما في القلوب من المعـارف والتصديق، والاعتقـاد والإنابة. والعمل الصالـح: يفسر بالقيام بجميـع الشرائـع القولية والفعلية.

وكذلك لفظ «البر، والتقوى» فحيث أفرد البر دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أفردت التقوى؛ ولهذا يرتب الله على البر وعلى التقوى عند الإطلاق: الثواب المطلق، والنجاة المطلقة. كما يرتبه على الإيمان.

تارة يفسر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير وترك المعاصي. وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوى، كما في قوله:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾

[سورة آل عمران: الآيتان ١٣٣ و١٣٤]

إلى آخر ما ذكره من أوصاف المتقين، التي لا تتم حقيقة التقوى إلا بها.

وإذا جمع بين البر والتقوى مثل قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

كان «البر» اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة. وكانت «التقوى» اسماً جامعاً يتناول ترك جميع المحرمات. وكذلك لفظ «الإثم» و«العدوان» إذا اقترنا فُسِّر الإثم بالمعاصي التي بين العبد وبين ربه، والعدوان بالتجرِّي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. وإذا أفرد «الإثم» دخل فيه كل المعاصي التي تؤثم صاحبها، سواء كانت بينه وبين ربه، أو بينه وبين الخلق. وكذلك إذا أفرد «العدوان».

وكذلك لفظ «العبادة والتوكل» ولفظ «الاستعانة» إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهراً وباطناً. ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة. وإذا جمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣]

فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة. وفُسِّر التوكل باعتماد القلب على الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في حصولها.

وكذلك «الفقير والمسكين» إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر. كما في أكثر الآيات، وإذا جمع بينهما، كما في آية الصدقات وهي قوله:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠]

فسر الفقير بمن اشتدت حاجته، وكان لا يجد شيئاً، أو يجد شيئاً لا يقع منه موقعاً. وفسر «المسكين» بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك الألفاظ الدالة على تلاوة الكتاب والتمسك به وهو اتباعه، يشمل ذلك: القيام بالدين كله. فإذا قرنت معه الصلاة كما في قوله تعالى:

﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾

[سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٧٠]

كان ذكر الصلاة تعظيماً لها وتأكيداً لشأنها، وحثًّا عليها. وإلَّا فهي داخلة في الاسم العام، وهو التلاوة والتمسك به وما أشبه ذلك من الأسماء.

القاعدة الثامنة عشرة

في كثير من الآيات يخبر الله بأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. وفي بعضها: يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد، الموجبة للهداية أو الموجبة للإضلال، وكذلك حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره، وذلك في آيات كثيرة، فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء: يدل ذلك على كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء، وتدبير جميع الأمور، وأن خزائن الأشياء كلها بيده، يعطي ويمنع ويخفض ويرفع، فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك وأن يعلقوا أملهم ورجاءهم به وحده في حصول كل ما يحبُّون منها، ودفع كل ما يكرهون، وأن لا يسألوا أحداً غيره. كما

في الحديث القدسي «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم» إلى آخره.

وفي البعض الآخر: يذكر فيها أسباب ذلك، ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها فيسلكوا النافع ويدعوا الضار كقوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [سورة الليل: الآيات ٥ ــ ١٠]

يبين أن أسباب الهداية والتيسير إيمان العبد بحكمة ربه في سننه وخلقه وشرعه، وأخذه بهذه السنن وانقياده لأمره الشرعي، وأن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك.

وكذلك قوله تعالى في صفة القرآن:

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٦]

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦]

وقوله: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٠]

فأخبر أن الله يهدي بالقرآن من كان قصده حسناً ومن يرغب في الخير، واتبع رضوان الله؛ وأنه يضلُّ من فسق عن سنن الله الحكيمة، وتمرد على الله، وتولّى أعداءه من شياطين الإنس والجن، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين.

وكذلك قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف: الآية ٥]

وقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٠]

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسباب التي تُنال بها المغفرة والرحمة، والتي تحق بها كلمة العذاب، كقوله:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨٢]

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾
[سورة الأعراف: الآيتان ١٥٦ و١٥٧]

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾
[سورة الأعراف: الآية ٥٦]

وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٣]

ثم ذكر الأسباب التي تنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٨]

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
[سورة الأعراف: الآية ٢٠٤]

وأعمُّ من ذلك كله قوله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٣٢]

فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عموماً. وهذه الأسباب المذكورة خصوصاً. وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة وكلها راجعة إلى شيئين: التكذيب لله ورسوله، والتولِّي عن طاعة الله ورسوله، كقوله تعالى:

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۞ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۞ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [سورة الليل: الآيات ١٥ ـ ١٨]

وقوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

[سورة طه: الآية ٤٨]

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنها لزوم طاعة الله ورسوله والسعي الجميل في مناكب الأرض مع لزوم التقوى، كقوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

[سورة الطلاق: الآيتان ٢ و٣]

وانتظار الفرج والرزق كقوله تعالى:

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

وبكثرة الذكر والاستغفار:

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ٣]

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾

[سورة نوح: الآيتان ١٠ و١١]

فأخبر أن الاستغفار سبب يستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره. وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى؛ وأمثلة هذه القاعدة كثيرة قد عرفت طريقها، فالزمه.

القاعدة التاسعة عشرة

يختم الله الآيات بأسماء الله الحسنى، ليدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم.

وهذه القاعدة لطيفة نافعة. عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته، ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجل المعارف، وأشرف العلوم.

تجد آية الرحمة مختومة بصفات الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر.

ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات في هذا. ونشير إلى مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر، وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا. لأنها من أهم المهمات. ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها.

قال تعالى:

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩]

فذكر إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسموات يدل على إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرى:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة المُلْك: الآية ١٤]

فخلقه للمخلوقات وتسويتها على ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد: من أكبر الأدلة العقلية على علمه. فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

ولما ذكر كلام الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم له في ذلك. فلما خلق آدم وعلمه أسماء كل شيء مما جعله الله له وبين يديه، وعجزت الملائكة عن معرفتها وأنبأهم آدم بها:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾
[سورة البقرة: الآية ٣٢]

فاعترفوا لله بسعة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم ربهم في استخلافه آدم في الأرض التي خلقت له وهيئت لنزوله.

وفي هذا: أن الملائكة على عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومهم تضمحل بجانب علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلاّ منه. فختم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين، الدالَّين على علم الله بآدم، وما خلق له، وما خلق عليه، وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب على ذلك من المصالح المتنوعة: من أحسن المناسبات.

وأما قوله عن آدم:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

[سورة البقرة: الآية ٣٧]

وختمه كثيراً من الآيات بهذين الاسمين «التواب الرحيم» بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض من رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه، فمناسبة جليلة لكل أحد. وأنه لما كان هو التواب الرحيم، أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفقهم للأخذ بالأسباب التي ترجعهم إلى الفطرة السليمة التي يعرفون بها نعمة ربهم فيقدرونها ويشكرونها ويستجيبون لما يدعوهم بها إليه سبحانه، فيرجعون في كل شؤونهم وأمورهم إلى ربهم، فيفرح بهم ويزيدهم من فضله ويتوب عليهم. ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانياً حين قبل متابهم، وأجاب سؤالهم. ولهذا قال في الآية الأخرى:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٨]

أي أقبل بقلوبهم عليه. فإنه لولا توفيقه وجذب قلوبهم إلى ذلك بنعمه الكونية والعلمية لم يكن لهم سبيل إلى ذلك، حين استولت عليهم النفس الأمارة وركبها العدو المبين ببهيميَّتها وجهلها مطية فإنها لا تأمر إلاّ بالسوء والفحشاء، إلاّ من رحم ربك. فأعاذه من بهيميتها وجهلها ومن نزغات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كمال قدرته، وتفرده بالملك. فقال:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة البقرة: الآيتان ١٠٦ و ١٠٧]

وفي هذا ردٌّ على من أنكر النسخ كاليهود وإعلامٌ أن نسخه لما ينسخه هو من آثار قدرته وتمام ملكه وحكمته. فإنه تعالى يتصرف في عباده، ويحكم بينهم بأحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، وهي كلها بالحق والعدل والحكمة البالغة.

ولما قال:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥]

قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥].

أي واسع الفضل، وواسع الملك، جميع العالم العلوي والسفلي بعض ملكه. ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه بالأمور الماضية والمستقبلية، ومحيطٌ علمه بما في التوجه إلى القبلة من الحكمة، ومحيط علمه بنيات المستقبلين لكل جهة من الجهات إذا أخطأوا القبلة المعينة عن غير قصد ولا عمد فحيث ولى المصلِّي منهم فما قصد إلا وجه ربه.

وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٧]

فإنه توسل إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل، حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما ويجيب دعاءهما فإنه يراد بالسميع في مقام الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة ــ معنى المستجيب. كما قال الخليل في الآية الأخرى:

﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٩]

وأما ختم قوله:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ [بقوله] إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾
[سورة البقرة: الآية ١٢٩]

فمعناه: كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزتك، وكمال حكمتك. فإنه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سدى هملاً، لا يرسل إليهم رسولاً. فحقق اللّه حكمته ببعثته خاتماً، كما حقق حكمته ورحمته ببعثة إخوانه المرسلين من قبله. لئلا يكون للناس على الله حجة. والأمور كلها: قدريها وشرعيها، لا تقوم إلا بعزة الله، ونفوذ حكمه.

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها. لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام.

مثل قوله تعالى:

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٩]

لم يقل: فعليكم من العقوبة كذا، بل قال:

﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٩]

أي فإذا عرفتم عزته، وهي قهره وغلبته، وقوته وامتناعه، وعرفتم حكمته، وهي وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها محالها، أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم، لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة: وهو المصرُّ على الذنب مع علمه، وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه، لكمال قهره وعزته.

وكذلك لما قال في سورة المائدة:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٤]

لم يقل: فاعفوا عنهم، أو اتركوهم ونحوها بل قال:

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٤]

يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه عرفتم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه. فيدفع عنه العقوبة ويمده بالقوة على الطاعة، فكذلك فاعفوا عنه إذا استحق العفو.

ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها:

﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٨].

أي عز وحكم. فقطع يد السارق، وعز وحكم فعاقب المعتدين شرعاً وقدراً وجزاء.

ولما ذكر مواريث الورثة، وقدرها في سورة النساء قال:

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [سورة النساء: الآية ١١]

فكونه علياً حكيماً يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها. فاخضعوا لما قاله، وفصّله وحكم به في توزيع الأموال على مستحقيها، الذين يستحقونها بعلم الله وحكمته. فلو وكل العباد إلى أنفسهم، وقيل لهم: وزعوها أنتم بحسب اجتهادكم لدخلها الجهل والهوى، والغي والظلم. وصارت المواريث فوضى وسبباً في إراقة الدماء، وحصل من ذلك من الضرر ما الله به عليم. ولكن تولاها هو وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال، وأقربها للنفع.

ولهذا من قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا وكذا فهو كافر، لأنه قادح في علم الله وفي حكمته.

ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارج عن علمه.

ويختم الأدعية بأسماءٍ تناسب المطلوب. وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠]

أي تعبدوا لله بدعائه بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى في سورة الحج:

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

[سورة الحج: الآية ٥٩]

والآيات المتتابعة التي بعدها. كل واحدة ختمت باسمين كريمين.

فالأولى منها هذه: ختمُها بالعلم والحلم: يقتضي علمه بنياتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم عن سيئاتهم، فكأنهم ما فعلوها.

وختمُ الثانية بالعفو الغفور. فإنه أباح المعاقبة بالمثل. وندب إلى مقام الفضل، وهو العفو وعدم معاقبة المسيء، وأنه ينبغي لكم أن تعبدوا الله بالتخلق بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختمُ الآية الثالثة بالسميع البصير، يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم على اختلاف الأوقات وتباين الحالات.

وختمُ الآية الرابعة: بالعلي الكبير. لأن علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده، تضمحل معها جميع المخلوقات ويبطل معها كل ما عبد من دونه؛ وبإثبات كمال علوه وكبريائه، يتعين أنه هو الحق وما سواه هو الباطل.

وختمُ الآية الخامسة: باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه ودقيق خبرته بالبواطن، كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق، بما أنزله من الماء النمير، والخير الغزير.

وختمُ الآية السادسة: بالغني الحميد، بعد ما ذكر ملكه للسموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقها لحاجة منه لها. فإنه الغنيّ الغِنَى المطلق، ولا ليتكمل بها، فإنه الحميد الكامل، وليدلهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه؛ فبغناه تفضل عليهم فسخر لهم ما في السموات

وما في الأرض جميعاً منه، لأنه الجميل الذي يفعل كل جميل ويسدي إلى عباده كل جميل، يستوجب عليهم أن يعرفوه الحميد في أقداره، الحميد في شرعه، الحميد في جزائه فله الحمد المطلق ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً.

وختمُ الآية السابعة: بالرؤوف الرحيم، فإن من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات لبني آدم وحفظ السموات والأرض وإبقاءها وإمساكها لئلا تزول، فتختل مصالحهم. ومن رحمته سخر لهم البحار لتجري فيها الفلك في منافعهم ومصالحهم. فرحمهم حيث خلق لهم المسكن وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه، وحفظه عليهم وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم، ختم كل قصة بقوله:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٦٨]

فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه، وذلك برحمة الله ولطفه، وتضمنت إهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته.

وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين. فإنه نجّى الرسل وأتباعهم بكمال قوته وعزته ورحمته، وأهلك المكذبين بعزته ورحمته. ويكون ذكر الرحمة دالاً على عظم جرمهم، وأنه طالما فتح لهم أبواب رحمته بآياته ونعمه ورسله فأغلقوها دونهم، بتمردهم على الله وكفرهم وشركهم فلم يكن لهم طريق إليها، ولولا ذلك لما حل بهم هذا العقاب الصارم.

وأما قول عيسى عليه السلام:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾
[سورة المائدة: الآية ١١٨]

ولم يقل: أنت الغفور الرحيم؛ لأن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، وإنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه وأمه إلَهين من دون الله. فناسب ذكر العزة والحكمة. وصار أولى من ذكر الرحمة والمغفرة.

ومن ألطف مقامات الرجاء: أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة.

مثل قوله: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٢٩]

وقوله: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٧٣]

فذلك يدل على أن رحمته سبقت غضبه، وغلبته، وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان. ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يعرف بها كيفية الاستدلال بذلك.

القاعدة العشرون

القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث.

وقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاثة.

فوصفه بأنه محكم في عدة آيات، وأنه:

﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

[سورة هود: الآية ١]

ومعنى ذلك: أنه في غاية الإحكام وقوة الاتساق، وأنه بالـغ في الحكمة أقصى غاية. فأخباره كلها حق وصدق. لا تناقض فيها ولا اختلاف. وأوامره كلها خير وهدى وبركة وصلاح. ونواهيه عن كل ما يعود على الإنسان بالشرور والضرر والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة. فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله من سورة الزمر:

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا ﴾ [سورة الزمر: الآية ٢٣]

أي متشابهاً في الحسن والصدق والهدى والحق. وورده بالمعاني النافعة المزكّية للعقول، المطهِّرة للقلوب المصلحة للأحوال. فألفاظه أحسن الألفاظ، ومعانيه أحسن المعاني، كما وصف ثمرات الزروع والفواكه التي أنعم بها على الإنسان، وجعل فيها كل نافع صالح لجسمه وغذائه. فقال في سورة الأنعام:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ ﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٤١]

ووصف طيبات الجنة وثمراتها الدانية بقوله في سورة البقرة:

﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥].

ووصفه بأن: ﴿ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ ﴾

[سورة آل عمران: الآية ٧]

فهنا وصفه بأن بعضه هكذا وبعضه هكذا. وأن الذين أرسخت قلوبهم وثبتت بالفقه والفهم عن الله، فثبتوا ثبات الجبال الراسخة، لا تزلزلهم الشبهات ولا الشهوات، لأنهم يردون المتشابه منه إلى المحكم. فيصير كله محكماً، ويقولون:

﴿ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧]

أي وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع فسره الموضع الآخر المحكم. فحصل العلم وزال الإشكال.

ولهذا النوع أمثلة. منها: ما تقدم من الأخبار بأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

فإذا اشتبهت آيات على من ظن به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله جزافاً لغير سبب كشفت هذا الاشتباه وجلته الآيات الأُخَر الدالّة على أن هدايته لها أسباب، يفعلها العبد، ويتصف بها، مثل قوله في سورة المائدة:

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾
[سورة المائدة: الآية ١٦]

وأن إضلاله لعبده له أسباب في العبد، وهو توليه للشيطان. قال في سورة الأعراف:

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٠]

وفي سورة الصف:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ [سورة الصف: الآية ٥]

وإذا اشتبهت آيات على الجبري الذي يرى أن العباد مجبورون على أفعالهم بيَّنتها الآيات الأُخَرُ الكثيرة الدالة على أن الله لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة.

كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلى العباد حسنها وسيئها، إذا اشتبهت على القدرية النفاة، فظنوا أنها منقطعة عن قضائه وقدره، وأن الله ما شاءها منهم ولا قدرها، تليت عليهم الآيات الكثيرة الصريحة الدالة على تناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف، وأن الله خالق كل شيء.

ومن ذلك: أعمال العباد، وأن العباد ما يشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق، ويجب على كل مسلم تصديقها والإيمان بها كلها. وأنها لا تتنافى، فالطاعات والمعاصي واقعةٌ منهم وبقدرتهم وإرادتهم، والله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

وما أُجمِل في بعض الآيات فسرته آيات أخر. وما لم يتوضح في موضع توضح في موضع آخر.

وما كان معروفاً بين الناس وورد فيه القرآن أمراً ونهياً، كالصلاة والزكاة والزنا والظلم، ولم يفصله، فليس مجملاً، لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون، وأحالهم على ما كانوا به متلبسين، فليس فيه إشكال بوجه. والله أعلم.

القاعدة الحادية والعشرون

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والمكان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد.

وهذه قاعدة جليلة المقدار، عظيمة النفع. فإن الله أمر عباده بالمعروف. وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً وعرفاً، ونهاهم عن المنكر، وهو ما ظهر قبحه شرعاً وعقلاً وعرفاً. وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك.

فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة، والصوم، والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة والأخلاق الكريمة، من البر والإحسان، والمروءة والشجاعة، والفهم والاعتبار بكل ما يعرض للإنسان ويقع له وعليه. فإنه أمر به في كل وقت. والواجب على الآخرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة. وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق، والزنا وشرب الخمر، ونحوها من كل ما هو ضد المعروف ثبتت في كل زمان ومكان. لا يتغير. ولا يختلف حكمه.

وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والأحوال، فهو المراد ههنا. فإن الله تعالى يردهم فيه إلى العرف والعادة والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت.

وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده نوعاً خاصًّا من الإحسان والبر، ليعم كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال، فقد

يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون الشخص الآخر.

فالواجب الذي أوجبه الله: هو النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك، في حق والديك.

ومثل ذلك: ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم. فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحساناً. ولا يكون معارضاً للمعروف من التشريع.

وكذلك ضده من العقوق والإساءة، ينظر فيه إلى العرف. وكذلك قوله تعالى في سورة النساء:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]

وفي سورة البقرة:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

فردَّ الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما إلى الآخر إلى المعروف المعتاد عند الناس في قطرك، وبلدك وحالك ومركزك الاجتماعي.

وذلك يختلف اختلافاً عظيماً. لا يمكن إحصاؤه عدًّا. فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة. وهذا من آيات إحكام القرآن وبراهين صدقه.

وقال تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١]

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾

[سورة الأعراف: الآية ٢٦]

فقد أباح لعباده الأكل والشرب واللباس، ولم يعين شيئاً من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال والأزمان

والأمكنة، فتتعلق بها الإباحة حيث كانت، لا ينظر إلى ما كان موجوداً منها وقت نزول القرآن أو غير موجود.

وكذلك قوله في سورة الأنفال:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

ومن المعلوم: أن السلاح والقوة التي كانت موجودة وقت نزول القرآن غير نوع السلاح والقوة التي وجدت بعد ذلك.

فهذا النص يتناول كل مستطاع من القوة في كل وقت بحسبه وبما يناسبه ويليق به.

وكذلك لما قال تعالى، في سورة النساء:

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩]

لم يعين لنا نوعاً من التجارة ولا جنساً. ولم يحدد لنا ألفاظاً يحصل بها الرضى في البيع والتجارة، وهذا يدل على أن الله أباح كل ما تجري فيه تجارة ما لم ينه عنه الشارع، أو لا يحصل وأن كل ما حصل به الرضى من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقق الرضى من قول أو فعل، انعقدت به المعاوضات والتبرعات والمعاملات.

وفي القرآن من هذا النوع شيء كثير.

القاعدة الثانية والعشرون
في مقاصد ما يضرب القرآن من الأمثال

اعلم أن القرآن احتوى على أعلى وأكمل وأنفع الموضوعات التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه.

فمن أنواع تعليمه العالي: ضرب الأمثال؛ وهذا النوع يذكره الباري

سبحانه في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة. ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة، ليصير القارىء كأنه يشاهد معانيها رأي عين.

وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه بهم.

فقد مثّل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأرض والأودية، وأن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأرض؛ فمنها: أرض طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير. كمثل القلوب الفاهمة التي تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه، وتعقله، وتعمل به علماً وتعليماً بحسب حالها. كالأرض بحسب حالها. ومنها أرض تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، ينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأرضهم، كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وتلقيه إلى الأمة. ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة والانتفاع بمعانيه والتغذي بغذائه ما عند الأولين.

ومنها: أرض لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً. كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لا علماً ولا حفظاً ولا عملاً.

ومناسبة الأرض للقلوب كما ترى في الظهور. وأما مناسبة تشبيه الوحي بالغيث فكذلك. لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية. والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية.

وكذلك مثّل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي أُكُلُها دائم كل حين بإذن ربها. لأن شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها، لأنها غرس معرفة وتصديق وتفكر وتدبر لآيات الله، وتؤتي أُكُلَها تقوىً وإيماناً، وإرادةً لموجبها، وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية، والأعمال الصالحة والهدي المستقيم، دائمة في نفع صاحبها وانتفاع الناس به. وهي صاعدة إلى السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

ومثّل الله الشرك والمشرك الذي اتخذ مع الله إلهاً يتعزز به، ويزعم أنه

سينال منه النفع، ودفع الضرر: بأن اتخاذه هذا في ضعفه ووهنه كالعنكبوت اتخذت بيتاً وهو أوهن البيوت وأوهاها. فما ازدادت باتخاذه إلَّا ضعفاً ألى ضعفها. كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه وليًّا ونصيراً من دون الله إلا ضعفاً. لأن قلبه انقطع عن الله. ومن انقطع قلبه عن الله حله الضعف من كل وجه، وتعلقه بالمخلوق زاده وَهْناً إلى وهنه، فإنه اتكل عليه، وظن منه حصول المنافع، فخاب ظنه وانقطع أمله؛ وأما المؤمن فإنه قوي بقوة إيمانه بالله، وتوحيده تعلق بالله وحده، لأنه يوقن أنه الذي بيده الأمر والنفع، ودفع الضرر، وهو المتصرِّف في أحواله كلها؛ فهو العبد الذي استقام على صراط مستقيم في أقواله وأفعاله، منطلق الإرادة، تحرر عن رق المخلوقين، غير مقيد لهم بوجه من الوجوه؛ بخلاف المشرك، فإنه كالعبد الأبكم الذي هو كَلٌّ وعالة على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، لأن قلبه متقيد للمخلوقين مسترق لهم، ليس له انطلاق ولا تصرف في الخير ولا شعور به.

ومثَّل المشرك أيضاً بالذي خرَّ من السماء فتخطفته الطير، ومزقته كل ممزق.

ومثَّل في سورة الحج لآلهة المشركين وأوليائهم ـ هؤلاء الذين زعموا أنهم ينفعون فيدعونهم ـ بأنهم كالذباب، بل أضعف من الذباب، إذ لو اجتمعوا كلهم على خلق أضعف المخلوقات، وهو الذباب، لم يقدروا باجتماعهم على خلقه، فكيف ببعضهم، فكيف بفرد من مئات الألوف منهم. وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئاً لا يقدرون على استخلاصه منه ورده، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك غرور؟ وهو مع هذا الغرور وهذا الوهن والضعف مقسم القلب بين عدة آلهة، كالعبد بين الشركاء المتشاكسين، لا يتمكن من إرضاء أحدهم، دون الآخر. فهو معهم في شر دائم وشقاء متراكم. فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هو عليه، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعد ما أضاع دينه. وأما الموحِّد فإنه خالص لربه، لا يعبد إلا خالقه وبارئه، ولا يرجو غيره ولا يخشى سواه، فقد اطمأن قلبه، واستراح ضميره، وعلم أنه الحق، وأن عاقبته أحمد

العواقب، ومآله الخير والفلاح والسعادة الأبدية، فهو في حياة طيبة، ويطمع في حياة أطيب منها في الدنيا والآخرة.

ومثَّل الله الأعمال بالبساتين. فذكر العمل الكامل الخالص له الذي لم يعرض له ما يفسده كبستان في أحس المواضع وأعلاها، تنتابه الرياح النافعة، وقد ضحى وبرز للشمس، وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة. فإن لم تكن غزيرة فإنها كافية له كالطل الذي ينزل من السماء. ومع ذلك فأرضه أطيب الأراضي وأزكاها؛ فمع توفر هذه الشروط لا تسأل عما هو عليه من زهاء الأشجار وطيب الظلال، ووفور الثمار؛ فصاحبه في نعيم ورغد متواصل، وهو آمن من انقطاعه وتلفه ولثقته ويقينه بحفظ مولاه وسيده وفاطره ومعبوده له، فهو مطمئن لحفظ وكلاءة أرحم الراحمين، الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. فأما الآخر الذي قد ركن إلى غير بارئه وفاطره، فاعتمد على الميت الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ووثق به وفوض إليه حراسته وكلاءته في ماله وولده: فالله يغضب عليه أشد الغضب، ويبعث على بستانه الأعاصير والآفات المتلفة المهلكة، فلا تغني عنه آلهته وأولياؤه من شيء فيقلِّب كَفَّيه حسرة وندامة، وقد كبرت سنه ونالت منه الشيخوخة والهرم، فضعف عن العمل، وعنده أسرة ضعاف لا مساعدة منهم ولا غناء فيهم. وكان قد اغتبط به حيث كان مادة حياته وحياة أسرته. فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جاء بعد العمل الصالح بما يبطله من الشرك والنفاق والمعاصي المحرقة. فيا ويله، بعد ما كان بستانه زاكياً زاهياً أصبح تالفاً، على عروشه خاوياً، قد أيس من عوده، وبقي بحسرته مع أسرته.

فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها. فقد ذكر الله عاقبة من ثبَّته الله على الإيمان، والعمل الصالح، وعاقبة من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده.

ووجْهُ تشبيه الأعمال بالبساتين: أن البساتين تمدها عدة قوى تطيبها وتجعلها نافعة مثمرة؛ منها طيب الأرض وقوة ما فيها من مواد الإخصاب؛ ومنها: يقظة صاحبها وعلمه بفنون استثمار أرضه وبستانه؛ ومنها: المياه.

فكذلك الأعمال يمدها طيب عنصر القلب وتخليته من المواد المفسدة، وتحليته بكثرة تفكره في آيات الله الكونية في الأنفس والآفاق، وتدبره لآيات الوحي المنْزَل لحياة القلوب الطيبة. وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة، فأثمر عمله كل زوج بهيج.

وقد مثَّل الله عمل الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء. فحين يأتيه، وقد اشتد به الظمأ، وأنهكه الإعياء، يجده سراباً.

ومثَّله برماد الشيء المحترق، فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية. وهذا مناسب لحال الكافر وبطلان عمله. فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة لكل ما يأتي من عمل، فيدعه تراباً يظنه بجهله وغبائه وتقليده الأعمى أعمالاً صالحة، فإذا جاءها يرجو ثوابها قدم الله إليها فجعلها هباءاً منثوراً.

والسراب هو: ما يتخيله الظمآن في الصحراء المحرقة أمامه ماء. فلا يزال يسعى ويجهد نفسه حتى يهلك ظمأ. فهذا مثل عمل المرتكس في ظلمات التقليد لآبائه وشيوخه، يجتهد في العمل الليل والنهار يعتقده نافعاً، فإذا وصل إليه بالموت لم يجده شيئًا فتقطّعت نفسه حسرات. ووجد الله عنده فوفّاه حسابه.

كما مثَّل نفقات المخلصين بذلك البستان الزاهي.

ومثَّل نفقات المرائين بحجر أملس عليه شيء من تراب، فأصابه مطر شديد فتركه صلدًا لا شيء عليه، لأن قلب المرائي لا إيمان فيه ولا تصديق ولا إخلاص، فهو قاسٍ كالحجر، فنفقته ــ حيث لم تصدر عن إيمان، بل عن رياء وحب للسمعة ــ لم تؤثر في قلبه حياة ولا زكاة. كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملس شيئاً.

وهذه الأمثال إذا طبقت على ممثلاتها أوضحتها وبينت مراتبها من الخير والشر، والكمال والنقصان.

ومثَّل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة. فاستوقد ناراً من غيره، فلما أضاءت ما حوله وتبين له الطريق ذهب نوره، وانطفأ ضوؤه، فبقي في ظلمة

عظيمة أعظم من الظلمة التي كان فيها. وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان؛ فلما تبين له الهدى غلبت عليه الشقوة، واستولت عليه الحيرة: أيبقى على دين الآباء والشيوخ، أم يخرج عنه إلى دين الهدى والحق وما يقتضيه من الطاعات والأعمال؟ فغلب عليه شيطان التقليد ورده إلى ظلمات

﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٢٢]

فذهب عنه نوره أحوج ما يكون إليه، وبقي في ظلمته متحيراً. فهم لا يرجعون، لأن سنة الله في عباده أن من بان له الهدى، واتضح له الحق ثم رجع عنه أن يحرم التوفيق بعد ذلك للهداية، لأنه رأى الحق فتركه، وعرف الضلال فاتبعه.

وهذا المثل ينطبق على المنافقين الذين تبصروا وعرفوا، ثم غلبت عليهم الأغراض الضارة فتركوا الإيمان.

والمثال الثاني وهو قوله:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩]

ينطبق على حال ثانية للمنافقين الضالين المتحيرين، الذين يسمعون القرآن فلم يعرفوا المراد منه. لأنهم أعرضوا عنه، وكرهوا سماعه اتباعاً لرؤسائهم وسادتهم.

ومثَّل الله الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع، تعجب الناظرين، وتغر الجاهلين، فيظنون بقاءها، ولا يؤملون زوالها. فلهوا بها عما خلقوا له. فأصبحت عنهم زائلة وأضحوا لنعيمها مفارقين في أسرع وقت كهذا الربيع، إذا أصبح بعد الاخضرار هشيماً، وبعد الحياة يبساً رميما.

وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البَرُّ والفاجر. ولكن سكرة الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضى إيثار العاجل على الأجل.

القاعدة الثالثة والعشرون

إرشادات القرآن على نوعين:

أحدهما: أن يرشد أمراً ونهياً وخبرًا إلى أمر معروف شرعاً أو معروف عرفاً كما تقدم.

والنوع الثاني: أن يرشد العبد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، وأن يعمل الفكر في استفادة المنافع منها.

وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر.

أما النوع الأول: فأكثر إرشادات القرآن في الأمور الخبرية والأمور الحكمية:

وأما النوع الثاني، وهو المقصود هنا ـ فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلى التفكر في خلق السموات والأرض، وما خلق الله فيها من العوالم، وإلى النظر فيها. وأخبر أنه سخّرها لمصالحنا ومنافعنا. وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾

[سورة الجاثية: الآية ١٣]

فنبه العقول على التفكر فيها، واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها.

فإننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها، وأوصافها، وانتظامها لأي شيء خلقت ولأي شيء أبقيت؟ وماذا فيها من الآيات وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا التفكر فيها علمين جليلين.

أحدهما: أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة، والحكم البالغة، وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة، وعلى صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار، وعلى صدق رسله، وحقيقة ما جاءوا به من عنده.

وهذا النوع قد أكثر أهل العلم من الاستشهاد به، وكل عالم ومحقق قد

ذكر منه ما وصل إليه علمه وما بلغه تفكيره وفهمه؛ فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب، وكل واد يسيل بهدي القرآن بحسبه.

وهذا أجل العلمين وأعلاهما، وأكملهما.

والعلم الثاني: أننا نتفكر فيها لنستخرج منها المنافع المتنوعة؛ فإن الله سخَّرها لنا وجعلها طوع علومنا وأعمالنا. وسلطنا على استخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية. فذلّل لنا أرضها وما ادخر فيها من بركات وكنوز ومعادن ومواد نافعة، لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج منها ما نتخذه لحاجاتنا المعاشية من الصناعات النافعة. فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها ــ لا سيما في هذه الأوقات ــ كل ذلك داخل في تسخيرها لنا. وقد عرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع وترقية الصنائع إلى ما لا حدَّ له. وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها ما فيه فوائد عظيمة للخلق.

وقد تقدَّم لنا في قاعدة اللازم: أن ما لا تتم الأمور المطلوبة إلا به فهو مطلوب بطلبها. وهذا يدل على أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعاً. كما هي مطلوبة لازمة عقلاً. وأنها من الجهاد في سبيل الله، ومن علوم القرآن.

فإن الله نبَّه العباد أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه سخر لهم ما في الأرض. فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق. وهي لا تُعرف إلا بالبحث والتنقيب والتجارب المتكررة والدراسات المناسبة لكل نوع منها. وهذا من آيات القرآن. وهو أكبر دليل على سعة علم الله، وحكمته ورحمته بعباده، بأن أباح لهم جميع النعم، ويسَّر لهم الوصول إليها بطرق لا تزال تحدث وقتاً بعد وقت. وقد أخبر أن القرآن تذكرة، يتذكر به العباد في كل زمان ومكان، وأنه هداية لجميع المصالح.

القاعدة الرابعة والعشرون

القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال. ويذم التقصير والغلو ومجاوزة الحدّ في كل الأمور.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]

وقال:

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩]

والآيات الآمرة بالعدل والإحسان والناهية عن ضدهما كثيرة.

والعدل في كل الأمور: لزوم الحد فيها. وأن لا يغلو ويتجاوز الحد، كما لا يقصِّر ويدع بعض الحق.

ففي عبادة الله أمر بالعدل وهو بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ ونهى عن مجاوزة ذلك، وتعدِّي الحدود وذم المقصرين، في آيات كثيرة.

فالعبادة التي أمر الله بها ما جمعت الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول. فإذا خلت من الأمرين أو أحدهما، فهي لاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل صلّى الله عليهم وسلم أمر بالاعتدال وهو الإيمان بهم، ومحبتهم المقدمة على محبة الخلق، وتوقيرهم واتباعهم، ومعرفة أقدارهم، ومراتبهم التي أكرمهم الله بها. ونهى في آيات كثيرة عن الغلو فيهم وأن يرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم الله. ويجعل لهم من حقوق الله التي لا يشاركه فيها مشارك. كما نهى عن التقصير في حقهم بتكذيبهم أو ترك محبتهم وتوقيرهم. أو عدم اتباعهم. وذم الغالين فيهم، كالنصارى ونحوهم في عيسى. كما ذم الجافين لهم، كاليهود حين قالوا في عيسى ما قالوا، وذم من فرق بينهم. فآمن ببعض دون بعض. وأخبر أن هذا كفر بجميعهم.

وكذلك الأمر في حق العلماء والأولياء، فيجب محبتهم ومعرفة أقدارهم،

ولا يحل الغلو فيهم وإعطاؤهم شيئاً من حق الله، ولا شيئاً من حق رسوله الخاص. ولا يحل مجافاتهم ولا عداوتهم، فمن عادى لله وليًّا فقد بارزه بالحرب.

وأمر بالتوسط في النفقات والصدقات. ونهى عن الإمساك والتقصير والبخل، كما نهى عن الإسراف والتبذير.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال، ونهى عن الجبن، وذم الجبناء، وأهل الخور، وضعفاء النفوس، كما ذم المتهورين الذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة.

وأمر وحث على الصبر في آيات كثيرة، ونهى عن الجزع والهلع، والتسخط كما نهى عن التجبر، والقسوة.

وأمر بأداء الحقوق لكل من له حق عليك: من الوالدين وذوي القربى والجار، والإخوان والولاة والحكام والأُجرَاء والطلبة وغيرهم من كل ذي حق، هو فرع حق الله سبحانه وتعالى تفهمه وتعرفه وتؤديه بالمعروف والإحسان إليهم قولاً وفعلاً. وذمَّ من قصَّر في حقهم أو أساء إليهم قولاً وفعلاً. كما ذمَّ من غلا فيهم وفي غيرهم حتى قدم رضاهم على رضا الله وطاعتهم على طاعة الله.

وأمرنا بالاقتصاد في الأكل والشرب واللباس والحركة والمشي والصوت، ونهى عن التجاوز والإسراف في كل ذلك، كما حذر أشد التحذير من الترف، ونهى عن التقصير الضار بالروح والجسم.

وبالجملة، فإن الله العليم الحكيم أمر بالوسط في كل شيء بين خلقين ذميمين. تفريط وإفراط. وقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣]

القاعدة الخامسة والعشرون

حدود الله قد أمر بحفظها . ونهى عن تعديها وقربانها

قال تعالى : ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة : الآية ١١٢]

وقال : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [سورة البقرة : الآية ٢٢٩]

و : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة : الآية ١٨٧]

أما حدود الله : فهي ما حده لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة، التي أمرهم بفعلها، ومن المحرمات التي أمرهم بتركها. فالحفظ لها يكون بأداء الحقوق اللازمة، وترك المحرمات الظاهرة والباطنة.

ويتوقف هذا على معرفة الحدود على وجهها، ليعرف ما يدخل في الواجبات والحقوق، فيؤديها على ذلك الوجه كاملة، غير منقوصة، وما يدخل في المحرمات ليتمكن من تركها، ولئلا يلبِّس الشيطان عليه بعضاً منها. ولهذا ذمَّ الله من لم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله، وأثنى أطيب الثناء على من عرف ذلك.

وحيث قال تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [سورة البقرة :الآية ٢٢٩]

كان المراد بها : ما أحله لعباده، وما فصله من الشرائع ــ فإنه نهى عن مجاوزتها وأمر بملازمتها.

كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح، ونهى عن تعدي ذلك إلى ما حرَّم من الخبائث.

وكما أمر بملازمة ما شرعه من الأحكام في النكاح، والطلاق والعدة وتوابع ذلك. ونهى عن تعدِّي ذلك إلى فعل ما لا يجوز شرعاً.

وكما أمر بالمحافظة على ما فصَّله من أحكام المواريث ولزوم حده، ونهى عن تعدي ذلك، وتوريث من لا يرث وحرمان من يرث، وتبديل ما فرضه وفصله بغيره.

وحيث قال تعالى:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

كان المراد بذلك: المحرمات. فإن قوله (فلا تقربوها) نهيٌ عن الدنو والقرب منها من أي ناحية من نواحيها. فهو نهيٌ عن مقدماتها ونهيٌ عن أسبابها الموصلة إليها والموقعة فيها، ونهيٌ عن فعلها من باب أولى.

كما نهاهم عن المحرمات على الصائم. وبيَّن لهم وقت الصيام فقال:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧].

وكما حرم على الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئاً، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، ثم قال:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

وكما بيَّن المحرمات في قوله:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٢]

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٢]

وفي الخمر والميسر أنهما:

﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٠]

فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله، والوقوف عندها والمحافظة عليها. كما أن أصل كل الشر وأسباب كل العقوبات الجهل بحدود الله، وترك المحافظة عليها، والله أعلم.

القاعدة السادسة والعشرون

الأصل: أن الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود، إلا في آيات يسيرة.

وهذه قاعدة لطيفة. فإن الله متى رتب في كتابه حكماً على شيء، وقيَّده بقيد، أو شَرَطَ لذلك شرطاً، تعلق الحكم به على ذلك الوصف، الذي وصفه الله تعالى.

وهذا في القرآن لا حصر له. وإنما المقصود ذكر المستثنى من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين، إذا تكلموا عليها: هذا قيد غير مراد. ففي هذه العبارة نظر.

فإن كل لفظة في كتاب الله فإن الله أرادها لما فيها من فائدة. قد تظهر للمتكلم وقد تخفى. وإنما مرادهم بقولهم «غير مراد» ثبوت الحكم بها.

فاعلم أن الله تعالى يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع، ويذكر أعلى حالة لها ليبرزها لعباده، ليظهر لهم حسنها، إن كانت مأموراً بها، أو قبحها إن كانت منهياً عنها.

وعند تأمل هذه الآيات التي بهذا الصدد يظهر لك هذا منها عياناً.

فمنها قوله تعالى:

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧]

ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلهاً آخر فإنه كافر، وأنه ليس له برهان مطلقاً. وإنما قيدها الله بهذا القيد بياناً لشناعة الشرك والمشرك، وأن الشرك ليس له دليل شرعي ولا عقلي قطعاً. والمشرك ليس بيده ما يسوِّغ له شيئاً من ذلك.

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ على المشركين بما تملَّكهم لغبائهم وبلادتهم التقليدية من المعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنه ليس بأيديهم إلا أغراض بهيمية ومقاصد سيئة وتقليد أعمى كالأنعام، وأنهم لو التفتوا أدنى التفات لعرفوا أن ما هم عليه لا يستسيغه من له أدنى فهم وعقل.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٣]

مع أن كونها في حجره أو غير حجره ليس شرطاً لتحريمها. فإنها تحرم مطلقاً. ولكن ذكر الله هذا القيد تشنيعاً لهذه الحالة، وأنه من أقبح القبيح تزوج الربيبة التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته. فذكر الله المسألة متجلية بثياب قبحها، لينفِّر عنها ذوي الألباب، مع أن التحريم لم يعلق بمثل هذه الحالة. فالأنثى إمَّا أن تكون مباحة مطلقاً، أو محرمة مطلقاً سواء كانت عند الإنسان أم لا. كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات.

ومنها قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣١]

و: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥١]

مع أن من المعلوم النهي عن قتل الأولاد على أي حال. فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حالة جامعة للشر كله: كونه قتلاً بغير حق، وقتل من جبلت النفوس على شدة الشفقة عليه شفقة لا نظير لها. وكون ذلك صادراً عن التسخط لقدر الله، وإساءة الظن بالله. فأولئك الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق إنما يقتلونهم تبرُّماً وتسخطاً بقدر الله، فهم قد تبرَّموا بالفقر هذا التبرم، وأساءوا ظنونهم بربهم حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم، واشتدت فاقتهم، فصار الأمر بالعكس.

وأيضاً فإنه إذا كان منهياً عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خَشية الفقر وحدوثه، ففي حال سعة الرزق من باب أولى وأحرى.

وأيضاً ففي هذا بيان للحالة الموجودة غالباً عندهم.

فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة الحادثة يكون أجلى وأوضح للمسائل.

وأما قوله تعالى في الرجعة:

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

فمن العلماء من قال: إنه من هذا النوع. وأنه يستحق ردها سواء أراد

المراجع الإصلاح أو لم يرده. فيكون ذكر هذا القيد حثًا على لزوم ما أمر الله به، من قصد الإصلاح وتحريم إمساكها وردِّها إلى زوجيته على وجه المضارة. وإن كان يملك ردها، كقوله تعالى:

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣١]

ومن العلماء من جعل هذا القيد على الأصل العام، وأن الزوج لا يملك رجعة زوجته في عدتها إلا إذا قصد الإصلاح. فأما إذا قصد ضد ذلك فلا حق له في رجعتها. وهذا هو الصواب.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٣]

مع أن الرهن يصح حضراً وسفراً. ففائدة هذا القيد: أن الله ذكر أعلى الحالات، وأشد الحاجات للرهن، وهي هذه الحالة في السفر، والكاتب مفقود، والرهن مقبوض، فأحوج ما يحتاج الإنسان للرهن في هذه الحالة التي تعذرت معها التوثيقات إلا بالرهن المقبوض، وكما قاله الناس في قيد السفر فكذلك على الصحيح في قيده بالقبض. وأن قبضه ليس شرطاً لصحته، وإنما ذلك للاحتياط، وزيادة الاستيثاق. وكذلك فقد الكاتب.

ومنها قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

مع أن الحق يثبت بالرجل فقط والمرأتين فقط، مع وجود الرجلين، لكن ذكر الله أكمل حالة يحصل بها الحفظ للحقوق، بدليل أن النبي ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة، وهو أن الآية أرشد الله فيها عباده إلى أعلى حالة يحفظون بها حقوقهم، لتمام راحتهم.

وأما قوله تعالى:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [سورة الأعلى: الآية ٩]

فإنها من أصل هذه القاعدة، ويظن بعض الناس أنها من هذا النوع. وأنه يجب التذكير، نفعت الذكرى أو لم تنفع. لكن قصر الآية على هذا غلط، فإن الآية تعطي أيضاً لمن تدبر أن الذكرى إذا كان يحصل بهاالخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه وجب توجيهها. فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه، فإنه منهي عنه في هذه الحال، كما نهى الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلة لسب الله. وكما ينهى عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شرٌّ أكبر أو فوات خير أكثر من الخير الذي يؤمر به. وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه شراً. فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به، بل منهي عنه. وكل هذا من تفصيل قوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥]

فعلم أن هذا قيد مراد، يرتبط الحكم به ثبوتاً وانتفاءً، والله أعلم.

ومنها قوله تعالى:

﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦١]

مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق، فهذا نظير ما ذكره في الشرك، وأن هذا إنما هو لتشنيع هذه الحالة التي لا شبهة فيها لصاحبها، بل صاحبها أعظم الناس جرماً، وأشدهم إساءة.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥١]

فليست من هذا النوع وإنما هي من النوع الأول الذي هو الأصل، و «الحق» الذي قيدها الله به جاء مفسَّرًا في قوله ﷺ «النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

مع أن فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر. فإنه إذا فقد جاز التيمم حضراً وسفراً، لكن ذكر السفر لبيان الحالة التي يغلب أن يفقد فيها الماء. وأما الحضر فإنه يندر فيه عدم الماء جدًّا.

وظن بعض العلماء أن السفر وحده مبيح للتيمم. وإن كان الماء موجوداً، وهو في غاية الضعف. وما ثبت من هدي الرسول وأصحابه والأئمة مخالف لهذا القول.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [سورة النساء: الآية ١٠١]

مع أن الخوف ليس شرطاً لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق. ولما سئل النبي ﷺ عن هذا أجاب: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» ويعني بصدقة الله: إحسانه في كل زمان ومكان، لا يتقيد بخوف ولا غيره.

ومن العلماء من قال: إن هذا القيد من القسم الأول وأن القصر التام ـ وهو قصر العدد وقصر الأركان والهيئات ـ شرطه اجتماع السفر والخوف كما في الآية، فإن وجد الخوف وحده لم يقصر عدد الصلاة وإنما تقصر هيئاتها وصفاتها. وإن وجد السفر وحده لم تقصر هيأتها وشروطها وإنما يقصر عددها. ولا ينافي هذا كلام النبي ﷺ فإنهم إنما سألوه عن قصر العدد فقط، فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة في كل الأحوال.

وهذا تقرير مليح موافق لظاهر الآية غير مخالف لحديث الرسول فيتعين الأخذ به.

القاعدة السابعة والعشرون

المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع عند الحاجة إليها

وهذه القاعدة جليلة النفع، عظيمة الوقع.

وذلك أنه ما من موضع يسوق الله فيه حكماً من الأحكام أو خبراً من

الأخبار فيتشوف الذهن فيه إلى شيء آخر، إلا وجدت الله قد قرن به ذلك الأمر الذي تشوفت إليه الأذهان، فيبينه أحسن بيان. وهذا أعلى أنواع التعليم، فإنه لا يبقي إشكالاً إلا أزاله، ولا احتمالاً إلا أوضحه. وهذا يدل على عظيم فضل الله وبالـغ حكمته. وهو في القرآن كثير جداً.

ولنذكر بعض أمثلة توضـح هذه القاعدة.

فمن ذلك قوله تعالى في سورة النمل:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾

[سورة النمل: الآية ٩١]

لما كان تخصيص مكة بالذكر ربما يوقـع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها أزال هذا الوهم بقوله:

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [سورة النمل: الآية ٩١].

ومنها قوله تعالى في سورة هود:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٩]

لما كان قد يقـع في الذهن أنهم على بعض حجة وبرهان في شركهم أبان بقوله:

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ [سورة هود: الآية ١٠٩]

أن ضلالهم إنما هو عن تقليد أعمى لآبائهم وجهل مطبق. ثم لما كان قد يتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم وعلى بعض يقين من شركهم وكفرهم بدَّد ذلك بقوله:

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ [إلى قوله] وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

[سورة هود: الآيتان ١٠٩ و١١٠]

فبيَّن بهذا أنهم ليسوا على شيء من اليقين في دينهم ولا اطمئنان إلى

جزائهم في الآخرة بما يحبون. فإن من المحال أن يؤتي العزيز الحكيم الجزاء في الآخرة بما يهوى الضالون. ولما قال في سورة النساء:

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥]

ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع القاعدين ولو كان القاعدون معذورين، أزال هذا الوهم بقوله:

﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥]

وكذلك لما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠]

ربما توهم أحد أن المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة على أي حال، فأزال هذا الوهم بقوله:

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠]

ثم لما كان ربما يتوهم أن هذا الأجر يستحق بظاهر هذا العمل المذكور، ولو خلا من الإخلاص، أزال هذا الوهم بقوله:

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠]

ومنها: قوله في سورة النمل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٨]

ربما وقع في الذهن أنهم قد يصلحون، فأزال هذا الوهم بقوله:

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٨]

أي لا خير فيهم أصلاً مع شرهم العظيم.

ومنها: أنه قال في عدة مواضع:

﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٠]

فربما توهم أحد أنهم، وإن لم يسمعوا، فلعلهم يفهمون الإشارة. فأزال هذا الاحتمال بقوله:

﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٠]

فهذه الحالة لا تقبل سماعاً ولا رؤية لتحصل الإشارة. وهذا نهاية الإعراض.

ومنها: قوله:

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٢]

ربما توهم أحد أن هدايته تأتي جزافاً من غير سبب. فأزال هذا بقوله:

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٧]

أي بمن يصلح للهداية لزكائه وخيره، وإقباله على الهداية وطلبه بالتفكر في آيات الله، والشوق إلى فهم ما يوحي به إلى رسله، فأبان أن هدايته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها. ومن كان فقيهاً غير مقلد أي من هذا شيئاً كثيراً.

القاعدة الثامنة والعشرون

في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن

لما كان الإيمان أصل كل خير وفلاح في الدنيا والآخرة، وبفقده يفقد كل خير ديني ودنيوي وأخروي، أكثر الله من ذكره في القرآن جدًّا: أمراً به ونهياً عن ضده، وترغيباً فيه، وبياناً لأوصاف أهله وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

فإذا كان المقام مقام خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي، أو مقام إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان. فإنها تتناول كل مؤمن، سواء كان متمماً لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصاً شيئاً منها.

وأما إن كان المقام مقام مدح وثناء، وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإن المراد بذلك المؤمن حقًّا والجامع لكل معاني الآيمان.

وهذا هو المراد بيانه هنا. فنقول:

وصف الله المؤمن في كتابه بتصديقه وإذعانه لجميع عقائد الدين، وبحب ما يحبه الله ويرضاه، وبالعمل به، وبالتباعد والحذر من كل ما يبغضه الله، وبإدامة الإنابة والرجوع إلى الله في كل حال. وكان لإيمانه أطيب الثمرات في الأعمال والأخلاق.

فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة. وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، والقَدَرِ خيره وشره. وأنهم يؤمنون بكل ما جاء به الرسل كلهم، ويؤمنون بالغيب، ووصفهم بالسمع والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطناً. ووصفهم بأنهم:

﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [سورة الأنفال: الآيات ٢ ـ ٤]

ووعدهم بأنعم وأطيب البشرى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الحج: الآيتان ٣٣ و ٣٤]

ووصفهم بأن جلودهم تقشعر وعيونهم تفيض من الدمع، وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات الله وذكره، وبأنهم يخشون ربهم بالغيب والشهادة، وأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون.

ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عمومًا، وفي الصلاة خصوصاً، وأنهم عن اللغو معرضون، وللزكاة فاعلون، ولفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وأنهم بشهاداتهم قائمون ولأماناتهم وعهدهم راعون.

ووصفهم بأنهم يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا

سلاماً. وأنهم يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً، وأنهم يقولون بدعائهم وأعمالهم وأخلاقهم: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم. وأنهم مقتصدون وسطٌ في كل شؤونهم، وإذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً. وأنهم لا يَدْعُون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون. وأنهم لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مرُّوا كراما، وأنهم إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعمياناً، بل خَرُّوا سُجَّداً وبكياً. ويخرون للأذقان يبكون، وتزيدهم رؤية آيات الله وسماعها خشوعفا وإخباتاً. وأنهم يطلبون السمو والعلو دائماً فلا يرضون إلا أن يكونوا أئمـةً في الهدى والإيمـان والتقوى ومكـارم الأخلاق، وأنهم يقدرون الواجب عليهم ومسؤوليتهم أمام الله عما استرعاهم من الأولاد والزوجات وغيرهم، فيحسنون القيام عليهم في تأديبهم وتربيتهم ليكونوا قرة عين لهم.

ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه، وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون.

ووصفهم بمحبة المؤمنين والـدعاء للسـابقين والـلاحقين منهم، وأنهم مجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم على المؤمنين، وبأنهم يتولون الله ورسوله وعباده المؤمنين، ويتبرؤون من موالاة جميـع أعداء الدين، وبأنهم يأمـرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ورسوله في كل أحوالهم.

فجمع الله لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل، والإنابة التامة التي آثـارها الانقيـاد لفعل المـأمورات، وتـرك المنهيات، والـوقوف عـلى الحدود الشرعيات.

فهذه الأوصاف الجليلة هي وصف المؤمن المطلق الذي سلم من أسباب العقاب، واستحق جميل الثواب، ونال كل خير رتب على الإيمان.

فإن الله رتب على الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة. كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

رتّب على الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر من كل شيء. ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار، والسلامة من عذاب القبر ومن أهوال القيامة، والبشرى الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والثبات في الدنيا على الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق الكريم والحسنة وتيسيره لليسرى وتجنيبه للعسرى، وطمأنينة القلوب، وراحة النفوس والقناعة التامة، وصلاح الأحوال، وصلاح الذرية والصبر عند المحن والمصائب. وحمل الله عنهم الأثقال ومدافعة الله عنهم جميع الشرور، والنصر على الأعداء ورفع المؤاخذة عند النسيان والخطأ، وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال التي تكبل بها المقلدون الغافلون، الأشقياء المعذبون في الدنيا والآخرة بكفرهم وشركهم.

فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته، ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب، وإزالة الشدائد وتخفيفها.

القاعدة التاسعة والعشرون

في الفوائد التي يجتنيها العبد من معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن

وهذه القاعدة تكاد تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير. وذلك أن القرآن مشتمل على علوم متنوعة، وأصناف جليلة من العلوم. فعلى العاقل الناصح لنفسه أن يتدبر القرآن ويعرف كل نوع منها. ويعمل على هذا ويتتبع الآيات الواردة فيه. فيحصل المراد منها: علماً وتصديقاً، وحالاً، وعملاً.

فأجلُّ علوم القرآن على الإطلاق: علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال. فإذا مرت عليه الآيات في توحيد الله وأسمائه وصفاته أقبل عليها. فإذا فهمها وفهم المراد بها أثبتها لله على وجه لا يماثله فيه أحد. وعرف أنه ليس له مثيل في ذاته ولا في صفاته. وامتلأ قلبه من معرفة ربه وحبه بحسب العلم بكمال الله وعظمته. فإن القلوب مجبولة على محبة الكمال. فكيف بمن له الكمال

المطلق؟ ومنه جميع النعم الجزيلة؟ ويعرف أن أصل الأصول هو الإيمان بالله، وأن هذا الأصل يقوى ويكمل بحسب معرفة العبد لربه، وفهمه لمعاني صفاته بما يشهد من آثارها عليه وعلى الناس، فيقدر الله حق قدره ويشكره أعظم الشكر.

وأيضاً يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله. فإنه هو أصل العلم وأصل التعبد.

ومن علوم القرآن: صفات الرسل وأحوالهم، وما جرى لهم وعليهم، مع من وافقهم ومن خالفهم. وما كانوا عليه من الأوصاف الراقية والأخلاق الكريمة. فإذا فهم هذه الآيات ازدادت معرفته ومحبته لهم، خصوصاً إمامهم وسيدهم محمد ﷺ، فيقتدي بأخلاقهم وأعمالهم جهد طاقته، ويفهم أن الإيمان بهم تمامه وكماله: بمعرفته التامة بأحوالهم، ومحبتهم، واتباعهم. وفي القرآن من نعوتهم الشيء الكثير الذي يحصل به تمام الهدى. ويستفيد أيضاً الاقتداء بشرائعهم الحكيمة وإرشاداتهم للخلق وحسن خطابهم، ولطف جوابهم وتمام صبرهم. فليس القصد من قصصهم أن تكون سَمَرا، وإنما القصد أن تكون عِبَرا.

ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة والخير، وأهل الشقاوة والشر. والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء. وبيان الصفات والطرق التي وصل بها هؤلاء إلى دار النعيم، ووصل بها أولئك إلى دار الجحيم. وفي معرفته لذلك فوائد الترغيب في الاقتداء بالأخيار، والترهيب من أحوال الأشرار. فأَحَبَّ الأخيار ووالاهم وأبغض الفجار وعاداهم؛ فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان. وكلما كان أعرف لأحوالهم تمكن من هذه المقاصد.

ومن علوم القرآن: علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة على أعمال الخير وأعمال الشر.

وفي ذلك مقاصد جليلة: الإيمان بكمال عدل الله وسعة فضله، والإيمان باليوم الآخر. فإن تمام الإيمان بذلك يتوقف على معرفة مايكون فيه، والرغبة في الأعمال التي رتب الله عليها الجزاء الجميل، والرهبة من ضدها.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي.

وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله؛ فإن العباد محتاجون إلى معرفة ما أُمِروا به وما نُهُوا عنه والعمل بذلك. والعلم سابق للعمل. وطريق ذلك: إذا مر على القارىء نص فيه أمر بشيء عرفه، وفهم ما يدخل فيه وما لا يدخل فيه، وحاسب نفسه: هل هو قائم بذلك كله أو بعضه أو تاركه؟ فإن كان قائماً به فليحمد الله، ويسأله الثبات والزيادة من الخير. وإن كان مقصراً فيه فليعلم أنه مطالب به. وملزم به. فليستعن الله على فعله. وليجاهد نفسه على ذلك.

وكذلك في النهي ليعرف ما يراد منه، وما يدخل في ذلك. ثم لينظر إلى نفسه فإن كان قد ترك ذلك فليحمد الله على توفيقه، ويسأله أن يثبته على ترك المناهي كما يسأله الثبات على فعل الطاعات. وليجعل الداعي له على الترك امتثال طاعة الله، ليكون تركه عبادة، كما كان فعله للطاعة عبادة. وإن كان غير تارك له، فليبادر بالتوبة إلى الله توبةً نَصُوحًا جازمة، لا تمنعه منها الشهوات الدنية التي تدعو إليها النفس الأمَّارة بالسوء.

فمن كان عند هذه المطالب وغيرها عاملاً على هذه الطريقة فإنه ثابت على الصراط المستقيم من الاسترشاد بكتاب الله.

القاعدة الثلاثون

أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة: إيماننا بالاسم، وبما دلّ عليه من المعنى، وبما تعلق به من الآثار.

وهذه القاعدة العظيمة: خاصة بأسماء الرب سبحانه وتعالى.

وفي القرآن من الأسماء الحسنى ما ينيف عن ثمانين اسماً ـ كررت في آيات متعددة، بحسب ما يناسب المقام، كما تقدم بعض الإشارة إليها.

وهذه القاعدة تنفعك في كل اسم من أسمائه الحسنى المتعلقة بالخلق والأمر، والثواب والعقاب.

فعليك أن تؤمن بأنه عليم، وذو علم عظيم، محيط بكل شيء، قدير، وذو قدرة وقوة عظيمة. ويقدر على كل شيء، ورحيم وذو رحمة عظيمة، ورحمته وسعت كل شيء والثلاثة متلازمة.

فالاسم دل على الوصف. وذلك دل على المتعلق. فمن نفى واحداً من هذه الثلاثة فلن تتم معرفته بالله ولن يتم إيمانه بأسماء الرب وصفاته، الذي هو أصل التوحيد.

ولنكتف بهذا الأنموذج. ليعرف أن الأسماء كلها على هذا.

القاعدة الحادية والثلاثون

ربوبية الله في القرآن على نوعين: عامة، وخاصة

كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده، ومتعلقاتها، ولوازمها. وهي على نوعين:

ربوبية عامة، يدخل فيها جميع المخلوقات: بَرُّها وفاجرها، بل مكلَّفوها وغير المكلَّفين، حتى الجمادات. وهي أنه تعالى المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها، وإعطائها ما تحتاج إليه في بقائها، وحصول منافعها ومقاصدها والمقاصد منها. فهذه التربية لا يخرج عنها أحد.

والنوع الثاني: في تربيته لأصفيائه وأوليائه. فيربيهم بالوحي ينزل لهم بغيث العلم ويهديهم إلى الإيمان، ويوفقهم لتكميله ويكملهم بالأخلاق الجميلة، ويدفع عنهم الأخلاق الرذيلة، وييسرهم لليسرى ويجنِّبهم العسرى. وحقيقتها: التوفيق لكل خير، والحفظ من كل شر، وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة، وصرف المكروهات العاجلة والآجلة.

فحيث أطلقت ربيته تعالى، فإن المراد بها المعنى الأول؛ مثل قوله:

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ١]

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٤]

ونحو ذلك.

وحيث قُيِّدت بما يحبُّه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم، فإن المراد بها النوع الثاني. وهو متضمن للمعنى الأول، وزيادة؛ ولهذا تجد أدعية الأنبياء وأتباعهم في القرآن باسم الرب غالباً فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة.

فملاحظة هذا المعنى نافعة أعظم النفع للعبد.

ونظير هذا المعنى الجليل: أن الله أخبر في عدة آيات أن الخلق كلهم عباده وعبيده:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾
[سورة مريم: الآية ٩٣]

فكلهم مماليكه. وليس لهم من الملك والأمر شيء، لا في أنفسهم ولا في غيرهم. ويخبر في بعض الآيات أن عباده بعض خلقه كقوله:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [سورة الفرقان: الآية٦٣]

ثم ذكر صفاتهم الجليلة كقوله:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

وفي قراءة ﴿عباده﴾ وقوله:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية١]

وقوله:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣]

فالمراد بهذا النوع من قاموا بحقوق عبوديتهم له بصفة ربوبيته، وأخلصوا له الدين على اختلاف طبقاتهم.

فالعبودية الأولى: يدخل فيها البرُّ والفاجر.

والعبودية الثانية: صفة الأبرار. ولكن الفرق: أن الربوبية وصف الرب وفعله. والعبودية وصف العبيد وفعلهم.

القاعدة الثانية والثلاثون

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص، كان ذلك إثباتاً للكمال.

وذلك: أنه لا يمكن امتثال الأمر على وجه الكمال إلا بترك ضده، فحيث أمر بالتوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والعدل والإحسان، كان ناهياً عن الشرك، وعن ترك الصلاة، وترك الزكاة، وترك الصوم، وترك الحج، وعن العقوق، والقطيعة، والظلم والإساءة؛ وحيث نهى عن الشرك وترك الصلاة ـ إلى آخر المذكورات، كان آمراً بالتوحيد، وفعل الصلاة وغيرها.

وحيث أمر بالصبر والشكر، وإقبال العبد إلى الله إنابة ومحبة، وخوفاً ورجاء، كان ناهياً عن الجزع والسخط، وكفران النعم، وإعراض القلب عن الله وهلعه وجزعه وتعلقه بغير الله خوفاً ورجاء؛ وحيث نهى عن الجزع، وكفران النعم، وغفلة القلب، كان آمراً بالصبر وغيره من المذكورات.

وهذا ضرب مثل. وإلا فكل الأوامر والنواهي على هذا النمط.

وكذلك المدح لا يكون إلا بإثبات الكمالات، فحيث أثنى على نفسه، وذكر تنزُّهَهُ عن النقائص والعيوب، كالنوم والسِّنَة واللغوب، والموت، وخفاء شيء في العالم، من الأعيان والصفات وغيرها، والظلم والعبث واللعب وخلق شيء باطلاً، وأن يكون عطاؤه أو جزاؤه جزافًا بلا حكمة: فلتضمُّن ذلك الثناء عليه بكمال حياته، وكمال قيوميته، وقدرته، وسعة علمه، وكمال عدله وحكمته؛ لأن العدم المحض لا كمال فيه، حتى ينفى تكميلاً للكمال.

وكذلك إذا نفى عن كتابه الريب والاختلاف والشك، والإخبار بخلاف الواقع: كان ذلك لكمال دلالته على اليقين في جميع المطالب، واشتماله على الحق في كل الأحكام، والصدق الخالص، وانتظامه لكل ما يهدي إلى الرشد وإلى الصراط المستقيم.

وكذلك إذا نفى عن رسوله الكذب، والتقوُّلَ على الله، واتباع الهوى والغي والضلال والجنون والسحر، والشعر، ونحوها: كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وكمال عقله واستحالة كل ما يقدح في كمال نبوته ورسالته.

فتفطن لهذه القاعدة في كل ما يمر عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها، تنل خيراً كثيراً. والله أعلم.

القاعدة الثالثة والثلاثون

المرض في القرآن ــ مرض القلوب ــ نوعان: مرض شبهات وشكوك؛ ومرض شهوات وفسوق.

والطريق إلى تمييز هذا من هذا، مع ورودها في القرآن، يُدرَك من السياق.

فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين، كان هذا مرض الشكوك والشبهات؛ وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل إليها كان مرض الشهوات.

ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلاف صحته. وصحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه.

فالقلب الصحيح: هو الذي عرف الحق واتَّبعه، وعرف الباطل واجتنبه، فإن كان ما يزعمه علماً إنما هو شكوك، وعنده شبهات تعارض ما أخبر الله به في

أصول الدين وفروعه، كان علمه منحرفاً، وكان مرض قلبه على حسب ذلك قوةً وضعفاً. وإن كانت إرادته ومحبته مائلة لشيء من معاصي الله، كان ذلك انحرافًا في إرادته ومرضاً وهما متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ فلا يغلب على العبد الشهوات إلا بفساد علمه بالله وعدله وقضائه وحكمته وشرعه وجزائه. ولا يغلب عليه الشهوات إلا بفساد نفسه وغلبة شهوات الدنيا ورياستها وحظوظها على ما عند الله والدار والآخرة، ؛ وإنما قد يكون أحدهما أبرز من الأخر.

فمن النوع الأول: قوله تعالى عن المنافقين في سورة البقرة:

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠]

وهي التقاليد والشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد ﷺ

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠]

عقوبة على ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة، كلها منهم، وهم فيها غير معذورين.

ونظير هذا قوله تعالى في سورة براءة:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾
[سورة براءة ـ التوبة: الآية ١٢٥]

وكذلك قوله تعالى في سورة الحج:

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾
[سورة الحج: الآية ٥٣]

فإن مريض القلب من الشكوك وضعف العلم: أقل شيء يريبه، ويؤثر فيه، ويفتنه.

ومن الثاني: قوله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٣٢]

أي مرض شهوة، وإرادة للفجور، فالمريض بذلك: أقل شيء من أسباب الافتتان يوقعه في الفتنة، طمعاً أو فعلاً. فكل من أراد شيئاً من معاصي الله، فقلبه مريض مرض شهوة. ولو كان صحيحاً لاتَّصف بصفات الأزكياء الأبرياء الأتقياء الموصوفين بقوله في سورة الحجرات:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾

[سورة الحجرات: الآيتان ٧ و٨]

فمن كان قلبه على هذا الوصف الذي ذكره الله، فليحمده على هذه النعمة التي لا يقاومها شيء من النعم. وليسأل الله الثبات على ذلك، ويأخذ في أسباب الزيادة من فضل الله ورحمته.

القاعدة الرابعة والثلاثون

دل القرآن في عدة آيـات أن من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلي بالاشتغال بما يضره، وحرم الأمر الأول.

وذلك أنه ورد في عدة آيـات: أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل ـ بزعمهم أنهم بشر ـ ابتلوا بالانقياد لكل ما رجَّ العقل والدين. ولما عرض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه، ثم تركوه، قلب الله قلوبهم، وطبـع عليها، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم. ولما بين لهم الصراط المستقيم وزاغوا عنه اختياراً ورضىً بطريق الغي وكرهاً لطريق الهدى والرشد، عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم خاسرين في كل سعيهم.

ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهين.

ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة، لكل مبطل.

ولما منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعوا في خرابها، لم يكن لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلّا خائفين:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[سورة التوبة: الآيات ٧٥ ـ ٧٧]

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا، يخبر الله فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي الطريق المستقيم. ثم إذا تركها بعد أن عرفها، ونكص عنها بعد أن سلكها، عوقب بإبعاده في طريق ضلاله الذي ارتضاه لنفسه وترك به طريق الهدى. فالاهتداء غير ممكن في حقه ما دام سادراً في طريق غوايته ممعناً في سبيل ضلالته: جزاء على فعله. كقوله في اليهود في سورة البقرة:

﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ﴾

[سورة البقرة:الآيتان ١٠١ و ١٠٢]

فإنهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزلة من عنده لهداية العباد، وإصلاح كل شؤونهم، وإسعادهم ـ وهي خير ما يشتغل به العاقل الناصح لنفسه وأنفعها وأصدقها ـ ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها، وأضرها للعقول، وأفتكها في أفساد المجتمع. ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن، ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان.

القاعدة الخامسة والثلاثون

في القرآن عدة آيات فيها الحث على أعلى المصلحتين وتقديم أهون المفسدتين، ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته؛ وهذه قاعدة جليلة، نبه الله عليها في آيات كثيرة.

فمن الأول: المفاضلة بين الأعمال، وتقديم الأعلى منها. كقوله في سورة الحديد:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٠]

وقوله في سورة التوبة:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٩]

وكقوله في سورة النساء:

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٥]

ومن الثاني: قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٧]

بيّن تعالى أن ما نقمه الكفار على المسلمين، من قتال في الشهر الحرام، وإن كان مفسدة فما أنتم عليه من الصد عن سبيل الله والكفر به وبسبيل هداه وبالمسجد الحرام وصدكم عنه، وإخراج أهله منه: أكبر عند الله. وفتنتكم المؤمنين بشديد الأذى محاولين إرجاعهم إلى الشرك أكبر من القتال في الشهر الحرام.

وقوله في سورة الفتح: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٥]

فكفَّ الله المؤمنين عن القتال في المسجد الحرام في صلح الحديبية مع وجود المقتضى من الكفار اتقاء للمفسدة المترتبة على ذلك: من أصابة المؤمنين والمؤمنات المستضعفين الذين حبسهم المشركون بمكة عن الهجرة بأنواع من الأذى أو القتل ــ ما يكون سببًا في لحوق المعرة بجيش المؤمنين.

وكذلك جميع ما جرى في صلح الحديبية من هذا الباب: من التزام تلك الشروط التي ظاهرها ضرر على المسلمين، ولكن تبين لهم بعد أنها عين المصلحة لهم والفتح المبين.

ومن هذا: أمره بكف الأيدي عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلى المدينة، لأن الأمر بالقتال في ذلك الوقت أعظم ضرراً من الصبر والإخلاد إلى السكينة، مع متابعة تبليغ الرسالة وإقامة الحجة والجهاد الكبير بالقرآن.

ولعل من هذا مفهوم قوله في سورة الأعلى:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [سورة الأعلى: الآية ٩]

يعني: فإن ضرّت فترك التذكير الموجب للضرر الكثير هو المتعين. والآيات في هذا النوع كثيرة جداً.

ومن الثالث: قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٩]

هذا كالتعليل العام أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه، فإن رحمة الله وحكمته لا بد أن تقتضي المنع وتحريمه على عباده.

وهذا الأصل العظيم كما أنه ثابت شرعاً فإنه هو المعقول بين الناس المفطورين على استحسانه، والعمل به في الأمور الدينية والدنيوية. والله أعلم.

القاعدة السادسة والثلاثون

طريقة القرآن: إباحة الاقتصاص من المعتدي ومقابلة عدوانه بمثله، والنهي عن ظلمه، والندب إلى العفو عنه والإحسان؛ وهذا في آيات كثيرة. كقوله في سورة النحل:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٦]

وقوله في سورة الشورى:

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾
[سورة الشورى: الآية ٤٠]

فذكر المراتب الثلاث.

ولما كان القتال في المسجد الحرام محرَّماً، قال تعالى في سورة البقرة:

﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ * فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ * ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ﴾ [سورة البقرة: الآيات ١٩١ ـ ١٩٤]

وهو كل ما حرم الله وأمر باحترامه. فمن انتهكه فقد أباح الله الاقتصاص منه، بقدر ما اعتدى به لا أكثر. وقوله بعد ذلك:

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾
[سورة البقرة: الآية ١٩٤]

وقوله في سورة البقرة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٨]

وقوله في سورة المائدة:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٥]

وقوله في سورة الإسراء:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٣]

وقوله في سورة النساء:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾[سورة النساء: الآية ١٤٨]

والآيات في هذا المعنى كثيرة. والله أعلم.

القاعدة السابعة والثلاثون

اعتبر الله القصد والإرادة في ترتب الأحكام على أعمال العباد. وهذا الأصل العظيم: صرّح به النبي ﷺ في قوله: «إنما الأعمال بالنيات»

والمقصود هنا: أنه ورد آيات كثيرة جداً في هذا الأصل.

فمنها، وهو أعظمها: أنه رتب حصول الأجر العظيم على الأعمال بأرادة وجهه تعالى، لما ذكر الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس. قال في سورة النساء:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
[سورة النساء: الآية ١١٤]

وقال في سورة البقرة:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٦٥]

وفي مقابله قال: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة النساء: الآية ٣٨]

ووصف الله نبيه وخيار خلقه من الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بأنهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا. وقال في الرجعة في سورة البقرة:

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

وقال في سورة البقرة:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٥]

وقال في سورة النساء:

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾
[سورة النساء: الآية ١٢]

وقال في سورة البقرة:

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [سورة البقرة: الآية ٤]

وفي سورة النساء:

﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩]

وفي سورة البقرة:

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٠]

وفي دعاء المؤمنين في سورة البقرة:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

فقال الله: «قد فعلت»، وقال في سورة الأحزاب:

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٥]

وذكر الله قتل الخطأ ورتب عليه الدية والكفارة. ثم قال في سورة النساء:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٣]

وقال في جزاء الصيد في سورة المائدة:

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٥]

وقال في سورة البقرة:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٥]

إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أن أعمال الأبدان وأقوال اللسان، صحتها وفسادها، وترتب أجرها أو وزرها: بحسب ما قام بالقلب من القصد والنية.

القاعدة الثامنة والثلاثون

قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجاباً أو استحباباً.

وهذه قاعدة لطيفة، اعتبرها الباري وأرشد عباده إليها في عدة آيات.

منها: المطلقة. فإنها لما كانت في الغالب منكسرة القلب حزينة على فراق بعلها، أمر الله بمتعتها على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، متاعًا بالمعروف. وكذلك من مات زوجها عنها فإن من تمام جبر خاطرها: أن تمكث عند أهله سنة كاملة وصية ومتعة مرغب فيها. وكذلك أوجب الله للزوجة على الزوج النفقة والكسوة في مدة العدة، إن كانت رجيعة، أو كانت حاملة مطلقة.

وقال تعالى في سورة النساء:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [سورة النساء: الآية ٨]

ويدخل الواجب المستحب في مثل قوله في سورة الأنعام:

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤١]

وكذلك إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يتركون شيئاً منها يلتقطه الفقير، وتواصوا أن لا يدخلنها اليوم عليهم مسكين.

وقال تعالى في سورة الإسراء:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ [إلى قوله] وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾

[سورة الإسراء: الآيات ٢٣ ــ ٢٦]

وقد ذكر الله جبره لقلوب أنبيائه وأصفيائه أوقات الشدائد، وإجابته لأدعيتهم بتفريج الكربات. وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمات. فهذا أصل قد اعتبره الله، وأرشد إليه فينبغي للعبد أن يكون هذا على باله في أوقات المناسبات.

القاعدة التاسعة والثلاثون

في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية

طريقة القرآن في هذا أعلى طريقة، وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية، وإلى دفع المفاسد. ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وإخباره عن المؤمنين في سورة الشورى:

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

فالأمر مفرد ومضاف إلى المؤمنين، وفي الآية الأولى: قد دخلت عليه «ال» المفيدة للعموم والاستغراق، يعني أن جميع أمور المؤمنين وشؤونهم، واستجلاب مصالحهم، واستدفاع مضارهم: معلق بالشورى والتعاون على الاهتداء إلى الأمر الذي يجرون عليه في حل مشكلاتهم، وتدعيم سلطانهم وتجنيبهم الخلاف المفضي إلى تفكك قواهم وانحلال عراهم.

وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى.

فالمسلمون قد أرشدهم الله أن يهتدوا إلى مصالحهم وكيفية الوصول إليها بإعمال أفكارهم مجتمعة. فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه، وإذا تعينت المضرة في طريق تركوه، وإذا اشتبهت مصلحة بمضرة، نظروا: أيها أقوى، وأحسن عاقبة؟ ثم نظروا بأي شيء تدرك الأسباب، وبأي حال تنال على وجه لا يضر سلوكها.. وإذا رأوا مصالحهم تتوقف على الاستعداد بالفنون الحديثة والاختراعات الباهرة، سعوا لذلك بحسب اقتدارهم، ولم يملكهم اليأس والاتكال على غيرهم، الملقي إلى التهلكة. وإذا عرفوا ـ وقد عرفوا ـ أن السعي لاتفاق الكلمة وتوحيد الأمة هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية جدُّوا في هذا واجتهدوا؛ وإذا رأوا المصلحة في المقاومة والمهاجمة، أو في المسالمة والمدافعة بحسب الإمكان، سلكوا ما تعينت مصلحته. فيقْدِمون في موضع الإقدام، ويحجمون في موضع الإحجام.

وبالجملة لا يدعون مصلحة داخلية، ولا خارجية، دقيقة ولا جليلة إلا تشاوُروا فيها، وفي طريق تحصيلها وتنميتها، ودفع ما يضادها وينقصها.

فهذا النظام العجيب الذي أرشد إليه القرآن: هو النظام الذي يصلح لكل زمان ومكان. ولكل أمة. ومن ذلك: قوله في سورة الأنفال:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

فهذه الآية تصرح بوجوب الاستعداد للأعداء بكل ما نستطيعه من قوة

عقلية، ومعنوية ومادية، مما لا يمكن حصره؛ وفي كل وقت ولكل عدو يتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت ويناسبه. ومن ذلك قوله في سورة النساء:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

ونحوها من الآيات التي أرشد الله فيها إلى شدة التحرز من الأعداء، وأن نكون منهم أبداً على حذر في وقت السلم، فضلاً عن وقت الحرب. وأن تكون لنا العيون والأرصاد عليهم، لنعلم كل حركاتهم الحربية والعلمية، لنأخذ السبيل عليهم ونسبقهم حتى لا يكون لهم من ضعفنا وجهلنا فرصة تمكنهم منا، وأن لا نمكنهم من الاطلاع على أسرارنا الحربية ولا على مواردنا الاقتصادية، فضلاً عن تمكينهم منها، فضلاً عن أن نكون عالة عليهم فيها. فكل ذلك وغيره داخل تحت قوله:

﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

ومن عجيب ما نبه عليه القرآن من النظام الوحيد: أن الله عاتب المؤمنين بقوله في سورة آل عمران:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤]

فأرشد الله عباده إلى أنه ينبغي أن يكونوا بحالة من الحكمة واستقامة الأمور على طرقها، بحيث لا يزعزعهم عنها فقد رئيس مهما كان عظيماً. وما يكون ذلك إلا بأن يستعدوا لكل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية بعدة من القادة، متساوين أو متقاربين في قوة القيادة والدراية والحنكة والسياسة الدينية والاقتصادية والحربية، إذا فقد أحدهم قام مقامه غيره، وأن تكون الأمة متوحدة في أرادتها وعزمها ومقاصدها وشؤونها، قصدهم جميعاً: أن تكون كلمة الله هي العليا وأن تكون أمتهم ذات شوكة يرهبها العدو، فلا يستطيع أن يغتصبها بعض حقوقها المادية في أرضها ومنافعها، ولا بعض حقوقها في سيادتها وحريتها. وأن تقوم جميع الأمور بحسب قدرتهم وقواهم التي أنعم الله بها عليهم ومكنهم

بها من المحافظة التامة على حقوقهم في هذا الوجود مؤمنين أوثق الإيمان: أن الله ما استخلفهم في الأرض إلا لإصلاحها، باستثمار خيراتها واستخراج دفائنها وكنوزها، وتنمية قواهم وطاقاتهم الإنسانية بالعلم والفنون والصناعات، ومؤمنين أنه يبغض منهم أشد البغض، أن يكونوا ضعفاء أذلة عالة على غيرهم. فإن سنة الله في هذا الوجود أن الحياة العزيزة لا تكون إلا لمن أكرم نفسه، وأعزها، بحيث يكون الموت أحب إليه من أن يعيش آلاف السنين مهيناً ذليلاً، لا يعرفه الوجود إلا تابعاً قد تلاشت شخصيته وانماع في متبوعه. ولقد خلق الله من العرب الضعفاء القليلين خير أمة أخرجت للناس في كل معاني الحياة العزيزة الكريمة، حين فهموا هذا القرآن على وجهه الصحيح وآمنوا به واهتدوا بهداه.

وقال تعالى في سورة التغابن:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[سورة التغابن: الآية ١٦]

اي اتقوا الله، واحذروا شديد عقابه، بالقيام بما أمركم به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم، جماعة ومنفردين، بكل جهدكم وبكل ما أعطاكم من طاقة وقوى. فإن هذا هو حق تقواه: وأن يبذل العبد كل ما في وسعه. وليست ناسخة لآية آل عمران. بل هي مفسرة لها.

فكل مصلحة أمر الله بها ـ وهي متوقفة في حصولها أو في كمالها على أمر من الأمور السابقة واللاحقة ـ فإنه يجب على الإنسان تحصيلها بكل ما عنده من الاستطاعة. فإن الله الحكيم لا يطلب إلى عباده إلا ما آتاهم من القوى والأسباب ما يقدرهم على القيام به. ولكنهم يتوانون ويتكاسلون، فيأتيهم العجز والفشل من ذلك، وكذلك كل ما نهاهم عنه. فإنه أعطاهم من القوى والأسباب ما يمكنهم من البعد عنه، ومن الحلال ما يستغنون به. فالأمر بالتقوى أمر بأسبابها أو لازم الحق حق، والوسائل لها أحكام المقاصد.

ومن الآيات الجامعة في السياسة: قوله تعالى في سورة النساء:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨]

والآيـة التي بعدها. فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة؛ من أجلِّها: الولايات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة. الدينية والدنيوية. فقد أمر الله أن تؤدَّى إلى أهلها بأن يجعل فيها الأكفاء لها. وكل ولاية لها أكفاء مخصوصون. فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطرق لصلاح جميـع الأحوال. فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها والمدبرين لها والعاملين عليها، فيجب تولية الأمثل فالأمثل

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٦]

ولن يتم ذلك للأمة ــ على ما أرشد الله وأمر ــ إلا بأن يشعر كل واحد بالواجب عليه لنفسه وما لها وما عليها من الأمانات والواجبات عليه لأبنائه وزوجه، وخدمه ومواليه وبهائمه، وأرضه ومتجره، وكل شيء وضعه الله تحت يده واسترعاه إياه، ويقدر المسؤولية أمام الله سبحانه

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾
[سورة الشعراء: الآيتان ٨٨ و ٨٩]

فيقوم بكل ما في مكنته وجهده بهذا الواجب، غير متوان ولا متواكل. فعندئذ ــ وعندئذ فقط ــ تكون الأمة صالحة في أفرادها وأسرها وحكـامها وأمرائها. فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة وضده بضده. وأصدق البراهين على ذلك قول الله في سورة الرعد:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: الآية ١١]

فهـل آن للذين يتجنون بالشكوى من ولاة أمورهم أن يعقلوا عن الله سننه وحكمته فيعلموا أن الداء ليس في الحكام والولاة فقط، وإنما الداء في الأمة التي غفلت وغفل كل فرد فيها عن الواجب عليه فيما استرعاه الله من الرعية، وخيانته لما استأمنه الله من أمانات. وأن الولاة: إنما هم من أفراد الأمة والصورة المصغرة التي تمثل الأمة وتصورها؟ ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

ثم أرشدهم الله إلى الحكم بين الناس بالعدل الذي ما قامت السموات

والأرض إلا به. فالعدل قوام الأمور وروحها، وبفقده تفسد الأمور كلها ويختل الميزان لكل شيء.

والحكم بالعدل من لازمه: معرفة حقيقة العدل في كل أمر من الأمور، فإن فهمت الأمة حقيقة العدل وعرفت حدوده وضعت كل شيء في موضعه. وكان المتولون للولايات هم الكُمَّل من الرجال والأكفاء للأعمال، فجرت تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد متجنبين للظلم والفساد: ترقت الأمة وصلحت أحوالها، وتمام ذلك في الآية الأخرى التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور بقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

[سورة النساء: الآية ٥٩]

فهل يوجد أكمل وأعلى من هذه السياسة الحكيمة الرشيدة التي عواقبها أحمد العواقب؟

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية: جميع الآيات التي شرع الله فيها الحدود على الجرائم، والعقوبات على المتجرئين على حقوقه وحقوق عباده، وهي في غاية العدالة والحسن وردع المجرمين والنكال، والتخويف لأهل الشر والفساد وتطهير المجتمع من فسادهم وتنقيته من جراثيمهم صيانة لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم.

والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكلم بالحق مع من كان وفي أي حال من الأحوال.

وكذلك ما فيه من النهي عن الظلم فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة التي معناها التكلم بالحق والدعوة إلى الصالح للأمة.

كما أن الحدود والعقوبات، والنهي عن الكلام القبيح، والفعل القبيح فيها ردع عن الحرية الزائفة الكاذبة التي يتمشدق بها الحمقى والسفهاء الذين عموا وصموا، فلا يرون ما حل بأمم الغرب من الدمار من ثمرات هذه الحرية

الفاجرة الخاسرة؛ فإن ميزان الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد إليه القرآن والنبي ﷺ. وأما إطلاق عنان الجهل والظلم والأقوال الضارة للمجتمع، المحلّلة للأخلاق، فإنها من أكبر أسباب الشر والفساد، المؤدية إلى الفوضى المحضة وانحلال الأخلاق التي هي قوام كل أمة. فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج. ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج، فالشارع فتح الباب للأولى، وأغلقه عن الثانية، تحصيلاً للمصالح، ودفعًا للمضار والمفاسد. والله أعلم.

القاعدة الأربعون
في دلالة القرآن على أصول الطب

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحمية عن الأمور الضارة، ودفع ما يعرض للبدن من المؤذيات.

ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد.

وقد نبَّه القرآن على حفظ الصحة ودفع المؤذي في قوله من سورة الأعراف:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١]

فأمر الله بالأكل والشرب اللذين لا تستقيم الأبدان إلا بهما؛ وأطلق ذلك، ليدل على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان، وينفعه في كل وقت وحال. ونهى عن الإسراف في ذلك، إما بالزيادة في كمية المأكولات والمشروبات، وإما في كيفيتها بالتخليط في المطعوم والأوقات. وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان. فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب يصير بحالة يتأذى منه البدن ويتضرر: منع منه، فكيف بغيره؟

وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره، حمية له عن المضرات كلها.

وأباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ويفدي. وهذا من باب الاستفراغ وإزالة ما يؤذي البدن. فكيف بما ضرره أكبر من هذا؟

ونهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة. فيدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر، بتجنبه والتحرز عنه، وبمعالجة الحادث مما وقع فيه بالطرق الطبية النافعة.

وكذلك ما ذكره الله في كتابه من الأعمال كلها كالجهاد والصلاة والصوم والحج والإحسان إلى الخلق وبقية الأعمال. فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رضى الله وقربه وثوابه، والإحسان إلى عبيده، فإن فيها صحة للأبدان وتمرينًا لها، ورياضة وراحة للنفس، وفرحاً للقلب وأسراراً خاصة، تحفظ الصحة وتنميها وتزيل عنها المؤذيات.

وبالجملة، فإن جميع الشرائع ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح والأخلاق والأبدان والأموال والدنيا والآخرة، والله أعلم.

القاعدة الحادية والأربعون

يرشد الله عباده في كتابه من جهة العمل إلى قصر نظرهم على الحالة الحاضرة التي هم فيها، ومن جهة الترغيب في الأمر والترهيب من ضده إلى ما يترتب عليه من المصالح، ومن جهة النعم وتقديرها بالنظر إلى ضدها.

وهذه القاعدة الجليلة دعا إليها القرآن في آيات عديدة. وهي من أعظم ما يدل على حكمة الله، ومن أعظم ما يرقي العاملين إلى كل خير ديني ودنيوي. فإن العامل إذا اشتغل بعمله ـ الذي هو وظيفة وقته ـ قصر فكره وظاهره وباطنه عليه فينجح ويتم له الأمر بحسب حاله. وإن تشوقت نفسه إلى أعمال أخرى لم يحن وقتها بعد، شغل بها ثم استبعد حصولها، ففترت عزيمته، وانحلت همته، وصار نظره إلى الأعمال الأخرى كليلاً يُنقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه. ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه. وربما كان الثاني متوقفاً على الأول في حصوله أو تكميله، فيفوت الأول والثاني، بخلاف من جمع قلبه وقالبه، على كل عمل في وقته. فإنه إذا جاء العمل الثاني يأتيه مستعدًا له بقوة ونشاط جديدين حصلهما من نشاطه وقوته في الأول، فيتلقاه بشوق وعزيمة فيفلح فيه وينجح. وهكذا هو أبداً متجدد القوى.

ومن هذا: قوله تعالى مصرِّحاً بهذا المعنى في سورة النساء:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [سورة النساء: الآية ٧٧]

فانظر كيف حالهم الأولى وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدي. فلما لم يقبلوا موعظة الله، ضعفوا فلما جاءهم العمل الثاني ضعفوا عنه كل الضعف.

ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أُحُدٍ في قوله في سورة آل عمران:

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٤٣]

وقد كشف هذا كل الكشف قولُه تعالى في سورة النساء:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾

[سورة النساء: الآية: ٦٦]

لأن فيه تكميلاً للعمل الأول، وتثبيتاً من الله، وتمرُّناً على العمل الثاني.

ونظيره قوله تعالى في سورة التوبة:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآيات: ٧٥ ــ ٧٧]

فالله أرشد العباد أن يكونوا أبناء وقتهم، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته. ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت، فاجتمعت الهمةَ والعزيمة الصادقة عليه، وصار القيام بالعمل الأول معيناً على الثاني. وهذا المعنى في القرآن كثير.

وأما الأمور المتأخرة، فإن الله يرشد العاملين إلى ملاحظتها لتقوى هممهم على العمل المثمر للمصالح والخيرات. وهذا كالترغيب المتنوع من الله على أعمال الخير، والترهيب من أفعال الشر، بذكر عقوباتها، وثمراتها الذميمة.

فاعرف الفرق بين النظر إلى العمل الآخر الذي لم يجئ وقته، وبين النظر إلى ثواب العمل الحاضر الذي كلما فترت همة صاحبه زاد وهناً وضعفاً، وكلما اتسع أمله فيما يترتب عليه من الخيرات تجدد نشاطه، وقوي وهانت عليه مشقته. كما قال تعالى:

﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

وأما إرشاده من جهة النعم التي على العبد من الله بالنظر إلى ضدها ليعرف قدرها، ويزداد شكره لله عليها، ففي القرآن منه كثير، يذكر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام وما ترتب على ذلك من النعم. كقوله في سورة آل عمران:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

وقوله في سورة آل عمران:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

أي تهتدون إلى الزيادة من هذه الأسباب والنعم. وقوله في سورة الأنفال:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
[سورة الأنفال: الآية ٢٦]

وقوله في سورة القصص:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

[سورة القصص: الآية ٧١ وما بعدها]

حيث يذكرهم أن ينظروا ضد ما هم فيه من النعم والخير، ليعرفوا قدر ما هم فيه منها.

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ حيث قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم. ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فأنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» وقوله تعالى:

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٦٩]

وقوله:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ *﴾

إلى آخرها. [سورة الضحى: الآيات ٦ والتالي لها]

القاعدة الثانية والأربعون

قد ميَّز الله في كتابه بين حقه الخاص، وحق رسوله الخاص، والحق المشترك، وأعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة: حق لله وحده، لا يكون لغيره، وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات، وحق خاص لرسوله ﷺ وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق واتباعه والاقتداء به، وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله وطاعة رسوله ومحبة الله ومحبة رسوله.

وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن.

فأما حقه الخاص فكل آية فيها الأمر بعبادته وإخلاص العمل لـه، والترهيب من ضد ذلك. وهذا شيء لا يحصى. وقد جمع الله ذلك في قوله في سورة الفتح:

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [سورة الفتح: الآية ٩]

فهذا مشترك

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [سورة الفتح: الآية ٩]

فهذا خاص بالرسول

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [سورة الفتح: الآية ٩]

فهذا حق لله وحده. وقوله:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

في آيات كثيرة وكذلك:

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٦]

وكذلك قوله في سورة التوبة:

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٢]

وقوله تعالى:

﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [سورة التوبة: الآية ٥٩]

فهذا مشترك:

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٥٩]

هذا مختص بالله تعالى.

ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه أن ما لله منه يثبت لرسوله مثله ونظيره في كل خصائصه، بل المحبة والإيمان والطاعة لله لا بد أن يصحبها التعبد والتعظيم لله والخضوع رغبة ورهبة.

وأما المتعلق بالرسول من ذلك: فإنه حب في الله، وطاعة لله فمن أطاع

الرسول فقد أطاع الله، بل حق الرسول على أمته من حق الله تعالى عليهم. فيقوم المؤمن بحق رسوله وطاعته امتثالاً لأمر الله، وعبودية له.

وإنما قيل له حق الرسول: لتعلقه بالرسول، وإلا فجميع ما أمر الله به وحث عليه من القيام بحقوق رسوله، وحقوق الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب والجيران والعلماء والولاة والأمراء والكبير على الصغير والصغير على الكبير وغيرهم، كله حق لله تعالى. فيقوم به العبد امتثالاً لأمر الله وتعبداً له، وقياماً بحق ذي الحق، وإحساناً إليه. إلا الرسول فإن الإحسان منه كله إلى أمته. فما وصل إليهم خير إلا على يديه ﷺ تسليماً.

القاعدة الثالثة والأربعون

يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يُخشى من سوء عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يُخشى فواتها.

وهذه القاعدة في القرآن كثيرة.

قال تعالى في القسم الأول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾

[سورة النساء: الآية ٩٤]

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾

[سورة الحجرات: الآية ٦]

وفي قراءة (فتثبتوا) فيهما. وقد عاب الله المتسرعين إلى إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها، وأن ذلك من اتباع خطوات الشيطان. فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٣]

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٩]

ومن هذا الباب: الأمر بالمشاورة في الأمور، وأخذ الحذر، وأن لا يقول الإنسان ما ليس له به علم. وفي هذا آيات كثيرة.

وأما القسم الثاني: فقوله:

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٣]

الآيات؛ وقوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٨]

وقوله:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١]

وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ١٠]

أي السابقون في الدنيا إلى الخيرات: هم السابقون في الآخرة إلى الجنات والكرامات. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وهذا الكمال الذي أرشد الله عباده إليه: هو أن يكونوا حازمين لا يفوتون فرص الخيرات. وأن يكونوا متثبتين خشية الوقوع في المكروهات والمضرات.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

القاعدة الرابعة والأربعون

عند ميل النفوس أو خوف ميلها إلى ما لا ينبغي: يذكِّرها الله ما يفوتها من الخير، وما يحصل لها من الضرر بهذا الميل.

وهذا في القرآن كثير. وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة، لأن الأمر والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفِّهم عما لا ينبغي، حتى يقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد ثمراتها الطيبة أضعافاً مضاعفة على الذي

يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك.
قال تعالى:

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٨]

فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر نفوس الخلق عن طريق الاستقامة، قال مذكراً لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٨].

وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾
[سورة النساء: الآية ١٠٩]

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٠]

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآيات ٢٠٥ ـ ٢٠٧]

والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً، فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل ما يرد منها على الأصل المقرر. والله أعلم.

القاعدة الخامسة والأربعون

حثُّ الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح

وهذه القاعدة من أهم القواعد. فإن القرآن كله لهذا المقصد نزل.

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذي سنَّه الله، مقصوداً بها غاياتها الحميدة التي قصد الله إليها. فأمر الله بالأعمال الصالحة، وأثنى على الصالحين. لأن أعمال الخير تصلح القلوب والإيمان،

وتصلح الدين والدنيا والآخرة. وضدها فساد هذه الأشياء. وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين لما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس؛ وأخبر على وجه العموم أن الصلح خير.

فإصلاح الأمور الفاسدة: هو السعي في إزالة ما تحتوي عليه وتنتجه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين في إصلاح دينهم ودنياهم. كما قال شعيب ﷺ: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت»؛ فكل ساع في مصلحةٍ دينية أو دنيوية، فإنه مصلح. والله يهديه ويرشده ويسدده. وكل ساع بضد ذلك فهو مفسد. والله لا يصلح عمل المفسدين.

ومن أهم ما حث الله عليه: السعي في الصلح بين المتنازعين، كما أمر الله بذلك في الدماء والأموال، والحقوق المتنازع عليها بين الزوجين. والواجب أن يصلح بالعدل ويسلك كل طريق توصل إلى الملاءمة بين المتنازعين. فإن آثار الصلح بركة وخير وصلاح، حتى أن الله أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إلى المسالمة والمصالحة: أن يوافقوهم على ذلك متوكلين على الله. وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر.

وحقيقتها: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أو تكميلها، أو إزالة المفاسد والمضار أو تقليلها: الكلية منها والجزئية، المتعدية والقاصرة. والله أعلم.

القاعدة السادسة والأربعون

ما أمر الله به في كتابه: إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه؛ فهذا أمر له بالدخول فيه. وإما أن يوجه لمن دخل فيه؛ فهذا أمره به ليصحح ما وجد عنده منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه.

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية: أصولها وفروعها.

فقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ [سورة النساء: الآية ٤٧]

من القسم الأول. وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٦]

من الثاني والثالث. فإنه أمرهم بما يصحح ويكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكمال الإخلاص فيها؛ ونهاهم عما يفسدها وينقصها. وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويصوموا رمضان أمر بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل. ونهى عن كل مفسد وناقص لذلك العمل.

وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمر بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم، مع أن الله قد هداهم للإسلام. جوابه: ما تضمنته هذه القاعدة.

ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل. فافهم هذا الأصل الجليل النافع، الذي يفتح لك أبواب العلم كنوزاً، وهو في غاية اليسر والوضوح لمن تفطن.

القاعدة السابعة والأربعون

إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها وذلك الحكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل غيرها: جاء الله بالحكم العام.

وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل على إحكامه وانتظامه العجيب. وأمثلة هذه القاعدة كثيرة.

منها: لما ذكر الله المنافقين وذمهم، استثنى منهم التائبين فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٦]

فلما أراد أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، بل قال:

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٦]

ليحضهم على المسارعة إلى التوبة وإخلاص الإيمان ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم.

ولما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ـ إلى قوله ـ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [سورة النساء: الآيتان ١٥٠ و١٥١]

ولم يقل: وأعتدنا لهم، للحكمة التي ذكرناها.

ومثله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ٦٤]

ـ أي هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها ـ

﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٦٤].

القاعدة الثامنة والأربعون

متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها، كان المراد بذلك: العلم الذي يترتب عليه الجزاء. وذلك: أنه قد تقرر في الكتاب والسنّة والإجماع أن الله بكل شيء عليم. وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي، والظواهر والبواطن، والجليات والخفيات، والماضي والمستقبل؛ وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا. وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع وقدر كذا: ليعلم كذا.

فوجه هذا: أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

وأما علمه بأعمال العباد، وما هم عاملون قبل أن يعملوا: فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء لأنه إنما يجازي على ما وجد من الأعمال.

وعلى هذا الأصل نزل ما يرد عليك من الآيات كقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٤]

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٥]

وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١١]

وقوله:

﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٢]

وما أشبه هذه الآيات، كلها على هذا الأصل.

القاعدة التاسعة والأربعون

إذا منع الله عباده المؤمنين شيئاً تتعلق به إرادتهم، فتح لهم باباً أنفع لهم منه، وأسهل وأولى.

وهذا من لطفه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [سورة النساء: الآية ٣٢]

فنهاهم عن تمني ما ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان المقال، وبلسان الحال.

ولما سأل موسى عليه السلام ربه الرؤية حين سمع كلامه، ومنعه منها، سلاه بما أعطاه من الخير العظيم. فقال:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٤]

وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٦]

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٠]

وفي هذا المعنى آيات كثيرة.

القاعدة الخمسون

آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها.

وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه، فليست آيات. وإنما هي تعنتات وتعجيزات.

وبهذا يعرف الفرق بينها وبين الآيات. وهي البراهين والأدلة على صدق الرسول وغيره من الرسل. وعلى صدق كل ما أخبر الله به، وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم من فهمها على وجهها صدق ما دلت عليه ويقينه.

وبهذا المعنى الحديث «ما أرسل الله من رسول إلا أعطاه من الآيات ما على مثله آمن البشر». وأما ما آتى الله محمداً ﷺ من الآيات فهي لا تحدُّ ولا تعد من كثرتها، وقوتها ووضوحها، ولله الحمد. فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر.

فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل.

وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطنوا أنفسهم على دينهم الباطل وعدم اتباع النبي ﷺ. فلما دعاهم إلى الإيمان وأراهم شواهد الآيات أرادوا أن يبرروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء، بقولهم: ائتنا بالآية الفلانية، والآية الفلانية، إن كنت صادقاً. فهذه طريقة لا يرتضيها أدنى منصف. ولهذا يخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا لم يؤمنوا لأنهم وطنوا أنفسهم على الرضا بدينهم بعد ما عرفوا الحق ورفضوه.

وأيضاً فهذا من جهلهم في الحال والمآل.

أما الحال: فإن هذه الآيات التي يقترحونها جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق. فإذا جاءت ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم أظهروا أنهم جزموا جزماً لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا. وهذا قلب للحقائق، وإخبار بغير الذي في قلوبهم. فلو جاءتهم كل آية اقترحوها لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالى.

وهذا النوع ذكره الله في كتابه عن المكذبين في آيات كثيرة جداً. كقولهم:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٠]

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١١]

وأيضاً فإن اقتراحهم هذا ينادي صريحاً بأنهم ينسبون إلى الله العجز والعبث، إذ أنه أرسل رسولاً لم يؤيده بالآيات الكافية في الدلالة على صدقه، ولم يعطه من البراهين والحجج ما يبطل دعاوي خصمه. وهذا ينافي الحكمة، ولا يتفق مع الغرض الذي من أجله أرسل الله رسوله. وهذا أعظم كفر، وإجرام أشد من شركهم وفسوقهم. وما كان يتولى كبره منهم إلا السادة والرؤساء الذين تبين لهم صدق الرسول بدون أي خفاء. ولكنهم يحاولون بذلك صرف العامة والدهماء عن الاستماع إليه والإصغاء إلى قوله. ولذلك يدمغهم

الله بميسم الخزي عقب كل تحد واقتراح لآية، بعد أن ينزه نفسه سبحانه عما ينتقصونه به.

ففي سورة الإسراء يقول عقب سرد ما اقترحوا من آيات:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٣]

ثم يقول: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٧]

ويقول في سورة العنكبوت:

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآيات ٤٧ ـ ٥٢].

وأيضاً إذا تدبرت الاقتراحات التي عينوها لم تجدها في الحقيقة من جنس البراهين، وإنما هي ـ لو فرض الإتيان بها ـ شبيهة بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها، ويصير شهادة. وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب. فكما أن الله المنفرد بالحكم بين العباد في أديانهم، وحقوقهم، وأنه لا حكم إلا حكمه، وأنه من قال ينبغي أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا فهو متجرئ على الله، متوثب على حرمات الله، وأحكامه: فكذلك براهين أحكامه لا يتولاها إلا هو. فمن اقترح شيئاً من عنده فقد ادعى مشاركة الرب في حكمه، ومنازعته في الطرق التي يهدي ويرشد بها عباده:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ . . . وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾
[سورة الأنعام: الآية ٩٣]

القاعدة الحادية والخمسون

كل ما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير الله والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة، ودعاء العبادة وهذه قاعدة نافعة. فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط. ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء.

وهذا خطأ جَرَّهم إلى ما هو شر منه. فإن الآيات صريحة في شموله لدعاء المسألة والعبادة. ويدل على عموم ذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]

أي أستجب طلبكم، وأتقبل عملكم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]

فسمى ذلك عبادة. وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب سؤله بلسان المقال. والعابد يطلب من ربه القبول والثواب، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال.

فلو سألت أي عابد مؤمن: ما قصدك بصلاتك وصيامك وحجك وأدائك لحقوق الله وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقاً قبل أن يجيبك لسانه: بأن قصدي من ذلك رضى ربي، ونيل ثوابه، والسلامة من عقابه: ولهذا كانت النية شرطاً لصحة الأعمال وقبولها، وإثمارها الثمرة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة غافر: الآية ١٤]

فوضع كلمة «الدين» موضع كلمة «العبادة» ــ وهو في القرآن كثير

جداً ـ : يدل على أن الدعاء هو لب الدين وروح العبادة. ومعنى الآية هنا: أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم، وأخلصوا له أعمال البر والطاعة.

وقد يقيد أحياناً بدعاء الطلب، كقوله:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [سورة القمر: الآية ١٠]

وأما قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [سورة يونس: الآية ١٢]

فيدخل فيه دعاء الطلب، فإنه لا يزال ملحًّا بلسانه، سائلاً دفع ضرورته. ويدخل فيه دعاء العبادة، فإن قلبه في هذه الحال يكون راجياً طامعاً، منقطعاً عن غير الله، عالماً أنه لا يكشف ما به من السوء إلا الله. وهذا دعاء عبادة.

وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٥]

يدخل فيه الأمران. فكما أن من كمال دعاء الطلب: كثرة التضرع والإلحاح، وإظهار الفقر والمسكنة، وإخفاء ذلك وإخلاصه، فكذلك دعاء العبادة فإن العبادة لا تتم ولا تكمل إلا بالمداومة عليها ومقارنة الخشوع والخضوع لها وإخفائها، وإخلاصها لله تعالى.

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٠]

فإن الرغبة والرهبة وصف لهم كلما طلبوا وسألوا. ووصف لهم كلما تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقرب.

وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢١٣]

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧]

﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن: الآية ١٨]

يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

فكما أن من طلب من غير الله حاجة لا يقدر عليها إلا الله فهو مشرك كافر، فكذلك من عبد مع الله غيره فهو مشرك كافر. ومثله:

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة يونس: الآية ١٠٦]

كل هذا يدخل فيه الأمران.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٨٠]

يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة. أما دعاء المسألة فإنه يسأل الله تعالى في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب، ويقتضيه. فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم. ومن سأل الرزق سأله باسم الرزاق. وهكذا.

وأما دعاء العبادة فهو التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى، فيفهم أولاً معنى ذلك الاسم الكريم، ثم يديم استحضاره بقلبه، حتى يمتلئ قلبه منه. فالأسماء الدالَّة على العظمة والجلال والكبرياء، تملأ القلب تعظيماً وإجلالاً لله تعالى. والأسماء الدالَّة على الرحمة والفضل والإحسان تملأ القلب طمعاً في فضل الله ورجاء لروحه ورحمته. والأسماء الدالة على الود والحب والكمال تملأ القلب محبة وودًّا وتألُّهًا وإنابة لله تعالى. والأسماء الدالَّة على سعة علمه ولطيف خُبره توجب للعبد مراقبة الله تعالى والحياء منه.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة. وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية.

فنسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين.

القاعدة الثانية والخمسون

إذا وضح الحق وبان لم يبق للمعارضة العلمية ولا العملية محل.

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية. قد وردت في القرآن وأرشد إليها في مواضع كثيرة.

وذلك: أنه من المعلوم أن محل المعارضات، وموضع الاستشكالات، وموضع التوقفات، ووقت المشاورات هو إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور. لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح. فإذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واحداً واضحاً، وقد تعينت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث. والمعارض هنا لا يُلتفَت إلى اعتراضاته، لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات؛ قال تعالى:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦]

يعني وإذا تبين هذا من هذا لم يبق للإكراه محل، لأن الإكراه إنما يكون على أمر فيه مصلحة خفية. فأما أمر قد اتضح أن مصالح وسعادة الدارين مربوطة ومتعلقة به، فأي داع للإكراه فيه؟

ونظير هذا قوله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾
[سورة الكهف: الآية ٢٩]

أي هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقيته: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. كقوله:

﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾
[سورة الأنفال: الآية ٤٢]

وقال تعالى:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

أي في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة، ويطلب فيها وجه المصلحة. فأما أمر تعينت مصلحته، وظهر وجوبه فقال فيه فإذا عزمت فتوكل على الله.

وقد كشف الله هذا المعنى غاية الكشف، في قوله:

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦]

أي فكل من جادل في الحق بعد ما تبين علمه، أو طريق علمه، فإنه غالط شرعاً وعقلاً. وقال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٩]

فلامهم على عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وذكر السبب لهذا اللوم. وهو أنه تعالى فصّل لعباده كلَّ ما حرم عليهم. فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل.

ولما ذكر تعالى الآيات الدالة على وجوب الإيمان، وبّخ ولام المتوقفين عنه بعد البيان، فقال:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾
[سورة الانشقاق: الآيتان ٢٠ و ٢١]

ولما بين جلال القرآن وأنه أعلى الكلام، وأوضحه بيانًا وأصدقه وأنفعه ثمرة، قال تعالى:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٦]

ولما ذكر عظيم نعمه الظاهرة والباطنة قال تعالى:

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٥٥]

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [سورة الرحمن: الآية ١٦]

وقال تعالى:

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٢]

وكذلك في آيات كثيرة يأمر بمجادلة المكذبين، ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحق التام وإزالة الشُّبَهِ كلها انتقل من مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً.

القاعدة الثالثة والخمسون

من قواعد القرآن: أن يبين الأجر والثواب على قدر المشقة في الطاعة والعبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من مننه، وأحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئاً.

وهذه القاعدة تبين من لطف الله وإحسانه بالعباد، وحكمته الواسعة ما هو أثر عظيم من آثار فضله ونفحة من نفحاته. المشقات بالنسبة إلى ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشيء، بل هي خيرٌ محض، وإحسانٌ صِرف من الله على عباده، حيث قيض لهم هذه العبادات التي توصلهم إلى منازل من العز والكرامة في الدنيا والآخرة، لولاها لم يكونوا واصلين إليها. وقال تعالى:

﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

وقال:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

[سورة البقرة: الآيتان ١٥٥ و ١٥٦]

وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٠]

فكلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها، وفي الصبر على المصيبات لشدة وقعها، كان الأجر أعظم والثواب أكبر.

وقال تعالى في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [سورة الأنفال: الآيتان ١١ و١٢]

فذكر منته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي يَسَّر بها العبادة، مزيلة، محصلة لثمراتها.

وقال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾
[سورة يونس: الآيات ٦٢ ــ ٦٤]

فالبشرى التي وعد الله بها أولياءه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها: أن ييسر لهم العبادات، ويهون عليهم مشقة القربات، وأن ييسرهم للخير، ويجنبهم الشر بأيسر عمل. قال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾
[سورة الليل: الآيات ٥ ــ ٧]

أي لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾
[سورة النحل: الآية ٩٧]

ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها: ذوق حلاوة الطاعات، واستعذاب المشقات في رضى الله تعالى.

فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن. إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حمد الله وشكره، وإن قامت العقبات صبر في اقتحامها واحتسب الخير في عنائه وجهاده، ورجا عظيم الثواب.

وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة. والله أعلم.

القاعدة الرابعة والخمسون

كثيراً ما ينفي الله الشيء وإن كانت صورته موجودة: لعدم وجود فائدته وثمرته المقصودة منه.

وذلك أن الله خلق الإنسان وركب فيه القوى: من السمع والبصر، والفؤاد وغيرها، ليعرف بها ربه، ويقوم بحقه. فهذا المقصود منها، وباستعمالها محررة من قيود التقليد ــ في التأمل والتفكر في آيات الله وسننه التي لا تبديل لها يتحقق لصاحبها ما خلقت له فتنمو وتكمل ويكمل صاحبها. وبفقد ذلك يكون وجودها أضر على الإنسان من عدمها. فإنها حجة الله على عباده ونعمته التي توجد بها مصالح الدين والدنيا. فأما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها، أو تكون محنة وحجة على صاحبها إذا استعملها في غير ما خلقت له. ولهذا كثيراً ما ينفي الله هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكافرين بها المكبلين بسلاسل وأغلال التقليد الأعمى للآباء والسادة والرؤساء، المنسلخين من آيات الله. وإن تسموا بأسماء إسلامية ولبسوا ثيابًا وألقاباً علمية، فهم المعنيون في كلام الله بوصف الكفار والمنافقين. كقوله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ

ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۞ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

[سورة البقرة: الآيتان ١٧٠ ــ ١٧١]

﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٣]

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٧]

وقال في سورة الأعراف:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢]

وهذه آيات ربوبيته واضحة ناطقة فيكم، وفي تكوينكم في أصلاب آبائكم وأرحام أمهاتكم وإخراجكم منها بشرًا سويًا، وتسخير ما في السموات وما في الأرض جميعاً لكم ــ ثم ساق الآيات في عاقبة غفلة الإنسان عن تلك الآيات. وبين سبب هذه الغفلة بقوله:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٧٥]

أي ألقاها وخلعها كارهاً لها

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٦]

فما أعطيناها له إلَّا ليتفكر بها في خلق الله وحكمته، فيرتفع على درجات الكمال. ولكنه أخلد إلى أرض البهيمية رضىً بالتقليد الأعمى الذي هو من خصائص الأنعام؛ ثم ختمها بسوء عاقبة هذا المنسلخ المقلد بقوله:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٧٩]

فأخبر أن صور الحواس الحيوانية موجودة ولكن فوائدها الإنسانية مفقودة ولذلك قال:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾

[سورة الحج: الآية ٤٦]

وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾

[سورة النمل: الآيتان ٨٠ و ٨١]

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا﴾

[سورة النساء: الآيتان ١٥٠ و ١٥١]

فأثبت لهم الكفر من كل وجه. لأن دعواهم الإيمان بما يقولون آمنا به من الكتب والرسل لم يوجب لهم الدخول في حقيقة الإيمان، لأن ثمرة إيمانهم مفقودة، حيث كذبوهم في صحة رسالة محمد ﷺ وغيره ممن كفروا به. وحيث أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم مما أثبتوا به رسالة من زعموا الإيمان به، وكذلك قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾

[سورة البقرة: الآية ٨]

لما كان الإيمان النافع هو الذي يُغرس في قلب سليم من الجهل والشكوك والشبهات والتقاليد ويُسقى بعصارة تدبر آيات الله الكونية والقرآنية فيثمر في القلب والجوارح أطيب الثمرات من العبادة والطاعة، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، نفي عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته.

ويشبه هذا: ترتيب الباري كثيراً من الواجبات والفروض على الإيمان. كقوله:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٢٢]

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٣]

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤١]

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [سورة الأنفال: الآيات ٢ ـ ٤]

وذلك أن الإيمان الصادق يقتضي صدق العقيدة وأداء الفرائض والواجبات، واجتناب الشرك والمحرمات. فما لم يحصل ذلك فهو بعد لم يتم ولم يتحقق، ولهذا قال:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤]

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٠١]

ونظير ذلك: قول موسى عليه السلام لما قال له بنو إسرائيل:

﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾
[سورة البقرة: الآية ٦٧]

فإذا كان فقد العلم جهل قبيح ففقد العمل به جهل أقبح وأشنع.

القاعدة الخامسة والخمسون

يكتب الله للعبد عمله الذي باشره، ويُكَمِّل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله قهراً عنه، ويكتب له آثار عمله. فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن.

أما الأعمال التي باشرها العبد: فأكثر من أن تحصى النصوص فيها. كقوله:

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥]

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [سورة يونس: الآية ٤١]

ونحو ذلك.

أما الأعمال التي عجز العبد عن تكميلها: فكقوله تعالى:

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٠]

فهذا خرج قاصداً إلى الهجرة، وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأتم الله له ما قصد إليه وأعطاه أجره. فكل من شرع في عمل من أعمال الخير، ثم عجز عن إتمامه بما هو فوق طاقته ــ وكان من نيته إكماله ــ فقد وقع أجره على الله. فإنما الأعمال بالنيات. وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩]

فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه، سواء كمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.

وأما آثار أعمال العبد: فقد قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ [أي باشروا عمله] وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [سورة يس: الآية ١٢]

التي ترتبت على أعمالهم من خير وشر في الدنيا والآخرة. وقال في المجاهدين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

[سورة التوبة: الآية ١٢٠]

فكل هذه الأمور من آثار عملهم. ثم ذكر أعمالهم التي باشروها بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢١]

والأعمال التي هي من آثار عمل العبد نوعان.

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان؛ كأن يعمل أعمالاً صالحة خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله. وكمن يتزوج بقصد الإعفاف فقط، فيعطيه الله أولاداً صالحين ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني: وهو أشرف النوعين: أن يقع ذلك بقصده، كمن علَّم غيره علماً نافعاً، فنفس تعليمه ومباشرته له من أجل الأعمال. ثم ما حصل من العلم والخير المترتب على ذلك، فإنه من آثار عمله. وكمن يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوج للعفة ولحصول الذرية الصالحة، فيحصل مراده، فإنه من آثار عمله؛ وكذلك من يزرع زرعاً أو يغرس غرساً، أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمر دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع له ولغيره. فما

ترتب من نفع على هذا العمل، فإنه من آثار عمله. وإن كان يأخذ على عمله أجراً وعوضاً. فإن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه، وراميه، والممدّ به.

القاعدة السادسة والخمسون

يرشد القرآن المسلمين إلى أقامة جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة، من يقدر على القيام بها، وليوفر وقته عليها؛ لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعاً واحدة.

وهذه من القواعد الجليلة، ومن السياسة الشرعية الحكيمة. فإن كثيراً من المصالح العامة الكلية لا يمكن أن يشتغل الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها. فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه. قال تعالى في الجهاد والعلم، اللذين هما من أعظم مصالح الدين، :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ [سورة التوبة :الآية ١٢٢]

فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية، وبالعلم طائفة أخرى. وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت. وقال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٤]

وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

وقال: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقال تعالى:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها. لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، وأن يكون سائراً في جميع أعماله إليها. فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم، وصلحت أمورهم، وانجابت عنهم شرور كثيرة. فالله المستعان.

القاعدة السابعة والخمسون

في كيفية الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيها على التوحيد والمطالب العالية.

قد دعا الله عباده إلى التفكر في هذه المخلوقات في آيات كثيرة، وأثنى على المتفكرين فيها. وأخبر أن فيها آيات وعبراً نحن محتاجون إلى فهمها ومعرفة ما فيها لمصالح ديننا ودنيانا. فينبغي لنا أن نسلك هذا الطريق المنتج للمطلوب بأيسر وأوضح ما يكون.

وحاصل ذلك على وجه الإجمال: أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم، عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه ــ هذا أمر بديهي ــ فتيقَّنَّا أن الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، الكامل القدرة العظيم السلطان، الواسع العلم، وأن إعادتنا في النشأة الثانية للجزاء أسهل عليه من نشأتنا الدنيوية بكثير

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾

[سورة غافر: الآية ٥٧]

وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم.

وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع عرفنا بذلك كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه، وعرفنا من آثار حكمته فينا وفي هذا الوجود أنه ما خلقنا لهذه الحياة قصداً وإنما خلقنالنستعدَّ فيها للنشأة الأخرى.

وأذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تحصى، عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل والبر والإحسان، والجود والامتنان. وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات فإن ذلك دالٌّ على إرادة الله ونفوذ مشيئته، ونعرف بذلك كله أن مَنْ هذه أوصافه، وهذا شأنه: هو الذي لا يستحق العبادة أحد سواه. وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلاّ إليه. ولا ينبغي صرف خالص الدعاء إلا له. لأن غيره من المخلوقات المربوبات مفتقرات إليه وحده في جميع شؤونها.

ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خلقت لمصالحنا، وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها وموادها وأرواحها قد مكن الله الآدميين من استخراج أصناف المنافع منها: عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة، من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها... فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه في استخراج ما يصلح أحوالنا منها، بحسب القدرة؛ ولم نخلد إلى الكسل والبطالة، أو نزعم أن علم هذه الأمور واستخراجها علوم باطلة، بحجة أن الكفار سبقونا إليها، وفاقونا فيها. فإنها كلها ــ كما نبَّه الله ــ داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأنه يعلّم الإنسان ما لم يعلم.

القاعدة الثامنة والخمسون

إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة قرن بهم الناقصين فيها من المستعدين للكمال، وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن.

منها: لما أراد الله إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم، وعلَّمه أسماء كل شيء، ثم امتحن الملائكة، فعجزوا عن معرفتها، فحينئذ نبأهم آدم بها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير أرى الملك تلك الرؤيا، وعرضها على كل من له علم بها ومعرفة فعجزوا عن معرفتها. ثم

بعد ذلك عبرها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

ولما عارض فرعون الآيات التي أرسل بها موسى، وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه.. فجمع كل سحار عليم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم، وألقى السحرة عصيهم وحبالهم في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السحر:

﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١١٦]

فحينئذ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيهم فظهرت هذه الآية الكبرى. وكان السحرة أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهراً وباطناً.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ، وتمالأ عليه أعداؤه، ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به، نصره الله ذلك النصر العجيب. فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوه الشديد حَرَده، القويّ مكره، الذي جمع كل كيده ليوقع به أشد الأخذات وأعظم النكبات، وتخلصه وانفراج الأمر له: من أعظم أنواع النصر. كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض. فقال:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[سورة التوبة: الآية ٤٠]

وقريب من هذا: نصره له يوم حنين، حيث أعجب المسلمين كثرتُهم، فلم تغن عنهم شيئاً. وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولَّوْا مدبرين. وثبَّت الله نبيه ﷺ، فأنزل عليه سكينته ونصره في هذه الحال الحرجة، فكان لهذا

النصر من الموقع الكبير ما لا يعبر عنه. وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتد البأس، وكاد أن يستولي على النفوس اليأس، أنزل الله فَرَجَه ونصره ليكون لذلك موقع في القلوب وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب.

ويقارب هذا: إنزاله الغيث على العباد، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم مبلسين، فيحصل من آثار نعمة الله، والاستبشار بفضله، ما يملأ القلوب حمداً وشكراً، وثناء على الباري تعالى. وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدها، كقوله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٤٦]

وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة القصص: الآيات ٧١ ــ ٧٣]

ونلمح مثل هذا المعنى في قصة يعقوب وبنيه، حين اشتدت بهم الأزمة ودخلوا على يوسف، وقالوا:

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٨]

ثم بعد قليل قال:

﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٩٩]

في تلك النعمة الواسعة والعيش الرغيد والعز المكين، والجاه العريض فتبارك من لا يدرك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل.

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يذكِّر عباده أثناء المصائب ما يقابلها من النعم، لئلا تسترسل النفوس في الجزع؛ فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب، وهان عليها حملها، كما ذكر الله المؤمنين حين أصيبوا بأُحُدٍ: ما أصابوا من المشركين ببدر. فقال:

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٥]

وكذلك يبشر الله عبده بالمخرج من المصائب قبل أن تقلع عنه، ليكون هذا الرجاء مخففاً لما نزل به من البلاء. قال تعالى:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾
[سورة يوسف: الآية ١٥]

وكذلك رؤيا يوسف كان يعقوب إذا تذكرها هب على قلبه نسيم الرجاء ولهذا قال:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ ﴾
[سورة يوسف: الآية ٨٦]

وكذلك قوله لأم موسى في سورة القصص:

﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [سورة القصص: الآية ٧]

وأعم من هذا كله: وعد الله لرسله بتمام الأمر وبالنصر وحسن العاقبة كان يهون عليهم به المشقات، ويسهل عليهم الكريهات، فيتلقوها بقلوب مطمئنة وصدور منشرحة. وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

القاعدة التاسعة والخمسون

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩].

ما أعظم هذه القاعدة، وما أحكم هذا الأصل العظيم الذي نصَّ نصًّا صريحاً على عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدى بحالة من الأحوال. فكل حالة هي أقوم: في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات الكبار، والصغار، والصناعات، والأعمال الدينية، والدنيوية.. فإن القرآن يهدي لها ويرشد إليها، ويأمر بها، ويحث عليها.

ومعنى «أقوم» أي أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة، وأعظم قياماً وصلاحاً للأمور.

فأما عقائد القرآن: فإنها هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب، وحياتها، وكمالها. فإنها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل لمخلوق مثلها، وشرَّفها بتخصصها لمحبة الله تعظيماً له وتألهاً وتعبداً وإنابة. وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلقَ لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعو إليها، فإنه يدعو إلى التحلي بكل خلق جميل: من الصبر، والحلم، والعفو، والأدب، وحسن الخلق مع الله، ومع الخلق، وجميع مكارم الأخلاق. ويحث عليها بكل طريق يؤلف القلوب، ويجمع المتفرق.

وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها، فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله، وحقوق عباده على أكمل الحالات وأجلها وأسهلها، وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية. فهو يرشد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد، والمصالح الكلية، وفي دفع المفاسد. ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته والعمل بما تقضيه المصلحة في كل وقت، بما يناسب ذلك الوقت والحال، حتى في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله، وخادمه،

وأصحابه، ومعامليه؛ فكل مصلحة يتفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها، فإن القرآن يرشد إليها نصًا أو ظاهراً، أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية.

وتفصيل هذا الأصل لا يمكن استيفاؤه في هذه القواعد الإجمالية، فكل التفاصيل الواردة في الكتاب والسنّة، وما تقتضيه المصالح تفصيل لهذا الأصل المحيط.

وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنى نافع، أو طريق صلاح يحرِّمه القرآن. والله ولي الإحسان.

القاعدة الستون

من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه، أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها. وأن الأمور المهمة يتنقل في تقريرها نفياً وإثباتاً من درجة إلى أعلى أو أنزل منها.

وهذه قاعدة نافعة. فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتتقرر فيه المطالب المهمة. وذلك أن القصة إذا أجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة، ثم يقع التفصيل لذلك الأجمال: يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل، الذي لا يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صورة إجمالية لها. فإن الصورة تشوق إلى التفصيل.

وقد ورد هذا في القرآن في مواضع.

في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣]

ثم أخذ في تفصيلها:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧]

ثم ساق القصة بتمامها.

وكذلك قصة أهل الكهف، قال في تصويرها الجملي:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [سورة الكهف: الآيات ٩ ــ ١٢]

فهذه الكلمات القليلة قد حوت مقصودها وزبدتها. ثم بسطها بقوله:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [سورة الكهف: الآية ١٣]

الآيات إلى آخر القصة

وكذلك قصة موسى، قال:

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ [إلى قوله] يَحْذَرُونَ﴾ [سورة القصص: الآيات ٣ ــ ٦]

ثم أتى بعد ذلك بالتفصيل.

وقال في قصة آدم:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٥]

ثم أتى بعد ذلك بالقصة.

وأما التنقل في تقرير الأشياء من أمر إلى ما هو أولى منه فكثير.

منه: قوله تعالى في الإنكار على من جعل مع الله إلهاً آخر، وإبطال زعمه الكاذب الذي هو أساس الوثنية: أن هؤلاء الأولياء والآلهة أبناء الله، لأنهم النور الذي انبثق منه ثم تجسَّدوا بشراً ثم عادوا إلى النورانية ــ فيقول:

﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [سورة الكهف: الآية ٤]

فأبـان أن قولهم هذا بلا علم. ومن المعلوم: أنه كل قول بلا علم من الطرق الباطلة. ثم صرح بقبحه في قوله:

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥]

ثم ذكر له مرتبة من البطلان أسفل:

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٥]

وقال في حق المنكرين للبعث:

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [سورة النمل: الآية ٦٦]

أي علْمُهم فيها علمٌ ضعيف سافل إلى أحط الدركات، لا يعتمد عليه إلا سفيه. ثم انتقل إلى ما هو أبلـغ منه فقال:

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٦٦]

والعمى آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال عن نوح في تقرير رسالته وإبطال قول من كذَّبه، وزعم أنه في ضلال مبين:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٦١]

ثم لما نفى الضلالة من كل وجه أثبت الهدى الكامل له، فقال:

﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٦١]

ثم انتقل إلى ما هو أعلى منه، وأن مادة هذا الهدى الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدى ومنبعه فقال:

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٦٢]

وكذلك هود عليه الصلاة والسلام.

وقال في تقرير رسالة أفضل الرسل وخاتمهم:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآيتان ١و٢]

فنفى عنه ما ينافي الهدى من كل وجه ثم قال:

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٤].

وكانتقاله من ذكر هبة الولد لزكريا على كبره وعقم زوجته، إلى ذكر مريم وعيسى، وكذلك أمر بالتوجه إلى الكعبة بعد أن قرر في الآيات السابقة حرمتها وعظمتها. وهذا في القرآن كثير.

القاعدة الحادية والستون

معرفة الأوقات وضبطها للاستفادة منها وحفظها من الضياع

حث الله عليه، حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص، وذلك أن الله رتَّب كثيراً من الأحكام العامة والخاصة على أزمنة تتوقف الأحكام عملاً وتنفيذاً على ضبطها وإحصائها وتحديدها. قال تعالى:

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٨٩]

فقوله: (مواقيت للناس) يدخل فيه مواقيت الصلوات والصيام والزكاة والعقود وغيرها. وخص بالذكر الحج لكثرة ما يترتب عليه من الأوقات العامة والخاصة. وكذلك مواقيت العدد والديون، والإجارات وغيرها. قال تعالى لما ذكر العدة: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١]

وقوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥]

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢٦]

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾
[سورة النساء: الآية ١٠٣]

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾
[سورة الكهف: الآية ١٢]

وذلك لمعرفة كمال قدرة الله في إفاقتهم. فإنهم لو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من قصتهم. فمتى ترتب على ضبط الحساب وإحصاء المدة، مصلحة في الدين أو الدنيا، كان مما حث وأرشد إليه القرآن.

ويقارب هذا المعنى: قوله تعالى:

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٥٩]

وقوله: ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [سورة يونس: الآية ٥]

ونحوها من الآيات.

القاعدة الثانية والستون

الصبر أكبر عون على جميع الأمور. والذي يعين على الصبر: معرفة حقيقته ومعرفة سبله وعواقبه ومعرفة الجزع وسبله وعواقبه.

وهذه القاعدة عظيمة النفع، قد دل القرآن عليها في مواضع؛ قال تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥]

أي استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شؤونكم بالصبر، فبالصبر: يسهل على العبد القيام بالطاعات، وأداء حقوق الله وحقوق عباده. وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلباً لرضى مولاها. وبالصبر تخف عليه الكريهات. ولكن لهذا الصبر وسيلته التي ينبني عليها، ولا يتم وجوده إلا بها، وهي معرفة الشيء الذي يصبر عليه، ومعرفة

ما فيه من الفضائل والثمرات المترتبة عليه. فمتى عرف العبد ما في الطاعات من زيادة الإيمان، وصلاح القلوب واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والرذائل وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة، وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور: إذا عرف ذلك هان عليه الصبر على جميع الشدائد. وبهذا يعلم فضل العلم، وأنه أصل الفضائل كلها. ولهذا يذكر الله كثيراً في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة ما انحرفوا إلا لقصور علمهم، وعدم إحاطتهم التامة بها. وقال:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨]

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧]

ليس معناه: أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء، وإنما قصر علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات وأنواع المضرات وزوال المنافع.

وقال تعالى عن الخضر لما قال له موسى:

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآيات ٦٦ ــ ٦٨]

فعدم إحاطته به خبراً يمتنع معه الصبر. ولو تجلد ما تجلد عيل صبره.

وقال تعالى مبيناً عظمة القرآن وما هو عليه من الجلاء والصدق والكامل:

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٩]

فبيَّن أن الأعداء المكذِّبين إنما كان تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه وأحاطوا به كما هو عليه، لألجأهم واضطرهم إلى التصديق والإذعان. فهم وإن قامت عليهم الحجة ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته.

وقال في حق المعاندين الذين بان لهم علمه وخبروا صدقه:

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: الآية ١٤]

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٣]

والمقصود: أن الله تعالى أرشد العباد إلى الاستعانة على كل أمورهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور، ومعرفة حقائقها، وفضائلها ورذائلها.

القاعدة الثالثة والستون

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان وإيمانه الصحيح وعمله الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوي المجردة أو بالرياسات والأمور الدنيوية والتقاليد الموروثة: من طرق المنحرفين، والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلاً لهذا الأصل وقد قال تعالى:

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٧]

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: الآيتان: ٨٨ و٨٩]

وقد أكثر الله من هذا المعنى في عدة مواضع.

وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين، فقال عن اليهود والنصارى:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١١]

ثم ذكر البرهان الذي من أقامه وأتى به فهو المستحق للجنة. فقال:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٢]

وقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٣]

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٧٣]

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

[سورة الزخرف: الآية ٣١]

ونحوها من الآيات التي يستدل بها الكفار على حسن حالهم، بتفوقهم في الأمور الدنيوية، والرياسات، ويذمون المؤمنين مستدلين بنقصهم في هذه الأمور الدنيوية الزائفة. وهذا من أكبر مواضع الفتن. فإن الرياسات والأمور الدنيوية مشتركة بين الخليقة: بَرِّها وفاجرها.

القاعدة الرابعة والستون

الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد ترد على الحق وعلى الأمور اليقينية، ولكن سرعان ما تضمحل وتتلاشى.

وهذه قاعدة شريفة جليلة قد وردت في عدة مواضع من القرآن، فمن لم يحكمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما يوجب الخروج عن ظاهر النص؛ ومن عرف حكمة الله في ورودها على الحق الصريح: لأسباب مزعجة تدفعها أو لشبه قوية تحدثها ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين، والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل ووقعت الخصومة بينهما، فغلب الحق الباطل ودمغه فزهق الباطل وثبت الحق، حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين. فكان في ذلك التقدير حِكَمٌ بالغة، وأيادٍ سابغة. ولنمثل لهذا بأمثلة:

فمنها: أن الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، أكمل الحق إيماناً ويقيناً، وتصديقاً بوعد الله ووعيده؛ وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوه في الرسل، وأنهم قد بلغوا الذروة فيه، وأنهم معصومون من ضِدِّه. ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض لهم بعض الأمور المزعجة ـ المنافية حساً لما علم يقيناً ـ ما يوجب لهؤلاء الكمل أن يستبطئوا معه النصر، ويقولوا:

﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٤]

وقد يخطر في هذه الحالة للقلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات وتأثيرها في القلوب. ثم في أسرع وقت تنجلي هذه الحال وتنفرج الأزمة ويأتي النصر من قريب.

﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٤]

فعندئذ يكون لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير، لا يحصل بدون هذه الحالة. ولهذا قال:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾
[سورة يوسف: الآية ١١٠]

فهذا الوارد الذي لا قرار له. وعند ما حقت الحقائق اضمحل وتلاشى، لا ينكر ولا يطلب للآيات الدالات عليه تأويلات تخالف ظاهرها.

ومن هذا الباب: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [سورة الحج: الآية ٥٢]

أي يلقي من الشبه ما يعارض اليقين. ثم ذكر الحكم المترتبة على الإلقاء ولكن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يبطل ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته. والله عليم حكيم. فقد أخبر الله بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء. لهذه الحكم التي ذكرناها. فمن أنكر ذلك بناء على أن الرسل لا ريب ولا شك أنهم معصومون، وظن أن هذا ينافي العصمة، فقد غلط أكبر الغلط. ولو فهم أن

الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل إلا قولاً يخالف فيه الواقع ويخالف بعض الآيات ويطلب التأويلات المستبعدات.

ومن هذا ـ على أحد قولي المفسرين ـ قوله تعالى عن يونس:

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٧]

وأنه ظن عرض في الحال ثم زال. نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين ترد على قلبه. ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها. ولهذا قال ﷺ عندما شكا إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم، مبشراً لهم «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» وأخبرهم «أن هذا صريح الإيمان».

ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات الإيمان لقوة وارد من شهوة أو غضب، وأن المؤمن الكامل الإيمان قد يقع في قلبه همٌّ وإرادة، لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض. ومن هذا قوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٤]

وهو ما معه من الإيمان والخوف والخشية، والمعرفة التي دفعت عنه هذا الهم وموجبه، وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربه. ولهذا فاز بمرتبة الصِّدِّيقية، لقوة إخلاصه ويقظة إيمانه بآيات ربه، وانتصر بعد المعالجة الشديدة من النسوة التي لا يصبر عليها إلا سادات الخلق، حتى دعا ربه أن يبعده عن مواطن الفتن فقال:

﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٣]

وكان كل من يتشبَّه به ويقف موقفه أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله» وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١]

يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان أو الذي يعرض في إرادته. فإذا مسهم تذكروا ما يدعو إلى الإيمان، وواجباته من آيات الله وسننه وحكمته وأحكامه فأبصروا، فاندفعت الشبهات والشهوات، فرجع الشيطان خاسئاً وهو حسير.

ولعل من هذا قول لوط عليه الصلاة والسلام:

﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [سورة هود: الآية ٨٠].

وقول النبي ﷺ «لقد كان يأوي إلى ركن شديد» يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب على لوط في تلك الحالة الحرجة ملاحظة الأسباب العادية، فقال ما قال، مع علمه بقوة ذي العظمة والجلال.

القاعدة الخامسة والستون

قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح، إذا كان يفضي إلى ترك واجب، أو فعل محرم.

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: الوسائل لها أحكام المقاصد فمنها قوله تعالى:

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٠٨]

وقوله:

﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾

[سورة النور: الآية ٣١]

وقوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٣٢]

وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩]

فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه، فإن توسل بها إلى فعل واجب أو مسنون، كانت مأموراً بها؛ وإن توسل بها إلى فعل محرم أو ترك واجب، كانت محرّمة منهيًّا عنها. وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية. والله أعلم.

القاعدة السادسة والستون

أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها: توحيد الألوهية والعبادة.

وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها وأفضلها، وأوجبها وألزمها لصلاح الإنسانية؛ وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله وخلق المخلوقات. وشرع الشرائع لقيامه وبوجوده يكون الصلاح وبفقده يكون الشر والفساد.

وجميع الآيات القرآنية إما أمر به أو بحق من حقوقه أو نهي عن ضدّه، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين، ويقال له: توحيد الإلٰهية. فإن الإلٰهية وصفه تعالى الذي ينبغي أن يؤمن به كل بني آدم، ويوقنوا أنه الوصف الملازم له سبحانه، الدالّ عليها الإسم العظيم. وهو الله. وهو مستلزم جميع صفات الكمال. ويقال له: توحيد العبادة باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بصفته الملازمة له من مقتضيات العبودية للربوبية بإخلاص العبادة لله تعالى وتحقيقها في العبد

أن يكون عارفاً بربه مخلصاً له جميع عباداته محقّقاً ذلك بترك الشرك، صغيره وكبيره، وباتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، والبراءة من كل بدعة وضلالة، والحب في الله والبغض في الله.

وهذا الأصل، الذي هو أكبر الأصول وأعظمها، قد قرره شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسائل لا تحصى، وبالأخص في كتاب التوحيد. وذكر من تقريره وتفاصيله وتحقيقه، .ونفى كل ما يضاده ما لم يوجد في كتاب غيره.

والقرآن يقرره بطرق متنوعة، وقد تقدم في أول القواعد شيء من ذلك. وقد ذكرنا في التفسير ثمانية طرق كلية في تقرير هذا الأصل. وصورة ما ذكرناه على قوله تعالى:

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩]

بعد ما ذكرنا تفسيرها.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله، أمور:

أحدها، بل أعظمها: التفكُّر في سنن الله وآياته الكونية، ثم تدبُّر أسماء الرب، وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته، وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد في التألُّه له والتعبُّد للرب الكامل، الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بهبة النعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية والأخروية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به خوفًا ورغبة ورهبة، والتألُّه له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه، القائمين بتوحيده من النصر والنِّعَم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داعٍ إلى العلم بأنه تعالى المستحق للعبادة كلها وحده.

الخامس: معرفة الطواغيت التي فتنت الناس وصرفتهم عن كتبه ورسله، ومعرفة أوصاف الأوثان والأنداد، التي عبدت مع الله، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ولا تنصر من عبدها ولا تنفعه بمثقال ذرة: من جلب خير، أو دفع شر. فإن العلم بذلك يوجب العلم بأن لا إله إلا الله.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه. وهو أعظم ما فيها.

السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقاً وعقولاً، وعلماً ورأياً وإصابة، وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون، قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه من الأدلة الآفاقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق، التي أكثر الله من دعوة الخلق بها ألى أنه لا إله ألا هو، قد أبداها في كتابه وأعادها بطرق وأساليب متنوعة إلى آخر ما ذكرنا هناك. وكل رسول أول ما يدعو قومه إلى هذا التوحيد ويقرره لهم بأكثر وأقوى من هذه الأدلة.

القاعدة السابعة والستون

يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق، للخروج من الشبهات والتوهمات. وهذه القاعدة جليلة يعبر عنها: بأن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المحقَّق، ونحوها من العبارات، وقد نبه الله عليها في مواضع كثيرة.

منها: لما أخبر عن الراسخين في العلم، وأن طريقتهم في المتشابهات: أنهم يقولون:

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧]

فالأمور المحكمة المعلومة: يتعين أن يرد إليها كل أمر مشتبه مظنون.

وقال في زجر المؤمنين عن مجاراة الشائعات التي يقولها أهل السوء في إخوانهم المؤمنين:

﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة النور: الآية ١٢]

فأمرهم بالرجوع إلى ما علموا من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل العظيم، ولا يعتبروا كلام الخبيثين بما يناقضه، ويقدح فيه. وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦٩]

فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص رماه به من آذاه. لأنه لا يكون وجيهاً عند الله حتى يسلم من جميع النقائص التي لا تليق بالرسل، ويتحلى بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أولي العزم. فحذّر الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك اليهود المغضوب عليهم القساة القلوب، الذين أعلنوا بمعاداة الأنبياء واحتقارهم، مهما عاد عليهم من الخير العظيم من تعظيم الأنبياء، حتى لم يسلم من أذاهم موسى الذي شرفهم بالانتساب إليه. وقد جعل الله نجاتهم من سوء العذاب والتقتيل على يده مع وجاهته عند ربه. فالله يحذر المؤمنين أن يتشبهوا ببني إسرائيل فيؤذوا أعظم الرسل جاهاً عند الله، وأرفعهم مقاماً ودرجة، وأرأفهم بالمؤمنين وأكثرهم إحساناً إلى الخلق.

وقال تعالى:

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٢]

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾

[سورة سبأ: الآية ٦]

القاعدة الثامنة والستون

من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة.

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله، فعوّضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعز والتمكين. وإبراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله: وهب له إسحق ويعقوب والذرية الصالحين. ويوسف عليه السلام لما ملك نفسه وعصمها من الوقوع مع امرأة العزيز، مع ما كانت تمنيه به من الحظوة وقوة النفوذ في قصر العزيز ورياسته، وصبر على السجن وأحبه وطلبه ليبعد عن دائرة الفساد والفتنة: عوَّضه الله ــ أن مكَّن له في الأرض، يتبوّأ منها حيث يشاء، ويستمتع بما يشاء مما أحل الله له من الأموال والنساء والسلطان. وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، نشر لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب المرافق والراحة، وجعلهم سبباً لهداية الضالين. ومريم ابنة عمران لما أحصنت فرجها أكرمها الله ونفخ فيه من روحه وجعلها وابنها آية للعالمين.

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوَّضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق لذات الدنيا كلها.

القاعدة التاسعة والستون

القرآن الكريم كفيل بمقاومة جميع المفسدين. ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسك بأصوله وفروعه، وتنفيذ شرائعه وأحكامه.

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح، وفي طريقته في محاجة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية ما يدل على هذا الأصل. ويعرف الخلق أن العصمة من الشرور كلها لا طريق لها إلا التمسك بهذا القرآن وأصوله وعقائده، وأخلاقه، وآدابه، وشرائعه.

فأعظم أهل الشر: أهل التعطيل، العمون عما سوى المحسوسات،

المنكرون للخالق وأديان الرسل، وما أخبر الله به وأخبرت به رسله. وفي القرآن من البراهين والحجج المتنوعة ما يبطل قولهم ويمحق مذهبهم، ويبين للعقلاء أنهم مكابرون في إنكار أظهر الأشياء البديهية وأجلاها.

ومنهم: أهل الشرك بالمخلوقات وتسويتها بالرب في شيء من الصفات والنعوت، أو الحقوق الخاصة لله. وفي القران من إبطال الشرك، ووجوب التوحيد، وإقامة البراهين على تفرد الله تعالى بالوحدانية، وصفات الكمال، وأنه لا يستحق العبادة سواه، وأن لا أحد يساويه في وصف، ولا في حق من الحقوق: ما يكفي بعضه لإزهاق قولهم.

ومنهم المنكرون للأنبياء من الآدميين، وفيه من الحجج والبراهين على إثبات رسالتهم، وإقامة الآيات والخوارق الدالة على صدقهم، والأوصاف والنعوت التي اتصفوا بها: ما يدل أكبر دلالة على أنهم رسل الله حقاً، وأنهم أصدق الخلق، وأكملهم في كل صفة كمال، وأكملهم في كل فضيلة.

ومنهم المفرِّقون بين الأنبياء والكتب، الذين يزعمون أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. وفي القرآن حجج وبراهين كثيرة تدل على إبطال قولهم، وأنهم متناقضون في إثباتهم وفي نفيهم. وأن الإيمان الحق والحق الصريح: هو الإيمان بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله، وأن الحق والصدق والعلم واليقين يجب الإيمان به والاعتراف به حيثما كان، ومع من كان. وليس ذلك بالدعاوي والأماني.

ومنهم الإباحية والشيوعية الذين هم أخبث جرثومة لإفساد الأديان والملك والدنيا والآخرة، والقرآن كفيل بإبطال قولهم بما فيه من العقائد والبراهين. ووجوب التحلّي بالأخلاق الجميلة والتخلّي عن الأخلاق الرذيلة، وأداء الحقوق المتنوعة بين طبقات الناس، وإيتاء الزكوات، وإنقاذ المضطرين وغير ذلك من الأحكام والشرائع الحكيمة الرشيدة. فكل هذا سد محكم يمنع نفوذ هؤلاء المفسدين. ويقي شرهم ويزهق حجتهم.

ومنهم أهل البدع على اختلاف مذاهبهم وتنوع نحلهم.

وفي القـرآن من البراهين، ووجوب التمسك بما عليه النبـي ﷺ من أصول الدين، وفروعه، ووجوب رد المتشابه إلى المحكم والاعتصام بحبل الله ودينه ما يبطل قولهم جميعاً ويكسر شوكتهم.

ومنهم: أهل التحزب والتشيـع، وتفريق المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وفي القـرآن من الحث على الاعتصام بحبل الله، والحث على الألفة، والنهي عن التفرق، والإخبار بـأن التفريق في الـدين طريق أهـل الضلال والغضب، والتحذير من أحوال هؤلاء وهؤلاء، ووجوب الاتفاق على الأصول العامـة الكلية، مما يقمع شرهم، ويبين شناعة طريقتهم.

ومنهم: أهل الفساد المنتهكون للدماء والأموال والأعراض؛ وفي الآيات القرآنية من قمعهم وإقامة الحدود عليهم، والزجر عن طريقتهم، والمواعظ والزجر ما يقمعهم ويردعهم، ويخفف شرهم. فكل صاحب شر وفساد إنما سلطتهووصول شره على من لم يعتصم بالقـرآن؛ وكل من خرج من هذا الحصن الحصين الذي من دخله كان من الآمنين من كل شر وضرر، وهو القاهر لكل باطل والمطهِّر للقلوب والمجتمع من كل فساد.

القاعدة السبعون
في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني

إعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود بوضع هذا الكتاب. وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي يرجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها وتفاصيلها. فإنها ترجع إلى أصل واحد، وقاعدة كلية.

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم، فإن كثـيرًا منها من القواعد الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد، وعلى صدق من أوحي إليه به وأعطي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً. ولنضرب لهذا أمثلة ونماذج:

فمنها: قوله تعالى:

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٦]

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٦]

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٦٠]

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ [سورة الواقعة: الآية ١٠]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾
[سورة المائدة: الآية ٢]

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [سورة الزلزلة: الآيتان ٧ و٨]

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ ﴾
[سورة المزمل: الآية ٢٠]

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧]

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٣]

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٠]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ ﴾
[سورة النساء: الآية ٩٤]

﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٦]

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفْهَا ﴾

[سورة النساء: الآية ٤٠]

﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٞۗ ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٨]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة يونس: الآية ٨١]

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٥]

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٞ لِّنَفْسٖ شَيْـٔٗاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ [سورة الانفطار: الآية ١٩]

﴿ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾ [سورة الجن: الآية ١٨]

﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢]

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣]

﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [سورة غافر: الآية ١٤]

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٖ فَضْلَهُۥۖ ﴾ [سورة هود: الآية ٣]

﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٨٥]

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [سورة هود: الآية ١١٢]

﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة فصلت: الآية ٦]

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة هود: الآية ١١٥]

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [سورة هود: الآية ١١٤]

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾
[سورة يوسف: الآية ٢٤]

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٨٠]

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢١]

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠]

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٦]

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾
[سورة البقرة: الآية ١٩٤]

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [سورة الجن: الآية ٢]

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥]

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [سورة التوبة: الآية ٩١]

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠]

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾
[سورة الكهف: الآية ٤٦]

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٧٦]

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٨٥]

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [سورة الحج : الآية ٧٨]

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾

[سورة الطلاق: الآية ٧]

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤]

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١]

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾

[سورة الحشر: الآية ٧]

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٣]

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٥٨]

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٠١]

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل منها قاعدة، وأصل كلي، يحتوي على معانٍ كثيرة.

وقد تقدّم في أثناء القواعد منها شيء كثير؛ وهي متيسرة على حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانيه ولله الحمد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وقد يسَّر الله ما مَنَّ بجمعه، فجاء ولله الحمد على اختصاره ووجازته ووضوحه كتاباً يسر الناظرين. ويعين على فهم كلام رب العالمين، وقد حوى من الأصول الكلية والقواعد العامة التي هي أَجَلّ القواعد وأنفعها وأصحها وأقواها شيئاً كثيراً، وعلماً واسعاً غزيراً. ومخبر الكتاب يغني عن وصفه.

وأسأل الله الرحمن الرحيم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مقرِّباً إلى جنات النعيم. وأن ينفع به مؤلفه وقارئه، بمنِّه وكرمه وجوده، وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين آمين.

وقد تم ذلك في ٦ شوال سنة ١٣٦٥هـ.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

وبعد فهذه القواعد: جمعت من أنواع الحسن ما يجعلها أحسن نموذج لاجتناء ثمرات القرآن الطيبة الدانية. وهي تنادي: أن الشيخ عبد الرحمن ـ زاده الله هدى ـ قد نشط: محرراً من قيود التقليد يتنقل في رياض التحقيق النضرة ليجني قطوف الشكر، ويقدمها لإخوانه المؤمنين. وهذه القواعد أول فاكهة سيتلوها غيرها أنضج منها وأبرك إن شاء الله. فشمر أيها المقتطف، وسر قُدُماً إلى أهدافك. ولا تنظر خلفك. ولا ترج إلا مثوبة ربك. والله يؤيدنا ويؤيدك. ويثبتنا ويثبتك، وثق أن الطريق ممهد والغاية قريبة. والنجح مكفول لكل صبار شكور.

أخوك: محمد حامد الفقي

* * *





تأليف علامة القصيم

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

بارك الله في علمه النافع



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فقد كنت كتبت كتاباً في تفسير القرآن مبسوطاً مطولاً يمنع القراء من الاستمرار بقراءته، ويفتر العزم عن نشره، فأشار عليّ بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتاباً غير مطول يحتوي على خلاصة ذلك التفسير، ونقتصر فيه على الكلام على بعض الآيات التي نختارها وننتقيها من جميع مواضيع علوم القرآن ومقاصده، فاستعنت الله على العمل على هذا الرأي الميمون، لأمور كثيرة: منها أنه بذلك يكون متيسراً على المشتغلين، معيناً للقارئين، ومنها أن القرآن العظيم ليس كغيره من الكتب في الترتيب والتبويب، لأنه بلغ في البلاغة نهايتها، وفي الحسن غايته، وفي الأسلوب البديع، والتأثير العجيب ما هو أكبر الأدلة على أنه كلام الله وتنزيل من حكيم حميد. فتجده في آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد، وبين الدليل والمدلول، وبين الترغيب والترهيب، وبين العلوم الأصولية والفروعية، وبين العلوم الدينية والدنيوية والأخروية، وبين الأغراض المتعددة والمقاصد النافعة، ويعيد المعاني النافعة على العباد، ليتم علمهم، وتكمل هدايتهم، ويستقيم سيرهم على الصراط المستقيم، علماً وعملاً.

فالوقوف على تفسير بعض القرآن يعين أعظم عون على معرفة باقيه،

والله جعله مثاني تثنى فيه العلوم النافعة، والمعاني الجليلة الكاملة، وهذا من تيسيره تعالى لكتابه. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر: الآية ١٧]

ومما يدعو إلى هذا ما تحتوي عليه هذه المقدمة المذكورة بقولنا:

* * *

مقـــدمة

«في ذكر أوصاف القرآن العامة الجامعة»

قد وصف الله كتابه بأوصاف جليلة عظيمة تنطبق على جميعه، وتدل أكبر دلالة على أنه الأصل والأساس لجميع العلوم النافعة، والفنون المرشدة لخير الدنيا والآخرة:

وصفه بالهدى والرشد، والفرقان، وأنه مبين وتبيان لكل شيء؛ فهو في نفسه هدى، ويهدي الخلق لجميع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم، ويرشدهم إلى كل طريق نافع، ويفرق لهم بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وبين أهل السعادة والشقاوة بذكر أوصاف الفريقين. وفيه بيان الأصول والفروع بذكر أدلتها النقلية والعقلية، فوصفه بهذه الأوصاف المطلقة العامة التي لا يشذ عنها شيء في آيات كثيرة.

وقيد هدايته في بعض الآيات بعدة قيود: قيد هدايته بأنه هدى للمؤمنين، المتقين؛ لقوم يعقلون، ويتفكرون، ولمن قصده الحق. وهذا بيان منه تعالى لشرط هدايته؛ وهو أن المحل لا بد أن يكون قابلاً وعاملاً، فلا بد لهدايته من عقل وتفكير وتدبر لآياته؛ فالمعرض الذي لا يتفكر ولا يتدبر آياته لا ينتفع به، ومن ليس قصده الحق ولا غرض له في الرشاد، بل قصده فاسد وقد وطن نفسه على مقاومته ومعارضته، ليس له من هدايته نصيب؛ فالأول حرم هدايته لفقد الشرط، والثاني لوجود المانع؛ فأما من أقبل عليه وتفكر في معانيه وتدبرها بحسن فهم، وحسن قصد، وسلم من الهوى، فإنه يهتدي به إلى كل مطلوب، وينال به كل غاية جليلة ومرغوب.

ووصفه بأنه رحمة، وهي الخير الديني والدنيوي والأخروي المترتب على الاهتداء بالقرآن، فكل من كان أعظم اهتداء به فله من الرحمة والخير والسعادة والفلاح بحسب ذلك.

ووصفه بأنه نور، وذلك لبيانه وتوضيحه العلوم النافعة، والمعاني الكاملة، وأن به يخرج العبد من جميع الظلمات: ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والشقاء، إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والرشاد المتنوع.

ووصفه بأنه شفاء لما في الصدور، وذلك يشمل جميع أمراض القلوب؛ فهو يوضح أمراض القلوب ويشخصها، ويرشد العباد إلى كل وسيلة يحصل بها زوالها وشفاؤها؛ فيذكر لهم أمراض الجهل والشكوك والحيرة وأسباب ذلك، ويرشدهم إلى قلعها بالعلوم النافعة واليقين الصادق، وسلوك الطرق الصحيحة المزيلة لهذه العلل، ويذكر لهم أمراض الشهوات والغي، ويبين لهم أسبابها وعلاماتها وآثارها الضارة، ويذكر لهم ما به تعالج من المواعظ والتذكر والترغيب والترهيب، والمقابلة بين الأمور وترجيح ما ترجحت مصلحته العاجلة والآجلة.

ووصفه بأنه كله محكم، وكله متشابه في الحسن، وبعضه متشابه من وجه، محكم من وجه آخر.

فأما وصفه في عدة آيات أنه كله محكم، فلبلاغته وبيانه التام واشتماله على غاية الحكمة في تنزيل الأمور منازلها، ووضعها مواضعها، وأنه متفق غير مختلف، ليس فيه اختلاف ولا تناقض بوجه من الوجوه؛ وأما حسنه فلما فيه من البيان التام لجميع الحقائق، ولأنه بين أحسن المعاني النافعة في العقائد والأخلاق والآداب والأعمال، فهي في غاية الحسن لفظاً ومعنى، وآثارها أحسن الآثار، وكل هذه المعاني المثناة في القرآن يشهد بعضها لبعض في الحسن والكمال، ويصدق بعضها بعضاً. وأما وصفه بأن منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأُخر متشابهات، فالمتشابهات هي التي يقع الإشكال في دلالتها لسبب من الأسباب اللفظية والعبارات المركبة، فأمر الله بردّها إلى المحكمات الواضحة بينة المعاني، التي هي نص في المراد؛ فإذا ردّت المتشابهات إلى المحكمات صارت كلها محكمات، وزال الشك والإشكال، وحصل البيان للهدى من الضلال.

ووصفه بأنه كله صلاح ويهدي إلى الإصلاح، وإلى أقوم الأمور وأرشدها وأنفعها في كل شيء من دون استثناء. وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شيء، فهو إصلاح للعقائد والقلوب، وللأخلاق والأعمال، ويهدي إلى كل صلاح ديني ودنيوي بحيث تقوم به الأمور، وتعتدل به الأحوال، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجه بالإرشاد إلى كل وسيلة نافعة تؤدي إلى المقاصد والغايات المطلوبة، فلا سبيل إلى الهداية والصلاح والإصلاح لجميع الأمور إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها القرآن، وحث العباد عليها.

فمتى عرفت أن القرآن العظيم موصوف كله بهذه الأوصاف التي هي أعلى الأوصاف وأكملها وأتمها وأنفعها للعباد، وأنه أُعيدت فيه هذه المعاني الجليلة ومزجت فيه مزجاً عجيباً غريباً في كماله وحسنه، فهمتَ أن طالب العلم إذا وقف على تفسير بعض الآيات تدرّب بها وتوسل بها إلى معرفة بقية الآيات.

لهذه الأسباب وغيرها رأينا أن المصلحة تدعو إلى الاقتصار على خلاصة ذلك التفسير؛ راجين من الرب أن يتم نعمته وأن يحصل به المقصود؛ ورأينا أن الأحسن أن نذكر كل موضوع على حدته لما فيه من التقريب والسهولة وجمع المعاني التي من فن واحد في موضع واحد؛ مع أنه ـ كما تقدم ـ لا بد أن يدخل في آيات الأصول كثير من الفروع، وفي آيات الفروع كثير من الأصول، ويدخل فيها من الترغيب والترهيب والقصص شيء كثير؛ وهذا المزج العجيب من كمال القرآن وعظم تأثيره؛ فإنه كتاب تعليم يزيل الجهالات المتنوعة، وكتاب تربية يقوّم الأخلاق والأعمال، فهو يُعلم ويقوّم ويهذب ويؤدب بأعلى ما يكون من الطرق، التي لا يمكن الحكماء والعقلاء أن يقترحوا مثلها ولا ما يقاربها.





علوم التوحيد والعقائد والأصول

١ - ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾
[سورة الفاتحة]

أي أبتدىء بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع أسماء الله الحسنى؛ فيكون العبد مستعيناً بربه وبكل اسم من أسمائه على ما يناسبه من المطالب، وأجلّ ما يستعان به على عبادة الله؛ وأجلّ ذلك الاستعانة على قراءة كلام الله، وتفهم معانيه، والاهتداء بهديه.

«الله» هو المألوه المستحق لإفراده بالمحبة والخوف والرجاء وأنواع العبادة كلها، لما اتصف به من صفات الكمال، وهي التي تدعو الخلق إلى عبادته والتأله له. ﴿الرحمن الرحيم﴾: اسمان دالّان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمّت كل مخلوق، وكتب الرحمة الكاملة للمتقين المتّبِعين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية، ومن عداهم محروم من هذه الرحمة الكاملة، لأنه الذي دفع هذه الرحمة وأباها بتكذيبه للخبر، وتوليه عن الأمر، فلا يلومنّ إلّا نفسه.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة من الإيمان بأسماء الله كلها، وصفاته جميعها، وبأحكام تلك الصفات؛ فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة العظيمة التي اتصف بها

المتعلقة بالمرحوم؛ فالنعم كلها من آثار رحمته، وهكذا يقال في سائر الأسماء الحسنى؛ فيقال عليم: ذو علم عظيم، يعلم به كل شيء؛ قدير: ذو قدرة يقدر على كل شيء، فإن الله قد أثبت لنفسه الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وأحكام تلك الصفات، فمن أثبت شيئاً منها ونفى الآخر، كان مع مخالفته للنقل والعقل متناقضاً مبطلاً.

﴿الحمد لله﴾: الحمد هو الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل المشتملة على الحكمة التامة؛ ولا بد في تمام حمد الحامد من اقتران محبة الحامد لربه وخضوعه له، فالثناء المجرد من محبة وخضوع ليس حمداً كاملاً.

﴿رب العالمين﴾: الربُّ هو المربي جميع العالمين بكل أنواع التربية، فهو الذي خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة؛ وهذه التربية العامة لجميع الخلق، بَرّهم وفاجرهم، بل المكلفون منهم وغيرهم؛ وأما التربية الخاصة لأنبيائه وأوليائه، فإنه مع ذلك يربي إيمانهم فيكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق التي تحول بينهم وبين صلاحهم وسعادتهم الأبدية، وتيسيرهم لليسرى وحفظهم من جميع المكاره. وكما دلّ ذلك على انفراد الرب بالخلق والتدبير والهداية وكمال الغنى، فإنه يدل على تمام فقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار، فيسأله من في السموات والأرض بلسان المقال والحال جميع حاجاتهم ويفزعون إليه في مهماتهم.

﴿مالك يوم الدين﴾: المالك هو من اتصف بالصفات العظيمة الكاملة التي يتحقق بها الملك، التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف في العالم العلوي والسفلي التصرف التام المطلق بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية، وأحكام الجزاء، فلهذا أضاف ملكه ليوم الدين، مع أنه المالك المطلق في الدنيا والآخرة؛ فإنه يوم القيامة الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرها وشرها، ويرتب عليها جزاءها، وتشاهد الخليقة ــ من آثار ملكه وعظمته وسعته، وخضوع الخلائق كلها لعظمته وكبريائه، واستواء الخلق في

ذلك اليوم على اختلاف طبقاتهم في نفوذ أحكامه عليهم ـ ما يعرفون به كمال ملكه وعظمة سلطانه.

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾: أي نخصُّك يا ربنا وحدك بالعبادة والاستعانة فلا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك؛ فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة؛ فهي القيام بعقائد الإيمان وأخلاقه وأعماله محبةً لله وخضوعاً له. والاستعانة هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به في حصول ذلك؛ وهذا التزام من العبد بعبودية ربه، وطلب من ربه أن يعينه على القيام بذلك، وبذلك يتوسل إلى السعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل لذلك إلا بالقيام بعبادة الله والاستعانة به، وعُلم بذلك شدة افتقار العبد لعبادة الله والاستعانة به.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾: أي دلنا وأرشدنا ووفِّقنا للعلم بالحق والعمل به، الذي هو الصراط المستقيم، المعتدل الموصل إلى الله وإلى جنته وكرامته؛ وهذا يشمل الهداية إلى الصراط، وهي التوفيق للزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان الباطلة؛ ويشمل الهداية في الصراط وقت سلوكه علماً وعملا؛ فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا أوجبه الله ويسَّره، وهذا الصراط هو طريق و ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بالنعمة التامة المتصلة بالسعادة الأبدية، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ﴿غير المغضوب عليهم﴾: وهم الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم ﴿ولا الضالين﴾: الذين ضلوا عن الحق كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها قد جمعت علوماً جمة تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله، رب العالمين، وتوحيد الإلهية من قوله، إياك نعبد وإياك نستعين، فهو المألوه بعبادته والاستعانة به.

وتوحيد الأسماء والصفات بأن يثبت لله صفات الكمال كلها التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ. وقد دل على ذلك إثبات الحمد لله؛ فإن الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأحكامها كلها محامد ومدائح لله تعالى، وتضمنت

إثبات الرسالة في قوله: اهدنا الصراطالمستقيم. لأنـه الطريق الـذي عليه النبـي ﷺ. وذلك فرع عن الإيمان بنبوته ورسالته، وتضمنت إثبات الجزاء وأنه بالعدل، وذلك مأخوذ من قوله: مالك يوم الدين.

وتضمنت إثبات مذهب أهل السنة والجماعة في القَدَر، وأن جميـع الأشياء بقضاء الله وقدره، وأن العبد فاعلٌ حقيقةً ليس مجبوراً على أفعاله. وهذا يفهم من قوله: إياك نعبد وإياك نستعين. فلولا أن مشيئة العبد مضطر فيها ألى إعانة ربه وتوفيقه لم يسأل الاستعانة، وتضمنت أصل الخير ومادته، وهو الإخلاص الكامل لله في قول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين.

ولما كانت هذه السورة بهذه العظمة والجلالة أوجبها الشارع على المكلَّفين في كل ركعة من صلاتهم فرضاً ونفلا؛ وفيها تعليم الله لعباده كيف يحمدونه ويثنون عليه ويمجدونه بمحامده ثم يسألون ربهم جميـع مطالبهم، ففيها دليل على افتقارهم إلى ربهم في الأمرين: مفتقرين إليه في أن يملأ قلوبهم من محبته ومعرفته، ومفتقرين إليه في أن يقوم بمصالحهم يوفقهم لخدمته. والحمد لله رب العالمين..

٢ ـ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨٤]

هذه الآية الكريمة لها شأن كبير؛ كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها كثيراً في الركعة الأولى من سُنّة الصبـح، وقد اشتملت على جميـع ما يجب الإيمان به، فأن الإيمان الشرعي هو تصديق القلب التام وإقراره بهذه الأصول المتضمن لأعمال الجوارح ولأعمال القلوب؛ وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها؛ فهي إيمان، وهي من آثار الإيمان. فإذا أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك إذا أطلق الإسلام فإنه يدخل فيه الإيمان، فإذا قرن بين الإسلام والإيمان، فسر الإيمـان بما في القلب من العقـائد الصحيحـة والإرادات الصالحة، وفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة.

وكذلك إذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح، الإيمان لما في الباطن، والعمل الصالح هو الظاهر، ومع إطلاق الإيمان يدخل فيه العمل الصالح، كما في كثير من الآيات؛ فقوله تعالى: ﴿قل آمنا بـالله﴾ الخ . أي قولوا ذلك بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم. وهذا هو القول التام الذي يترتب عليه الثواب والجزاء؛ فكمـا أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب ليس بإيمان، بل هو نفاق، فكذلك القول الخالي من عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة؛ وفي قوله ﴿قل﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها؛ إذ هي أصل الدين وأساسه، وفي مثل قوله: آمنا، وما أشبهها من الآيات التي يضاف الفعل فيها إلى ضمير الجمع إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعاً والحث على الائتلاف والنهي عن الافتراق، وأن المؤمنين كالجسد الواحد، عليهم السعي لمصالحهم كلها جميعاً والتناصح التام؛ وفيه دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد بأن يقول أنا مؤمن بالله؛ كما يقول آمنت بالله، بل هذا الأخير من أوجب الواجبات، كما أمر الله به أمراً حتماً بخلاف قول العبد: أنا مؤمن ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقروناً بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس؛ لأن الإيمان المطلق يشمل القيام بالواجبات وترك المحرمات، فهو كقوله: أنا متقي أو وليّ أو من أهل الجنة، وهذا التفريق هو مذهب محققي أهل السنة والجماعة.

فقوله: ﴿آمنا بالله﴾ أي بأنه واجب الوجود، واحد أحد فرد صمد متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص مستحق لإفراده بالعبودية كلها، وهو يتضمن الإخلاص التام ﴿وما أُنزل علينا﴾ يدخل فيه الإيمان بألفاظ الكتاب والسنة ومعانيها، كما قال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣]
﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾

[سورة النحل: الآية ٤٤]

فيدخل في هذا الإيمانُ بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله: من أسماء الله وصفاته وأفعاله وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب كلها، وغلإيمان بما تضمنه

الكتاب والسنة أيضاً: من الأحكام الشرعية الأمر والنهي وأحكام الجزاء وغير ذلك؛

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

إلخ. فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء والإيمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليهم منهم في الآية الكريمة وغيرها لشرفهم ولكونهم أتوا بالشرائع الكبار، فمن براهين الإسلام ومحاسنه، وأنه دين الله الحق: الأمر بالإيمان بكل كتاب أنزله الله وكل رسول أرسله الله مجملاً ومفصّلا؛ فكل من ادعى أنه على دين حق كاليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم يتناقضون فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فيبطِلُ كفرُهم وتكذيبُهم تصديقَهم، ولهذا أخبر عنهم أنهم الكافرون حقاً، وأنه لا سبيل يسلك إلى الله إلا سبيل الإيمان بجميع الرسل وبجميع الكتب المنزلة على الرسل. وفي قوله:

﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

برهان على أن الأنبياء وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، وأنه ليس لهم من الأمر شيء؛ وفي الإخبار بأنه من ربهم، بيان أن من كمال ربوبيته لعباده التربية التامة أنه أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعلموهم ويزكوهم ويخرجوهم من الظلمات إلى النور، وأنه لا يليق بربوبيته وحكمته أن يتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

ويفهم من الآية الكريمة الفرق بين الأنبياء الصادقين، وبين من يدّعي النبوة من الكاذبين؛ فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً، ويشهد بعضهم لبعض، ويكون كل ما جاءوا به متفقاً لا يتناقض. لأنه من عند الله محكم منتظم، وأما الكَذَبة فإنهم لا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، ويُعلم كذبهم بمخالفته لما يدعو إليه الأنبياء الصادقون.

فلما بيَّن تعالى جميع ما يجب الإيمان به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: ﴿ونحن له مسلمون﴾، أي خاضعون لعظمته

منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له بذلك؛ فإن تقديم المعمول على العامل يدل على الحصر؛ فهذه الأصول المذكورة في هذه الآية قد أمر الله بها في كتابه في عدة آيات من القرآن إجمالاً وتفصيلا، وأثنى على القائمين بها، وأخبر بما يترتب عليها من الخير والثواب؛ وأنها تكمل العبد وترقيه في عقائده وأخلاقه وآدابه، وتجعله عَـدْلاً معتبراً في معاملاته، وتوجب له خير الدنيا والآخرة، ويحيا بها الحياة الطيبة في الدارين، وتجلب له السعادتين، وتدفع عنه شرور الدنيا والآخرة. وقد أخبر في هذه السورة أن الرسول والمؤمنين قاموا بهذه الأصول علماً وتصديقاً وإقراراً، وعملاً ودعوة وهداية وإرشاداً، فكُتبُ أهل العلم المصنّفة في العقائد كلها تفصيل لما في هذه الآية الكريمة.

٣ - ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: آية الكرسي رقم ٢٥٥]

قد أخبر النبـي ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن على الإطلاق، وأنها تحفظ قارئها من الشياطين والشرور كلها، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة وسعة صفات الكمال لله تعالى؛ فأخبر أنه الله، الذي له جميـع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية غيره، فألوهية غيره وعبادة غيره باطلة ضارّة في الحال والمآل؛ وعبادته وحده لا شريك له هي الحق الموصلة إلى كل كمال؛ وأنه الحيّ كامل الحياة، فمن كمال حياته أنه السميـع البصير القدير المحيط علمه بكل شيء، الكامل من كل وجه؛ فالحي يتضمن جميـع الصفات الذاتية، والقيّوم الذي قام بنفسه واستغنى عن جميـع المخلوقات، وقام بها فأوجدها وأبقاها وأمدّها بكل ما تحتاج إليه في بقائها؛ فالقيوم يتضمن جميـع صفات الأفعال، ولهذا ورد أن اسم الله الأعظم الذي أذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾: فإن هذين الاسمين الكريمين يدخل فيهما

جميع الكمالات الذاتية والفعلية؛ ومن كمال حياته وقيوميته أنه لا تأخذه سِنة أي نعاس، ولا نوم، لأنهما إنما يَعْرُضان للمخلوق الذي يعتريه الضعف والعجز والانحلال، وينزَّه عنهما ذو العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك لجميع ما في السموات وما في الأرض، فكلهم عبيده ومماليكه، لا يخرج أحد منهم عن هذا الوصف اللازم؛ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي اتصف بصفات الملك الكامل والتصرف التام النافذ، والسلطان والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له، مماليك لا يقدمون على الشفاعة لأحد حتى يأذن لهم:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾
[سورة الزمر: الآية ٤٤]

ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله، ولا يرضى إلا عمن قام بتوحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب، وأسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة التي لا نهاية لها

﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥]

من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين؛ وأن الخلق لا يحيط أحد منهم بشيء من علم الله ولا معلوماته إلا بما شاء منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جداً بالنسبة إلى علم الباري، تضمحل العلوم كلها في علم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم المخلوقات، وهم الرسل والملائكة:

﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[سورة البقرة: الآية ٣٢]

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه وسع السموات والأرض، وأنه قد حفظهما بما فيهما من العوالم، بالأسباب والنظامات التي جعلها الله في مخلوقاته ومع ذلك فلا يؤوده، أي يثقله، حفظهما لكمال عظمته وقوة اقتداره وسعة حكمته في أحكامه؛ وهو العلي، بذاته على جميع مخلوقاته، فهو الرفيع الذي باين جميع مخلوقاته؛ وهو العلي بعظمة صفاته، الذي له كل صفة كمال، ومن تلك الصفات أكملها ومنتهاها، ﴿وهو العلي﴾ الذي قهر جميع المخلوقات، ودانت له كل الموجودات، وخضعت له الصعاب وذلت له الرقاب؛ ﴿العظيم﴾ الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد، الذي تحبه القلوب وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل موجود وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العليّ العظيم، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجلّ المعاني وأفرضها على العباد، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها متدبراً متفهمًا أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون بذلك محفوظاً من شرور الشيطان، وقد نعت الباري نفسه الكريمة بهذه الأوصاف في عدة آيات من كتابه:

٤ ـ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨]

هذه أجل الشهادات على الإطلاق؛ فإنها صدرت من الملك العظيم، ومن ملائكته وأنبيائه وأهل العلم على أجل مشهود عليه؛ وهو توحيد الله وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع أحكام الشرع وأحكام الجزاء؛ فإن الدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبادة، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والجلال، وبنعوت الجود والبر والرحمة والإحسان والجمال، وبكماله المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

وأما القسط فهو العدل الكامل؛ والله تعالى هو القائم بالعدل في شرعه وخلقه وجزائه؛ فإن العبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي كله عدل وقسط، لا ظلم فيه بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الإحكام والانتظام، وفي غاية الحكمة والجزاء على الأعمال، كله دائر بين فضل الله وإحسانه على الموحِّدين المؤمنين به، وبين عدله في عقوبة الكافرين والعاصين، فإنه لم يهضمهم شيئاً من حسناتهم، ولم يعذبهم بغير ما كسبوا

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٤]

قال تعالى:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٩]

فتوحيد الله ودينه قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها؛ وقد شهد الله له بذلك بما أقام من الآيات والبراهين والحجج المتنوعة عليه. ومن شهادته تعالى أنه أقام أهل العلم العارفين بهذه الشهادة، فإنهم المرجع للعباد في تحقيق كل حق وإبطال كل باطل، لما خصهم الله به من العلم الصحيح واليقين التام والمعرفة الراسخة.

وهذا من جملة فضائل العلم وأهله، فإن الله جعلهم وسائط بينه وبين عباده، يبلغونهم توحيده ودينه وشرائعه الظاهرة والباطنة؛ وأمر الناس بسؤالهم والرجوع إلى قولهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وغيرهم تابعٌ لهم في الدنيا والآخرة. ولهذا لهم الكلمة الرفيعة حتى في الآخرة، لما ذكر تعالى اختصام الخلق واختلافهم، ذكر القول الفصل في ذلك الصادر من أهل العلم

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم: الآية ٥٦]

وفي هذا دليل على كمال عدل أهل العلم؛ فإن الله استشهد بهم على عباده، وذلك تعديل منه لهم، وفي هذا من الشرف وعلو المكانة ما لا يخفى.

٥ - ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩]

العلم لا بد فيه من إقرار القلب، ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه، ولا يتم ذلك إلا بالعمل بمقتضى ذلك العلم في كل مقام بحسبه؛ وهذا العلم الذي أمر الله به فرض عين على كل إنسان لا يسقط عن أحد، كائناً من كان.

والضرورة إلى هذا العلم والعمل بمقتضاه من تمام التأله لله فوق كل ضرورة، والعلم بالشيء يتوقف على معرفة الطريق المفضي إلى معرفته وسلوكها، والطريق إلى العلم بأنه

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٣]

على وجه الإجمال والعموم أمور:

أحدها: وهو أعظمها وأوضحها وأقواها، تدبُّر أسماء الله وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله؛ فإن معرفتها توجب العلم بأنه لا يستحق الألوهية سواه، وتوجب بذل الجهد في التأله والتعبد لله، الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه الرب المنفرد بالخلق والرزق والتدبير، فبذلك يعلم أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به محبة وإنابة، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما يراه العباد ويسمعونه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر لرسله وأتباعهم، ومن النعم العاجلة المشاهدة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا برهان على أنه وحده المستحق للألوهية.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبدت مع الله واتُّخذت آلهة، وأنها فقيرة إلى الله من كل وجه، ناقصة من كل وجه، لا تملك لنفسها

ولا لمن عبدها نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛ فالعلم بذلك يعلم به بطلان إلهيتها، وأن ما يدعون من دون الله هو الباطل، وأن الله هو الإله الحق المبين.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: اتفاق الأنبياء والرسل والعلماء الربانيين على ذلك وشهادتهم به، وهم خواص الخلق وأكملهم أخلاقاً وعقولاً وعلماً ويقيناً.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة والآيات الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة وأوضحها وتنادي عليه بلسان المقال ولسان الحال، بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه.

التاسع: ما أودعه الله في شرعه من الآيات المحكمة والأحكام الحسنة والحقوق العادلة والخير الكثير وجلب المنافع كلها ودفع المضار، ومن الإحسان المتنوع، وذلك يدل أكبر دلالة أنه الله الذي لا يستحق العبادة سواه. وأن شريعته التي نزلت على ألسنة رسله شاهدة بذلك.

فهذه الطرق التي لا تحصى أنواعها وأفرادها قد أبداها الله في كتابه وأعادها، ونبه بها العباد على هذا المطلوب الذي هو أعظم المطالب وأجل الغايات، فمن سلك طريقاً من هذه الطرق أفضت به إلى العلم واليقين بأنه لا إله إلا هو؛ وكلما ازداد العبد سلوكاً لهذه الطرق ورغبة فيها ومعرفة ازداد يقينه ورسخ إيمانه، وكان الإيمان في قلبه أرسخ من الجبال، وأحلى من كل لذيذ وأنفس من كل نفيس.

والطريق الأعظم الجامع لذلك كله تدبر القرآن العظيم والتأمل في آياته، فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل من غيره وقوله:

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٥]

أي اطلب من ربك المغفرة لذنبك بأن تفعل الأسباب التي تحصل بها

المغفرة: من الدعاء بالمغفرة والتوبة النصوح، وفعل الحسنات الماحيـة، وترك الذنوب، والعفو عن الخلق والإحسان إليهم، ومن ذلك الاستغفار لهم. فلهذا قال: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ فهذا من ثمرات الإيمان بسبب إيمانهم كان لهم حق على كل مسلم أن يدعو لهم بالمغفرة. وإذا كان العبد مأموراً بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، فمن لوازم ذلك أن يكون ناصحاً لهم، يحبّ لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويحثهم على الخير وينهاهم عن الشر، ويعفو عن معائبهم ومساويهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، فإنه بالائتلاف تقل الذنوب وبالافتراق تكثر الشرور والمعاصي. ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ أي تصرفاتكم وحركاتكم وذهابكم ومجيئكم، وما إليه تنتهون وبه تستقرون، فهو المحيط بكم في كل أحوالكم؛ وهذا فيه التخويف والترغيب من الجزاء على الأعمال حسنها وسيئها.

٦ ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الحشر: الآيات ٢٢ ـ ٢٤]

هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى التي عليها مدار التوحيد والاعتقاد، فأخبر أنه المألوه الذي لا يستحق العبادة سواه؛ وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام وحكمه الشاملة. فهو الإله الحق وما سواه فعبوديته باطلة، لأنه خال من الكمال ومن الأفعال التي فيها النفع والضر؛ ووصف نفسه بالعلم المحيط بما حضر وغاب وما مضى وما يستقبل وما هو حاضر وما في العالم العلوي وما في العالم السفلي وما ظهر وما بـطن، فلا تخفى عليه خافية في مكان من الأمكنة ولا زمان من الأزمنة؛ ومن كمال علمه وقدرته أنه يعلم ما تنقص الأرض من الأموات وما تفرق من أجزائهم

وما استحال من حال إلى حال؛ أحاط علماً بذلك على وجه التفصيل فلا يعجزه إعادتهم للبعث والجزاء، ووصف نفسه بأنه ﴿الرحمن الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته الخليقة بأسرها وملأت الوجود كله؛ ووصف نفسه بأنه ﴿الملك﴾ وهو الذي له الملك التام المطلق، له صفات الملك التي هي نعوت العظمة والكبرياء والعز والسلطان. وله التصرف المطلق في جميع الممالك، الذي لا ينازعه فيه منازع، والموجودات كلها عبيده، وملكه ليس لهم من الأمر شيء.

وأخبر أنه ﴿القدوس السلام﴾ أي المقدس المعظم، السالم من جميع العيوب والنقائص المنافية لكماله؛ ﴿المؤمن﴾ المصدِّق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به من الآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات. الذي له العلم كله ويعلم من أوصافه المقدسة ونعوته العظيمة ما لا يعلمه بشر ولا ملك، ويحب نفسه وما هو عليه من الجلال والجمال. ﴿العزيز﴾ الذي له العزة كلها، عزة القوة والقدرة، فهو القوي المتين، وعزة القهر والغلبة لكل مخلوق، فكلهم نواصيهم بيده وليس لهم من الأمر شيء، وعزة الامتناع الذي تمنَّع بعزته عن كل مخلوق فلا يعارض ولا يمانع، وليس له نديد ولا ضديد. ﴿الجبّار﴾ الذي قهر جميع المخلوقات ودانت له الموجودات واعتلى على الكائنات وجبر بلطفه وإحسانه القلوب المنكسرات. ﴿المتكبر﴾ عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة أحد من خلقه ومماثلتهم لعظمته وكبريائه. ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به ولم يقدره حق قدره. ﴿هو الله الخالق﴾ لجميع المخلوقات ﴿البارىء﴾ بحكمته ولطفه لجميع البريَّات، المصور بحسن خلقه لجميع الموجودات، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى كل مخلوق وكل عضو لما خلق له وهيئ له.

فالله تعالى قد تفرد بهذه الأوصاف المتعلقة بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك، وهذا من براهين توحيده، وأن من تفرد بالخلق والبرء والتصوير فهو المستحق للعبودية ونهاية الحب وغاية الخضوع. ﴿له الأسماء الحسنى﴾: وقد ورد في الحديث الصحيح أن لله تسعة وتسعين اسماً؛ مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة ـ يعني أحصى ألفاظها وحفظها وعقلها وتعبد لله بها ـ

فهو تعالى الذي له كل اسم حسن، وكل صفة جلال وكمال، فيستحق من عباده كل إجلال وتعظيم وحب وخضوع. ﴿يسبح له ما في السموات والأرض﴾: يعني من المكلفين والحيوانات والأشجار والجمادات.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٤٤]

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ في خلقه وشرعه.

٧ - بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]

أي قل قولاً جازماً فيه، معتقداً له، عارفاً بمعناه، عاملاً بمقتضاه من الإيمان بالله والتعظيم والخضوع: هو الله أحد؛ أي الذي انحصرت فيه الأحدية، وهي التفرد بكل صفة كمال الذي لا يشاركه في ذلك مشارك؛ الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال المقدسة والتصرف المطلق ﴿الله الصمد﴾، أي السيد الذي قد انتهى سؤدده؛ العليم الذي قد كمل علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه وفي قدرته وفي جميع أوصاف كماله؛ ولأجل هذا صمدت له المخلوقات كلها وقصدته في كل حاجاتها وفزعت إليه الخليقة في مهماتها وملماتها.

فالصمد هو الذي صمدت له المخلوقات لما اتصف به من جميع الكمالات، ومن كماله أنه لم يلد ولم يولد، لأنه الغني المالك، فاتخاذُ الولد ينافي ملكه وغناه ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ أي ليس له مكافىء ولا مثيل في أسمائه وصفاته وأفعاله، تبارك وتعالى.

فهذه السورة أصل عظيم من أصول الإيمان، وقد تضمنت توحيد الأسماء والصفات، ومن لوازم ذلك توحيد الإلٰهية، وأن المتفرد بالوحدانية من كل وجه، الذي ليس له مثيل بوجه من الوجوه، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لا إله إلا هو.

٨ ـ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٦٣]

يخبر تعالى، وهو أصدق القائلين، أنه إله واحد؛ أي متوحد منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فليس له شريك ولا سمي له، ولا كفو ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره؛ فإذا تقرر أنه كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرَك به أحد من خلقه، لأنه الرحمن الرحيم، المتَّصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي؛ فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عن العباد كل نقمة، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبيَّن لهم كلَّ ما يحتاجونه من أمور دينهم ومصالح دنياهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة دقت أو جلّت فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً، علم أنه لا يستحق العبادة إلا المتفرد بالنعم، الدافع للمكاره، وتعينَّ على العباد أن يفردوه بالمحبة، والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاقات، وإن من أظلم الظلم وأقبح القبيح وأعظم الضلال أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوقين من تراب، بالرب العظيم، وأن يسوى المخلوق العاجز القاصر الناقص من كل وجه، بالرب الخالق المدبِّر القوي، الذي قهر كل شيء، وخضعت له الرقاب.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباريء وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، والاستدلال على ذلك بتفرده بالرحمة، التي من آثارها جميع البر والإحسان في الدنيا والآخرة، ثم ذكر الله الأدلة التفصيلية بقوله:

٩ ـ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٤]

أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي أدلة، على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، وآية على البعث والجزاء لقوم يعقلون؛ أي لهم عقول يُعملونها فيما خلقت له؛ فعلى حساب ما منَّ الله على عبده من العقل وصرفه في التفكر في الآيات ينتفع بها ويعرفها ويعقلها بعقله وفكره وتدبره؛ ففي خلق السموات، في ارتفاعها واتساعها وإحكامها واتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وجريانها بانتظام عجيب، لمصالحُ للعباد.

وفي خلق الأرض؛ وجعلها مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها والاعتبار؛ ما يدل ذلك على انفراد الله بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع فيها من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم؛ وفي ذلك أبلغ دليل وبرهان على كماله من كل وجه، وأن يفرد بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير والقيام بشؤون عباده.

وفي اختلاف الليل والنهار، وهو تعاقبهما على الدوام إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر؛ وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح الآدميين وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم والنوابت كلها، كل ذلك بتدبير وتسخير تحيّر في حسنه العقول، ويعجز عن إدراك كنهه الرجال الفحول، وذلك يدل على قدرة مصرِّفها وسعة علمه وشمول حكمته، وعموم رحمته ولطفه الشامل وعظمته وكبريائه وسلطانه العظيم، يضطر العباد إلى معرفة ربهم وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

وفي الفلك التي تجري في البحر، وهي السفن والمراكب ونحوها مما ألهم الله عباده صنعتها وأقدرهم عليها بتيسير أسبابها، ثم سخّر لها هذا البحر العظيم والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التي هي من منافع الناس وبها تنتظم معائشهم، فمن الذي ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها وخلق

لهم من الآلات المتنوعة ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها هذا البحر تجري فيه بإذنه وتسخيره الرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية والهوائية النار والمعادن المتنوعة المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال الثقيلة جداً؛ فهل هذه الأمور حصلت صدفة واتفاقاً؟ أم استقل بعملها وخلق أسبابها هذا المخلوق الضعيف العاجز الذي خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وليس له قدرة على شيء، ثم أعطاه خالقه القدرة وعَلّمه ما لم يكن يعلم، أم تقول: والحق تقول، بل المسخِّر لذلك الربُّ الواحد، العظيم العليم الحكيم القدير؛ الذي لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء، بل الأشياء كلها قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته؛ وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب التي بها وجدت هذه الأمور العظام؛ فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بعباده، ويدعو العباد إلى أن يعبدوه وحده لا شريك له، وينيبوا إليه في كل حال.

وما أنزل الله من السماء من ماء، وهو المطر النازل من السحاب، فأحيا به الأرض بعد موتها، فأظهرت أنواع الأقوات وأصناف الأشجار والنباتات التي لا يمكن العباد أن يعيشوا بدونها..

أليس ذلك برهاناً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج؛ وعلى رحمته ولطفه بعباده، وشدة افتقار الخليقة إليه في كل أحوالهم.. وهو يحدوهم إلى إخلاص الدين له والإنابة إليه والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً..

وكذلك هو دليل على إحياء الله للموتى كما قال تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٣٩]

وقد ذكر الله هذا البرهان على البعث في عدة آيات، كما ذكر ابتداء الخلق برهاناً على إعادته، وكما ذكر كمال علمه وقدرته، وخلق السموات والأرض، وأنه جعل للعباد من الشجر الأخضر ناراً برهاناً بيناً على البعث.

وقوله: ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ أي نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة وسخَّرها للآدميين ينتفعون بها من وجوه كثيرة، ومع هذا فهو قائم بأرزاقها، متكفل بأوقاتها، فما من دابَّة في الأرض إلاّ على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي تصريف الرياح آيات عظيمة على وحدانية الله وتفرده بالكمال المطلق، فتارة تكون باردة وحارة وبين ذلك، وجنوباً وشمالاً ودَبورًا (أي غربية) وبين ذلك؛ وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلقِّحه وتدرُّه، وتارة تمزقه وتزيل ضرره، وتارة ترسل بالرحمة وتارة ترسل بالعذاب.. فمن الذي صرَّفها هذا التصريف ورتَّب عليها من المنافع للعباد شيئاً كثيراً إلا العزيز الحكيم، الرحيم اللطيف بعباده، المستحق للمحبة والثناء والشكر والحمد من الخليقة؟

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث يشاء ويجعله حياة للبلاد والعباد، ويروي به التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، ويصرف عنهم ضرره فينزله رحمة ولطفاً، ويصرفه عناية وعطفاً.

فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه وألطف امتنانه، أليس من أقبح القبيح وأظلم الظلم أن يتمتع العباد برزقه ويعيشوا ببره، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه، ومع ذلك من كمال حلمه وعفوه وصفحه يوالي عليهم الإحسان؟ خيره إليهم على الدوام نازل، وشرهم إليه في كل وقت صاعد..

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع الكائنات، علم أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب براهين ودلالات على جميع ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مدبرات مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها، فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغنيُّ بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلاَّ هو، ولا رب سواه.

ولنقتصر على هذا الأنموذج من الآيات المتعلقة بالتوحيد مع ما دخل في ضمنها من الإيمان بالجزاء والبعث وبالرسل والكتب، وقد قرن الله ذلك بأدلته وبراهينه الموصلة إلى العلم التام، واليقين الراسخ، وبذلك يعلم أن هذه الأصول الثلاثة متلازمة: **التوحيد والرسالة والمعاد**، كما أن في ضمن الآيات المتعلقة بالجزاء شيئًا كثيرًا من متعلقات التوحيد والرسالة؛ فسبحان من جعل في كلامه الهدى والرشاد، وإصلا العباد

فصـــل

١٠ ـ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

هذه المنة التي امتن الله بها على عباده المؤمنين أكبر المنن، بل هي أصلها؛ وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم، الذي جمع الله به جميع المحاسن الموجودة في الرسل؛ ومن كماله العظيم هذه الآثار التي جعلها الله نتيجة رسالته التي بها كمال المؤمنين علماً وعملاً وأخلاقاً وآداباً، وبها زال عنهم كل شر وضـرر، فبعثه الله من أنفسهم وأنفسهم وقبيلتهم، يعـرفون نسبـه أشرف الأنساب، وصدقه وأمانته وكماله الذي فاق به الأولين والآخرين، ناصحاً لهم مشفقاً، حريصاً على هدايتهم ﴿يتلو عليهم آياته﴾، فيعلمهم ألفاظها ويشرح لهم معانيها ﴿ويزكيهم﴾، أي يطهِّرهم من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر الخصال الذميمة، ويزكيهم أيضاً، أي ينميهم، فيحثهم على الأخلاق الجميلة، فإن التزكية تتضمن هذين الأمرين: التطهير من المساوىء والتنمية بالمحاسن؛ ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ وهو القرآن ﴿والحكمة﴾ وهي السُّنَّة.

فالكتاب والسنة بهما أكمل الله للرسول وأمته الدين، وبهما حصل العلم بأصول الدين وفروعه، وبهما حصلت جميع العلوم النافعة وما يترتب عليها من الخيرات، وزوال الشرور، وبهما حصل العلم اليقيني بجميع الحقائق النافعة، وبهما الهداية والصلاح للبشر.

فمحمد ﷺ، هو الإمام الأعظم المعلم لهذين الأمرين، اللذين ينابيع العلوم كلها تتفجر من معينها، فعلَّم ﷺ أمته الكتاب والحكمة وأوقفهم على حكم الأحكام وأسرارها، فكانت حياته كلها ـ أقواله وأفعاله وتقريراته وهديه، وأخلاقه الظاهرة والباطنة، وسيرته الكاملة المتنوعة في كل فن من الفنون ـ تعليماً منه للمؤمنين، وشرحاً للكتاب والحكمة؛ فجمع لهم بين تعليم الأحكام الأصولية والفروعية، وما به تدرك وتنال، والطرق التي تفضي إليها عقلاً ونقلاً وتفكيراً وتدبراً، واستخراجاً للعلوم الكونية من مظانِّها وينابيعها؛ وبين لهم فوائد ذلك كله وثمراته وشرح لهم الصراط المستقيم، اعتقاداته وأخلاقه وأعماله، وما لسالكه عند الله من الخير العاجل والآجل وما على المنحرف عنه من العقاب والضرر العاجل والآجل.

فكان خيار المؤمنين بهذا التعليم الصادر من النبـي الكريم مباشرة وتبليغاً من العلماء الربانيين الراسخين في العلم، ومن الهداة المهديين ومن أكابر الصديقين، وحصل لسائر المؤمنين من هذا التعليم نصيب وافر من الخير العظيم على حسب طبقاتهم ومنازلهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فخرجوا بهذا التعليم من جميع الضلالات، وانجالت عنهم الشرور المتنوعة والجهالات، وتمَّ لهم النور الكامل وانقشعت عنهم الظلمات.

فيا لها من نعمة لا يقادر قدرها ولا يحصي المؤمنون كنه شكرها.

١١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الفرقان: الآيات ٤ ـ ٦]

ذكر الله تعالى في هذا قدح المكذبين لمحمد ﷺ، وإدلاءهم بهذه الشبه التي يعلمون ويعلم الناس بطلانها، فزعموا أنه افترى هذا القرآن، وأنه ساعده على ذلك قوم آخرون، فردَّ الله عليهم هذه المقالة المنتهية في القبح بأن هذا ظلم

عظيم، وجراءة يعجب السامع كيف سولت لهم أنفسهم هذا القول الهراء، وأنه من الزور والظلم؛ فإنه قد كانوا يعرفون بلا شك صدقه وأمانته التي لا يلحقه فيها أحد، وأنه لم يجتمع بأحد من أهل العلم ولا رحل في طلبه، وقد نشأ بين أمة أمِّية في غاية الجهل والضلال، وقد جاءهم بهذا الكتاب العظيم الذي لم يطرق العالم أعظم منه، ولا أعلى معاني وأغزر علماً، ولا أبلغ من ألفاظه ومعانيه، وأتم من حُكمه وحِكَمِه ومبانيه. وقد تحدى أقصاهم وأدناهم، وأفرادهم وجماعتهم، وأولهم وآخرهم أن يأتي بمثله أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة من مثله؛ وصرح لهم أنهم إن أتوا بشيء من مثله فهم صادقون، وهم أهل الفصاحة والبلاغة في الكلام، فعجزوا غاية العجز عن معارضته والاتيان بمثله، واتضح لهم ولغيرهم عِيُّهم وعجزهم، وتبين بطلان دعواهم.

وكل من حاول أن يأتي بكلام يعارض به ما جاء به الرسول صار كلامه ضحكة للصبيان فضلاً عن أهل النظر والعقول، وكل شبهة يدلون بها في معارضة الرسول من حين يوجه لها النظر الصحيح تضمحل وتزهق.

﴿إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨١]

ومن جراءتهم أنهم قالوا: إن هذا القرآن الذي جاء به محمد أساطير الأولين، اكتتبها من كتب الأولين المسطورة، فهي تُملى عليه بكرةوأصيلاً.. فياويحهم! من الذي عندهم في بطن مكة يمليها؟ وهل يوجد في ذلك الوقت في مكة أو ما حولها كتب تملى؟ ولو فرض وقدر أنه يوجد أحد، لَم يختص محمد وحده بالأخذ عنه؟

ولما كانت هذه مقالة زور وافتراء لا يخفى كذبها على أحد تشبثوا وقالوا: كان محمد يجلس إلى قينٍ حدّاد في مكة فارسي فيتعلم منه، فلهذا قال الله عنهم:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة النحل: الآية ١٠٣]

بالغ في البيان والبلاغة نهايتها وغايتها، فلا يمكن الجمع بين النقيضين: أن يتعلمه من هذا الأبكم أعجميٍّ اللسان، الذي لم يعرف عنه علم يرجع إليه، ولا معرفة يتميز بها؛ وهذا القرآن الذي جاء به مع كمال بلاغته حوى علوم الأولين والآخرين.

ولما كان هذا القول الذي قالوه، والمكابرة التي تجرأوا عليها قد علم الموافق والمخالف كذبها وافتراءها، وكان جميع أعداء الرسول لهم ورثة، يقومون بالعداوة للرسول والدين ويعطونها حقها، ولو جلبت عليهم ما جلبت من الدخول في الكذب والافتراء والمكابرة، وقد عرف هؤلاء الأعداء المتأخرون مكابرة إخوانهم الذين باشروا تكذيب الرسول، ورأوا أن مقالتهم قد بطلت واضمحلت، وبَانَ زورها لكل أحد، صاغها هؤلاء المكذبون بعبارة موَّهوها، وظنوا أنها بهذا التمويه تروج، فزعموا، وما أسمجه وأكذبه من زعم، أن محمداً كان يتعلم من نفسه؛ وأنه كان يخلو بالطبيعة: السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم فيعطيها لبه، ويناجيها بقلبه فيخيل إليه أصناف التخاييل، فيأتي بها إلى الناس زاعماً أنها من وحي الله على يد جبريل، وأن هذه التخيلات من الأمور العالية التي يعتاد الاتيان بها أهل الرأي والحجى.

ولما رأوا آثارها الجليلة في الإسلام وأهله وتعاليمه وتقويمه للأمم، وبهرهم هذا النور العظيم لجأوا إلى هذا التحذلق الذي منتهاه وغايته أنهم صوروا النبي ﷺ ورَقَّوْه إلى رجل من الطبيعيين، كما قال هذا القول الباطل أحد ملاحدة الإفرنسيين، وتلقاها عنه بعض الملاحدة العصريين، وهو مبني على إنكار وجود رب العالمين، وأنه ما ثمَّ إلا عمل الطبيعة، وقد علم الناس أن هذا القول المزور أعظم مكابرة ومباهتة من قول الأولين، وأن هذا الافتراء الذي ولَّدوه بعد مئات السنين أوضح ضلالاً وظلماً وجراءة ووقاحةً من زور الأولين، وأن هؤلاء الأراذل الذين أعجبوا بآرائهم وتاهوا بعقولهم قد بين الله كذبهم فيما قالوه، وأن عقولاً ولدت هذه الأقوال المؤتفكة والخيالات الفاسدة والمقالات الفاسدة لعقولُ سافلة وآراء ساقطة، يعرف فسادها بنتائجها ومكابرتها وإنكارها أجلى الحقائق، ولهذا قال تعالى:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦]

فالرب القادر العظيم، الذي أحاط علمه بجميع الأسرار، وعلم أحوال العباد حاضرها ومستقبلها فأنزله لهدايتهم، وجعله مناراً وعلماً يهتدي به المهتدون في كل وقت وحين.

فجميع الحقائق التي دعا إليها هذا الرسول وهذا القرآن حقائق ثابتة نافعة للعباد، لا يأتي من الحقائق ما يغيرها، ومحال أن يأتي شيء أصلح منها أو مثلها أو يقاربها:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

ومن كمال علمه وقدرته أنه لو تقوَّل عليه أحد بمثل هذه المقالة لعاجله بالعقوبة، فلما أيد من جاء بها بنصره وحججه، وأرى العباد آياته في الآفاق وفي أنفسهم التي يتبين بها أنه الحق وما سواه ضلال عُلم بذلك أن هذا الرسول أصدق الخلق وأنصحهم وأبرَّهم وأعلمهم وأخشاهم وأتقاهم لربه، وأن أعداءه المكذبين له أكذب الخلق وأغشهم وأعظمهم جهلاً وضلالاً وغيًّا وفساداً في كل زمان ومكان.

ومن مكابرة أعداء الرسول أنهم جعلوا يتناقضون في مقالاتهم ويتفننون في إفكهم المكشوف كذبه؛ فمنهم من قال إنه مجنون، ومنهم من قال ساحر وكاهن، ومنهم من قال مسحور، ومنهم من قال لو كان صادقاً لجاءت الملائكة تؤيده، ولو كان صادقاً لأغناه الله عن المشي في الأسواق وجعل له جنات وأنهاراً وأموالاً كثيرة. .وكلٌّ يعلم أن هذه الأقوال ـ مع تناقضها ـ ليست من الشبه فضلاً عن كونها من الحجج، ولهذا قال تعالى معجباً:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٤٨]

ومثل هذه الأقوال التي يذكرها الله عن المكذبين للرسول هي بنفسها تدل على كذبهم ومكابرتهم قبل أن يعرف بطلانها من الأدلة الأخرى. وإذا وزنت

هذه الأقوال الجارية من الأولين رأيت نظيرها وأقبح منها جارية من الملاحدة المتأخرين؛ ويأبى الله إلاَّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٣]

فما جاء به الرسول من الهدى في جميع أبواب العلوم النافعة والدين الحق الذي هو الصلاح المطلق، أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً، وأكبر الأدلة على إبطال كل ما ناقضه من أقوال المؤتفكين؛ والحمد لله رب العالمين.

١٢ ــ ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾
[سورة القلم: الآيات ١ ــ ٧]

يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تكتب بها أنواع العلوم، ويسطَّر بها المنثور والمنظوم، وذلك أن القلم، وما يسطّر به من أنواع الكلام، من آياته العظيمة التي تستحق أن يقسم بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون؛ فنفى عنه ذلك بنعمة ربه عليه وإحسانه، إذ منَّ عليه بالعقل الكامل والرأي السديد والكلام الفصل الذي هو من أحسن ما جرت به الأقلام وسطَّره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا؛ ثم ذكر سعادته في الآخرة فقال: ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ أي لأجراً عظيماً ــ كما يفيده التنكير ــ غير مقطوع، بل هو دائم متتابع مستمر، وذلك لما أسلفه ﷺ من المقامات العالية في الدين والأخلاق الرفيعة؛ ولهذا قال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ فعَلاَ ﷺ بخلقه العظيم على جميع الخلق، وفاق الأولين والآخرين، وكان خلقه العظيم كما فسَّرته به عائشة رضي الله عنها هذا القرآن الكريم وذلك نحو قوله تعالى:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٩٩]

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة: التوبة: الآية ١٢٨]

وما أشبهها من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات التي فيها الحث على كل خلق جميل، فكان أول الخلق امتثالاً لها وسبقاً إليها وإلى تكميلها، فكان له منها أكملها وأجلها وأعلاها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا. فكان سهلاً ليِّناً قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب من سأله، لا يحرمه ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه أمراً وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن في ذلك محذور، وإن عزم على أمر لم يستبدَّ به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم؛ وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه ولا يغلظ له في كلامه ولا يطوي عنه بشره ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إليه غاية الإحسان ويحتمله غاية الاحتمال، ﷺ.

فلما أنزله الله بأعلى المنازل، وكان أعداؤه يقولون إنه مجنون مفتون قال: ﴿فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون﴾ وقد تبين أنه كان أهدى الناس وأكملهم وأنفعهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله وأضلوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه المحاسب المجازي و ﴿هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾.

وفيه تهديد للضالين ووعد للمهتدين وبيان لحكمة الله في هدايته من يصلح للهداية دون غيره.

فصل

١٣ ـ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ ـ إلى آخر السورة الكريمة ـ [سورة الزمر: الآية ٦٨ وما بعدها]

من أهم أصول الإيمان الإيمان باليوم الآخر؛ وهو الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله بعد الموت، من فتنة القبر ونعيمه وعذابه، وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه، ومن صفات الجنة والنار وصفات أهلها.

فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بذلك كله جملة وتفصيلاً؛ أما أحوال القبر وفتنته وعذابه ونعيمه وتفاصيل ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة والحسنة عن رسول الله ﷺ كما هو معروف، والقرآن أشار إليه في عدة آيات؛ وأما ما يكون بعد ذلك، فإذا أراد الملك القادر بعث العباد وحشرهم وجزاءهم ﴿نُفِخ في الصور﴾ وهو قرن عظيم لا يعلم عظمه إلا الذي خلقه، كما ورد في حديث الصور المشهور، أو نفخ في الصور على وجه لا يعلم كنهه إلا الله نفخة الصعق والفزع. انزعج لهذا أهل السموات والأرض وصعقوا، إلا من شاء الله من خلقه، ﴿ثم نفخ فيه أخرى﴾ نفخة البعث ﴿فإذا هم قيام﴾ من أجداثهم كاملي الخلقة ينظرون ما يستقبلهم من هذه الحياة الأخروية التي يجازَى فيها العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها.

أما المؤمنون الطائعون فيقومون مطمئنين طامعين في فضل ربهم ورحمته، مستبشرين بثوابه وعفوه ومغفرته، يحشرون إلى موقف القيامة وفداً مكرمين. وأما المجرمون فيقومون فزعين خائفين متحسرين، يدعون بالويل والثبور، يقولون: يا ويلنا، من بعثنا من مرقدنا؟ فيساقون إلى جهنم ورداً.

فحينئذ تكثر القلاقل والأهوال، ويشيب الولدان من هول ذلك اليوم وفظاعته:

﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ

حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾
[سورة الحج : الآية ٢]

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ * وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ * ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ * وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ * تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ [سورة عبس: الآيات ٣٤ ــ ٤٢]

﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا * ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [سورة الفرقان: الآيتان ٢٥ و٢٦]

وتكور الشمس والقمر، وتنثر النجوم فتذهب هذه الأنوار المشاهدة، وتشرق الأرض بنور ربها، وينزل الله لفصل القضاء بين عباده، ومحاسبتهم على أعمالهم: أما المؤمنون فيحاسبهم حساباً يسيراً يقررهم بذنوبهم ثم يغفرها ويسترها عن الخلائق، ويضاعف لهم الحسنات، ويعطيهم من فضله وإحسانه ما لا تبلغه أعمالهم، ويعطون كتبهم بأيمانهم إكراماً واحتراماً، كما تبيضُّ وجوههم، وتثقل موازينهم؛ ويغتبطون بذلك ويستبشرون به فيقولون لإخوانهم ومعارفهم ومحبيهم:

﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ * إِنِّي ظَنَنتُ [أي أيقنت] أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ * فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ ــ الآيات ــ [سورة الحاقة: الآيات ١٩ ــ ٢١ وما بعدها]

ويساقون إلى الجنة زمراً كل طائفة منهم مع نظرائهم في الخير بحسب طبقاتهم وسبقهم، كما يردون في عرصات القيامة حوض نبيهم فيشربون منه شربة هنيئة لا يظمأون بعدها، ويمرون على الصراط على قدر أعمالهم كلمح البصر، وكالبرق الخاطف، وكأجاويد الخيل والإبل وكسعي الرجال وكمشيهم، ودون ذلك.

فإذا عبروا على الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض مظالم وتبعات كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أُذن

لهم في دخول الجنة، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها بشفاعة محمد ﷺ فتلقاهم خزنة الجنة يسلمون عليهم، ويهنونهم بالنجاة من العذاب وحصول الخير والثواب والخلود الأبدي بسبب طيبهم، ولهذا قالوا:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣]

أي طابت قلوبكم بالعقائد الصحيحة الصادقة، والأخلاق الجميلة، وألسنتكم بذكر الله والثناء عليه، وجوارحكم بخدمته والقيام بطاعته:

﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣]

فإذا دخلوها ورأوا ما فيها من النعيم المقيم، مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، حمدوا الله على منته عليهم بالسوابق والإيمان والأعمال الصالحة؛ وبإنجاز ما وعدهم به على ألسنة رسله، وعلى أن الله أورثهم الجنة يتبوأون من خيراتها حيث يشاءون وأنى يشاؤن مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح، ومن نعيم الأبدان والأجسام

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾
[سورة الواقعة: الآيات ١٥ ــ ٢٣]

خيِّرات الأخلاق حسان الوجوه، قد جمع الله لهن حسنَ البواطن والظواهر، فهن سرور النفس وقرة النواظر.

وتمام ذلك أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، وأنه يقال لهم إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً؛ وإن لكم أن تصحُّوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، فلهم كل ما يشاءون فيها وتتعلق به أمانيُّهم، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانيُّهم، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله وهو التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، وسماع خطابه والابتهاج برضاه وقربه، والسرور بمحبته وذكره وحمده والثناء عليه وشكره،

مما يشاهدون من كثرة الخيرات، وسوابغ النعم والهبات؛ وزيادة النعيم وتواصله، ومما يزدادون من معرفته والأنس به، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام.

وأما الكافرون المجرمون فيحاسبهم الله على ما أسلفوه من الجرائم ويقرِّعهم ويخزيهم بين الخلائق، ويعطون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم؛ وتسْودُّ منهم الوجوه، وتخف موازينهم، ويساقون إلى جهنم جياعاً عطاشاً منزعجين مرعوبين زُمَراً، كل طائفة تحشر مع نظيرها من أهل الشر

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [سورة الزمر: الآية ٧١]

في وجوههم ففاجأهم حرها المفظع وحلَّ بهم الفزع الأكبر الذي لا يشبهه فزع، وتلقتهم خزنة الجحيم يوبخونهم على ما قدموه، وقالوا لهم:

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧١]

قد جاءتنا الرسل وبلغتنا النذر، فما كان منا إليهم إلا الاستهزاء بهم والتكذيب، فلو كان لنا أسماع واعية، وعقول نافعة ما وصلنا إلى هذه الدار، بل خالفنا المنقول والمعقول

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة المُلك: الآية ١١]

ما أشد شقاءهم وعناءهم؛ ينوع عليهم العذاب أنواعاً، فتارة يعذبون بالسعير المحرق لظواهرهم وبواطنهم. كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، وتارة بالزمهرير الذي قد بلغ برده أن يهري اللحوم ويكسر العظام، وتارة بالجوع المفرط والعطش المفظع، وإذا استغاثوا لذلك أُغيثوا بعذاب آخر، ولون من الشقاء ينسي ما سبقه، فيغاثون بطعام ذي غصة؛ بشجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم وثمرها في غاية المرارة والنتن والحرارة، إذا وصلت بطونهم غلت فيها كغلي الحميم الذي يوقد عليه في النار، وإن يستغيثوا للشراب يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، إذا قرب إليها فلا يدعهم العطش مع ذلك أن يتناولوها؛ فإذا وصلت إلى بطونهم قطعت أمعاءهم ولا يزالون في عذاب متنوع

شديد، لا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا يرجون رحمة ولا فرجاً، يتمنون الممات ليستريحوا، فينادون مالكاً رئيس خزنة النار: يا مالك ليقض علينا ربك. فيقول لهم إنكم ماكثون، فلا تلوموا إلا أنفسكم لما أسلفتموه من الجرائم

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٧٨]

وينادون أهل الجنة مستغيثين بهم: أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فيقول لهم أهل الجنة: إن الله حرمهما على الكافرين، وينادون ربهم فيقولون:

﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ١٠٦ و١٠٧]

فيجيبهم الله:

﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠٨]

فحينئذ ييأسون من كل خير ومن كل فرج وراحة، ويتيقنون أنه الخلود الدائم والعذاب الأبدي والشقاء المستمر. فنسأل الله الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، ونعوذ به من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

فصل

١٤ ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾
[سورة الأنبياء: الآيتان ١٩ و ٢٠]

الإيمان بالملائكة أحد أصول الإيمان؛ ولا يتم الإيمان بالله وكتبه ورسله إلا بالإيمان بالملائكة؛ وقد وصفهم الله بأكمل الصفات، وأنهم في غاية القوة على عبادة الله والرغبة العظيمة فيها، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ وأنهم لا يستكبرون عن عبادته، بل يرونها من أعظم نعمه عليهم، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ففي هذا بيان كمال محبتهم لربهم وقوة إنابتهم إليه ونشاطهم التام في طاعته، وأنهم لا يعصونه طرفة عين، وهم الوسائط بينه وبين رسله، وخصوصاً جبريل أفضلهم وأعظمهم وأقواهم وأرفعهم عند الله منزلة؛ فإنه ذو

﴿قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [سورة التكوير: الآيتان ٢٠ و ٢١]

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [سورة التكوير: الآية ٢٤]

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ ـ ١٩٤]

وكما أنهم الوسائط بينه وبين عباده في تبليغ الوحي والشرائع إلى الأنبياء، فهم الوسائط في التدبيرات القدرية؛ فإن الله وصفهم بأنهم المدبرات أمراً، فكل طائفة منهم قد وكله على عمل هو قائم به بإذن الله؛ فمنهم الموكلون بالغيث والنبات، والموكلون بحفظ العباد مما يضرهم، وبحفظ أعمالهم وكتابتها؛ والموكلون بقبض الأرواح وبتصوير الأجنة في الأرحام وكتابة ما يجري عليها في الحال والمآل؛ والموكلون على الجنة والنار، ومنهم حملة العرش، ومن حوله من الملائكة المقربين، إلى غير ذلك مما وصفوا به في الكتاب والسنة.

فيجب الإيمان بهم إجمالاً وتفصيلاً، وكثير من سور القرآن فيها ذكر الملائكة والخبر عنهم فعلينا أن نؤمن بذلك كله، ولا تكاد تجد أحداً ينكر وجود الملائكة إلا الزنادقة المنكرين لوجود ربهم، ومن تستر بالإسلام منهم فإنه ينكر الملائكة حقيقة، وينكر خبر الله ورسوله عنهم، ويفسر الملائكة تفسيراً وتحريفاً خبيثاً فيزعم أن الملائكة هي القوى الخيرية والصفات الحسنة الموجودة في الإنسان، وأن الشياطين هي القوَى الشريرة فيه، وغرضهم من هذا التحريف دفع الشنعة عنهم، وقد ازدادوا بهذا التحريف شرًّا إلى شرهم، وراج هذا التحريف الخبيث على بعض الذين يحسنون الظن بهؤلاء الزنادقة، وليس عندهم بصيرة في أديان الرسل، وإن أظهروا تعظيمهم، فإن زنادقة الفلاسفة أعظم في

قلوبهم من الرسل، وكفى بالعبد ضلالاً وغياً أن يصل إلى هذه الحال، ونعوذ بالله من مضلات الفتن.

ولم تزل بهم هذه الجراءة والخضوع لأقوال جهلة الزنادقة حتى فسروا الملائكة بذلك التحريف، وحتى زعم بعضهم أن سجود الملائكة لآدم ليس حقيقة، وإنما ذلك تسخير الله للآدميين جميع ما في الأرض من القوَى والمعادن وغيرها، فأنكر ما هو معلوم بالضرورة بخبر الله الصريح في كتابه وخبر رسوله، وقال هذه المقالة التي فيها مع تكذيب الله ورسوله تسوية كفار الآدميين وفجرتهم وأولهم وآخرهم بآدم، ومضمون ذلك بل صريح قولهم: إن الملائكة سجدت لجميع الآدميين برّهم وفاجرهم؛ فأين قول الناس في موقف القيامة: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته..

ولولا أن مثل هذه التحريفات والتكذيب لله ورسوله موجود في كتب من يشار إليهم بالعلم لم يكن بنا حاجة إلى دفع هذا القول الجريء، الذي يعلم كل مسلم لم تغيره العقائد الباطلة بطلانَه؛ ولنقتصر على هذا المقدار من الإشارة إلى العقائد المتعلقة بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر والجزاء، وإن كان القرآن معظمه في تقرير هذه الأصول العظيمة لشدة الحاجة والضرورة إليها في كل وقت وحال، ولكن حصل ولله الحمد التنبيه الذي يحصل به المقصود، ويعين على غيره، والله أعلم.

فصــــل
في ذكر الفوائد والثمرات المترتبة على التحقق بهذه العقائد الجليلة

اعلم أن خير الدنيا والآخرة من ثمرات الإيمان الصحيح، وبه يحيا العبد حياة طيبة في الدارين، وبه ينجو من المكاره والشرور، وبه تخف الشدائد وتدرك جميع المطالب، ولنشرْ إلى هذه الثمرات على وجه التفصيل، فإن معرفة فوائد الإيمان وثمراته من أكبر الدواعي إلى التزود منه.

فمن ثمرات الإيمان أنه سبب رضا الله الذي هو أكبر شيء، فما نال أحد

رضا الله في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان وثمراته، بل صرح الله به في كتابه في مواضع كثيرة، وإذا رضي الله عن العبد قبل اليسير من عمله ونماه، وغفر الكثير من زلله ومحاه.

ومنها: أن ثواب الآخرة ودخول الجنة والتنعم بنعيمها والنجاة من النار وعقابها، إنما يكون بالإيمان، فأهل الإيمان هم أهل الثواب المطلق، وهم الناجون من جميع الشرور.

ومنها: أن الله يدفع ويدافع عن الذين آمنوا شرور الدنيا والآخرة، فيدفع عنهم كيد شياطين الإنس والجن، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾
[سورة النحل: الآية ٩٩]

ولما ذكر إنجاءه ذا النون قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٨]

أي من الشدائد والمكاره إذا وقعوا فيها. والإيمان بنفسه وطبيعته يدفع الإقدام على المعاصي، وإذا وقعت من العبد دفع عقوباتها بالمبادرة إلى التوبة كما قال ﷺ: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. إلى آخر الحديث. فبين أن الإيمان يدفع وقوع الفواحش؛ وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١]

ومنها: أن الله وعد المؤمنين القائمين بالإيمان حقيقةً بالنصر وأحقه على نفسه، فمن قام بالإيمان ولوازمه ومتمماته فله النصر في الدنيا والآخرة؛ وإنما ينتصر أعداء المؤمنين عليهم إذا ضيعوا الإيمان وضيّعوا حقوقه وواجباته المتنوعة.

ومنها: أن الهداية من الله للعلم والعمل ولمعرفة الحق وسلوكه، هي بحسب الإيمان والقيام بحقوقه، قال تعالى:

﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾
[سورة المائدة: الآية ١٦]

ومعلوم أن اتباع رضوان الله الذي هو حقيقة الإخلاص، هو روح الإيمان وساقُه الذي يقوم عليه، وقال تعالى:

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [سورة التغابن: الآية ١١]

فهذه هداية عملية، هداية توفيق وإعانة على القيام بوظيفة الصبر عند حلول المصائب إذا علم أنها من عند الله فرضي وسلّم وانقاد.

ومنها: أن الإيمان يدعو إلى الزيادة من علومه وأعماله الظاهرة والباطنة؛ فالمؤمن بحسب إيمانه لا يزال يطلب الزيادة من العلوم النافعة ومن الأعمال النافعة ظاهراً وباطناً، وبحسب قوة إيمانه يزيد إيمانه ورغبته وعمله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾
[سورة الحجرات: الآية ١٥]

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢]

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٤]

ومنها: أن المؤمنين بالله وبكماله وعظمته وكبريائه ومجده، أعظم الناس يقيناً وطمأنينة وتوكلاً على الله، وثقة بوعده الصادق، ورجاء لرحمته وخوفا من عقابه، وأعظمهم إجلالاً لله ومراقبة، وأعظمهم إخلاصاً وصدقاً، وهذا هو صلاح القلوب، لا سبيل إليه إلا بالإيمان.

ومنها: أنه لا يمكن العبد أن يقوم بالإخلاص لله ولعباد الله ونصيحتهم على وجه الكمال إلا بالإيمان، فإن المؤمن تحمله عبودية الله وطلب التقرب إلى الله ورجاء ثوابه والخشية من عقابه على القيام بالواجبات التي لله والتي لعباد الله.

ومنها: أن المعاملات بين الخلق لا تتم وتقوم إلا على الصدق والنصح وعدم الغش بوجه من الوجوه، وهل يقوم بها على الحقيقة إلا المؤمنون؟

ومنها: أن الإيمان أكبر عون على تحمل المشقات، والقيام بأعباء الطاعات، وترك الفواحش التي في النفوس داعٍ قويٌّ إلى فعلها، فلا تتم هذه الأمور إلا بقوة الإيمان.

ومنها: أن العبد لا بد أن يصاب بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات؛ وهو بين أمرين: إما أن يجزع ويضعف صبره، فيفوته الخير والثواب، ويستحق على ذلك العقاب، ومصيبته لم تقلع ولم تخف، بل الجزع يزيدها؛ وإما أن يصبر فيحظى بثوابها، والصبر لا يقوم إلا على الإيمان؛ وأما الصبر الذي لا يقوم على الإيمان كالتجلد ونحوه، فما أقل فائدته، وما أسرع ما يعقبه الجزع، فالمؤمنون أعظم الناس صبراً ويقيناً وثباتاً في مواضع الشدة.

ومنها: أن الإيمان يوجب للعبد قوة التوكل على الله، لعلمه وإيمانه أن الأمور كلها راجعة إلى الله ومندرجة في قضائه وقدره، وأن من اعتمد عليه كفاه، ومن توكل على الله فقد توكل على القويِّ العزيز القهّار؛ ومع أنه يوجب قوة التوكل، فإنه يوجب السعي والجد في كل سبب نافع لأن الأسباب النافعة نوعان: دينية ودنيوية.

فالأسباب الدينية: هي إيمان، وهي من لوازم الإيمان.

والأسباب الدنيوية قسمان:

سبب معين على الدين ويحتاج إليه الدين، فهو أيضاً من الدين، كالسعي في القوة المعنوية والمادية التي فيها قوة المؤمنين.

وسبب لم يوضع في الأصل معيناً على الدين، ولكن المؤمن لقوة إيمانه ورغبته فيما عند الله من الخير يسلك إلى ربه وينفذ إليه مع كل سبب وطريق، فيستخرج من المباحات بنيته وصدق معرفته ولطف علمه باباً يكون به معيناً على

الخير، مجماً للنفس، مساعداً لها على القيام بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة، فيكون هذا المباح حسناً في حقه، عبادةً لله لما صحبه من النية الصادقة؛ حتى أن بعض المؤمنين الصادقين في إيمانهم ومعرفتهم ربما نوى في نومه وراحاته ولذّاته التقوّي على الخير وتربية البدن لفعل العبادات وتقويته على الخير، وكذلك في أدويته وعلاجاته التي يحتاجها؛ وربما نوى في اشتغاله في المباحات أو بعضها الاشتغال عن الشرور بما نوى بذلك جذب من خالطه وعاشره بمثل هذه الأمور على فعل خير أو انكفاف عن شر، وربما نوى بمعاشرته الحسنة إدخال السرور والانبساط على قلوب المؤمنين، ولا ريب أن ذلك كله من الإيمان ولوازمه. ولما كان الإيمان بهذا الوصف، قال تعالى في عدة آيات من كتابه:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٣]

ومنها: أن الإيمان يشجع العبد ويزيد الشجاع شجاعة، فإنه لاعتماده على الله العزيز الحكيم ولقوة رجائه وطمعه فيما عنده تهون عليه المشقات، ويقدم على المخاوف واثقاً بربه راجياً له راهباً من نزوله من عينه لخوفه من المخلوقين؛ ومن الأسباب لقوة الشجاعة أن المؤمن يعرف ربه حقًّا ويعرف الخلق حقًّا، فيعرف أن الله هو النافع الضار المعطي المانع، الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، وأنه الغنيّ من جميع الوجوه، وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وألطف به من كل أحد، وأن الخلق بخلاف ذلك كله؛ ولا ريب أن هذا داع قويٌّ عظيم يدعو إلى قوة الشجاعة وقصر خوف العبد ورجائه على ربه، وأن ينتزع من قلبه خوف الخلق ورجاءهم وهيبتهم.

ومنها: أن الإيمان هو السبب الأعظم لتعلق القلب بالله في جميع مطالبه الدينية والدنيوية؛ والإيمان القوي يدعو إلى هذا المطلب الذي هو أعلى الأمور على الإطلاق، وهو غاية سعادة العبد؛ وفي مقابلة هذا يدعو إلى التحرر من رق القلب للمخلوقين، ومن التعلق بهم؛ ومَن تعلق بالخالق دون المخلوق في كل أحواله حصلت له الحياة الطيبة، والراحة الحاضرة، والتوحيد الكامل، كما أن من عكس القضية نقص إيمانه وتوحيده، وانفتحت عليه الهموم والغموم والحسرات.

ولا ريب أن هذين الأمرين تبع لقوة الإيمان وضعفه، وصدقه وكذبه، وتحققه حقيقة أو دعواه والقلب خالٍ منه.

ومنها: أن الإيمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع طبقات الناس، كما قال النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقاً». وجماع حسن الخلق أن يتحمل العبد الأذى منهم، ويبذل إليهم ما استطاع من المعروف القولي والبدني والمالي، وأن يخالقهم بحسب أحوالهم بما يحبون إذا لم يكن في ذلك محذور شرعي، وأن يدفع السيئة بالتي هي أحسن، ولا يقوم بهذا الأمر ألا المؤمنون الكمل؛ قال تعالى:

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

[سورة فصلت: الآية ٣٥]

وإذا ضعف الإيمان أو نقص أو انحرف، أثَّر ذلك في أخلاق العبد انحرافاً بحسب بُعده عن الإيمان.

ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار بالكلية، كما منع صاحبه في الدنيا من عمل المعاصي، ومن الإصرار على ما وقع منه منها، والإيمان الناقص يمنع الخلود في النار وإن دخلها كما تواترت بذلك النصوص بأنه يخرج من النار من كان معه مثقال حبة خردل من إيمان.

ومنها: أن الإيمان يوجب لصاحبه أن يكون معتبراً عند الخلق أميناً، ويوجب للعبد العفة عن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم؛ وفي الحديث «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»؛ وأي شرف دنيوي أبلغ من هذا الشرف الذي يبلغ بصاحبه أن يكون من الطبقة العالية من الناس لقوة إيمانه وتمام أمانته، ويكون محل الثقة عندهم وإليه المرجع في أمورهم، وهذا من ثمرات الإيمان الجليلة الحاضرة.

ومنها: أن قويَّ الإيمان يجد في قلبه من ذوق حلاوته ولذة طعمه واستحلاء آثاره، والتلذذ بخدمة ربه وأداء حقوقه وحقوق عباده التي هي موجب الإيمان

وأثره ما يزري بلذات الدنيا كلها بأسرها، فإنه مسرور وقت قيامه بواجبات الإيمان ومستحباته، ومسرور بما يرجوه ويؤمله من ربه من ثوابه وجزائه العاجل والآجل، ومسرور بأنه ربح وقته الذي هو زهرة عمره وأصل مكسبه، ومحشوٌّ قلبه أيضاً من لذة معرفته بربه ومعرفته بكماله وكمال بره، وسعة جوده وإحسانه ولذة محبته والإنابة إليه الناشئة عن معرفته بأوصافه، وعن مشاهدة إحسانه ومننه، فالمؤمن يتقلب في لذات الإيمان وحلاوته المتنوعة، ولهذا كان الإيمان مسلِّياً عن المصيبات مهوِّناً للطاعات، ومانعاً من وقوع المخالفات، جاعلاً إرادة العبد وهواه تبعاً لما يحبه الله ويرضاه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

ومنها: أن الإيمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الدين، وهو الجهاد البدني والمالي والقولي، جهاد الكفار بالسيف والسنان، وجهاد الكفار والمنافقين والمنحرفين في أصول الدين وفروعه بالحكمة والحجة والبرهان، فكلما قوي إيمان العبد علماً ومعرفة وإرادة وعزيمة قوي جهاده، وقام بكل ما يقدر عليه بحسب حاله ومرتبته، فنال الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة؛ وإذا ضعف الإيمان ترك العبد مقدوره من الجهاد القولي بالعلم والحجة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضعف جهاده البدني لعدم الحامل له على ذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٥]

فصادقُ الإيمان يحمله صدقه على القيام بهذه المرتبة التي هي مرتبة الطبقتين العاليتين بعد النبيين: طبقة الصديقين المجاهدين بالعلم والحجة والتعليم والنصيحة، وطبقة الشهداء الذين قاتلوا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا من دون قتل؛ وهذا كله من ثمرات الإيمان ومن تمامه وكماله؛ وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرع عن الإيمان ومترتب عليه، والهلاك والنقص إنما يكون بفقد الإيمان ونقصه؛ والله المستعان.

فصـــل
في ذكر بعض الآيات
الحاثة على القيام بحقوق الله وحقوق الخلق

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [سورة النساء: الآية ٣٦]

والآيات التي في سورة الإسراء:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

[سورة الإسراء: الآية ٢٣]

إلى قوله:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٩]

هذه الآيات الكريمة فيها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والدخول تحت رق عبوديته التي هي غاية شرف العبد، والانقياد لأوامره واجتناب نواهيه محبة له وذلاً له، وإخلاصاً لله وإنابة له في جميع الحالات وفي جميع العبادات الظاهرة والباطنة، وفيها النهي عن الشرك به شيئاً، سواءً كان شركاً أكبر، بأن يصرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله، أو شركاً أصغر، مثل وسائل الشرك كالحلف بغير الله والرياء ونحو ذلك مما يتذرع به إلى الشرك، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والتدبير الكامل الشامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد.

ثم بعدما أمر بالقيام بحق الله المقدم على كل حق، أمر بالقيام بحقوق ذوي الحقوق من الخلق: الأهم فالأهم، فقال: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾، أي أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف، وبالفعل بالقيام بطاعتهما، واجتناب معصيتهما والحذر من عقوقهما والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من جهتهما. ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما﴾،

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٢٤]

والأمر بالإحسان إلى الوالدين وإطلاقه يدخل فيه كل ما عده الناس إحساناً، وذلك يختلف باختلاف الأوقات والأحوال والأشخاص، وفيه النهي عن ضد الإحسان إليهما، وهو أمران: الإساءة والعقوق الذي هو إيصال الأذى القولي والفعلي إليهما، وترك القيام ببعض حقوقهما الواجبة، والأمر الثاني ترك الإحسان وترك الإساءة، فإن ذلك داخل في العقوق، فلا يسع الولد أن يقول إذا قمت بواجب والديّ وتركت معصيتهما فقد قمت بحقهما، فيقال: بل عليك أن تبذل لهما من الإحسان الذي تقدر عليه ما يجعلك في مرتبة الأبرار البارِّين بوالديهم، وقوله: ﴿كما ربياني صغيراً﴾ بيان لبعض الأسباب الموجبة للبر، وأن الوالدين اشتركا في تربية بدنك وروحك بالتغذية والكسوة والحضانة والقيام بكل المؤن، وبالتعليم والإرشاد والإلزام بطاعة الله والآداب والأخلاق الجميلة، وفي هذا دليل على أن كل من له عليك حق تربية بقيام بمؤنة نفقة وكسوة وغيرها أن له حقاً عليك بالإحسان والبر والدعاء؛ وأعلى من ذلك من له حق عليك بتربية عقلك وروحك تربية علمية تهذيبية أن له الحق الأكبر عليك؛ وهذا من جملة فضائل أهل العلم المعلمين العاملين ومن حقوقهم على الناس، فإنهم ربما فاقوا في هذه التربية تربية الوالدين بأضعاف مضاعفة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.
وقوله: ﴿وبذي القربى﴾، أي أحسنوا إلى أقاربكم القريب منهم والبعيد بالقول والفعل، وأوصلوا لهم من الهدايا والصدقات والبر والإحسان المتنوع ما يشرح صدورهم وتتيسر به أمورهم، وتكونوا بذلك واصلين، وللأجر من الله حائزين.

﴿واليتامى﴾ وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، فمن رحمة أرحم الراحمين أمر الناس برحمتهم والحنو عليهم والإحسان إليهم وكفالتهم وجبر خواطرهم وتأديبهم، وأن يربوهم أحسن تربية كما يربون أولادهم، سواء كان اليتيم ذكراً أو أنثى، قريباً أو غير قريب.

﴿والمساكين﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يمونون فأمر تعالى بسد خلتهم، ودفع فاقتهم، والحض على ذلك، وقيام العبد بما أمكنه من ذلك من غير ضرر عليه؛ ﴿والجار ذي القربى﴾ أي الجار القريب الذي له حق الجوار وحق القرابة ﴿والجار الجنب﴾ الذي ليس بقريب، فعلى العبد القيام بحق جاره مطلقاً، مسلماً كان أو كافراً، قريباً أو بعيداً، بكف أذاه عنه، وتحمل أذاه، وبذل ما يهون عليه ويستطيعه من الإحسان، وتمكينه من الانتفاع بجداره أو طريق ماء على وجه لا يضر الجار، وتقديم الإحسان إليه على الإحسان على من ليس بجار، وكلما كان الجار أقرب باباً كان آكد لحقه، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالصدقة والهدية والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال تقرباً إلى الله وإحساناً إلى أخيه صاحب الحق.

﴿والصاحب بالجنب﴾ قيل هو الرفيق في السفر، وقيل هو الزوجة، وقيل هو الرفيق مطلقاً في الحضر والسفر، وهذا أشمل، فإنه يشمل القولين الأولين، فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له والوفاء معه في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه؛ وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد.

﴿وابن السبيل﴾ وهو الغريب في غير بلده، سواء كان محتاجاً أو غير محتاج، فحثَّ الله على الإحسان إلى الغرباء لكونهم في مظنة الوحشة والحاجة وتعذر ما يتمكنون عليه في أوطانهم فيتصدق على محتاجهم ويجبر خاطر غير المحتاج بالإكرام والهدية والدعوة والمعاونة على سفره. ﴿وما ملكت أَيمانكم﴾ أي من الرقيق والبهائم بالقيام بكفايتهم وأن لا يُحَمَّلوا ما لا يطيقون، وأن يعاونوا على مهماتهم، وأن يقام بتقويمهم وتأديبهم النافع؛ فمن قام بهذه المأمورات

فهو الخاضع لربه المتواضع لعباد الله المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل؛ ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرِض عن ربه، عاتٍ على الله، متكبِّر على عباد الله معجب بنفسه، فخور بأقواله على وجه الكبر والعجب واحتقار الخلق، وهو في الحقيقة السافل المحتقر، ولهذا قال: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ فهؤلاء، ما بهم من الأوصاف القبيحة تحملهم على البخل بالحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بأقوالهم وأفعالهم بالبخل، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، أي من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق؛ فهؤلاء جمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعي في خسارة أنفسهم، والسعي في خسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، ولهذا قال:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[سورة النساء: الآية ٣٧]

أي كما استهانوا بالحق وتكبروا على الخلق واستهانوا بالقيام بالحقوق، أهانهم الله بالعذاب الأليم والخزي الدائم.

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٩]

أي احذر هذين الخلقين الرذيلين: البخل بالواجبات وفي بذل المال فيما ينبغي بذله فيه، والتبذير بالنفقة فيما لا ينبغي أو زيادة على ما ينبغي ﴿فتقعد﴾ إن فعلت ذلك ﴿ملوماً﴾ أي تلام على ما فعلت من الإسراف، لأن كل عاقل يعرف أن الإسراف مناف للعقل الصحيح؛ كما أنه مناف للشرع، فإن الله جعل الأموال قياماً لمصالح الخلق؛ فكما أن منعها وإمساكها عن وضعها فيما جعلت له مذموم، فكذلك بذلها في الأمور الضارة أو الزيادة غير اللائقة في الأمور العادية وغيرها مذموم، لأنه إتلاف للمال بغير مصلحة، وانحراف في حسن التصرف والتدبير، وضعف التدبير وعدم انتظامه مذموم في كل شيء، كما

أن حسن التدبير محمود ونافع لفاعله وغيره. ﴿محسوراً﴾ أي فارغ اليد فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خَلَفَهُ مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى وغيرهم مع القدرة، فأما مع العدم أو تعذر النفقة الحاضرة فأمر تعالى أن يردوا رداً جميلاً فقال:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٢٨]

أي تعرضن عن إعطائهم حاضراً، ولكنك ترجو فيها بعد ذلك تيسير الأمر من الله، فقل لهم قولاً ميسوراً، أي لطيفاً برفق ووعد بالجميل عند الوجود، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة قلوبهم، عاذرين راجين كما قال تعالى:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٦٣]

وهذا من لطف الله بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وسبب لحصوله، فإن الله عند ظن عبده به، وكذلك وعدهم أن يعطوهم إذا وجدوا عبادة حاضرة لمن وعدوا لأن الهمّ بفعل الخير والحسنة خير، ولهذا ينبغي للعبد أن يفعل ما يقدر عليه من الخير وينوي فعل ما لم يقدر عليه إذا قدر ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسره له. وفي قوله: ﴿ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ فيه الحث على تعليق القلب والرجاء والطمع بالله وصرف التعلق بالمخلوقين، فالموفق في حال الوجود والغنى قلبه متعلق بحمد الله وشكره والثناء عليه لا ينسى ولا يبطر النعمة، وفي حال الفقد والفقر صابر راض راج من الله فضله وخيره ورحمته، وهذا من أجلّ عبادات القلوب المقربة إلى علام الغيوب.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣١]

وذلك أن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها فنهى الوالدين عن هذا الخلق الذي هو من أرذل الأخلاق وأسقطها: قتلِ أولادهم خشية من الفقر والإملاق، ففيه عدة جنايات: قتل النفس الذي هو من أعظم الفساد، وأشنع

من ذلك قتل الأولاد الذين هم فلذ الأكباد وسوء الظن برب العالمين، وجهلهم وضلالهم البليغ، إذ ظنوا أن وجودهم يضيق عليهم الأرزاق، فتكفّل لهم بقيامه برزق الجميع، فأين هذا الخلق الشنيع من أخلاق خواص المؤمنين الذين كلما كثرت أولادهم وعوائلهم، قوي ظنهم بالله ورجوا زيادة فضله وقاموا بمؤنتهم مطمئنة نفوسهم، حامدين ربهم أن جعل رزقهم على أيديهم، ومثنين على ربهم إذ أقدرهم على ذلك، وراجين ثواب ذلك عنده، ومشاهدين لمنة الله عليهم بذلك؛ قال ﷺ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم ورغبتهم إلى الله».

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٢]

والنهي عن قربان الزنا يشمل النهي عنه وعن جميع دواعيه ومقدماته، كالنظر المحرم، والخلوة بالأجنبية، وخطاب من يخشى الفتنة بخطابه ونحو ذلك؛ ووصف الزنا بأقبح الأوصاف: بأنه فاحشة، أي جريمة عظيمة تستفحش شرعاً وعقلاً، لأن فيها انتهاك حرمة الشرع والتهاون به وفيه إفساد المرأة وإفساد الأنساب واختلاط المياه، وفيه إضرار بأهلها وبزوجها وبكل من يتصل بها، وفيه من المفاسد شيء كثير.

وأمر تعالى بإيفاء المكاييل والموازين والمعاملات كلها بالقسط من غير بخس ولا نقص ولا غش ولا كتمان؛ وفي ضمن ذلك الأمر بالصدق والنصح في جميع المعاملات، فإنه بذلك يصلح الدين والدنيا ولذلك قال:

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٥]

أي هو خير في الحاضر وأحسن عاقبة في الآجل، يسلَمُ به العبد من التبعات، وتحل البركة في هذه المعاملة.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٦]

أي ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فإن التثبت في الأمور كلها دليل على حسن الرأي وقوة العقل، وبه تتوضح الأمور

ويعرف بعد ذلك هل الإقدام خير أم الإحجام؛ لأن المتثبت لا بد أن يعمِلَ فكره ويشاور في الأمور التي عليه أن يتثبت فيها؛ والفكر والمشاورة أكبر الأسباب لإصابة الصواب والسلامة من التبعة ومن الندم الصادر من العجلة ومن عدم استدراك الفارط. ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٣٦]

أي لا بد أن تسأل عن حركة هذه الجوارح، وهل هي حركات نافعة بأن وضعت فيما يقرب إلى الله، أم ضارة بأن وجهت إلى معصية الله، فليتعاهد العبد بحفظها عن الأمور الضارة ليعدَّ لهذا السؤال جواباً، فمن استعملها بطاعة الله فقد زكّاها ونمّاها وأثمرت له النعيم المقيم، ومن استعملها في ضد ذلك فقد دسَّاها وأسقطها وأوصلته إلى العذاب الأليم.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٧]

أي لا تتكبر على الحق ولا على الخلق، فإن التكبر من أرذل الأخلاق، والمتكبر المعجب بنفسه لن يبلغ ما يظنه وتطمح له نفسه من الخيالات الفاسدة أنه في مقام رفيع على الخلق، بل هو ممقوت عند الله وعند خلقه، مبغوض محتقر قد نزل بخلقه هذا إلى أسفل سافلين، ففاته مطلوبه من كبره وعجبه، وحصل على نقيضه. ومن مضار الكبر أنه صح الحديث عن النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر، والنار مثوى المتكبرين، والكبر هو بطر الحق، وغمط الناس، أي احتقارهم وازدراؤهم، وهذه الأوامر الحسنة والإرشادات في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها الله لرسوله ﷺ؛ وهي من أعظم محاسن الدين، فالدين هو دين الحكمة التي هي معرفة الصواب والعمل بالصواب ومعرفة الحق والعمل بالحق في كل شيء.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ ـ إلى آخر السورة ـ [سورة الفرقان: الآية ٦٣ وما بعدها]

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبية الله وملكه، فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم، فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون، وعبودية لألوهيته ورحمته، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه ﴿الرحمن﴾ تنبيهاً على أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال برحمته بهم ولطفه وإحسانه، فذكر صفاتهم أكمل الصفات، وبالاتصاف بها يكون العبد متحققاً بعبوديته الخاصة النافعة المثمرة للسعادة الأبدية، فوصفهم بأنهم ﴿يمشون على الأرض هوناً﴾ أي ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي خطاب جهل، فإنه أضاف الخطاب لهذا الوصف ﴿قالوا سلاماً﴾ أي خاطبوهم خطاباً يَسْلمون فيه من الإثم ولا يقابلون الجاهل بجهله، وهذا ثناء عليهم بالرزانة والحلم العظيم والعفو عن الجاهل ومقابلة المسيء بالإحسان.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٤]

أي يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له كما قال تعالى:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾
[سورة السجدة: الآية ١٦]

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٥]

أي ادفعه عنّا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وقع منّا ممّا هو مقتضٍ للعذاب

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٥]

أي ملازماً لأهلها ملازمة الغريم لغريمه

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٦]
وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنه ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب وليتذكروا منة الله عليهم، فإن صرف الشدة يعظم وقعه بحسب شدتها وفظاعتها.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾
[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

أي النفقات الواجبة والمستحبة لم يسرفوا أي يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير وإهمال الحقوق الواجبة، ولم يقتروا فيدخلوا في باب الشح والبخل، وكان إنفاقهم بين الإسراف والتقتير ﴿قواماً﴾ تقوم به الأحوال؛ فإنهم يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفّارات والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي من الأمور النافعة على المحتاجين، وفي المشاريع الخيرية، وفي الأمور الضرورية والكمالية الدينية والدنيوية من غير ضرر ولا إضرار، وهذا من اقتصادهم وعقلهم وحسن تدبيرهم.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٨]

لا دعاء عبادة ولا دعاء مسئلة، بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء، مقبلين عليه معرضين عما سواه

﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٨]

وهي نفس المسلم والكافر المعاهد

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٨]

كقتل النفس بالنفس والزاني المحصَن والتارك لدينه المفارق للجماعة،

﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٨]

المذكور من الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله والزنا

﴿يَلۡقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾
[سورة الفرقان: الآيتان ٦٨ و ٦٩]

أي العذاب

﴿مُهَانًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٩]

فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكذلك لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها كلها من أكبر الكبائر؛ وأما خلود القاتل بغير حق والزاني، فقد دلّت النصوص القرآنية وتواترت الأحاديث النبوية أن جميع المؤمنين ـ وإن دخلوا النار ـ فسيخرجون منها ولا يخلد فيها مؤمن، فإن الإيمان الكامل يمنع من دخولها، ومطلق الإيمان ولو مثقال ذرة يمنع من الخلود فيها كما تقدم.

ونص الله على ثلاثة هذه الأشياء لأنها أكبر الكبائر، وفسادها كبير، فالشرك فيه فساد الأديان بالكلية، والقتل فيه فساد الأبدان؛ والزنا فيه فساد الأعراض

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال، وندم على فعلها وعزم عزماً جازماً أن لا يعود

﴿وَءَامَنَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

بالله إيماناً صحيحاً يقتضي فعل الواجبات، وترك المحرمات

﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

فيدخل فيه جميع الصالحات من واجب ومستحب

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

بأن يوفقهم للخير، فتبدل أقوالهم وأفعالهم التي كانت مستعدة لفعل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وندماً وإنابة وطاعة، تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية، وورد فيه حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعددها عليه؛ ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة إلى آخر الحديث

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

لمن تاب، يغفر ذنوبه كلها

﴿رَّحِيمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٠]

بعباده إذ دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم؛ ثم وفّقهم لها ثم قبلها منهم، ومن تاب وعمل صالحًا، فإنه يتوب إلى الله متاباً، أي فليعلم أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة.

والمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة، وأن تكون على أكمل الوجوه وأجلها لتحصل له ثمراتها الجليلة

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢]

أي لا يحضرون الزور، أي القول المحرم والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على كل قول وفعل محرم، كالخوض في آيات الله بالباطل، والجدل الباطل، والغيبة والنميمة، والسب والقذف، والاستهزاء وشرب الخمر، والغناء المحرم، وفرش الحرير والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فإنهم من باب أولى لا يفعلونه ولا يقولونه؛ وشهادة الزور داخلة في قول الزور

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢]

وهو الكلام الذي لا فائدة فيه، دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم

﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٢]

أي نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوه سفهاً منافياً لمكارم الأخلاق.

وفي قوله: ﴿وإذا مروا باللغو﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن يحصل ذلك بغير قصد، فيكرمون أنفسهم عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٣]

التي أُمروا بالاستماع لها والاهتداء بها

﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٣]

أي لم يقابلوها بالإعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف القلب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق، وإنما حال هؤلاء الأخيار عند سماعها كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [سورة السجدة: الآية ١٥]

يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها؛ وتجد عندهم آذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها يقينهم، وتحدث لهم فرحاً ونشاطاً واغتباطاً، لما يعلمون أنها أفضل المنن الواصلة إليهم من ربهم.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٤]

أي قرنائنا من أصحاب وأخلاء وأقران وزوجات.

﴿وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٤]

أي تقر بهم أعيننا، وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من علو هممهم ومراتبهم، أن مقصودهم بهذا الدعاء لذرياتهم، أن يطلبوا منه صلاحهم؛ فإن صلاح الذرية عائد إليهم وإلى والديهم لأن النفع يعود على الجميع، بل صلاحهم يعود إلى نفع المسلمين عموماً، لأن بصلاح المذكورين صلاحاً لكل من له تعلق بهم، ثم يتسلسل الصلاح والخير.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٤]

أي أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكُمَّل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يُقتدى بأقوالهم وأفعالهم، ويطمأن إليها لثقة المتقين بعلمهم

ودينهم، ويهتدي المهتدون بهم؛ ومن المعلوم أن الدعاء بحصول شيء دعاء به وبما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة درجة الإمامة في الدين لا تتم إلا بالصبر واليقين.

كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾
[سورة السجدة: الآية ٢٤]

فهذا الدعاء يستلزم من حصول الأعمال الصالحة والصبر على طاعة الله، وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة، ومن العلم النافع التام الراسخ الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً وعطاء جزيلاً، ولما كانت هممهم وأعمالهم عالية كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم من جنس عملهم فقال:

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ [سورة الفرقان: الآية٧٥]

أي المنازل العالية الرفيعة الجامعة لكل نعيم روحي وبدني بسبب صبرهم على القيام بهذه الأعمال الجليلة

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٥]

من ربهم ومن الملائكة الكرام ومن بعضهم على بعض، ويسلمون من جميع المنغِّضات والمكدِّرات.

والحاصل أن الله وصفهم بالوقار والسكينة، والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان وقيام الليل والإخلاص فيه، والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها، وأنهم يخرجون الواجبات والمستحبات في النفقات على وجه الاقتصاد، وإذا كانوا مقتصدين في النفقات التي جرت عادة أكثر الخلق بالتفريط فيها أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيرها من باب أولى، ووصفهم بالسلامة من كبائر الذنوب وفواحشها، وبالتوبة مما يصدر منهم منها.

ومنها الإخلاص لله في عبادته؛ وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها؛ وأنهم يتنزهون عن اللغو والأقوال الرديئة التي لا خير فيها ولا نفع، وذلك يستلزم كمال إنسانيتهم ومروءتهم وكمالهم ورفعة نفوسهم عن كل أمر رذيل، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون ربهم بأكمل دعاء ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم، لأن من حرص على شيء ودعا الله في حصوله لا بد أن يكون مجتهداً في تحصيله بكل طريق؛ مستعيناً بربه في تسهيل ذلك، وأنهم دعوا الله في حصول أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصديقية، فلله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب وأزكى تلك النفوس، ولله فضل الله عليهم ولطفه بهم الذي أوصلهم إلى هذه المقامات والمنازل، ولله الحمد من جميع عباده إذ بين لهم أوصافهم وحثهم عليها وأعان السالكين ويسر الطريق لمن سلك رضوانه، والله الموفق المعين.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٩٩]

هذه الآية الكريمة جامعة لمعاني حسن الخلق مع الناس وما ينبغي للعبد سلوكه في معاملتهم ومعاشرتهم، فأمر تعالى ﴿بأخذ العفو﴾ وهو ما سمحت به أنفسهم وسهلت به أخلاقهم من الأعمال والأخلاق، بل يقبل ما سهل ولا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم ولا ما لا يطيقونه، بل عليه أن يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وعمل وخلق جميل وما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، وعما أتوا به وعاملوه به من النقص، ولا يتكبر على صغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف وما تقتضيه الحال الحاضرة، وبما تنشرح له صدورهم ويوقر الكبير ويحنو على الصغير ويجامل النظير.

﴿وأمر بالعرف﴾ وهو كل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم ديني أو دنيوي أو نصيحة أوحث لهم على خير من عبادة الله وصلة رحم وبر الوالدين، وإصلاح بين الناس أو رأي مصيب أو معاونة على بر وتقوى أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى مصلحة دينية أو دنيوية. أو تحذير من ضد ذلك.

ولما كان لا بد للعبد من أذية الجاهلين له بالقول أو بالفعل أمر الله بالإعراض عنهم وعدم مقابلة الجاهلين بجهلهم، فمن آذاك بقوله أو فعله فلا تؤذه، ومن حرمك فلا تحرمه، ومن قطعك فصِله، ومن ظلمك فاعدل فيه، فبذلك يحصل لك من الثواب من الله، ومن راحة القلب وسكونه ومن السلامة من الجاهلين، ومن انقلاب العدو صديقاً، ومن التبوُّء من مكارم الأخلاق أعلاها أكبر حظ وأوفر نصيب، قال تعالى:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

[سورة فصلت: الآيتان ٣٤ و ٣٥]

ولنقتصر في هذا الموضوع على هذه ا لآيات، ففيها الهدى والشفاء والخير كله.

فصــــل
في أحكام الشرع الفروعية المتنوعة في الصلاة والزكاة مع ما ينضم إليهما من المعاني الأخرى

قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩]

هذا الأمر من الله لعباده بالصلاة التي أمر بها في آيات متعددة، ويأتي الأمر

بها في القرآن بلفظ الإقامة كهذه الآية، ومثل

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣]

ونحوها. وهو أبلغ من قوله افعلوها، فإن هذا أمر بفعلها وبتكميل أركانها وشروطها ومكملاتها ظاهراً وباطناً، وبجعلها شريعة ظاهرة قائمة من أعظم شعائر الدين، وفي هذه الآية زيادة عن بقية الآيات، وهي الأمر بها لأوقاتها الخمسة أو الثلاثة، وهذه هي الفرائض وإضافتها إلى أوقاتها من باب إضافة الشيء إلى سببه الموجب له ﴿فدلوك الشمس﴾ أي زوالها واندفاعها من المشرق نحو المغرب، فيدخل في هذا صلاة الظهر وهو أول الدلوك، وصلاة العصر وهو آخر الدلوك ﴿إلى غسق الليل﴾ أي ظلمته؛ فدخل في ذلك صلاة المغرب وهو ابتداء الغسق، وصلاة العشاء الآخرة، وبها يتم الغسق والظلمة ﴿وقرآن الفجر﴾ أي صلاة الفجر، وسماها قرآناً لمشروعية إطالة القراءة فيها، ولفضل قراءتها لكونها مشهودة يشهدها الله وتشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، ففي هذه الآية الكريمة فوائد:

منها ذكر الأوقات الخمسة صريحاً؛ ولم يصرح بها في القرآن في غير هذه الآية ــ وأتت ظاهرة في قوله:

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ١٧]

وفيها أن هذه المأمورات كلها فرائض لأن الأمر بها مقيد في أوقاتها، وهذه هي الصلوات الخمس وقد تستتبع ما يتبعها من الرواتب ونحوها.

ومنها أن الوقت شرط لصحة الصلاة وسبب لوجوبها؛ ويرجع في مقادير الأوقات إلى تقدير النبي ﷺ كما يرجع إليه في تقدير ركعات الصلاة وسجداتها وهيئاتها.

وفيها أن العصر والظهر يجمعان للعذر، وكذلك المغرب والعشاء، لأن الله جمع وقتها فهو وقت واحد للمعذور، ووقتان لغير المعذور.

وفيها فضيلة صلاة الفجر وفضيلة إطالة القرآن فيها، وأن القراءة فيها

ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دل ذلك على فضيلته وركنيته، وقد عبر الله عن الصلاة بالقراءة وبالركوع وبالسجود وبالقيام، وهذه كلها أركانها المهمة.

قوله: ﴿ومن الليل فتهجد به﴾ أي صلّ به في أوقاته ﴿نافلة لك﴾ أي لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو المقامات ورفع الدرجات بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، وأما صلاة الليل فإنها فرض عليك وحدك دون المؤمنين لكرامتك على الله، إذ جعل وظيفتك أكثر من غيرك ومنّ عليك بالقيام بها ليكثر ثوابك ويرتفع مقامك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون؛ مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بأكابر الأنبياء، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ليرحمهم الله من همّ الموقف وكربه ويفصل بينهم، فيشفعه الله ويقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له اليد البيضاء على جميع الخلق، ﷺ تسليماً كثيراً، وأدخلنا في شفاعته، ومنّ علينا بالسعي في أسباب شفاعته التي أهمها إخلاص الأعمال لله، وتحقيق متابعته في هديه وقوله وعمله.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٨]

لما أمر الله تعالى رسوله خصوصاً والمؤمنين عموماً باستقبال بيته الحرام، أخبر أن كل أهل دين لهم وجهة يتوجهون إليها في عباداتهم، وليس الشأن في القبل والوجهات المعينة، فإنها من الشرائع التي تختلف باختلاف الأزمنة، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى أخرى، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله على الإطلاق والتقرب إليه وطلب الزلفى عنده.

فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها الخسارة في الدنيا والآخرة؛ كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به؛ والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعلها؛ فإن الاستباق إليها يتضمن الأمر بفعلها وتكميلها وإيقاعها على أكمل الأحوال والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات فهو السابق في الآخرة إلى الجنات؛ فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر، فهذه الآية تحث على الإتيان بكل ما يكمل هذه العبادات من ركن وواجب وشرط ومستحب ومكمل ومتمم ظاهراً وباطناً: كالمبادرة في أول الوقت وفعل السنن المكملات والمبادرة إلى إبراء الذمم من الواجبات وفعل جميع الآداب المتعلقة بالعبادات؛ فللّه ما أجمعها من آية وأنفعها؛ ولما كان أقوى ما يحث النفوس إلى المسارعة إلى الخيرات ما رتب الله عليها من الثواب، وما يخشى بتفويتها من الحرمان والعقاب قال: ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾ فيجمع الله العباد يوم القيامة بقدرته ويجازيهم بما أسلفوه من الأعمال خيرها وشرها.

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [سورة البقرة: الآيتان ٢٣٨ و ٢٣٩]. إلى آخر الآية.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات عموماً، وعلى الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر خصوصاً، لفضلها وشرفها وحضور ملائكة الليل والنهار فيها، ولكونها ختام النهار. والمحافظة على الصلوات عناية العبد بها من جميع الوجوه التي أمر الشارع بها وحث عليها من مراعاة الوقت وصلاة الجماعة والقيام بكل ما به تكمل وتتم، وأن تكون صلاة كاملة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، ويزداد بها إيمانه، وذلك إذا حصل فيها حضور القلب وخشوعه الذي هو لُبها وروحها، ولهذا قال: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي مخلصين خاشعين لله، فإن

القنوت هو دوام الطاعة مع الخشوع؛ ومن تمام ذلك سكون الأعضاء عن كل كلام لا تعلق له بالصلاة.

وفيها أن القيام في صلاة الفريضة ركن إن كان المراد بالقيام هنا الوقوف، فإن أُريد به القيام بأفعال الصلاة عموماً دل على الأمر بإقامتها كلها وأن تكون قائمة تامة غير ناقصة.

﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾ أي فصلُّوا الصلاة رجالاً أي ماشين على أرجلكم أو ساعين عليها، أو ركباناً على الإبل وغيرها من المركوبات، وحذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع ومن فوات ما يتضرر بفواته أو تفويته، وفي هذه الحال لا يلزمه استقبال القبلة، بل قبلته حيثما كان وجهه.

ومثل ذلك إذا اشتبهت القبلة في السفر، ومثل ذلك صلاة النافلة في السفر على الراحلة، وكل هذا داخل في قوله:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾
[سورة البقرة: الآية ١١٥]

فهذه صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن صلى صلاة كاملة، ويدخل في قوله:

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٩]

تكميل الصلوات؛ ويدخل فيه أيضاً الإكثار من ذكر الله شكراً له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، وفي الآية الكريمة فضيلة العلم وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله؛ وفيه تنبيه على أن الإكثار من ذكر الله سبب لنيل علوم أُخر لم يكن العبد ليعرفها، فإن الشكر مقرون بالمزيد، وقد ذكر الله صلاة الخوف في سورة النساء في قوله:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٢]

فأمر بها على تلك الصفة تحصيلاً للجماعة لها وقياماً للألفة وجمعاً بين القيام بالصلاة والجهاد حسب الإمكان، وبالقيام بالواجبات مع التحرز من

شرور الأعداء؛ فسبحان من جعل في كتابه الهدى والنور والرشاد وإصلاح الأمور كلها.

فصـــل

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٣]

وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٣]

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٧]

وقال: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤١]

قد جمع الله في كتابه آيات كثيرة بين الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما مشتركتان في أنهما من أهم فروض الدين ومباني الإسلام العظيمة، والإيمان لا يتم إلا بهما، ومن قام بالصلاة وبالزكاة كان مقيماً لدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما من دينه أضيع، فالصلاة فيها الإخلاص التام للمعبود وهي ميزان الإيمان، والزكاة فيها الإحسان إلى المخلوقين وهي برهان الإيمان. ولهذا اتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة، وقال أبو بكر رضي الله عنه: «لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة» فقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ هذا الأمر موجه للنبي ﷺ ومن قام مقامه أن يأخذ من أموال المسلمين صدقة وهي الزكاة، وهذا شامل لجميع الأموال المتمولة من أنعام وحروث ونقود وعروض كما صرح به في الآية الأخرى: ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ من النقود والعروض والماشية المنماة ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ من الحبوب والثمار؛ وقد وضّح النبي ﷺ النُّصب في هذه الأنواع كلها، وبين مقدار الواجب منها وأنها عشر الخارج من الأرض مما يسقى بلا مؤنة، ونصف عشره فيما سقي بمؤنة، وربع

العشر من أموال التجارة، وذلك إذا حال الحول في أموال التجارة. وحصل الحصاد والجذاذ وقت حصول الثمار، كما هو صريح الآية المذكورة.

وأمر تعالى بإخراج الوسط، فلا يظلم رب المال فيؤخذ العالي من ماله ـ إلا أن يختار هو ذلك ـ ولا يحل له أن يتيمم الخبيث، وهو الرديء، من ماله فيخرجه، ولا تبرأ بذلك ذمته إن كانت فرضاً، ولا يتم له الأجر والثواب إن كانت نفلاً؛ وبين تعالى الحكمة في ذلك وأنها حكمة معقولة: فكما أنكم لا ترضون ممن عليه حقٌّ لكم أن يعطيكم الرديء من ماله الذي هو دون حقكم إلا أن تقبلوه على وجه الكراهة والإغماض، فكيف ترضون لربكم ولإخوانكم ما لا ترضونه لأنفسكم، فليس هذا من الإنصاف والعدل.

وبيّن تعالى الحكمة في الزكاة وبيان مصالحها العظيمة فقال: ﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾، فهذه كلمة جامعة يدخل فيها من المنافع للمعطي والمعطى والمال والأمور العمومية والخصوصية شيء كثير. فقوله: ﴿تطهرهم﴾ أي من الذنوب ومن الأخلاق الرذيلة، فإن من أعظم الذنوب وأكبرها منع الزكاة، وأيضاً إعطاؤها سبب لمغفرة ذنوب أخرى، فإنها من أكبر الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات..

ومن أشنع الأخلاق الرذيلة البخل. والزكاة تطهره من هذا الخلق الرذيل، ويتصف صاحبها بالرحمة والإحسان، والشفقة على الخلق، وتطهر المال من الأوساخ والآفات، فإن للأموال آفات مثل آفات الأبدان، وأعظم آفاتها أن تخالطها الأموال المحرمة؛ فهي للأموال مثل الجرب تسحته وتحل به النكبات والنوائب المزعجة، فإخراج الزكاة تطهير له من هذه الآفة المانعة له من البركة والنماء، فيستعد بذلك للنماء والبركة وتوجيهه للأمور النافعة، وأما قوله: ﴿وتزكيهم بها﴾ فالزكاة هي النماء والزيادة، فهي تنمي المؤتي للزكاة، تنمي أخلاقه وتحل البركة في أعماله، ويزداد بالزكاة ترقياً في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ وتنمي المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره، وتحل فيه البركة من الله، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال» بل تزيده وتنمي

أيضاً المخرج إليه فتسد حاجته، وتقوم المصلحة الدينية التي تصرف فيها الزكاة كالجهاد والعلم والإصلاح بين الناس والتأليف ونحوها، وأيضاً تدفع عادية الفقر والفقراء، فإن أرباب الأموال إذا احتكروها واحتجزوها ولم يؤدوا منها شيئاً للفقراء، اضطر الفقراء وهم جمهور الخلق وثاروا بالشر والفساد على أرباب الأموال، وبهذا ونحوه تسلطت البلاشفة على الخلق؛ فالقيام بالدين الإسلامي على وجهه بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأداء حقوقه هو السد المانع شرعاً وقدراً لهذه الطائفة التي بها فساد الأديان والدنيا والآخرة، وأمر تعالى الآخذ منهم الزكاة أن يصلي عليهم فيدعو لهم بالبركة، فإن في ذلك تطميناً لخواطرهم وتسكيناً لقلوبهم وتنشيطاً لهم وتشجيعاً على هذا العمل الفاضل، وكما أن الإمام والساعي مأمور بالدعاء للمزكي عند أخذها فالفقير المحتاج إذا أُعطيها من باب أولى أن يشرع له الدعاء للمعطي تسكيناً لقلبه، وفي هذا إعانة على الخير.

ودل تعليل الآية الكريمة أن كل ما أعان على فعل الخير ونشط عليه وسكن قلب صاحبه أنه مطلوب ومحبوب لله، وأنه ينبغي للعبد مراعاته وملاحظته في كل شأن من شؤونه، فإن من تفطن له فتح له أبواباً نافعة له ولغيره بلا تعب ولا مشقة، وأنه ينبغي إدخال السرور على المؤمنين.

ولما أمر في آية البقرة بالنفقات قال: ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾: غني بذاته عن جميع المخلوقين. وهو الغني عن نفقات المنفقين وطاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها وحثهم عليها لمحض مصلحتهم ونفعهم، وبمحض فضله وكرمه عليهم، إذ تفضل عليهم بالأمر بهذه الأعمال والتوفيق لفعلها التي توصل أصحابها إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات.

ومع كمال غناه وسعة عطاياه فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام، وحميد في أفعاله التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف؛ لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات لا يدرك العباد كنهها ولا يقدرونها حق قدرها. فلما حثهم على الإنفاق النافع نهاهم عن الإمساك الضار! وبين لهم أنهم بين داعيين: داعي الرحمن يدعوهم إلى الخير

ويعدهم عليه الفضل والثواب العاجل والآجل، وخلف ما أنفقوا؛ وداعي الشيطان الذي يحثهم على الإمساك ويخوِّفهم إن أنفقوا افتقروا؛ فمن كان مجيباً لداعي الرحمن وأنفق مما رزقه الله فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب؛ ومن كان مجيباً لداعي الشيطان فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير؛ فليختر العبد أي الأمرين أليق به. وختم الآية بالإخبار بأنه «واسع عليم» أي واسع الصفات كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين المخلصين الصادقين، وعليم بمن هو أهل لذلك فيوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠]

المراد بالصدقات هنا الزكاة، فهؤلاء الثمانية هم أهلها، إذا دفعت إلى جهة من هذه الجهات أجزأت ووقعت موقعها، وإن دفعت في غير هذه الجهات لم تجز؛ وهؤلاء المذكورون فيها قسمان: قسم يأخذ لحاجته كالفقراء والمساكين والرقاب وابن السبيل والغارم لنفسه، وقسم يأخذ لنفعه العمومي والحاجة إليه، وهم البقية. فأما الفقراء والمساكين فهم خلاف الأغنياء، والفقير أشد حاجة من المسكين لأن الله بدأ به، والأهم مقدم في الذكر غالباً، ولكن الحاجة تجمع الصنفين ﴿والعاملين عليها﴾ وهم السعاة الذين يجبونها ويكتبونها ويحفظونها، ويقسّمونها على أهلها، فهم يُعطَوْن ولو كانوا أغنياء لأنها بمنزلة الأجرة في حقهم. ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ وهم سادات العشائر والرؤساء الذين إذا أُعطوا حصل في إعطائهم مصلحة للإسلام والمسلمين، إما دفع شرهم عن المسلمين وإما رجاء إسلامهم وإسلام نظرائهم، أو جبايتها ممن لا يعطيها أو يرجى قوة إيمانهم ﴿وفي الرقاب﴾ أي في فكها من الرق كإعانة المكاتبين وكبذلها في شراء الرقاب لعتقها وفي فك الأسارى

من المسلمين عند الأعداء. ﴿والغارمين﴾ للإصلاح بين الناس إذا كان الصلح يتوقف على بذل مال فيعانون على القيام بهذه المهمة والمصلحة العظيمة وهي الإصلاح بين الناس، ولو أغنياء، ومن الغارمين من ركبتهم ديون للناس وعجزوا عن وفائها فيعانون من الزكاة لوفائها. ﴿وفي سبيل الله﴾ أي بذلها في إعانة المجاهدين بالزاد والمزاد والمركوب والسلاح ونحوها مما فيه إعانة المجاهدين، ومن الجهاد التخلي لطلب العلم الشرعي والتجرد للاشتغال به ﴿وابن السبيل﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده فيعان على سفره من الزكاة.

فالله تعالى فرضها لهؤلاء الأصناف بحسب حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، فإن سد الكفليات وقيام المصالح العمومية النافعة من الفروض على المسلمين، وهي على أهل الأموال شكر منهم لله تعالى على نعمته بالمال وتطهير لهم ولها ونماء وبركة واتصاف بصفات الأخيار، وسلامة من نعوت الأشرار.

فصل
في الطهارة بالماء والتيمم

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

هذه الآيات جمع الله فيها أحكام طهارة الماء وطهارة التيمم والتنبيه على

شروطها وبيان كيفياتها، وذكر فوائد ذلك وثمراته الطيبة، فبين فيها الأحكام وحكمها وأسرارها، وهي أحكام كثيرة تستفاد من هذا الموضـع.

منها أن الطهارة من الحدثين شرط لصحة الصلاة لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصـلاة فاغسلوا﴾... الـخ ومنها أن ذلـك عام للفـرائض من الصلوات والنوافل، فكل ما يسمى صلاة فلا بد فيه من هذه الطهارة ومنها اشتراط النية للطهارة لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ أي لأجل الصلاة، فإن المتطهر إما أن ينوي رفـع ما عليه من الأحداث أو ينوي الصلاة ونحوها مما يحتاج إلى الطهارة، أو ينويها.

ومنها أن غسل هذه الأعضاء لا بد منه في الحدث الأصغر، فحد الوجه ما يدخل في مسماه وما تحصل به المواجهة، وذلك من الأذن إلى الأذن عرضاً، ومن منابت شعر الرأس إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً مـع مسترسل اللحية، لأن هذا هو الذي تحصل به المواجهة، وأما اليدان فقد حدَّهما الله إلى المرفقين فقال العلماء: إن ﴿إلى﴾ بمعنى مـع المرفقين، وأيدوا هذا بأن النبـي ﷺ أدار الماء على مرفقيه، وكذلك يقال في الرجلين إلى الكعبين، وأما الرأس فإنه يتعين استيعاب مسحه فإن الله أمر بمسحه، والباء للإلصاق الذي يقتضي إلصاق المسح بهذا الممسوح، وليست للتبعيض. ومنها أن الترتيب بين هذه الأعضاء الأربعة شرط، لأن الله رتَّبها وأدخل عضواً ممسوحاً بين الأعضاء المغسولة، ولا يعلم لهذا فائدة سوى الترتيب وعموم قوله ﷺ: «ابدأ بما بدأ الله به» فهو وإن كان وارداً في الحـج فإنه يعم كل شيء، مـع أن جميـع الواصفين لوضوئه ﷺ ذكروه مرتباً.

ومنها أن الموالاة شرط أيضاً، ووجه ذلك أن الله تعالى ذكر الوضوء مقترناً بعض الأعضاء ببعض بالواو الدالة على اجتماع هذه العبادة بوقت واحد، فإذا فرّقها في وقتين لم تكن عبادة واحدة كما لو فرق الصلاة، وبفعل النبـي ﷺ الدائم الذي كأنك تشاهده أنه كان يوالي بين أعضاء وضوئه، وهذا أولى من استدلال كثير من أهل العلم بقصة صاحب اللمعة الذي أمره النبـي ﷺ أن

يعيد الوضوء كله، فهو وإن كان فيه بعض الدلالة على هذه المسألة، لكن يحتمل أن أمره بالإعادة كأمر المسيء في صلاته أن يعيد، لأنه رآه مخلاً بوضوئه غير متمم له.

ومنها بيان الطهارة الكبرى، كيفيتها وذكر سببها، فكيفيتها أن يطهر العبد جميع ظاهر بدنه بالماء لقوله: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ فلم يخصه بعضو أو بأعضاء معينة، بل جعل الله التطهير لجميع البدن، فعلى المتطهر أن يعمم التطهير لجميع ظاهر بدنه وما تحت الشعور، خفيفة أو كثيفة، وأن يكون ذلك غسلاً لا مسحاً.

ومنها أن طهارة الحدث الأكبر لا ترتيب فيها ولا موالاة. ومنها أن من أسبابها الجنابة، والجنابة قد عرفها المسلمون عن نبيهم ﷺ أنها إنزال المنيّ يقظةً أو مناماً، وإن لم يكن جماع، أو الجماع وإن لم يحصل إنزال، أو وجود الأمرين كليهما.

وقد بين الله أيضاً في سورة البقرة سبباً آخر للاغتسال وهو الحيض في قوله:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٢]

فأضاف التطهير فيها إلى البدن كله كالجنابة، ويشمل ذلك النفاس، وأما التطهير من إسلام الكافر وتطهير الميت فإنه يؤخذ من السُّنة.

ومنها ما استدل به كثير من أهل العلم في قراءة الجر في قوله: ﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾ أنها تدل على مسح الخفين الذي بينته السنة وصرحت به، وأما قراءة النصب في ﴿أرجلكم﴾ فإنها معطوفة على المغسولات.

ومنها مشروعية التيمم، وأن سببه أحد أمرين، إما عدم الماء لقوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ أو التضرر باستعماله لقوله: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ فكل ضرر يعتري العبد إذا استعمل الماء، فإنه يسوغ له العدول إلى التيمم؛ وأنواع الضرر

كثيرة؛ وأما ذكر السفر فلأنه مظنة الحاجة إلى التيمم لفقد الماء كتقييد الرهن في السفر، لا لأن السفر وحده مسوغ للتيمم كما ظنه بعض الناس وهو مناف لقوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ ومنها أن التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا، إذا كان طيباً غير خبيث، والخبيث هو النجس في هذا الموضع.

ومنها أن التيمم خاص بعضوين، بالوجه واليدين، وأن اليدين عند الإطلاق وعدم التقييد هما الكفان كما في آية السرقة، وإذا قيدت كما في آية الوضوء إلى المرفقين تقيدت بذلك.

ومنها التنبيه على ما يوجب الطهارة الصغرى، وهو الإتيان من الغائط، يعني خروج الخارج من أحد السبيلين وملامسة النساء لشهوة، والسنة بينت الوضوء من النوم الكثير، ولمس الفرج وأكل لحوم الإبل على اختلاف من أهل العلم في ذلك.

ومنها أن التيمم كما أنه مشروع في الحدث الأصغر، فكذلك في الحدث الأكبر لأن الله تعالى ذكره بعد سبب الطهارتين.

ومنها أنه في طهارة التيمم تستوي فيه الطهارة الصغرى بالكبرى في مسح العضوين فقط.

ومنها أن الآية الكريمة تدل على أن طهارة التيمم تنوب وتقوم مقام طهارة الماء عند عدمه أو التضرر باستعماله، لأن الله أنابه منابه وسماه طهارة.

وكذلك الأحاديث الكثيرة تدل على هذا، وبهذا يعرف أن الصحيح أن طهارة التيمم لا تبطل بخروج وقت ولا دخوله ولا غير ذلك مما قاله كثير من أهل العلم. بل إنها تبطل بأحد أمرين: إما حصول ناقض من نواقض الطهارة، وإما وجود الماء أو زوال الضرر المانع من استعمال الماء.

ومنها أن الماء المتغير بالطاهرات، ولو تغيراً كثيراً، أنه يجب تقديمه على طهارة التيمم، لأن قوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ نكرة في سياق النفي فيعم أي ماء سوى الماء النجس.

ومنها ما استدل به كثير من أهل العلم أن من كان في موضع ليس فيه ماء وهو يشك في وجوده فيما يقاربه أن عليه أن يطلبه ويفتش فيما حوله قبل أن يعدل إلى التيمم، لأن قوله: ﴿فلم تجدوا﴾ لا يقال إلا بعد طلب ما يمكن طلبه فيه من دون مشقة، وهو استدلال لطيف.

ومنها أنه لا بد في الطهارة من النية لقوله في طهارة الماء: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ إلى آخره وفي طهارة التيمم ﴿فتيمموا﴾ أي اقصدوا ﴿صعيداً طيباً﴾ ومن لازم ذلك النية.

ومنها أن هذه الأحكام التي شرعها الله لعباده إنما ذلك رحمة منه بعباده ليقوموا بالعبادات التي تتوقف سعادتهم وفلاحهم عليها، وأنه يريد إتمام نعمته عليهم بالأوامر الشرعية التي لا مشقة فيها ولا حرج لينالوا الفضل العظيم من ربهم، فمنه التفضل على عباده بالسبب والمسبب.

ومنها أن طهارة التيمم، وإن لم يشاهد فيها نظافة حسية، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال العبد لأمر الله ورسوله.

ومنها: القاعدة الكلية في قوله: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ وأن الحرج منفي شرعاً في جميع ما شرعه الله لعباده، فأصل العبادات في غاية السهولة على المكلفين، ثم إذا عرضت فيها عوارض عجز أو مرض أو تعذر لبعض شروطها، فإن الشارع يخففها تخفيفاً يناسب ذلك العارض.

ومنها: أن هذه الأحكام وغيرها من محاسن الدين الإسلامي، لما فيها من المنافع للعباد في قلوبهم وأبدانهم وأخلاقهم، والتقرب بها إلى الله، والتوسل بها إلى ثوابه العاجل والآجل، فجميع الأحكام من أكبر الأدلة على حسن دين الإسلام، وأنه الدين الحق الذي فيه الصلاح والإصلاح، وأن سعادة الدنيا والآخرة منوطة به، مترتبة عليه، فتأمل أحكام الله وما فيها من الحكم والأسرار والمنافع ودفع المضار، تجد هذا مشاهداً فيها.

فصـــل
في صلاة الجمعة والسفر والأذان

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سورة الجمعة: الآيات ٩ ــ ١١]

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة، والمبادرة إليها من حين ينادى لها؛ والمراد بالسعي هنا: الاهتمام بها وعدم الاشتغال بغيرها، لا المراد به العدْوُ الذي نهى عنه النبي ﷺ، عند المضي إلى الصلاة، فالمشي إلى الصلاة بسكينة ووقار، هو المراد بالسعي هنا ﴿وذروا البيع﴾ أي اتركوه في هذه الحالة التي أُمرتم بالمضي فيها إلى الصلاة؛ وإذا أمر بترك البيع الذي ترغب فيه النفوس، وتحرص عليه، فترك غيره من الشواغل من باب أولى، كالصناعات وغيرها.

﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ حقائق الأمور وثمراتها، وذلك الخير هو امتثال أمر الله ورسوله، والاشتغال بهذه الفريضة، التي هي من أهم الفرائض، واكتساب خيرها وثوابها، وما رتب الشارع على السعي لها والمبادرة والتقدم والوسائل، والمتممات لها من الخير والثواب، ولما في ذلك من اكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل، فإن من أرذل الخصال الحرص والجشع الذي يحمل العبد على تقديم الكسب الدنيء على الخير الضروري، ومن الخير أن من قدم أمر الله وآثر طاعته على هوى نفسه، كان ذلك برهان إيمانه، ودليل رغبته، وإنابته إلى ربه، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ومن قدم هواه على طاعة مولاه، فقد خسر دينه، وتبع ذلك خسارة دنياه.

وهذا الأمر بترك البيع موقت إلى انقضاء الصلاة ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ لطلب المكاسب المباحة ﴿وابتغوا من فضل الله﴾، أي ينبغي للمؤمن الموفق وقت اشتغاله في مكاسب الدنيا، أن يقصد بذلك الاستعانة على قيامه بالواجبات، وأن يكون مستعيناً بالله في ذلك، طالباً لفضله جاعلاً الرجاء والطمع في فضل الله نصب عينيه، فإن التعلق بالله والطمع في فضله من الإيمان ومن العبادات.

ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله وطاعته أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾، أي في حال قيامكم وقعودكم وفي تصرفاتكم وأحوالكم كلها، فإن ذكر الله طريق الفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، ومن المناسب في هذا أن يجعل المعاملة الحسنة والإحسان إلى الخلق نصب عينيه، فإن هذا من ذكر الله، فكل ما قرب إلى الله فإنه من ذكره، وكل أمر يحتسبه العبد فإنه من ذكره، فإذا نصح في معاملته وترك الغش تقرب في هذه المعاملة إلى الله لأن الله يحبها؛ ولأنها تمنع العبد من المعاملة الضارة، وكلما سامح أحداً أو حاباه في ثمن أو مثمن أو تيسير أو إنظار أو نحوه، فإنه من الإحسان والفضل، وهو من ذكر الله. قال تعالى:

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾ أي خرجوا من المسجد حرصاً على تلك التجارة واللهو، وتركوا ذلك الخير الحاضر، حتى إنهم تركوا النبي ﷺ قائماً يخطب، وذلك لحاجتهم لتلك العير التي قدمت المدينة، وقبل أن يعلموا حق العلم ما في ذلك من الذم وسوء الأدب؛ فاجتماع الأمرين حملاهم على ما ذكر؛ وإلا فهم رضي الله عنهم كانوا أرغب الناس في الخير، وأعظمهم حرصاً على الأخذ عن الرسول وعلى توقيره وتبجيله، وحالهم المعلومة في ذلك أكبر شاهد، ولكن لكل جواد كبوة، ثم إن الكبوة التي عوتب عليها العبد، وتاب منها وأناب وغفرها الله وأبدل مكانها حسنة، لا يحل لأحد اللوم

عليها، قل لمن قدم اللهو والتجارة على الطاعة: ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة، التي وإن حصل منها بعض المقاصد فإن ذلك قليل منغص مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق؛ فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب، ومن قدّم الاشتغال بالتجارة على طاعة الله، لم يبارك له في ذلك، وكان هذا دليلاً على خلو قلبه من ابتغاء الفضل من الله، وانقطاع قلبه عن ربه وتعلقه بالأسباب وهذا ضرر محض يعقب الخسران. وفي هذه الآيات فوائد عديدة.

منها: أن الجمعة فريضة على المؤمنين يجب عليهم السعي لها والاهتمام بشأنها، وأن الخيرات المترتبة عليها لا يقابلها شيء.

ومنها مشروعية الخطبتين، وأنهما فريضتان، وأن المشروع أن يكون الخطيب قائماً، لأن قوله: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ يشمل السعي إلى الصلاة وإلى الخطبتين، وأيضاً فإن الله ذم من ترك استماع الخطبة.

ومنها: مشروعية النداء يوم الجمعة وغيرها، لأن التقييد بيوم الجمعة دليل على أن هناك نداء لبقية الصلوات الخمس، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٨]

ومنها: النهي عن البيع والشراء، بعد نداء الجمعة، وذلك يدل على التحريم وعدم النفوذ.

ومنها: أن الوسائل لها أحكام المقاصد، فإن البيع في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة لترك الواجب نهى الله عنه.

ومنها: تحريم الكلام والإمام يخطب، لأنه إذا كان الاشتغال بالبيع ونحوه، ولو كان المشتغل بعيداً عن سماع الخطبة محرماً، فمن كان حاضراً تعين عليه أن لا يشتغل بغير الاستماع، كما أيد هذا الاستنباط الأحاديث الكثيرة.

ومنها: أن المشتغل بعبادة الله وطاعته إذا رأى من نفسه الطموح إلى ما يلهيها عن هذا الخير من اللذات الدنيوية والحظوظ النفسية شرع أن يذكرها

ما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر الدين على الهوى، وما يترتب من الضرر والخسران على ضده.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٠١]

أي إذا سافرتم في الأرض لتجارة أو عبادة أو غيرهما، فقد خفف الله عنكم ورفع عنكم الجناح وأباح لكم بل أحبَّ لكم أن تقصروا الصلاة الرباعية إلى ركعتين، فإن حصل مع ذلك خوف، فلا حرج في قصر كيفية الصلوات كلها، وهذا والله أعلم الحكمة في تقييد القصر بالخوف، لأنه من المعلوم المتواتر عن النبي ﷺ جواز القصر في السفر، ولو كان ليس فيه خوف، ولكن إذا اجتمع السفر والخوف، كان رخصة في قصر العدد للرباعية والهيئة لغيرها، فإن وجد الخوف وحده، ترتب عليه قصر الهيئات على الصفة التي ثبتت عن النبي ﷺ وإن وجد السفر وحده، لم يكن فيه إلا قصر العدد، ولهذا لما سئل النبي ﷺ عن هذا القيد قال: صدقة تصدق الله عليكم بها؛ فاقبلوا صدقته. أو يقال هذا القصر المذكور في الآية الكريمة مطلق، والسنة عن النبي ﷺ تقيده وتبين المراد به.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٨٤]

أي ولا تصل على أحد مات من المنافقين ولا تقم على قبره بعد الدفن لتدعو له، فإن الصلاة عليهم والوقوف على قبورهم للدعاء لهم شفاعة لهم وهم لا تنفع فيهم الشفاعة ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهو فاسقون﴾ خارجون عن دين الله بالكلية؛ ومن كان كافراً ومات على ذلك فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق فإنه لا يصلى عليه ولا يدعى له بالمغفرة؛ وفي هذه الآية مشروعية الصلاة على المؤمنين والوقوف على قبورهم، خصوصاً وقت دفنهم للدعاء لهم،

وإن هذا كان عادته ﷺ مع المؤمنين، وقد بينت السنة وجوب تجهيز الميت المسلم بالتغسيل والتكفين والصلاة عليه وحمله ودفنه كما هو معلوم.

فصـــل
في الصيام وتوابعه

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآيات: ١٨٣ـ١٨٥]

يخبر تعالى بمنته على عباده المؤمنين بفرضه عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع الكبار التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفي هذا حث للأمة أن ينافسوا الأمم في المسارعة إليه وتكميله وبيان عموم مصلحته وثمراته التي لا تستغني عنها جميع الأمم؛ ثم ذكر حكمته بقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فالصيام هو الطريق الأعظم للوصول إلى هذه الغاية التي فيها سعادة العبد في دينه ودنياه وآخرته، فالصائم يتقرب إلى الله بترك المشتهيات تقديماً لمحبة ربه على محبة نفسه، ولهذا اختصه الله من بين الأعمال حيث أضافه إلى نفسه في الحديث الصحيح، وهو من أعظم أصول التقوى، فإن الإسلام والإيمان لا يتم بدونه.

وفيه من حصول زيادة الإيمان والتمرُّن على الصبر والمشقات المقربة إلى رب العالمين، وأنه سبب لكثرة الطاعات، من صلاة وقراءة وذكر وصدقة وغيرها ما يحقق التقوى، وفيه من ردع النفس عن الأمور المحرَّمة من أقوال وأفعال ما هو من أصول التقوى.

ومنها أن في الصيام من مراقبة الله بترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع ربه عليه ما ليس في غيره، ولا ريب أن هذا من أعظم عون على التقوى.

ومنها أن الصيام يضيق مجاري الشيطان «فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم» فبالصيام يضعف نفوذه وتقل معاصي العبد.

ومنها أن الغني، إذا ذاق ألم الجوع، أوجب له ذلك وحمله على مواساة الفقراء المعدمين، وهذا كله من خصال التقوى.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبر أنها أيام معدودات، أي قليلة سهلة، ومن سهولتها أنها في شهر معين يشترك فيه جميع المسلمين؛ ولا ريب أن الاشتراك هذا من المهونات المسهلات ومن ألطاف المولى ومعونته للصائمين، ثم سهل تسهيلاً آخر فقال: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخر﴾ وذلك للمشقة غالباً رخص الله لهما في الفطر، ولما كان لا بد من تحصيل العبد لمصلحة الصيام أمرهما أن يقضياه في أيام أُخر، إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فعدة من أيام أُخر﴾ دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان كاملاً كان أو ناقصاً، وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وبهذا أجبنا عن سؤال ورد علينا: أنه يوجد مسلمون في بعض البلاد التي يكون في بعض الأوقات ليلها نحو أربع ساعات أو تنقص، فيوافق ذلك رمضان، فهل لهم رخصة في الإطعام إذا كانوا يعجزون عن تتميمها.

فأجبنا: إن العاجز منهم في هذا الوقت يؤخره إلى وقت آخر يقصر فيه النهار ويتمكن فيه من الصيام كما أمر الله بذلك المريض، بل هذا أولى، وأن الذي يقدر على الصيام في هذه الأيام الطوال يلزمه ولا يحل له تأخيره إذا كان صحيحاً مقيماً، هذا حاصل الجواب.

وقوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ قيل هذا في أول الأمر وفي ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان ابتداء فرضه حتماً فيه مشقة عليهم، درَّجهم الرب الحكيم بأسهل ما يكون، وخيَّر المطيق للصوم

بين أن يصوم، وهو الأفضل الأكمل، أو يطعم ويجزيه، ثم لما تمرنوا على الصيام وكان ضرورياً على المطيقين فَرَضَهُ عليهم حتماً.

وقيل إن قوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي يتكلفون الصيام ويشق عليهم مشقة لا تحتمل، كالكبير والمريض الميئوس من برئه، فدية طعام مسكين عن كل يوم يفطره.

وقوله: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي حصل لكم من الله فيه الفضل العظيم، وهو إنزال القرآن الذي فيه هدايتكم لجميع مصالحكم الدينية والدنيوية، وفيه بيان الحق وتوضيحه، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله العظيم فيه عليكم أن يكون معظماً محترمًا، موسمًا للعباد مفروضاً فيه الصيام؛ فلما قرر فرضيته وبين حكمته في ذلك وفي تخصيصه قال: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي من حضر الشهر وهو قادر تحتم عليه صيامه ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخر﴾ أعاد ذلك تأكيداً له، ولئلا يظن أنه أيضاً منسوخ مع ما نسخ من التخيير للقادر ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ أي يريد الله أن ييسر ويسهل عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ليسهل سلوكها، ويعين عليها بكل وسيلة ليرغب فيها العباد؛ وهذا أصل عظيم من أصول الشريعة، بل الشريعة كلها تدور على هذا الأصل، فإن جميع الأوامر لا تشق على المكلفين، وإذا حصل بعض المشاق والعجز خفف الشارع من الواجبات بحسب ما يناسب ذلك، فيدخل في هذا جميع التخفيفات في جواز الفطر، وتخفيفات السفر والأعذار لترك الجمعة والجماعة.

وقوله: ﴿ولتكملوا العدة﴾ وذلك لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود ببعضه دفع هذا الوهم بقوله: ﴿ولتكملوا العدة﴾ وأمر بشكره على إتمامه، لأن من أكبر منن الله على عبده توفيقه لإتمامه وتكميله وتبيين أحكامه للعبيد ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ هداية التعليم وهداية التوفيق والإرشاد.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦]

هذا سؤال وجواب، أي إذا سألك العباد عن ربهم، وبأي طريق يدركون منه مطالبهم، فأجبهم بهذا الجواب الذي يأخذ بمجامع القلوب، ويوجب أن يعلق العبد بربه بكل مطلوب ديني ودنيوي، فأخبرهم أن الله قريب من الداعين، ليس على بابه حجاب ولا بواب، ولا دونه مانع في أي وقت وأي حال، فإذا أتى العبد بالسبب والوسيلة، وهو الدعاء لله المقرون بالاستجابة له بالإيمان به والانقياد لطاعته، فليبشر بالإجابة في دعاء الطلب والمسئلة، وبالثواب والأجر والرشد إذا دعا دعاء العبادة، وكل القربات الظاهرة والباطنة تدخل في دعاء العبادة، لأن المتعبد لله طالب بلسان مقاله ولسان حاله من ربه قبول تلك العبادة والإثابة عليها.

وفي هذه الآية تنبيه على الأسباب الموجبة لإجابة الدعاء التي مدارها على الإيمان بالله وتحقيقه بالانقياد لله امتثالاً لأمره واجتناباً لنهيه؛ وتنبيه أيضاً على أن موانع الإجابة ترك تحقيق الإيمان وترك الانقياد، فأكل الحرام وعمل المعاصي من موانع الإجابة، وهي تنافي الاستجابة لله، وفيه تنبيه على أن الإيمان بالله والاستجابة له سبب إلى حصول العلم، لأن الرشد هو الهدى التام علماً وعملاً، ونظير هذا قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

[سورة الأنفال: الآية ٢٩]

أي علماً تفرقون به بين الحق والباطل، وبين كل ما يحتاج إلى تفصيله.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ ـ إلى قوله ـ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية: ١٨٧]

كان أول ما فرض الصيام مُنِـع المسلمون من الأكل والشرب في الليل إذا ناموا، فحصلت المشقة لكثير منهم، فخفف الله ذلك وأباح في ليالي الصيام

كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أُمروا به لو بقي الأمر على ما كـان أولاً، فتاب الله عليكم بأن وسع لكم أمراً لولا توسعته لكان داعياً إلى الإثم والإقدام على المعاصي، وعفا عنكم ما سلف من التخون.

فالآن بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿باشروهن﴾ وطئاً وقبلة ولمساً ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي اقصدوا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله بذلك، واقصدوا أيضاً حصول الذرية وإعفاف الفرج وحصول جميع مقاصد النكاح؛ وابتغوا أيضاً ليلة القدر، فإياكم أن تشتغلوا بهذه اللذة وتوابعهـا وتضيعوا ليلة القدر، وهي مما كتبه الله لهذه الأمة، وفيها من الخير العظيم ما يعد تفويته من أعظم الخسران؛ فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك، ولم يعوض عنها شيء ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ هذا غاية جواز الأكل والشرب والجماع في ليالي الصيام؛ وفيه أن هذه الثلاثة إذا وقعت وصاحبها شاك في طلوع الفجر فلا حرج عليه، ودليل على استحباب السحور، وأنه يستحب تأخيره أخذًا من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد، ودليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، لأن من لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق، ثم إذا طلع الفجر أتموا الصيام، أي أمسكوا عن المفطرات إلى الليل، وهو غروب الشمس.

ولما كانت إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست إباحة عامة لكل أحد، استثنى تعالى المعتكف بقوله: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي وأنتم متصفون بذلك؛ ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف؛ وهو لزوم المساجد لطاعة الله، وإن الاعتكاف لا يصح إلا بمسجد؛ ويستفاد من تعريف المساجد بالألف واللام أنها المسـاجد التي يعـرفها المسلمـون، وأنها التي تقام فيهـا الصلوات الخمس.

وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف، تلك المذكورات وهي تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوها من مفطرات الصيام، وتحريم الوطء على

المعتكف ونحو ذلك من المحرمات التي حدها لعباده ونهاهم عنها: ﴿فلا تقربوها﴾ أي لا تفعلوها ولا تحوموا حولها وتفعلوا وسائلها، والعبد مأمور بترك المحرمات والبعد عنها بترك كل وسيلة تدعو إليها.

وأما الأوامر فيقول الله فيها: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ كما ينهى عن مجاوزتها، ﴿فلا تعتدوها﴾ كذلك البيان السابق والتوضيح التام من الله لعباده ﴿يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ فإن العلم الصحيح سبب للتقوى لأنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا بان لهم الباطل اجتنبوه، ومن علم الحق فتركه والباطل فاتبعه كان أعظم لجرمه وأشد لإثمه.

فصل
في الحج وتوابعه

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧]

وقال: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦]

إلى آخر الآيات المتعلقة بالحج.

لما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾
[سورة آل عمران: الآيتان ٩٦ و٩٧]

وكان في ذلك تنبيه على الحكم والأسرار والمصالح والبركات المتنوعة المحتوي هذا البيت العظيم عليها، وكان ذلك داعياً إلى تعظيمه بغاية ما يمكن من التعظيم أوجب الله على العباد حجَّه وقصده لأداء المناسك التي فعلها رسول الله ﷺ وعلمها أُمته وأمرهم أن يأخذوا عنه مناسكهم، فأوجبه على من استطاع إليه سبيلاً، بأن قدر على الوصول إليه بأي مركوب متيسر وبزاد يتزوده ويتم به السبيل، وهذا هو الشرط الأعظم لوجوب الحج. وهذه الآية صريحة في

فرضية الحج، وأنه لا يتم للعبد إسلام ولا إيمان وهو مستطيع إلا بحجه، وأن الله إنما أمر به العباد رحمة منه بهم وإيصالاً لهم إلى أجلٍ مصالحهم وأعلى مطالبهم، وإلا فالله غني عن العالمين وطاعتهم، فمن كفر فلم يلتزم لشرع الله فهو كافر ولن يضر إلا نفسه.

وأما آية البقرة فإن الله أمر فيها بإتمام الحج والعمرة بأركانها وشروطها وجميع متمماتها؛ ولا فرق في ذلك بين الفرض والنفل، وبهذا تميز الحج والعمرة عن غيرهما من العبادات؛ وإن من شرع فيهما وجب عليه إتمامهما لله مخلصاً، ويدخل في الأمر بإتمامهما أنه ينبغي للعبد أن يجتهد غاية الاجتهاد في فعل كل قول وفعل ووصف وحالة بها تمام الحج والعمرة، وذلك شيء كثير مفصل في كتب أهل العلم، وأن من دخل فيهما فلا يخرج منهما إلا بإتمامهما والتحلل منهما إلا بما استثناه الله وهو الحصر، ولهذا قال:

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦]

أي منعتم من الوصول إلى البيت، ومن تتميم المناسك بمرض أو عدو أو ذهاب نفقة أو ضللتم الطريق أو غير ذلك من أنواع الحصر الداخلة في عموم قوله: ﴿أحصرتم﴾ فاذبحوا ما تيسر من الهدْيِ وهو شاة أو سُبع بدنة أو سبع بقرة يذبحها المحصر ويحلق رأسه ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه لما صدَّهم المشركون عن البيت وهم محرمون عام الحديبية، فإن لم يتيسر الهدي على المحصر فهل يكفيه الحلق وحده ويحل، كما فعله الصحابة الذين لم يكن معهم هدي، وهو الصحيح، أو ينوب عن الهدي صيام عشرة أيام قياساً على هدي التمتع كما قاله آخرون ثم يحل؟ ثم قال تعالى: ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾.

وفي هذا أن المحرم يُحَرَّمُ عليه إزالة شيء من شعر بدنه تعظيماً لهذا النسك، وقاس عليه أهل العلم إزالة الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع من ذلك حتى يبلغ الهدي محله، وهو وقت ذبحه يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، ويجوز أن يقدم الحلق على النحر كما رخص في ذلك

النبي ﷺ حين سئل عمن قدم الحلق أو الرمي أو الذبح أو الطواف بعضها على بعض. فقال افعل ولا حرج.

ويستدل بالآية الكريمة على أن المتمتع كالقارن والمفرد لا يحل من عمرته إذا كان سائقاً للهدي حتى يبلغ الهدي محله، فقيل إنه إذا حل من عمرته بأن فرغ من الطواف والسعي بادر بالدخول بالحج بالنية، وقيل إنه بسوقه للهدي صار قارناً، وأن الهدي الذي استصحبه حيث أنه كان للنسكين كليهما مزج بين النسكين وصار صاحبه قارناً، وهذا هو القول الصواب، وإنما منع تعالى من الحل لمن ساق الهدي قبل محله، لما في سوق الهدي وما يتبعه من كشف الرأس وترك أخذ الشعور ونحوها من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو روح النسك وعين صلاح العبد وكماله، وليس عليه في ذلك ضرر؛ فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من رأسه من مرض ينتفع بحلق رأسه أو قروح أو قمل أو نحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية تخيير، يخير بين صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، وهذه تسمى فدية الأذى. وأُلحق بذلك إذا قلم أظفاره، أو لبس الذكر المخيط؛ أو غطى رأسه، أو تطيب المحرم من ذكر وأنثى، فكل هذا فديته فدية تخيير بين الصيام أو الإطعام أو النسك.

وأما فدية قتل الصيد فقد ذكر الله التخيير فيها بين ذبح المثل من النعم أو تقويمه بطعام فيطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره، أو يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً؛ فهذه الأنواع فديتها تخيير.

وأما المتمتع والقارن، فإن هديهما هدي نسك، غير هدي جبران، وهو على الترتيب، إن تيسر الهدي وجب الهدي، فإن لم يتيسر فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة في الحج ولا يؤخرها عن أيام التشريق، وسبعة إذا رجع ـ أي فرغ من جميع شؤون النسك ـ ودل إطلاق إيجاب الصيام على أنه يجوز فيها التتابع والتفريق ﴿ذلك﴾ أي وجوب الهدي على المتمتع والقارن؛ أو بدله لمن لم يجد من الصيام، لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، وهم الأفقية، لأن من

الحكمة في إيجاب الهدي على الأفقي أنه لما حصل نسكين في سفرة واحدة كان هذا من أعظم نعم الله، فكان عليه أن يشكر الله على هذه النعمة الجليلة، ومن جملة الشكر إيجاب الهدي عليه.

وأما المقيمون في مكة أو كانوا في قربها بحيث لا يقال لهم مسافرون، فليس عليهم هدي ولا بدله لما ذكرنا من الحكمة ﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات في هذه العبادة الجليلة واجتنابكم لمحظوراتها ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي لمن عصاه، وذلك موجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله انكف عن السيئات، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف الله فإنه لا بد أن يتجرأ على المحارم ويتهاون بالفرائض.

ثم أخبر تعالى أن الحج واقع في أشهر معلومات عند المخاطبين، بحيث لا تحتاج إلى تعيين كما احتاج الصيام لتعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم، والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور: شوال وذو القعدة، وعشر أو ثلاثة عشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً، وهي التي تقع فيها أفعال الحج، أركانه وواجباته ومكملاته، فمن فرض فيهن الحج أي عقده وأحرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً ولو كان قبل ذلك نفلاً.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن قال بقوله: أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، ولو قيل إن الآية فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً، لأن قوله: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ دليل على أنه يقع الفرض فيهن وفي غيرهن، وإلا لما كان في القيد فائدة ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ أي يجب عليكم أن تعظموا حرمة الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً التكلم في أمور النكاح بحضرة

النساء ﴿ولا فسوق﴾ وهو جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام ﴿ولا جدال﴾ والجدال هو المماراة والمنازعة والمخاصمة لكونها تثير الشر وتوقع العداوة، والمقصود من الحج الذل والانكسار لله والتقرب إليه بما أمكن من القربات والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه يكون بذلك مبروراً، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة؛ وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل زمان ومكان، فإنه يتأكد المنع منها في الحج.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر فلهذا أتبعه بقوله: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ أتى ﴿بمن﴾ المفيدة لتنصيص العموم فكل عبادة وقربة فإنها تدخل في هذا، والإخبار بعلمه يتضمن الحث على أفعال الخير خصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة فإنه ينبغي اغتنام الخيرات والمنافسة فيها من صلاة وصيام وصدقة وقراءة وطواف وإحسان قولي وفعلي ﴿وتزودوا﴾ لهذا السفر المبارك فإن التزود فيه الاستغناء عن الخلق وعدم التشوف لما عندهم وإعانة المسافرين والتوسعة على الرفقة والانبساط والسرور في هذا السفر وزيادة التقرب إلى الله تعالى؛ وهذا الزاد المراد به إقامة البنية بلغة ومتاع، وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة وأجل نعيم دائماً أبداً؛ ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر وممنوع من الوصول إلى دار المتقين.

وقد يتمكن الموفَّق من جعل الزاد الحسي يجمع الزادين: بأن يقصد به وجه الله والقيام بواجب النفس والرفقة ومن يتصل به، والقيام بالإحسان المستحب وقصد امتثال أمر الله، فالنية هي الأساس لكل خير التي تجعل الناقص كاملاً والعادة عبادة، ثم قال: ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ أي يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على فساد العقل والرأي.

ولما أمر بتقواه أخبر أن ابتغاء فضله بالاشتغال بالتكسب في التجارة في مواسم الحج وغيرها، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو

الحج وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله معترفاً فيه بنعمة الله، لا منسوباً إلى حذق العبد والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه في كل وقت، فكيف إذا قارن النسك الفاضل، وفي قوله: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ دلالة على أمور:

أحدها: أن الوقوف بعرفة من المشاعر الجليلة، ومن أركان الحج، فإن الإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف الذي هو ركن الحج الأعظم بعد الطواف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروف يكون الحاج ليلة النحر بائتاً بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً.

ويدخل في ذكر الله عند المشعر الحرام ما يقع في المشعر من الصلوات فرضها ونفلها.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء المفيدة للترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كليهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم كما قيده بالمشعر الحرام.

السابع: أن عرفة بالحل كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة ﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ أي اذكروا الله كما مَنَّ عليكم بالهداية بعد الضلالة، وكما علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بالإكثار من ذكر المنعم بالقلب واللسان ﴿ثم أفيضوا﴾ أي من مزدلفة من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم إلى هذا الوقت والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو رمي الجمار وذبح الهدايا والطواف والسعي والمبيت بمنى ليالي أيام التشريق، وتكميل بقية المناسك.

ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى بعد الفراغ منها باستغفاره، خشية الخلل الواقع من العبد في أداء العبادة وتقصيره فيها، وبالإكثار من ذكره شكراً له على نعمة التوفيق لهذه العبادة العظيمة وتكميلها، وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير ويشكره على التوفيق، فهذا حقيق بأن الله يجبر له ما نقص منها ويتقبلها ويزيده نعماً أخرى، لأن من جهل حق ربه فرأى نفسه أنه قد كمل حقوق العبادة فأعجب بنفسه ومنَّ بعبادته على ربه، وتراءى له أنه قد جعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ويخشى عليه من رد العمل.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم؛ ولكن هممهم ومقاصدهم متباينة، فمنهم من يقول: ﴿ربنا آتنا في الدنيا﴾ أي يسأل ربه من مطالب دنياه وشهواته فقط ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ لا رغبة له فيها ولا حظ له منها، ومنهم عالي الهمة من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إلى ربه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء له نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم الله على حسب أعمالهم ونياتهم، جزاء دائراً بين الفضل والإحسان والكرم للمقبولين، وبين العدل والحكمة لغيرهم؛ وفي هذه الآية دليل على أن الله تعالى يقبل دعوة كل داع مسلماً كان أو كافراً بَرًّا أو فاجراً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته وقربه منه إلاَّ في مطالب الآخرة ومهمات الدين، فمن أُجيبت دعوته في هذه الأمور الدائم نفعها كان من البشرى، وكان أكبر دليل على برِّه وقربه من ربه.

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد وما به تكمل حياته، من رزق هنيء واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقرُّ به العين، ومن راحة وعلم نافع وعمل صالح، وما يتبع ذلك من المطالب النافعة المحبوبة والمباحة.

وأما حسنة الآخرة، فهي السلامة من العقوبات التي يستقبلها العباد من عذاب القبر والموقف وعذاب النار، وحصول رضا الله والفوز بالنعيم المقيم

والقرب من الرب الرحيم، فهذا الدعاء أجمع الأدعية وأكملها وأولاها بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به ويحث عليه.

ولما أكمل الله تعالى أحكام النسك أمر بالإكثار من ذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق في قول جمهور المفسرين؛ وذلك لمزيتها وشرفها وكون بقية المناسك تُفعل بها، ولكون الناس فيها أضيافاً لله، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله» ويدخل في ذكر الله رمي الجمار والتكبير عند رميها، والدعاء بين الجمرتين، والذبح والتسمية فيه، والصلوات التي تفعل فيها من فرائض ونوافل، والذكر المقيد بعد الفرائض فيها، وعند كثير من أهل العلم أنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر، فجميع ما يقرب إلى الله داخل بذكره: ﴿فمن تعجل في يومين﴾ أي خرج من منى ونفر منها قبل غروب الشمس فلا إثم عليه، ومن تأخر بأن بات بها ليلة الثالث من أيام التشريق ليرمي من غده فلا إثم عليه، وهذا تخفيف من الله على عباده حين أباح الأمرين، مع أن التأخر أرجح لموافقته فعل النبي ﷺ وزيادة العبادات؛ وقوله: ﴿لمن اتقى﴾ هذا من الاحتراز العالي، لأن نفي الحرج يوهم العموم، فقيل ذلك بهذا الشرط الذي هو شرط لنفي الحرج في كل شيء ﴿واتقوا الله﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فَمُجَازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد عنده جزاء المتقين، ومن لم يتقه عاقبه عقوبة تارك التقوى، فإن التقوى هي ميزان الثواب والعقاب في القائم بها والمضيع لها، فالعلم بالجزاء والإيمان به هو أعظم الدواعي للقيام بالتقوى.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ الآية ــ وما تلاها ــ

[سورة الحج: الآيات ٢٦ ــ ٢٩]

يذكر الله تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته، وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن فقال: ﴿وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي هيئناه له وأنزلناه إياه،

بحيث جعل قسماً من ذريته هم سكانه وأمره الله ببنيانه، فبناه وأسسه على تقوى الله ورضوانه هو وابنه اسماعيل بنية صادقة وخضوع لله وإخلاص ودعاء منهما أن يتقبل منهما هذا العمل الجليل، فتقبله الله.

فهذه آثار القبول لهذا البيت في كل وقت وجيل متواصلة، ووصاه بأن لا يشرك به شيئاً، بأن ينفي الشرك عنه وعن ذريته وعمن وصلت إليه دعوته ﴿وطهر بيتي﴾ أي من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس، وأضافه إلى نفسه ليكتسب شرفاً إلى شرفه، ولتعظم محبته في القلوب، لكونه بيت محبوبها الأعظم، وتنصب وتهوي إليه الأفئدة من كل جانب وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه للطائفين به؛ والقائمين عنده للعبادات المتنوعة ﴿والركع السجود﴾ أي المصلين، أي طهِّره لهؤلاء الفضلاء الذين ليس لهم همٌّ إلا طاعة مولاهم وما يقربهم إليه، فهؤلاء لهم الحق، ومن إكرامهم تطهير هذا البيت لهم وتهيئته لما يريدونه عنده، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية المرتفعة التي تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف والقراءة وغيرها، وقدم الطواف لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف لاختصاصه بجنس المساجد ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ أي أعلمهم به وادعهم إليه، وبلِّغ دانيهم وقاصيهم فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم عن أمر الله أتوك حجاجاً وعماراً ﴿رجالاً﴾ أي مشاة على أرجلهم من الشوق ﴿وعلى كل ضامر﴾ أي ناقة ضامر تقطع المهامه والمفاوز وتواصل السير حتى تأتي إلى أشرف الأماكن ﴿من كل فج عميق﴾ أي مكان وبلد بعيد، وقد فعل الخليل ﷺ ذلك، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا وأعادا فيه فحصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالاً وركباناً من مشارق الأرض ومغاربها.

ثم ذكر فوائد زيارة بيت الحرام مرغباً فيه فقال: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي لينالوا بوصولهم لبيت الله في الإنساك منافع متنوعة دينية، ومنافع دنيوية كالتكسب وحصول الأرباح، وهذا أمر مشاهد يعرفه كل أحد، فجميع العلوم والعبادات الدينية التي تفعل في تلك البقاع الفاضلة، وما جعل الله لها من التضعيف داخل في هذه المنافع، وجميع المنافع الدنيوية التي لا تعد ولا تحصى

داخلة في ذلك؛ فصدق الله وعده، وأنجز ما قاله، وكان ذلك آية وبرهاناً على توحيده وصدق رسله.

وقوله: ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وهذه تجمع الأمرين: الدينية والدنيوية؛ أي ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكراً لله على ما رزقهم منها ويسّرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ أي شديد الفقر، والآية الأخرى

﴿ وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ [سورة الحج: الآية ٣٦]

﴿القانع﴾ وهو الفقير الذي لا يسأل الناس ﴿والمعتر﴾ الفقير السائل. وفي هذا الأمر بالأكل والإهداء والصدقة فأن الأمر يشمل أكل أهلها منها وإهداءهم للأغنياء ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ أي يستكملوا بقية إنساكهم ويزيلوا عنهم محظورات الإحرام وما ترتب عليها من الشعث ونحوه ﴿وليوفوا نذورهم﴾ التي أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا فنفس عقد العبد للإحرام إيجاب منه على نفسه ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أي القديم أقدم المساجد على الإطلاق، المعتَق من تسلط الجبابرة عليه، وتخصيص الطواف به دون غيره من المناسك لفضله وشرفه، ولكونه المقصود وما قبله وما بعده وسائل وتوابع، ولأنه يتعبد به لله مع الأنساك ووحده وأما بقية الأنساك فلا تكون عبادة إلا إذا كانت تابعة لنسك.

فصل
في آيات تتعلق بالجهاد وتوابعه

قال الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ... ﴾ [سورة الحج: الآيتان ٣٩ و ٤٠].

كان المسلمون في أول الأمر مأمورين بكف الأيدي عن قتال الكفار، وإنما جهادهم بالدعوة لحكمة ظاهرة، فلما اضطهدوا واضطرهم الأعداء إلى ترك بلادهم وأوطانهم وقتلوا من قتلوا وحبسوا من حبسوا، وجدّوا في العداوة البليغة

بكل طريق، وهاجر المسلمون بسبب ذلك إلى المدينة وقواهم الله على قتال الأعداء، وقد رماهم الأعداء عن قوس واحدة، فحينئذ أذن الله لهم في القتال ولهذا قال: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ لمنعهم من دينهم وإخراجهم من ديارهم ومطاردتهم لهم في كل مكان ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وهذا مع أمره لهم بفعل الأسباب ومقاومة الأعداء بكل مستطاع أمر لهم بالتوكل عليه واستنصاره والطلب منه.

ثم ذكر صفة عدوانهم فقال: ﴿الذين أخرجوا من ديارهم﴾ بالأذية والفتنة بغير حق إلّا أن ذنبهم إيمانهم بالله واعترافهم بأنه ربهم وإلههم، وأنهم أخلصوا له الدين وتبرأوا من عبادة المخلوقين وهذا كما قال تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سورة البروج: الآية ٨]

وهذا ظاهر في حكمة الجهاد وعظم مصلحته، وأنه من الضروريات في الدين؛ فإن المقصود به إقامة دين الله والدعوة إلى عبادته التي خلق الله المكلفين لها، وأوجبها عليهم ودفع كل من قاوم الأمر الضروري ومقاومة الظالمين المعتدين على دين الله وعلى المؤمنين من عباده كما قال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾
[سورة الأنفال: الآية ٣٩]

ولهذا قال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ فلولا مدافعة الله الناس بعضهم ببعض بأسباب متعددة وطرق متنوعة قدرية وشرعية وأعظمها وأجلها وأزكاها الجهاد في سبيله لاستولى الكفار الظالمون ومحقوا أديان الرسل فقتلوا المؤمنين بهم وهدموا معابدهم؛ ولكن ألطاف الله عظيمة، وأياديه جسيمة، وبهذا وشبهه يعرف حكمة الجهاد الديني، وأنه من الضروريات لا كقتال الظلمة المبني على العداوات والجشع والظلم والاستعباد للخلق، بل الجهاد الإسلامي مرماه وغرضه الوحيد إقامة العدل وحصول الرحمة واستعباد الخلق لخالقهم، وأداء

الحقوق كلها ونصر المظلومين وقمع الظالمين، ونشر الصلاح والإصلاح المطلق بكل وجه واعتبار، وهو من أعظم محاسن دين الإسلام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

[سورة الأنفال: الآيات ٤٥ ـ ٤٧]

هذه الآيات تضمنت الأمر بجهاد الأعداء، والإرشاد إلى الأسباب التي ينبغي للجيوش والمجاهدين الأخذ بها؛ فمن أعظمها وأهمها أمران: الصبر، وهو الثبات التام وإبداء كل مجهود في تحصيل ذلك؛ والثاني، التوكل على الله والتضرع إليه والإكثار من ذكره؛ فمتى اجتمع الأمران على وجه الكمال والتكميل فقد أتى المجاهدون بالأسباب الوحيدة للنصر والفلاح فليبشروا بنصر الله وليثقوا بوعده.

فيدخل بالأمر بالصبر والثبات تمرين النفوس على ذلك، فإنه من يتصبر يصبره الله، وتعلم الرمي والركوب والفنون العسكرية المناسبة للزمان، فإن التعليم وتعلم أمور الجهاد من أكبر العون على الثبات والصبر؛ ومن ذلك الحث على الشجاعة والسعي في أسبابها والترغيب في فضائل الجهاد وما فيه من الثمرات العاجلة والآجلة، وما في تضييعه من ضياع الدين والدنيا واستيلاء الأعداء والذل والدمار، فإن النفوس الأبية والهمم العلية لا ترضى لأنفسها بغير هذا الخلق الفاضل الذي هو أعلى الأخلاق وأنفعها. قال تعالى:

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

فحثهم على الصبر بتألمهم وطمعهم في الأجر والثواب وإدراك المقامات العالية.

وقال أيضاً في ذم الناكلين وترغيب التائبين الصابرين

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: الآيتان ١٢٠ و ١٢١]

وقال عن المنافقين ونكولهم عن مشقة الجهاد:

﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾

[سورة التوبة: الآية ٨١]

أي لو كان عندهم فقه نافع في تنزيل الأشياء منازلها وتقديم ما ينبغي تقديمه لآثروا مشقة الجهاد على راحة القعود الضار عاجلاً وآجلاً.

وفي هذا أنه بحسب فقه العبد وعلمه ويقينه يكون قيامه بالجهاد وصبره عليه وثباته، ومن دواعي الصبر وهو من الفقه أيضاً أنه إذا علم المجاهد أنه على الحق ويجاهد أهل الباطل أن هذا أعلى الغايات وأشرفها وأحقها، وأن الحق منصور وعاقبته حميدة.

ومن دواعي الصبر الثقة بالله وبوعده فإن الله وعد الصابرين العون والنصر، وأنه معهم في كل أحوالهم ومن كان الله معه فلو اجتمع عليه من بأقطارها لم يخف إلا الله؛ ومما يعين على الصبر والثبات (الأمر الثاني) وهو التوكل على الله وقوة الاعتماد عليه والتضرع إليه في طلب النصر والإكثار من ذكره كما قال تعالى هنا حيث رتب على هذا الفلاح: ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾. وقال تعالى:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٩]

وقال تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ * فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ ﴾

[سورة آل عمران: الآيات ١٤٦ ــ ١٤٨]

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ .. ﴾ [سورة محمد: الآية ٦]

أي تقوموا بدينه وبالحق الذي جاء به رسوله مخلصين لله قاصدين أن تكون كلمة الله هي العليا ينصركم ويثبت أقدامكم. وقال تعالى:

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٠]

فإخباره بأنه المتفرد بنصرهم وأن غيره لا يملك من النصر شيئاً وأمرهم بالتوكل عليه أمر لهم بأقوى الأسباب النافعة في هذا المقام العظيم؛ وقال تعالى:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٣]

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

أي الذي قام بعبوديته فبحسب توكلهم عليه وقيامهم بعبوديته يحصل لهم النصر والكفاية التامة.

ومن أسباب النصر والصبر والثبات اتفاق القلوب وعدم التفرق والتنازع، فإن ذلك محلِّلٌ للقوة موجِب للفشل؛ وأما اجتماع الكلمة وقيام الألفة بين المؤمنين واتفاقهم على إقامة دينهم وعلى نصره فهذا أقوى القوى المعنوية التي هي

الأصل والقوة المادية تبع لها، والكمال: الجمع بين الأمرين كما أمر الله بذلك في هذه الآية، وفي قوله:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

ومن أسباب الثبات والنصر حسن النية وكمال الإخلاص في إعلاء كلمة الحق؛ فلهذا حذر تعالى من مشابهة الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، فهؤلاء لما لم يعتمدوا على ربهم وأعجبوا بأنفسهم وخرجوا أَشِرين بطرين، وكان قتالهم لنصر الباطل باءوا بالخيبة والفشل والخذلان، ولهذا أدّب خيار الخلق لما حصل من بعضهم الإعجاب بالكثرة في غزوة حنين حيث قال القائل: لن نغلب اليوم عن قلة. فقال:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٥]

فلما زال هذا الأمر عنهم وعرفوا ضعفهم وعاقبة الإعجاب

﴿أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾
[سورة التوبة: الآية ٢٦]

ومن الأسباب التي أرشد الله إليها في القتال: الثبات والصبر وحسن التدبير، والنظام الكامل في جميع الحركات العسكرية، قال تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٢١]

وكان ﷺ يرتب الجيش وينزلهم منازلهم، ويجعل في كل جنبة كفأها، ويسد الثغرات التي يخشى أن يتسرب منها العدو؛ يحفظ المكامن، ويبعث العيون لتعرّف أحوال العدو، ويستعين بمشاورة أصحابه كما أمر الله بذلك، خصوصاً في هذا الأمر المهم، وتعرّف أسرار العدو وبث العيون ووضع الجواسيس السريين

الذين لا يكاد يشعر بهم، كما أن من المهم التحرز من جواسيس العدو وعمل الأسباب لأخذ الحذر من ذلك بحسب ما يليق ويناسب الزمان والمكان.

ومن المهم أيضاً أن تفعل جميع الأسباب الممكنة في إخلاص الجيوش وقتالها عن الحق، وأن تكون غايتها كلها واحدة لا يزعزعها عن هذا الغرض السامي فقد رئيس، أو انحراف كبير أو تزعزع مركز قائد أو توقف في صمودها في طريقها النافع على أمور خارجية، فإنه متى كانت هذه الغاية العالية هي التي يسعى لها أهل الحل والعقد، ويعملون لها التعليمات القولية والفعلية، كانت الجيوش التي على هذا الوصف مضرب المثل في الكمال وسداد الأحوال وحصول المقاصد الجليلة؛ ولهذا أرشد الله المؤمنين يوم أُحُد إلى هذا النظام العجيب، فقال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤]

فنبههم على أنه وإن كان محمد هو الإمام الأعظم والرسول المعظم، فإنه لا ينبغي لكم أن يفت فقده في عزيمتكم وانحلال قوتكم، بل أنتم تقاتلون لله، وعلى الحق الذي بعث به رسوله، ولدفع الباطل والشرور، فاجعلوا هذه الغاية نصب أعينكم وأساس عملكم، وامضوا قُدُماً في سبيل الله غير هائبين ولا متأثرين إذا أتت الأمور على خلاف مرادكم، فإن الأمور هكذا تكون: تارة لك وتارة عليك، والكمال كل الكمال أن يكون العبد عبداً لله في الحالين، في السراء والضراء؛ في حال إتيان الأمور على ما يحب، أو ضد ذلك، وهذا الوصف هو كمال الفرد وكمال الجماعات؛ والله الموفق.

ومن الأمور المهمة جداً أن يكون الرئيس رحيماً برعيته، ناصحاً محبًّا للخير ساعياً فيه جهده، كثير المراودة والمشاورة لهم، خصوصاً لأهل الرأي والحجى منهم؛ وأن تكون الرعية مطيعة منقادة ليس عندهم منازعات ولا مشاغبات، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى

شَىۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

أي إذا حصل النزاع في أي أمر من الأمور، خصوصاً في الأمور المتعلقة في سياسة الحرب، ردت إلى هذا الأصل الذي يطمئن إليه المؤمنون، ويلجأ إليه كبارهم وصغارهم، لعلمهم أنه فرض على جميعهم، ولعلمهم أن حكم الله ورسوله هو الخير والصلاح، وأن الله يعلم من مصالحهم ما لا يعلمون، ويرشدهم إلى كل ما به ينتفعون.

ومن الأمور المهمة جداً سلوك طريق الحق والعدل في قسمة الغنائم، وأن لا تكون ظالمة مستبداً بها الأقوياء، محروماً منها الضعفاء، أو تكون فوضى، فإن هذين الأمرين مع ضررهما في الدين، وأن هذا لا يحل ولا يجوز، وهو من أعظم المحرمات، فإنهما يضرّان غاية الضرر في الجيوش في وقوع العداوات وحصول الجشع والطمع وكون وجهتها تكون متباينة، فبذلك ينحل النظام ويقع الفشل ويكون هذا الأمر أعظم سلاح للأعداء على المسلمين.

ومن الأمور المهمة جداً أيضاً، وهي عون كبير في الحروب، السعي بقدر الاستطاعة في إيقاع الانشقاق في صفوف الأعداء، وفعل كل سبب يحصل به تفريق شملهم وتفريق وحدتهم، ومهادنة من يمكن مهادنته منهم، وبذل الأموال للرؤساء إذا غلب على الظن أن ينكف شرهم عن المسلمين؛ فكم حصل بهذا الطريق من نكاية العدو ما لا يحصل بالجيوش الكثيرة، ولهذا قال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾
[سورة النساء: الآية ٩٠]

فذكر الله هذه المصلحة العظيمة في الكف عن أمثال هؤلاء الموصوفين.

وللموفقين من الرؤساء وقواد الجيوش في هذه الأمور مقامات معروفة صار لهم فيها اليد البيضاء على المسلمين.

فانظر إلى هذه التعاليم الإلٓهية التي هي النظام الكامل الوحيد في جميع

الأزمنة والأمكنة، واستدل بذلك على أن الإسلام الحقيقي هو الدين الحق الذي إليه ملجأ الخليقة وبه سعادتها وسلامتها من الشرور، وأن النقص والهبوط بتضييع تعاليم هذا الدين الذي أكمله الله وأتم به النعمة على المؤمنين.

فصـــل
في البيوع وأنواع المعاملات

قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٣٠]

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٩]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾

ـ إلى قوله ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

اشتملت هذه الآيات الكريمات على أحكام جمة وفوائد مهمة، منها أن الأصل في البيوع والمعاملات والتجارات كلها الحِل والإطلاق، كما هو صريح هذه الآيات، لا فرق بين تجارة الإدارة التي يديرها التجار بينهم، هذا يأخذ العوض، وهذا يعطي المعوض، ولا بين التجارة في الديون الحالّ ثمنها المؤجل مثمنها كالسلم، وبيع السلع بأثمان مؤجلة لعموم قوله: ﴿إذا تداينتم بدين﴾ ولا بين تجارة التربص والانتظار، بأن يشتري السلع في أوقات رخصها وينتظر بها الفرص من مواسم وغيرها، ولا بين التجارة بالتصدير والتوريد من محل إلى آخر، ولا بين التجارة والتكسب أفراداً ومشتركين، فكل هذه الأنواع وما يتبعها قد أباحها الشارع وأطلقها لعباده رحمة بهم وقياماً لمصالحهم ودفعاً للأضرار عنهم، وكلها جائزة بما يقترن بها ويتبعها من شروط ووثائق ونحوها إذا سلمت من المحاذير الشرعية التي نبّه الله عليها ورسوله، يدخل في هذا العموم جميع

أجناس المبيعات وأنواعها وأفرادها من عقارات وحيوانات وأمتعة وأطعمة وأوانٍ وأشربة وأكسية وفرش وغيرها؛ وكلها لا بد أن تقترن بهذا الشرط الذي ذكره الله، وهو التراضي بين المتعاوضين؛ الرضا الصادر عن معرفة، وأما السفيه والمجنون ومن لا يعتبر كلامه، فوليه يقوم مقامه في معاملاته.

وأعظم المحاذير المانعة من صحة المعاملات: الربا والغرر والظلم.

فالربا الذي حرمه الله ورسوله يدخل فيه ربا الفضل، وهو بيع المكيل بالمكيل من جنسه متفاضلاً، وبيع الموزون بالموزون من جنسه متفاضلاً؛ ويشترط في هذا النوع في حِله ما شرط الشارع، وهو التماثل بين المبيعين بمعياره الشرعي، مكيلاً كان أو موزوناً، والقبض للعوضين قبل التفرق. وربا النسيئة: وهو بيع المكيل بالمكيل إلى أجل، أو غير مقبوض ـ ولو من غير جنسه ـ وبيع الموزون بالموزون إلى أجل أو بلا قبض، ويستثنى من هذا السلم.

وأشد أنواع هذا النوع قلب الديون في الذمم، وهو الذي ذكره بقوله:

﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾[سورة آل عمران: الآية ١٣٠]

وذلك إذا حل ما في ذمة المدين، قال له الغريم: «إما أن تقضيني ديني، وإما أن تزيد في ذمتك»، فيتضاعف ما في ذمة المعسر أضعافاً مضاعفة بلا نفع ولا انتفاع، وذلك أن المعسر قد أوجب الله على غريمه إنظاره كما قال تعالى:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٠]

وسواء كان قلب الدين المذكور صريحاً أو يتحيل عليه بحيلة ليست مقصودة، وإنما يراد بها التوصل إلى مضاعفة ما في ذمة الغريم، فهذا الذي قد توعده الله بهذا الوعيد الشديد، وأن الذين يأكلون الربا لا يقومون من قبورهم إلى بعثهم ونشورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، أي من الجنون فيقومون مرعوبين منزعجين قد اختلّت حركاتهم لما يعلمون ما أمامهم من القلاقل والأهوال المزعجة والعقوبات لأكلة الربا، وقد آذنهم الله بمحاربته

ومحاربة رسوله إذا لم يتوبوا: ومن كان محارباً لله ورسوله فإنه مخذول وإن عواقبه وخيمة، وإن استدرج في وقت فآخر أمره المحق والبوار، قال تعالى:

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٦]

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾

[سورة الروم: الآية ٣٩]

فالمرابي يأخذه الأمن والغرور الحاضر ولا يدري ما خبىء له في مستقبل أمره، وأن الله سيجمع له بين عقوبات الدنيا والآخرة، إلا إن تاب وأناب، فإذا تاب فله ما سلف وأما العقود الحاضرة فالزيادة لا تحل، وعليه أن ينزل على رأس ماله، كما قال تعالى:

﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٧٩]

بأخذ الزيادة، ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ بأخذ بعض رؤوس أموالكم.

ومن أنواع الربا القرض الذي يجر نفعاً؛ فإن القرض من الإحسان والمرافق بين العباد، فإذا دخلته المعاوضة وشرط المقرض على المقترض رد خير منه بالصفة أو المقدار، أو شرط نفعاً أو محاباة في معاوضة أخرى، فهو من الربا لأنه في الحقيقة دراهم بدراهم مؤخّرة، والربح ذلك النفع المشروط، فالله تعالى وعظ المؤمنين عن تعاطي الربا كله والمعاملة به، وأن يكتفوا بالمكاسب الطيبة التي فيها البركة وصلاح الدين والدنيا، وفيها تزكو الأخلاق ويحصل الاعتبار وحسن المعاملة والصدق والعدل وأداء الحقوق والسلامة من جميع التبعات.

ومن المحاذير في المعاملات محذور الميسر والغرر، فإن الله حرّم في كتابه الميسر وقرنه بالخمر وذكر مضارَّ ذلك ومفاسده؛ والميسر يدخل في المعاملات كما يدخل في المغالبات، فكما أن المراهنات والمقامرات وتوابعها من الميسر، فالبيوع التي فيها غرر ومخاطرات وجهالات داخلة في الميسر، ولهذا قال ﷺ كلمة جامعة نهى عن بيع الغرر، فيدخل في ذلك بيع الحمل في البطن، وبيع الآبق

والشارد والشيء الذي لم يُرَ ولم يوصف؛ ودخل فيه بيع الملامسة والمنابذة وجميع العقود التي فيها جهالة بيِّنة، وذلك لأن أحد المتعاملين إما أن يغنم، وإما أن يغرم، وهذا مخالف لمقاصد المعاوضات التي يقصد أن يكون العوض في مقابلة المعوض على وجه يستوي فيه علم المتعاوضين، فإذا جهل الثمن أو المثمن، أو كان الأجل في الديون غير مسمى ولا معلوم دخل هذا في بيع الغرر والميسر الذي زجر الله عنه.

ومن المحاذير المنهي عنها في المعاملات، الظلم والغش والتدليس وبخس المكاييل والموازين وبخس الحقوق أخذاً وإعطاءًا، بأن يأخذ أكثر مما له، أو يعطي أقل مما عليه، فهذا من أعظم المحرّمات، وقد توعد الله عليه بالعقوبات في الدنيا والآخرة، وأهلك أمة عظيمة بسبب هذه المعاملة الخبيثة، وهذه المعاملات المحرمة تدخل في قوله: ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ كما يدخل فيه الغصب والسرقة ونحوهما.

وفي آية الدَّيْن من الفوائد سوى ما تقدم، الأمر بكتابة المعاملات والإشهاد عليها، وأن يكون الكاتب عدلاً عارفاً بالكتابة وبما ينبغي أن يكتب؛ وهذا الأمر للندب والاستحباب عند جمهور العلماء، إلاّ إذا وجب حفظ المال وكان على دين مؤجل أو غير مقبوض، فإنه لا يتم حفظه إلا بذلك، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وفيها أن الكاتب لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق إن كان رشيداً ووليُّه أن كان عاجزاً ضعيفاً؛ كالمجنون والصغير والسفيه، وأن على صاحب الحق أن يقر بالحق كله من غير بخس، أي نقص لعدده أو صفته.

وتدل الآية أن الإقرار من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق في الذمم، كما يثبت فيها براءة الذمم المشتغلة بالحقوق إذا أقرّ من له الحق بالإقباض أو الإبراء المعتبر، وأنه لا يعذر من أقر لو ادعى الغلط أو الكذب ونحوه.

وفيها الإرشاد إلى حفظ الحقوق بالإشهاد والكتابة والرهن إذا احتيج إليه في سفر أو غيره، وأن نصاب الشهادة في المعاملات كلها من عقود وفسوخ

وثبوت وشروط وإبراء ونحوها رجلان مرضيان إن أمكن، وإلا فرجل واحد وامرأتان، وثبت في السنة قبول شهادة الواحد مع يمين صاحب الحق.

وفيها أن شهادة الفسّاق والمجهولين غير مقبولة، وأن الاعتبار بمن يرضاه الناس ويعتبرونه.

وفيها أن شهادة المرأتين تقوم مقام شهادة الرجل لكمال حفظ الرجل وقوة ذاكرته، كما نبّه عليه بقوله:

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

وفيها دلالة أن من نسي شهادة فتذكرها، أو ذكرها فذكرها أن شهادته صحيحة.

وفيها أنه لا يحل أن يشهد إلا بما علمه وتيقّنه، فإن شك فيه لم يحل له أن يشهد.

وفيها بيان الحكمة العظيمة في هذه الإرشادات من الرب في حفظ المعاملات، وأن ذلك صلاح للعباد في معاملاتهم؛ وأن تكون جارية على القسط، وأنها تقطع الخصومات والمنازعات وتبرىء الذمم وتمنع الظالم من ظلمه، فلهذا قال:

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

فكم حصل بهذه الوثائق التي أرشد الله إليها من مصالح عظيمة، وكم اندفع بها من مفاسد وشرور كثيرة، فسبحان من جعل شرعه صلاحاً لدين العباد ودنياهم.

وفيها أن التجارة الحاضرة لا بأس بترك كتابتها لكون التقابض يغني غالباً عن ذلك، ولمشقة كثرة ذلك، وأما الشهادة فلا ينبغي تركها خصوصاً في الأمور المهمة، وقوله:

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

يحتمل أنه مبني للفاعل أو للمفعول، والمعنى يشمل الأمرين؛ فالكاتب والشهيد يجب عليه أن يعدل في كتابته وشهادته؛ ولا يحل له أن يميل مع أحدهما لغرض من أغراضه، ولا يضارهما بأخذ أجرة لا تحل له على شهادته، أو يماطل في شهادته وكتابته مماطلة تضرهما أو أحدهما، وكذلك المعاملان لا يحل أن يضارّا الكاتب والشهيد بأن يكلفاه ما لا يطيقه، أو يتضرر به، لأن الشاهد والكاتب محسنان، حقهما أن يشكرا على ذلك، فمضارتهما تنافي ذلك.

وفيها أن تعلُّم الكتابة من الأمور المحبوبة لله، وأنه نعمة من الله على من علمه الله الكتابة فمن شكر هذه النعمة ــ أن لا يأبى كاتب أن يكتب كما علمه الله.

ويستفاد من المعنى المقصود أن الله شرع هذه الأمور حفظاً للحقوق أنه ينبغي تعلم كتابة الوثائق والاصطلاحات الجارية بين الناس في المعاملات، حتى يكون الكاتب بهذه الصفة التي يحرر فيها المعاملات فينتفع الناس بحفظ حقوقهم، فلا يكفي مجرد الكتابة من غير معرفة بهذه الأمور، كما أنه لا بد أن يكون الكاتب معتبرًا ثقة ليحصل الاعتماد على كتابته والطمأنينة إليها.

ويستفاد من هذا أن الخط المعروف صاحبه وثقته أنه معتبر معمول به ليتم المقصود من الكتابة في حياة الكاتب وبعد موته.

وفيها وجوب أداء الشهادة وتعينها على من تحملها، وأن كتمان الشهادة من كبائر الذنوب وكما أن شهادة الزور بأن يشهد بثبوت ما ليس بثابت، أو بالبراءة من الحق الثابت وهو كاذب من أكبر الكبائر، فكذلك السكوت عن أداء الشهادة، وكلا الأمرين ظلم لصاحب الحق بتفويت حقه، وظلم أيضاً للنفس بوقوع الإثم، وظلم للظالم لإعانته على الإثم والعدوان.

وفيها مشروعية الوثائق بالحقوق، وهي أربعة: الشهادة والرهن ــ كما هو مذكور في هذا الموضع ــ والضمان والكفالة، يؤخذ من الاعتبار على هذا المعنى، ومن قوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٢]

أي كفيل وضامن، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، وتقييد الرهن بالسفر لا يدل على أنه لا يكون رهن في الحضر، بل قيد لأجل الحاجة إليه لعدم الكاتب غالباً.

وفيها ثبوت الولاية على القاصرين ـ لجنون أو صغر أو سفه ـ لقوله:

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

فأقامه في التصرفات في ماله مقام المالك الرشيد وعليه أن يفعل في أموالهم ما هو الأصلح، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٢]

ولا يدفع إليهم حتى يرشدوا، ويعرف ذلك بالاختبار والتجربة كما قال تعالى:

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٥]

وفيها في قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ من الفوائد التنبيه على أن كل من فعل إحساناً ومعروفاً أن عليه أن يتممه ويكمله بالتسهيل والتيسير وعدم المضارة، وأن للمحسنين على الناس أن يشكروا لهم معروفهم وأن لا يكلفوهم الضرر والمشقة جزاءاً لهم على إحسانهم وترغيباً في الإحسان.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٨٢]
أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، كما أن العلم سبب للتقوى، وأوضح من هذا قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾
[سورة الأنفال: الآية ٢٩]

أي علماً تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الحقائق المحتاج إليها.

وفيها أنه كما أنه من العلوم النافعة تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات والمعاملات، فمنه أيضاً تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

وفيها أنه يجوز التعامل بغير وثيقة، بل بمجرد الاستئمان لقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٣]

ولكن في هذه الحال تتوقف الثقة على التقوى والخوف من الله وإلّا فصاحب الحق مخاطر، فلهذا وعظ الله من عليه الحق أن يؤدي أمانته، ويؤخذ من هذا أن من عاملك ورضي بأمانتك ووثق فيك أنه قد فعل معك معروفًا ورآك موضع الثقة والأمانة؛ فيتأكد عليك أداء الأمانة من الجهتين، أداء لحق الله ووفاء بحق من وثق فيك ومكافأة له.

فصـــل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾
[سورة القصص: الآية ٢٦]

وقال يوسف:

﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٥]

يؤخذ من هاتين الآيتين أنه ينبغي أن يتخير في الإجارات والجعالات والأمانات والولايات كلها ـ كبيرة كانت أو صغيرة ـ مَنْ جَمَعَ الوصفين: القوة على ذلك العمل، والكفاءة والحفظ وتوابع ذلك من جميع ما تقوم به الأعمال. والأمر الثاني الأمانة، فبالأمانة تتم به الثقة ويعلم نصحه وبذله الواجب، وبالكفاءة والقوة يحصل العمل ويتم ويتقن، فإن وجد الجامع للوصفين على وجه الكمال فليستمسك بغرزه وإلا اكتفى بالأمثل فالأمثل، ونقص الأعمال كلها من الإخلال بالوصفين أو أحدهما.

فصــــل
في آيـــات المواريث

قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ـ إلى قوله ـ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ [سورة النساء الآيات ١١ ـ ١٣]

والتي في آخر السورة:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾ إلى آخرها

[سورة النساء: الآية ١٧٦]

تضمنت هذه الآيات الكريمة أحكام المواريث في غاية البيان والتفصيل والإيضاح وفي غاية الحكمة، فتوصيته للعباد بأولادهم من كمال رحمته وعنايته، وأنه أرحم بهم من والديهم، ولذلك وصى الوالدين بالأولاد؛ فالأولاد عند والديهم وصايا من الله وأمانات عندهم؛ على الوالدين أن يربّوهم تربية نافعة لدينهم ودنياهم، فإن فعلوا فقد قاموا بهذه الأمانة؛ وإلاّ فقد ضيّعوها وباءوا بإثمها وخسرانها، فذكر الله ميراث الأولاد، وأن لهم ثلاث حالات: إما أن يجتمع الذكور والإناث فحينئذ يتقاسمون المال أو ما أبقت الفروض على عدد رؤوسهم ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ سواء كانوا أولاد صلب أو أولاد ابن ويؤخذ من هذا:

الحالة الثانية: أن يكون الأولاد ذكوراً فقط، فإنهم يتقاسمونه متساوين، ومن ارتفعت درجته حجب من دونه من الأولاد إذا كان الرفيع من الذكور.

الحالة الثالثة: إذا كن إناثاً، فإن كانت واحدة فلها النصف، سواء كانت بنت صلب أو بنت ابن، وإن كانتا اثنتين فأكثر فلهما الثلثان، ومن الحكمة في الإتيان بقوله: ﴿فوق اثنتين﴾ التنبيه على أنه لا يزيد الفرض وهو الثلثان بزيادتهن على الثنتين، كما زاد فرض النصف لما صرن أكثر من واحدة؛ وقد نصّ الله على أن الأختين فرضهما الثلثان، فالبنتان من باب أولى وأحرى. فإن كان

البنتان بنات صلب لم يبق لبنات الابن شيء، وصار البقية بعد فرض البنات للعاصب، وإن كانت العالية واحدة أخذت النصف، وباقي الثلثين وهو السدس لبنت أو بنات الابن.

هذا ميراث الأولاد قد استوعبته الآية استيعاباً، وقد علمنا من ذلك أن لفظ الولد يشمل الذكر والأنثى من أولاد الصلب وأولاد الابن وإن نزل، وأما أولاد البنات فلا يدخلون في إطلاق اسم الأولاد في المواريث.

ثم ذكر الله ميراث الأبوين: الأم والأب. فجعل الله للأم سدساً وثلثاً، جعل لها السدس مع وجود أحد من الأولاد مطلقاً، منفردين أو متعددين، أولاد صلب أو أولاد ابن، وكذلك جعل لها السدس بوجود جمع من الإخوة والأخوات اثنين فأكثر، وجعل لها الثلث إذا فقد الشرطان المذكوران.

وأما ثلث الباقي في زوج أو زوجة وأبوين فقيل إنه يؤخذ من قوله: ﴿وورثه أبواه﴾ فإذا كان معهما أحد الزوجين خرجت عن هذا فلم يكن لها ثلث كامل، أو يقال إن الله أضاف الميراث للأبوين ـ وهو الأب والأم ـ فيكون لها ثلث ما ورثه الأبوان، ويكون ما يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغريم. فالله أعلم.

وأما الأب فقد فرض الله له السدس مع وجود أحد من الأولاد، فإن كان الأولاد ذكوراً لم يزد الأب على السدس وصار الأبناء أحق بالتقديم من الأب بالتعصيب بالإجماع.

وإن كان الأولاد إناثاً واحدة أو متعددات، فرض له السدس ولهن أو لها الفرض، فإن بقي شيء فهو لأولى رجل، وهو الأب هنا؛ لأنه أقرب من الإخوة وبنيهم ومن الأعمام وبينهم، فجمع له في هذه الحال بين الفرض والتعصيب، وإن استغرقت الفروض التركة، لم يبق للأب زيادة عن السدس، كما لو خلف أبوين وابنتين؛ فلكل واحد من الأبوين السدس، وللبنتين الثلثان.

ومفهوم الآية الكريمة أنه إذا لم يكن أولاد ذكور ولا إناث، أن الأب يرث بغير تقدير، بل بالعصب، بأن يأخذ المال كله إذا انفرد، أو ما أبقت الفروض

إن كان معه أصحاب فروض، وهو إجماع، وحكم الجد حكم الأب في هذه الأحكام إلا في العمريتين؛ فإن الأم ترث ثلثاً كاملاً مع الجد؛ وأما ميراث الجدة السدس عند عدم الأم فهو في السنة.

ثم ذكر الله ميراث الزوجين، وأن الزوج له نصف ما تركت زوجته إن لم يكن لها ولد، فإن كان لها ولد فله الربع، وأن الزوجة واحدة أو متعددات لها الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له ولد، فإن كان للزوج ولد منها أو من غيرها ذكر أو أنثى، ولد صلب أو ولد ابن، فلها أو لهن الثمن...

ثم ذكر الله ميراث الإخوة من الأم، وأنهم لا يرثون إلا إذا كانت الورثة كلالة ليس فيهم أحد من الفروع ولا الأب والجد، فللواحد من الإخوة من الأم أو الأخوات السدس، وللاثنين فأكثر الثلث، يستوي فيه ذَكَرُهم وأنثاهم، وهذه الفروض كلها ذكر الله أنها من بعد الوصية إذا حصل الإيصاء بها، ومن بعد الدين. وقد قضى النبي ﷺ: أن الدين قبل الوصية. وقد اتفق العلماء على ذلك، وشرط الله في الوصية أن لا تكون على وجه المضارّة بالورثة، فإن كانت كذلك فإنها وصية إثم وجنف يجب تعديلها وردّ الظلم الواقع فيها.

وأخبر تعالى أن هذه التقديرات والفرائض حدود الله قدرها وحددها، فلا يحل مجاوزتها ولا الزيادة فيها والنقصان، بأن يعطى وارث فوق حقه، أو يحرم وارث أو ينقص عن حقه.

ثم ذكر في آخر السورة ميراث الإخوة لغير أم وأخواتهم بأن الأُنثى الواحدة لها النصف، وللثنتين فأكثر الثلثان، وإن اجتمع رجال ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين، ويقال فيهم كما يقال في الأولاد إذا كانوا ذكوراً تساووا إذا كانوا أشقاء أو لأب، فإن وجد هؤلاء وهؤلاء حجب الأشقاء الإخوة للأب، وإن كن نساء شقيقات وأخوات لأب واستغرق الشقيقات الثلثين لم يبق للأخوات للأب شيء؛ فإن كانت الشقيقة واحدة أخذت نصفها وأعطيت الأخت للأب أو الأخوات السدس تكملة الثلثين.

وما سوى هذه الفروض فإن الورثة من إخوة لغير أم وبنيهم وأعمام

وبنيهم وولاء يدخلون في قوله ﷺ في حديث ابن عباس الصحيح: ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر. رواه مسلم، فيقدم الإخوة ثم بنوهم ثم الأعمام ثم بنوهم ثم الولاء؛ ويقدم منهم الأقرب منزلة، فإن استوت منزلتهم قدم الأقوى وهو الشقيق على الذي لأب. والله أعلم.

فصـــول
تتعلق بالنكاح وتوابعه من الأحكام

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾
[سورة النساء: الآيتان ٣ و ٤]

لما منّ الباري على عباده بالنكاح قدراً وأباحه شرعاً، بل أحبه ورضيه وحث عليه، لما يترتب عليه من المصالح الكثيرة، رتّب عليه أحكاماً كثيرة وحقوقاً متنوعة تدور كلها على الصلاح وإصلاح أحوال الزوجين ودفع الضرر والفساد، وهي من محاسن الشريعة، والشريعة كلها محاسن وجلب للمصالح ودرء للمفاسد، يقول تعالى هنا: ﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا﴾ أي تقوموا بحق النساء اليتامى اللاتي تحت حجوركم وولايتكم لعدم محبتكم إياهن فاعدلوا إلى غيرهن ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ أي ينبغي أن تختاروا منهن الطيبات في أنفسهن اللاتي تطيب لكم الحياة بالاتصال بهن، الجامعات للدين والحسب والعقل والآداب الحسنة وغير ذلك من الأوصاف الداعية لنكاحهن.

وفي هذه الآية الحث على الاختيار قبل الخطبة، وأنه ينبغي أن لا يتزوج إلا الجامعة للصفات المقصودة بالنكاح، فإن النكاح يقصد لأمور كثيرة من أهمها كفاءة البيت والعائلة وحسن التدبير وحسن التربية؛ وأهم صفة هذا النوع الدين والعقل.

ويقصد به إحصان الفرج والسرور في الحياة، وعمدة هذا حسن الأخلاق الظاهرة وحسن الخلائق الباطنة.

ويقصد به نجابة الأولاد وشرفهم؛ وأساسه الحسب والنسب الرفيع، ولهذا أباح الشارع بل أمر بالنظر لمن يخطبها ليكون على بصيرة من أمره ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي من أحب أن يتزوج اثنتين فليفعل، أو ثلاثاً أو أربعاً فليفعل، ولا يزيد على الأربع، لأن الآية سيقت للامتنان فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله، إجماعاً، وذلك أن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة أو لا يحصل مقصوده أو مقاصده بها، كما تقدم أن النكاح له عدة مقاصد، فلهذا أباح الله له هذا العدد، لأن في الأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر؛ ومع هذا فإذا خاف من نفسه الجور والظلم بالزيادة على الواحدة فليقتصر على الواحدة أو على ملك يمينه التي لا يجب عليه لها قسم كالزوجات ﴿ذلك﴾ أي الاقتصار على واحدة من الزوجات، أو ما ملكت اليمين، أدنى أن لا تعولوا أي تظلموا وتجوروا.

ويستفاد من هذا المعنى أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم وعدم القيام بالواجب، ولو كان مباحاً لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد، ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن، وخصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً دفعة واحدة يشق عليهم، حثهم على إيتاء النساء صدقاتهن، أي مهورهن ﴿نحلة﴾ أي عن حال طمأنينة وطيب نفس، من غير مطل ولا بخس منه شيئاً.

وفيه أن المهر للمرأة، وأنه يدفع إليها أو إلى وكيلها إن كانت رشيدة؛ أو إلى وليها إن لم تكن رشيدة، وأنها تملكه بالعقد لأنه أضافه إليها وأمر بإعطائه لها، وذلك يقتضي الملك ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه﴾ أي من الصداق ﴿نفساً﴾ بإسقاط شيء منه أو تأخيره أو المحاباة في التعوض عنه (فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ لا تبعة عليكم فيه ولا حرج؛ وهذا دليل على أن للمرأة الرشيدة التصرف في مالها، ولو بالتبرع، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء إلا ما طابت نفسها به إذا كانت رشيدة، ويؤخذ من الأمر بنكاح ما طاب من النساء تحريم نكاح الخبيثة التي لا يحل للمسلم نكاحها، وهي الكافرة غير الكتابية، وكذلك الزانية حتى تتوب كما نص الله على الثنتين.

وفي هذه الآية دليلٌ على أنه لا بد في النكاح من صداق، وأنه يجوز في الكثير واليسير للعموم، وأنه لا يباح لأحد أن يتزوج بدون صداق، وإن لم يسم فمهر المثل، إلا النبي ﷺ فإن له ذلك خاصة، كما قال تعالى:

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٠]

وفي قوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٢]

دليل على اعتبار الولي في النكاح، وهو العاصب ويقدم منهم الأقرب فالأقرب، فإن تعذر الولي القريب والبعيد لعدم أو جهل أو غيبة طويلة، قام الحاكم مقام الولي، فالسلطان والحاكم ولي من لا ولي لها من النساء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا - إلى قوله - مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [سورة النساء: الآيات ١٩ - ٢١]

كان أهل الجاهلية إذا مات أحدهم وُرثت زوجته عنه كما يورث ماله، فرأى قريبه كأخيه وابن عمه أنه أحق بها من نفسها ويحجرها عن غيره، فإن رضي بها تزوّجها على غير صداق أو على صداق يحبّه هو دونها، وإن لم يرض بزواجها عضلها ومنعها من الأزواج إلا بعوَض من الزوج أو منها. وكان منهم أيضاً من يعضل زوجته التي هي في حباله فيمنعها من حقوقها، ومن التوسعة لها لتفتدي منه، فنهى الله المؤمنين عن هذه الأحوال القبيحة الجائرة ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبيِّنة﴾ كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها ومن يتصل به، فيجوز في هذه الحال أن يعضلها مقابلة لها على فعلها لتفتدي منه؛ فإن هذا الافتداء بحق لا بظلم ثم قال: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته ببذل النفقة والكسوة والمسكن اللائق بحاله ويصاحبها صحبة جميلة بكف الأذى وبذل الإحسان وحسن المعاملة

والخلق، وأن لا يمطلها بحقها، وهي كذلك عليها ما عليه من العشرة، وكل ذلك يتبع العرف في كل زمان ومكان وحال ما يليق به، قال تعالى:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

وقوله: ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ أي ينبغي لكم يا معشر الأزواج أن تمسكوا زوجاتكم ولو كرهتموهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً:

منها امتثال أمر الله ورسوله الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه ومجاهدته إياها مع عدم محبة زوجته تمرين على التخلق بالأخلاق الجميلة؛ وربما زالت الكراهة وخلفتها المحبة، وربما زالت الأسباب التي كرهها لأجلها وربما رزق منها ولداً صالحاً نفع الله به والديه في الدنيا والآخرة؛ ولا بد لهذه الكراهة من أسباب من الزوجة، فينبغي إذا كره منها خلقاً لحظ بقية أخلاقها، وما فيها من المقاصد الأخر، ويجعل هذا في مقابلة هذا، وهذا عنوان الإنصاف والرأي الأصيل، فإن النزق الطائش الذي ليس عنده إنصاف يلاحظ بعض أغراضه النفسية، فإذا لم يأت على ما يريد أهدر المحاسن والمناقب الأخر، وهذا لا يكاد يصفو له خل في حياته؛ لا زوجة ولا صاحب ولا حبيب، بل هو سريع التقلب.

أما الرجل الحازم الوفي الزكي، فإنه يوازن بين الأمور، ويقدم الحق السابق، ويفي بالسوابق، ويكون نظره للمحاسن أرجح من نظره للمساوىء.

فإن وصل إلى الدرجة العالية التي لا يصل إليها إلاّ أفرادٌ من كُمَّل الرجال جعل المحاسن نصب عينيه وأغضى عن المساوىء بالكلية، وعفا عنها لله ولحق صاحب الحق، فهذا قد كسب الأجر والراحة والخلق الذي لا يلحق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا الصبر المأمور به إنما هو مع الإمكان، فإن كان لا بد من الفراق، ولم يبق للصبر والإمساك موضع، فالله قد أباح الفراق،

فلهذا قال: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ أي فلا حرج عليكم، ولكن إذا آتيتم إحداهن أي الزوجة السابقة أو اللاحقة ﴿قنطاراً﴾ وهو المال الكثير ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾، بل وفروه لهن ولا تمطلوهن؛ وهذا يدل على جواز إعطاء النساء من المهور وغيرها المال الكثير، وأنها بذلك تملكه، ولكن الأكمل والأفضل التساهل في المهور اقتداء بالنبي ﷺ وتسهيلاً للنكاح ولطرقه وبراءة للذمم.

ثم ذكر الحكمة في تحريم أخذ الزوج ما أعطاه لزوجته، فقال: ﴿أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ وبيان ذلك أن الأنثى قبل عقد النكاح محرمة على الزوج، وهي لم ترض بهذا الحل إلا بالعقد والميثاق الغليظ الذي عقد على ذلك العوض المشروط، فإذا دخل عليها وباشرها وأفضى إليها وأفضت إليه وباشرها المباشرة التي كانت قبل هذه الأمور حراماً فقد استوفى المعوض فثبت عليه العوض تاماً، فكيف يستوفي المعوض ثم يرجع على العوض؟ لا ريب أن هذا من المنكرات القبيحة شرعاً وعقلاً وفطرة.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

[سورة النساء: الآية ٢٢]

ثم عدد المحرمات إلى أن قال:

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٤]

قد استوفى الباري المحرمات في النكاح في هذه الآيات في النسب والرضاع والمصاهرة. أما المحرمات بالمصاهرة؛ فإذا تزوج الرجل امرأة ترتب على هذا الزواج أربعة أحكام: تحريم هذه الزوجة على أولاده وإن نزلوا نسباً ورضاعاً وتحريمها على آبائه وإن عَلَوْا نسباً ورضاعاً وحرمت عليه أمها في الحال؛ وأما بنتها فإن كان قد دخل بزوجته حرمت أيضاً وصارت ربيبة لا فرق بين بنتها من زوج سابق له أو من زوج خلفه عليها.

وأما المحرمات بالنسب فتحرم الأمهات، وهنّ كل أنثى لها عليك ولادة، وهي التي تخاطبها بالأم والجدة وإن علَتْ من كل جهة وتحرم البنات، وهن كل أنثى تخاطبك بالأبوة أو بالجدودة من بنات الابن وبنات البنات وإن نزلن، وتحرم الأخوات شقيقاتٍ كن أو لأب أو لأم، وبنات الإخوة وبنات الأخوات مطلقاً، وتحرم العمات والخالات، وهنّ كل أخت لأحد آبائك وإن علا أو أحد أمهاتك وإن عَلَون. وما سوى ذلك من الأقارب حلال، كبنات الأعمام وبنات العمات وبنات الأخوال وبنات الخالات، ولهذا ذكر الله هذا الحل والتحريم المهم في موضعين؛ في هذا الموضع صرح بالمحرمات السبع وقال: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ وفي سورة الأحزاب أتى بها بأسلوب آخر فقال في الحل:

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٠]

أي فهن حلال ومن عداهن من الأقارب حرام.

وأما المحرّمات بالرضاع فإنهن نظير المحرّمات بالنسب من جهة المرضعة وصاحب اللبن، فالمرضعة أم للرضيع، وأمهاتها جداته، وإخوتها وأخواتها أخواله وخالاته، وأولادها إخوته وأخواته، وهو عم لأولادهم أو خال، وكذلك صاحب اللبن.

وأما الانتشار من جهة الطفل الراضع فلا ينتشر التحريم لأحد من أقاربه إلاَّ لذريته فقط، وتقييد الآية في الربيبة بقوله: ﴿اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾ بيان لأغلب أحوالها، ولبيان أعلى حكمة تناسب حكمة التحريم، وأنها إذا كانت في حجرك بمنزلة بناتك لا يليق إلا أن تكون من محارمك.

وتقييدها الآخر بقوله: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ يخرج ابن التبني لا يخرج ابن الرضاع في قول جمهور العلماء ﴿والمحصنات من النساء﴾ أي ذوات الأزواج، فكل أنثى في عصمة زوج أو في بقية عدته لا تحل لغيره، لأن الأبضاع ليست محل اشتراك، بل قصد تمييزها التام، ولهذا شرعت العدة والاستبراء ونحو ذلك.

وقوله: ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ المراد بهذا الملك ملك السبي إذا سبيت المرأة ذات الزوج من الكفار في القتال الشرعي حلت للمسلمين، ولكن بعد الاستبراء أو العدة؛ فزوجها الحربي الذي في دار الحرب لم يبق له فيها حق ولا له حرمة، فلهذا حلت للمسلمين كما حل لهم ماله ودمه، لأنه ليس له عهد ولا مهادنة.

وقوله: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ أي ما سوى ما نص الله على تحريمه سبع بالنسب وسبع بالرضاع وأربع بالصهر، فما عداهن فإنه حلال، إلا أنه حرم تعالى الجمع بين الأختين، وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، وحرم على الأحرار نكاح المملوكات لما فيه من إرقاق الولد، ولما فيه من الدناءة والضرر العائد للأولاد لتنازع الملاك وتنقلات الأرقاء، لكن إذا رجحت مصلحة الإباحة فقد أباحه الله بشرط المشقة لحاجة متعة أو خدمة، وأن لا يقدر على الطول للحرة، وأن تكون الأمة مؤمنة بإذن أهلها، فعند اجتماع هذه الشروط كلها يحل للحر نكاح الإماء.

وقوله: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ [سورة النساء: الآية ٣٤]

هذا خبر وأمر، أي الرجال قوامون على النساء في أمور الدين والدنيا، يلزمونهن بحقوق الله والمحافظة على فرائضه، ويكفونهن عن جميع المعاصي والمفاسد، وبتقويمهن بالأخلاق الجميلة والآداب الطيبة، وقوامون أيضاً عليهن بواجباتهن من النفقة والكسوة والمسكن وتوابع ذلك. ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي ذلك بسبب فضل الرجال عليهن وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات كلها مختصة بالرجال والنبوة والرسالة، وباختصاصهم بالجهاد البدني

ووجوب الجماعة والجمعة ونحو ذلك، وبما تميزوا به عن النساء من العقل والرزانة والحفظ والصبر والجلد والقوة التي ليست للنساء، وكذلك يده هي العليا عليها بالنفقات المتنوعة؛ بل وكثير من النفقات الأخر والمشاريع الخيرية، فإن الرجال يفضلون النساء بذلك كما هو مشاهد، ولهذا حذف المتعلق في قوله: ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ ليدل على هذا التعميم، فعلم من ذلك أن الرجل كالوالي والسيد على امرأته، وهي عنده أسيرة عانية تحت أمره وطاعته، فليتق الله في أمرها، وليقوِّمها تقويماً ينفعه في دينه ودنياه، وفي بيته وعائلته يجد ثمرات ذلك عاجلاً وآجلاً، وإلاّ يفعل فلا يلومن إلاّ نفسه؛ وهن قسمان:

قسم هن أعلى طبقات النساء وخير ما حازه الرجال، وهن المذكورات في قوله: ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ أي مطيعات لله ولأزواجهن، قد أدت الحقين وفازت بكفلين من الثواب، حافظات أنفسهن من جميع الريب، وحافظات لأمانتهن ورعاية بيوتهن، وحافظات للعائلة بالتربية الحسنة والأدب النافع في الدين والدنيا، وعليهن بذل الجهد والاستعانة بالله على ذلك فلهذا قال: ﴿بما حفظ الله﴾ أي إذا وفقن لهذا الأمر الجليل فليحمدن الله على ذلك، ويعلمن أن هذا من حفظه وتوفيقه وتيسيره لها، فإن من وكل إلى نفسه، فالنفس أمارة بالسوء، ومن شاهد منّة الله وتوكل على الله وبذل مقدوره في الأعمال النافعة، كفاه الله ما أهمه، وأصلح له أموره، ويسّر له الخير وأجراه على عوائده الجميلة.

والقسم الثاني: هن الطبقة النازلة من النساء، وهن بضد السابقات في كل خصلة، اللاتي من سوء أخلاقهن وقبح تربيتهن تترفع على زوجها وتعصيه في الأمور الواجبة والمستحبة، فأمر الله بتقويمهن بالأسهل فالأسهل، فقال: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن﴾ أي بيّنوا لهن حكم الله ورسوله في وجوب طاعة الأزواج، ورغِّبوهن في ذلك بما يترتب عليه من الثواب، وخوفوهن معصية الأزواج، وذكّروهن ما في ذلك من العقاب، وما يترتب عليه من قطع حقوقها وإباحة هجرها وضربها، فإن تقوّمن بالوعظ والتذكير فذلك المطلوب وحصل الاتفاق الذي لا يشوبه مكدِّر، فإن لم يفد التذكير فاهجروهن في المضاجع، بأن

لا ينام عندها ولا يباشرها بجماع ولا غيره لعل الهجر ينجع فيها، وذلك بمقدار ما يحصل به المقصود فقط، فإن القصد بالهجر نفع المهجور وأدبه، ليس الغرض منه شفاء النفس كما يفعله من لا رأي له إذا خالفته زوجته أو غيرها ولم يحصل مقصوده، هجر هجراً مستمراً، أي بقي متأثراً بذلك، عاتباً على من لم يواته على ما يحب، ووصلت به الحال إلى الحقد الذي هو من الخصال الذميمة، فهذا ليس من الهجر الجميل النافع، وإنما هو من الحقد الضارٍّ بصاحبه، الذي لا يحصل به تقويم ولا مصلحة، فإن نفع الهجر للزوجة وإلا انتقل إلى ضربها ضرباً خفيفاً غير مبرِّح، فإن حصل المقصود ورجعت إلى الطاعة وتركت المعصية، عاد الزوج إلى عشرتها الجميلة، ولا سبيل له إلى غير ذلك من أذيتها لأنها رجعت إلى الحق.

وهذا الدواء لكل عاص ومجرم إن الشارع رغبه إذا ترك إجرامه عاد حقه الخاص والعام كما في حق التائب من الظلم وقطع الطريق وغيرها، فكيف الزوج مع زوجته.

وفي هذه الآية ونحوها فائدة نافعة، وهي أنه ينبغي لمن عاد إلى الحق أن لا يذكر الأمور السالفة، فإن ذلك أحرى للثبات على المطلوب، فإن تذكير الأمور الماضية ربما أثار الشر فانتكس المرض وعادت الحال إلى أشد من الأولى.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾

[سورة النساء: الآية ٣٥]

هذه حالة أخرى غير الحالة السابقة التي يمكن الزوج معالجتها، وهذه إذا استطار الشر بين الزوجين، وبلغت الحال إلى الخصام وعدم الالتئام، ولم ينفع في ذلك وعظ ولا كلام ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ عَدْلين عاقلين يعرفان الجمع والتفريق، ويفهمان الأمور كما ينبغي، فإن الحكم لا بد أن يتصف بهذه الأوصاف، فيبحثان في الأسباب التي أدت بهما إلى هذه الحال ويسألان كلًّا منهما ما ينقم على صاحبه، ويزيلان ما يقدران عليه من المعتبة

بترغيب الناقم على الآخر بالإغضاء عن الهفوات واحتمال الزلات، وإرشاد الآخر إلى الوعد بالرجوع، وإرشاد كل منهما إلى الرضى والنزول عن بعض حقه، فكم حصل بهذا الطريق من المصالح شيء كثير، وإن أمكنهما إلزام المتعصب على الباطل منهما بالحق فَعَلا، ومهما وجدا طريقاً إلى الإصلاح والاتفاق والملاءمة بينهما لم يعدلا عنها، إما بتنازل عن بعض الحقوق، أو ببذل مال أو غير ذلك، فإن تعذرت الطرق كلها ورأيا أن التفريق بينهما أصلح لتعذر الملاءمة فرّقا بينهما بما تقتضيه الحال بعوض أو بغير عوض، ولا يشترط في هذا رضى الزوج، لأن الله سماهما حكمين لا وكيلين، ومن قال إنهما وكيلان اشترط في التفريق رضى الزوج؛ ولكن هذا القول ضعيف، ولمحبة الباري للاتفاق بينهما وترجيحه على الآخر قال: ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ أي بسبب الرأي الميمون والكلام اللطيف والوعد الجميل الذي يجذب القلوب ويؤثر فيها ﴿إن الله كان عليماً﴾ بالسرائر والظواهر مطلعاً على الخفايا، فمن كمال علمه وحكمته شرع لكم هذه الأحكام الجليلة التي هي الطريق الوحيد إلى القيام بالحقوق

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٨]

هذه حالة من أحوال الزوجين غير الأحوال السابقة؛ لأن الحالتين السابقتين حالة نشوز الزوجة وحالة وقوع الخصام واستطارة الشر بينهما، وهذه إذا كان الزوج هو الراغب عن زوجته، إما عدم محبة وإما طمعاً، فأرشد الله في هذه الحال إلى الطريق الذي تستقيم به الأمور، وهو طريق الصلح من المرأة أو وليها ليعود الزوج إلى الاستقامة، بأن تسمح المرأة عن بعض حقها اللازم لزوجها على شرط البقاء معه، وأن يعود إلى مقاصد النكاح أو بعضها، كأن ترضى ببعض النفقة أو الكسوة أو المسكن، أو تسقط حقها من القسم أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها بإذنه فمتى اتفقا على شيء من ذلك فلا حرج

ولا بأس؛ وهو أحسن من المقاضاة في الحقوق المؤدية إلى الجفاء أو إلى الفراق، ولهذا قال: ﴿والصلح خير﴾.

وهذا أصل عظيم في جميع الأشياء، وخصوصاً في الحقوق المتنازع فيها أن المصالحة فيها خير من استقصاء كل منهما على حقه كله، لما في الصلح من بقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح، وهو جائز بين المسلمين في كل الأبواب ـ إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً ـ .

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضى لذلك فقال: ﴿والصلح خير﴾ والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان مع ذلك قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه، وذكر المانع بقوله: ﴿وأُحضرت الأنفس الشح﴾ أي جبلت النفوس على الشح، وهو الاستئثار والتفرد في الحقوق وعدم الرغبة في بذل ما على الإنسان والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً؛ أي فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم وتقليله وتلطيفه وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة ببذل جميع الحقوق التي عليك والاقتناع ببعض الحق الذي لك والإغضاء عن التقصير، فمتى وفق العبد لهذا الخلق الطيب سهل عليه الصلح بينه وبين كل من بينه وبينه منازعة ومعاملة، وتسهلت الطريق الموصلة إلى المطلوب، ومن لم يكن بهذا الوصف تعسر الصلح أو تعذر؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ما له كاملاً مكملاً، ولا يهون عليه أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي تحسنوا في عبادة الخالق؛ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ وتحسنوا إلى المخلوقين بكل إحسان قولي أو فعلي؛ وتتقوا الله بفعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات، أو تحسنوا بفعل المأمور وتتقوا بترك المحظور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فيجازيكم على قيامكم بالإحسان والتقوى، أو على عدم ذلك بالجزاء بالفضل والعدل.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٩]

يخبر تعالى أنه ليس في قدرة الأزواج العدل التام بين زوجاتهم، فإن العدل التام يقتضي أن يكون الداعي والحب على السواء؛ والميل القلبي على السواء؛ ويقتضي مع ذلك الإيمان الصادق والرغبة في مكارم الأخلاق للعمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عذر الله الأزواج وعفا عنهم عما لا يقدرون عليه، ولكنه أمرهم بالعدل الممكن فقال: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي لا تميلوا إلى إحداهن عن الأخرى ميلاً كثيراً، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا مستطاعكم من العدل، فالنفقة والكسوة والقسم في المبيت والفراش ونحو ذلك مقدور، فعليكم العدل فيها بينهن، بخلاف الحب والوطء وتوابع ذلك. فالعبد لا يملك نفسه فعذره الله، وقوله: ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ يعني أن الزوج إذا مال عن زوجته وزهد فيها ولم يقم بحقوقها الواجبة، وهي في حباله أسيرة عنده صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها، وإن تصلحوا فيما بينكم وبين زوجاتكم بوجه من وجوه الصلح كما تقدم، وبمجاهدة أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس فيما تنازعتم به من الحقوق، وتتقوا الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٠]

يعني إذا تعذر الاتفاق والالتئام فلا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يتفرقا﴾ أي بفسخ أو طلاق أو خلع أو غير ذلك ﴿يغنِ الله كلاًّ﴾ من الزوجين ﴿من سعته﴾ أي من فضله وإحسانه العام الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله برزق من غير طريقه؛ فإنها وإن توهمت أنه إذا فارقها زوجها

المنفق عليها القائم بمؤنتها ينقطع عنها الرزق، فسوف يغنيها الله من فضله، فإن رزقها ليس على الزوج ولا على غيره، بل على المتكفل القائم بأرزاق الخليقة كلها وخصوصاً من تعلق قلبه به ورجاه رجاءاً قلبياً طامعاً في فضله كل وقت، فإن الله عند ظن عبده به، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً لها منه وأنفع ﴿وكان الله واسعاً﴾ أي واسع الرحمة كثير الإحسان ﴿حكيماً﴾ في وضعه الأمور مواضعها.

وفي الآية تنبيه على أنه ينبغي للعبد أن يعلِّق رجاءه بالله وحدَه، وأن الله إذا قدر له سبباً من أسباب الرزق والراحة أن يحمده على ذلك، ويسأله أن يبارك فيه له، فإن انقطع أو تعذر ذلك السبب فلا يتشوش قلبه، فإن هذا السبب من جملة أسباب لا تحصى لا يتوقف رزق العبد على ذلك السبب المعين، بل يفتح له سبباً غيره أحسن منه وأنفع، وربما فتح له عدة أسباب؛ فعليه في أحواله كلها أن يجعل فضل ربه والطمع في بره نصب عينيه وقبلة قلبه، ويكثر من الدعاء المقرون بالرجاء؛ فإن الله يقول على لسان نبيه: ﴿أنا عند ظن عبدي بي فإن ظن بي خيراً فله، وإن ظن بي شراً فله﴾ وقال: ﴿إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي﴾.

فصل

قال الله تعالى في أحكام الطلاق والعدد:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ـ إلى قوله ـ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾

[سورة البقرة: الآيات ٢٢٩ ـ ٢٣١]

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الآيات

[سورة الطلاق: الآية ١ وما بعدها]

ذكر الله أحكام الفراق كما ذكر أحكام النكاح والدخول فيه؛ تقدم أنه تعالى حث الزوج على الصبر على زوجته ما دام متمكناً من الصبر؛ وفي هذا ذكر الله أنه إذا كان لا بد له من الطلاق، فعليه أن يطلق زوجته لعدتها، أي

لتستقبل عدتها، وذلك أن يطلقها مرة واحدة في طهر لم يجامعها فيه أو يطلقها وهي حامل قد تبين حملها، أو وهي آيسة أو صغيرة، لأنها في هـذه الأحـوال كلها تبتدىء بالعدة البينة الواضحة، فمن طلَّقها أكثر من واحدة، أو وهي حائض أو نفساء، أو في طهر قد وطىء فيه ولم يتبين حملها فإنه آثم متعدٍّ لحدود الله، وإذا طلَّقها هذا الطلاق المشروع فله أن يراجعها ما دامت في العدة كما قال تعالى:

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

وسواء رضيت أو كرهت..

وهذا الطلاق الذي يتمكن فيه العبد من الرجعة، هو الطلاق بواحدة إلى ثنتين بلا عوض، فإن طلقها الطلقة الثالثة فلا تحل له حتى تنقضي عدتها وتنكح زوجاً غيره نكاح رغبة لا نكاح تحليل، ويطأها ويطلِّقها رغبة في طلاقها وتنقضي عدتها منه فله أن ينكحها برضاها وببقية شروط النكاح من الولي ومن الصداق وغيره؛ فإن طلَّقها بعوض بلفظ الطلاق أو الخلع أو الفداء، أو غيرها من الألفاظ، فقد أباح الله هذا الفداء عند الحاجة، وهي التي نص عليها بقوله: ﴿فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ وسواء كان العوض بقليل أو كثير لعموم الآية، فإذا فارقها على هذا الوجه حصل لها الفكاك منه ولم يكن له عليها رجعة إلا إذا شاءت بنكاح جديد، وعند التراجع بين الزوجين إذا رغب كل منهما في الآخر، فليس لولي الأنثى أن يعضلها ويمنعها أن تراجع بعلها الأول أو الذي فارقها، بغضاً له أو نكاية له وغضباً عليه، أو طمعاً في بذلها أو بذله له شيئاً من المال؛ فكل هذا لا يحل للولي أن يفعله، بل عليه أن يسعى في التأليف بينها وبين زوجها، وأقل ما عليه أن لا يعارض في ذلك، وإذا كان منهياً عن ذلك بعد الطلاق أو الفداء ونحوهما؛ فكيف في ابتداء الأمر، ولكن بشرط أن يكون الزوج كفؤاً وترضى المرأة فيه.

وأما إذا منعها مِن تزوُّج مَن ليس كفؤاً لها في دينه أو غيره من الصفات المعتبرة شرعاً فهو محسن، لأن منعها عما فيه ضررها إحسان عليها. وهذا أحد

الأسباب في اعتبار الولي للمرأة في النكاح. وفي قوله في الرجعة:

﴿إِنْ يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ [سورة النساء: الآية ٣٥].

وفي التراجع ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ اعتبار هذا الشرط في الرجعة والتراجع، وإلا فلا يراجع ولا يتراجعا للضرار وللبقاء على غير ما يحبه الله. وفي هذا أن الأفعال مبنية على مقاصدها، وأن الأمر الذي يقصد فيه الخير والصلاح لا بد أن يجعل الله فيه بركة، كما أن الذي يقصد به غير ذلك ولو مكن منه العبد فإنه ضرر حاضر ويخشى أن تكون عواقبه ذميمة.

ويستفاد من هذا معنى كليٌّ نافع، وهو أنه ينبغي للعبد إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور مثل الأمور التي يترتب عليها حقوق كثيرة، ومثل الولايات الكبار والصغار والأمور المهمة أن يتأنى وينظر في نفسه وعاقبة أمره، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بقيامه بما فيها من الحقوق تقدم إليها متوكلاً على الله، وإلا أحجم واغتنم السلامة عن الدخول في الأمور الخطرة. وأمر تعالى الأزواج أن يمسكوا زوجاتهم بمعروف أو يسرحوهن بمعروف، فإن أمسكها أمسكها بعشرة حسنة، وإن فارقها فليكن على وجه الشرع بطمأنينة، من غير مغاضبة ولا مشاتمة ولا عداوات تقع بينه وبينها، أو بينه وبين أهلها.

ومن التسريح بالمعروف أن يعطيها شيئاً من المال تتمتع به وينجبر به خاطرها، وتذهب عن زوجها شاكرة، ولا يكون لهذا الفراق على هذا الوجه إلا العواقب الطيبة للطرفين.

ولما بين الباري هذه الأحكام الجليلة غاية التبيين، وكان القصد بها أن يعلمها العباد ويعملوا بها ويقفوا عندها ولا يتجاوزوها، فإنه لم ينزلها عبثاً بل أنزلها بالعلم والصدق والحق النافع والجد، نهى عن اتخاذها هزواً أي لعباً بها، وهو التجري عليها وعدم الامتثال لواجبها، مثل المضارة في الإمساك والإرسال أو كثرة الطلاق وجمع الثلاث، وقال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ عموماً باللسان حمداً وثناء وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بأن يستعان بنعمه على طاعته، وخصوصاً ما أُنزل عليكم من الكتاب والحكمة، فإن في الكتاب والسنة

من بيان الحق والهدى من الضلال والحلال من الحرام وجميع ما يحتاجه العباد في أمور دينهم ودنياهم ما يوجب للعباد أن يشكروه شكراً كثيراً ويقوموا بحقه ويخضعوا لأحكامه، وختم الآيات بعموم علمه تنبيه على أن أحكامه قد شرعها العليم الحكيم صالحة للعباد في كل زمان ومكان.

وقد ذكر عدة المفارقة بحسب أحوالها في كتابه، فذكر أن المفارقة بطلاق إن كانت تحيض باستكمال ثلاثة قروء من بعد وقوع الطلاق عليها، وأن الآيسة والتي لم تحض لصغر ونحوه عدتها ثلاثة أشهر، وأن المفارقة بموت زوجها تربص أربعة أشهر وعشراً، وأن الحامل من المفارقات في الحياة وبعد الممات عدتها بوضع الحمل.

وفي هذه العدد وتقديرها من الأسرار والحكم والمنافع للزوجين وغيرهما ما هو من آيات الله للمتأملين المستبصرين، وقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٤٩]

ففي هذه الآية أن المفارقة في الحياة بطلاق ونحوه ليس لزوجها عليها عدة إذا لم يدخل أو يخلُ بها، بل بمجرد ما يطلقها لها التزوج في الحال.

وفي هذا أن العدة تثبت بالدخول، وكذلك الخلوة، كما ثبت عن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. ومفهوم الآية أن الفراق بالموت تعتد له الزوجة المعقود عليها ولو قبل الدخول، وكما يؤخذ من مفهوم هذه فإنه يؤخذ من عموم قوله:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ ـ الآية ـ

[سورة البقرة: الآية ٢٣٤]

وفيها أن العدة من حقوق الزوج لتمكنه من الرجعة ولحفظ فراشه ومائه

من الاختلاط؛ وحق لها أيضاً؛ فإن المعتدة نوعان: نوع حامل لها النفقة بكل حال. قال تعالى:

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

[سورة الطلاق: الآية ٦]

ونوع غير حامل. وهي أيضاً نوعان: مفارقة بائنة بموت أو فسخ أو خلع أو ثلاث أو عوض. فهؤلاء كلهن لا نفقة لهن ولا كسوة ولا مسكن إلا على وجه المعروف والإحسان، ومفارقة رجعية فما دامت في العدة فلها النفقة والكسوة والمسكن وتوابعها على الزوج، وحكمها حكم الزوجة التي في حباله في كل حال إلا في القسم فلا قسم له، لأن الله سماه بعلاً لها في قوله: ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾ ولأن له أن يرجعها إلى الزوجية التامة رضيت أو كرهت ما دامت في العدة.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

دليل على أمانتها على نفسها وقبول قولها في وجود الحيض وانقطاعه لأنه توعدها بكتمان ذلك، وهذا دليل على أن قولها معتبر. وفي قوله: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ دليل على أنه لا يقع الطلاق إلا بعد النكاح. وأن من علق طلاقاً بنكاح امرأة لم ينعقد هذا التعليق ولم يقع عليها شيء إذا نكحها، لأن النكاح لا يراد به خلاف مقصوده وهذا بخلاف تعليق عتق المملوك للغير بملكه إياه، فإنه صحيح ويعتق إذا ملكه. لأن تملك الرقيق يقصد به العتق، وهو مقصود شرعي صحيح.

وقوله: ﴿فمتعوهن﴾ فيه الأمر بتمتيع المفارقة بالطلاق قبل المسيس مطلقاً. وفي آية البقرة الأمر بالتمتيع إذا لم يسم لها مهراً؛ فإن سمَّى لها مهراً فإنه يتنصف إذا طلقها قبل الدخول، ويكون نصف الصداق هو المتعة كما قال تعالى:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [سورة البقرة: الآيتان ٢٣٦ و٢٣٧]

فحث على العفو في هذا الموضع الخاص لنفعه وعظم موقعه، وقال: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ وهذا إرشاد عظيم نافع في جميع المعاملات أنه ينبغي للعبد فيها أن لا يتسقصي في كل شيء، بل يجعل للفضل محلاً من عفو ومحاباة وإعطاء أزيد مما في الذمة قدراً أو وصفاً، وقبول أدنى من الحق كمية وكيفية، فكم حصل بهذا الفضل ــ وإن كان طفيفاً ــ خير كثير وأجر كبير، ومعروف وبركة، وراحة فكر وطمأنينة قلب.

وفي قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٤١]

وهذا العموم يقتضي أن كل مطلقة لها على زوجها متعة؛ لكن إن كانت غير مدخول بها ولم يسمَّ لها مهر، فالمتعة واجبة كما تقدم بحسب يسار الزوج وإعساره، وإن كان قد سُمي لها مهر، تنصف المهر وكان النصف الحاصل لها هو المتعة؛ فإن لم يكن الأمر كذلك كانت المتعة حقاً معروفاً وإحساناً جميلاً، لما فيها من جبر خاطرها وقضاء نوائبها التي هي مظنة الحاجة إليها في تلك الحال، وكون ذلك عنواناً على التسريح بالمعروف، ودفعاً للمشاغبات والعداوات التي تحدث لكثير من الناس عند الطلاق، واحتياطاً لبراءة ذمته مما لعله لحقه لها من الحقوق، وتسهيلاً للرجعة أو المراجعة إذا تغيرت الحال وأحدث الله بعد ذلك أمراً. ولها من الفوائد شيء كثير، ومدح الله هذه الأحكام الجليلة بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٤٢]

فسمَّى هذه الأحكام آيات لأنها تدل أكبر دلالة على عنايته ولطفه بعباده، وأنه شرع لهم من الأحكام، الأحكام الصالحة لكل زمان ومكان ولا يُصلح العباد غيرها.

فصـــل
في آيات في الإيلاء والظهار واللعان

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآيتان ٢٢٦ و٢٢٧]

وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ الآيات.

[سورة المجادلة: الآية ١]

وقال في اللعان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآيات. [سورة النور: الآية ٦]

من جملة الأحكام المنتشرة المتعلقة بالزوجة أنه قد يؤلي منها أو يظاهر منها، والفرق بين الإيلاء والظهار أن الإيلاء هو الحلف بالله على ترك وطء زوجته أبداً أو مدة طويلة تزيد على أربعة أشهر إذا كان قادراً على الوطء؛ فإذا فعل ذلك وحلف هذا الحلف فلا يخلو، إما أن تطالبه الزوجة بحقها من الوطء أو لا تطالبه، فإن لم تطالبه ترك وشأنه، فإن وطىء في هذه المدة فقد حنث، وعليه كفارة يمين، وإلا فلا كفارة عليه؛ وإن طالبته بالوطء أمر بذلك وجعل له أربعة أشهر؛ فإن فاء ورجع إلى الوطء فذلك هو المطلوب منه، وهو أحب الأمرين إلى الله، وإن أبى وامتنع ومضت الأربعة الأشهر وهو مُصرٌّ على عدم وطئها وهي مقيمة على طلب حقها، أُجبر على أحد أمرين: إما أن يفيء ويكفِّر كفارة يمين، وإما أن يطلق. فإن امتنع من كل منهما طلق الحاكم عليه.

وأما الظهار فأن يحرم زوجته ويقول لها: أنت عليَّ كظهر أمي، أو نحوه من ألفاظ التحريم الصريحة. فهذا قد أتى منكراً من القول وزوراً؛ وكذب أعظم كذب إذ شبه من هي حلال بمن هي أعظم المحرمات، وهي الأم، ولهذا قال:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [سورة المجادلة: الآية ٢]

ثم عرض التوبة فقال:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ـ تتمة الآية ـ ، [سورة المجادلة: الآية ٢]

ثم ذكر طريقها بالكفارة، فأمر المظاهر أن يعتق رقبة من قبل أن يمسها فإن لم يجد صام شهرين متتابعين من قبل المسيس أيضاً، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً، فبعد هذه الكفارة تحلُّ له الزوجة وتنحل يمينه.

وأما اللعان فإن الزوج إذا رمى زوجته بالزنا ولم يكن له على ذلك أربعة شهود ولم تعترف بل أقامت على الإنكار، فعليه ما على من قذف المحصنات من جلد ثمانين جلدة إلا أن يلاعنها، وذلك بأن يشهد أربع مرات أنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنا، ويقول في الخامسة داعياً على نفسه، وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. فحينئذ يترتب عليها الحد أو الحبس حتى تقر، إلا أن تقابله بلعان يدرأ عنها العذاب، بأن تقول أربعاً: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا، وتزيد في الخامسة وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، فعند ذلك يحصل الفراق الأبدي بينه وبينها.

والحكمة في تخصيص الزوج بسقوط حد القذف عنه إذا لاعن أن الزوج محتاج، وربما كان مضطراً إلى رميها لنفي ما يلحقه من أولاد غيره ولحقّه وإفساد فراشه. وأما القاذف، إذا كان غير زوج، إذا قذف غيره بالزنا، فإن الله قال في حدِّه:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [سورة النور: الآيتان ٤ و٥]

فصـــل
في آيات الحدود

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ ـ إلى آخرها والتي بعدها ـ [سورة البقرة: الآيتان ١٧٨ و١٧٩].

يمتن الله على عباده بأنه فرض عليهم القصاص في القتلى، أي المساواة فيه، وأن يقتل القاتل عمداً على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل بين العباد. وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه، إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل، وأنه لا يحل لهم أن يحولوا بينه وبين القاتل إذا تمت الشروط كما يفعله أهل الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدِثين.

ثم فصل ذلك بقوله: ﴿الحر بالحر﴾ يدخل في منطوقها وفي منطوق قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٥]
أن الذكر يقتل بالأنثى، كما تقتل الأنثى بالذكر، فيكون هذا المنطوق مقدماً على مفهوم قوله: ﴿الأنثى بالأنثى﴾ مع دلالة صريح السنة الصحيحة في قتل النبي ﷺ اليهودي بالجارية. وخرج من هذا العموم الأبوان وإن علوا فلا يقتلان بالولد لورود السُّنة بذلك، مع أن في لفظ القصاص ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده، ولأن ما في قلب الوالدين من الرحمة المانعة من صدور هذه الجريمة منهما على ولدهما ما يحدث الشبهة، إما أنه لا بد أن في عقلهما اختلالاً أو أذية شديدة أحرجته إلى قتل ولده، أو لم يحرر أن القتل عمد محض.

وخرج من هذا العموم أن المسلم لا يقتل بالكافر لثبوت السنة بذلك، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة، وليس أيضاً من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه ﴿والعبد بالعبد﴾ ذكراً كان أو أنثى تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل مفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد لكونه غير مساوٍ له. وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في العمد العدوان؛ وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال:

﴿فمن عُفي له من أخيه شيء﴾ أي عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا بعض الأولياء فإنه يسقط القصاص وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي؛ فإذا عفا عنه وجب على ولي المقتول أن يتبع القاتل بالمعروف من غير أن يشق عليه ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يحرجه، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان من غير مطل ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان: مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان كما قال ﷺ: «رحم الله عبداً سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى».

وفي قوله: ﴿عفي له من أخيه﴾ ترقيق وحث على العفو إلى الدية، وأكمل من ذلك العفو مجاناً، وفي قوله: ﴿أخيه﴾ دليل على أن القاتل عمداً لا يكفر، لأن المراد بالأخوَّة هنا أخوة الإسلام؛ فلم يخرج بالقتل عنها، ومن باب أولى سائر المعاصي التي هي دون القتل، فإن صاحبها لا يكفر ولكنه يستحق العقاب، وينقص بذلك إيمانه إن لم يتب؛ وإذا عفا أولياء المقتول أو بعضهم احتقن دم القاتل وصار معصوماً منهم ومن غيرهم. فلهذا قال: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أي بعد العفو ﴿فله عذاب أليم﴾ أي في الآخرة؛ وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم لأنه قتل مكافئاً له فيجب قتله بذلك.

ثم بيَّن تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أي تنحقن بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه إذا قَتَل قُتِل لا يكاد يصدر منه قتل؛ وإذا رؤي القاتل مقتولاً انزجر غيره بذلك؛ فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل من انكفاف الشر ما يحصل بالقتل؛ وهكذا سائر الحدود الشرعية: فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار. ونكر الحياة لإفادة التعظيم.

ولما كان هذا الحكم لا يعرفه حقيقة المعرفة إلا أهل العقول الكاملة قال: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾. وهذا يدل على أنه يحبُّ من عباده أن يُعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبير ما في أحكامه من الحكم

والمصالح الدالَّة على كماله، وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة؛ وأن من كان بهذا الوصف فقد استحق الثناء والمدح بأنه من ذوي الألباب، الذين وجه إليهم الخطاب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً، وقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة أوجب له أن ينقاد لأمر الله ويخضع لشرعه طاعة لله ولرسوله. قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة النور: الآية ٢]

هذا حد الزاني غير المحصن من ذكر أو أنثى يجلد مائة جلدة، جلدات تؤلمه وتزجره ولا تهلكه، ويتعين أن يكون ذلك علناً لا سرًّا بحيث يشهده طائفة من المؤمنين، لأن إقامة الحدود من الضروريات لقمع أهل الجرائم، واشتهارها هو الذي يحصل به الردع والانزجار وإظهار شعائر الدين، والاستتار به أو على أحد دون أحد فيه مفاسد كثيرة. ووردت السُّنة بتغريب عام كامل عن وطنه مع الجلد، كما تواترت السنة وأجمع المسلمون على رجم الزاني المحصن يرجم بالحجارة حتى يموت.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٨]

السارق هو من أخذ مال غيره المحترم بغير رضاه، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب هذه العقوبة؛ وهو أنه يجب قطع يده اليمنى كما هي قراءة بعض الصحابة، واليد إذا أطلقت فهي الكف إلى الكوع فقط، فإذا قطعت حسمت وجوباً في زيت أو ودك مغليّ لتنسد العروق فيقف الدم، ولكن السُّنة قيدت عموم الآية الكريمة بأمور كلها ترجع إلى تحقيق السرقة للأموال.

فمنها: لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوي ذلك.

ومنها: لا بد أن يكون المأخوذ منه حرزاً، وحرز كل مال ما يحفظ به عادة، فلو سرق من مال غير محرز فلا قطع عليه، ويؤخذ هذا من لفظ السارق؛ فإنه الذي يأخذ المال على وجه لا يمكن التحرز منه، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد فقيل تقطع يده اليسرى، ثم إن عاد قطعت رجله اليمنى، وقيل يحبس حتى يموت. وورد في ذلك آثار عن السلف مختلفة.

وقوله: ﴿جزاءاً بما كسبا﴾ من التجري على أموال الناس ﴿نكالاً من الله﴾ أي ترهيباً منه للسُّرَّاق ليرتدعوا إذا علموا أنهم يقطعون. وهذا نظير قوله في القتل: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ والله ﴿عزيز حكيم﴾ أي عز وحكم، فقطع بحكمته يد السارق تنكيلاً للمجرمين وحفظاً للأموال.

وقد ذكر الله قبل هذا حد قُطَّاع الطريق المحاربين في قوله:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٣]

فقيل إن الإمام مخير فيهم بين هذه الأمور، وعليه أن يفعل ما تقتضيه المصلحة ويحصل به النكاية؛ وقيل إن هذه العقوبة مرتبة بحسب الجريمة؛ فإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع لهم بين القتل والصلب، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالاً قُتلوا ولم يُصلبوا، وإن أخذوا مالاً ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالاً، نُفوا من الأرض فلا يتركون يأوون إلى بلد، أو يحبسون كما قاله بعضهم.

فصل
في الأيمان ونحوها

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۞ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۞ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا

حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
[سورة المائدة: الآيات ٨٧ ـ ٨٩]

يقول الباري: يا أيها الذين آمنوا اعملوا بمقتضى أيمانكم في تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله، فلا تحرِّموا ما أحل الله لكم من المطاعم والمشارب وغيرها، فأنها نِعَمٌ تفضَّل الله بها عليكم فاقبلوها، واشكروا الله عليها إذْ أحلها شرعاً ويسَّرها قدراً، ولا تردوا نعمة الله بكفرها أو عدم قبولها أو اعتقاد تحريمها أو الحلف على عدم تناولها، فإن ذلك كله من الاعتداء، ولهذا قال: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ بل يبغضهم ويمقتهم على ذلك ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم ويسَّره لكم بأسبابه المتنوعة، إذا كان حلالاً، لا سرقة ولا غصباً، ولا حصل في معاملة خبيثة، وكان أيضاً طيباً نافعاً لا خبث فيه ﴿واتقوا الله ﴾ في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإن الإيمان لا يتم إلاّ بذلك، وهو يدعو إلى ذلك.

ودلت الآية الكريمة أن العبد أذا حَرّم حلالاً عليه من طعام وشراب وكسوة واستعمال وسرية ونحو ذلك، فإن هذا التحريم منه لا يحرِّم ذلك الحلال، لكن إذا فعله فعليه كفارة يمين، لأن التحريم يمين كما قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [سورة التحريم: الآيتان ١ و ٢]

وهذا عام في تحريم كل طيب، إلا أن تحريم الزوجة يكون ظهاراً فيه كفارة الظهار السابقة.

وكما أنه ليس له أن يحلف على ترك الطيبات فليس له أن يمتنع من أكلها ولو بلا حلف تنسكاً وغلوًا في الدين؛ بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ ويشمل هذا الأَيْمان التي حلف بها من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك، ﴿ولكن يؤاخذكم

بما عَقَّدتم الْأَيمان﴾ أي بما عقّدت عليه قلوبكم، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٥]

فإذا عقد العبد اليمين وحنث ـ بأن فعل ما حلف على تركه أو ترك ما حلف على فعله ـ خُيِّر في الكفارة بين إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، وذلك يختلف باختلاف الناس والأوقات والأمكنة، أو كسوتهم بما يعد كسوة، وقيد ذلك بكسوة تجزي في الصلاة، أو تحرير رقبة صغير أو كبير، ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون الرقبة مؤمنة، كما في الآية المقيدة بالْأَيمان، وأن تكون تلك الرقبة سليمة من العيوب الضارة بالعمل، فمتى كفَّر بواحد من هذه الثلاثة انحلت يمينه.

وهذا من نعمة الله على هذه الأمة أنه فرض لهم تحِلّة أَيْمانهم ورفع عنهم الإلزام والجُناح، فمن لم يجد واحداً من هذه الثلاثة فعليه صيام ثلاثة أيام، أي متتابعة مع الإمكان، كما قيدت في قراءة بعض الصحابة ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ عن أن تحلفوا بالله وأنتم كاذبون، وعن كثرة الْأَيمان لا سيما عند البيع والشراء، واحفظوها إذا حلفتم، عن الحنث فيها، إلّا أذا كان الحنث خيراً من المضي فيها، كما قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٤]

أي لا تقولوا إننا قد حلفنا على ترك البر وترك التقوى وترك الإصلاح بين الناس، فتجعلوا أيمانكم مانعةً لكم من هذه الأمور التي يحبها الله ورسوله، بل احنثوا وكفِّروا وافعلوا ما هو خير وبر وتقوى؛ واحفظوا أيضاً أيمانكم إذا حلفتم وحنثتم بالكَفارة، فإن الكَفارة بها حفظ اليمين الذي معناه تعظيم المحلوف به، فمن كان يحلف ويحنث ولا يكَفِّر فما حفظ يمينه، ولا قام بتعظيم ربه ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ المبينة للحلال من الحرام الموضحة للأحكام ﴿لعلكم تشكرون﴾ فعلى العباد أن يشكروا ربهم على بيانه وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمون، فإن العلم أصل النعم وبه تتم.

فصل
في آيات في الأطعمة ونحوها والصيود وتوابعها

قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩]

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٩]

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾
[سورة المائدة: الآية ٣]

وبعدها:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۚ﴾
[سورة المائدة: الآية ٤]

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢١]

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ و [سورة الأنعام: الآية ١٤٥]

دلت هذه الآيات الكريمات على أن الأصل في الأشياء الحلّ من طعام وشراب وغيرها، لأن الله تعالى خلق لنا ما في الأرض جميعاً ننتفع به بكل وجوه

الانتفاعات، من أكل وشرب واستعمال. وفصَّل لنا ما حرَّم علينا؛ فما لم يذكر في الكتاب والسنة تحريمه فهو حلال، وأباح لنا كل طيب، وحرَّم علينا كل خبيث.

فمن الخبائث المحرمة الميتة ــ سوى ميتة الجراد والسمك ــ وهي ما مات حتف أنفه أو ذُكِّي ذكاة غير شرعية، والدم المسفوح كما قيدته الآية الأخرى، وأما الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح فإنه طيب حلال ﴿ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾ بأن ذُبح لغير الله من أصنام أو ملائكة أو إنس أو جن أو غيرها من المخلوقات.

ومن الخبائث كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، كما صح بذلك الحديث عن النبي ﷺ.

ومن الميتة ﴿والمنخنقة﴾ أي التي تخنق بالحبال أو غيرها، أو تختنق فتموت ﴿والموقوذة﴾ وهي التي تضرب بالحصى أو بالعصا حتى تموت. ومن هذا إذا رمى صيداً فأصاب الصيد بعرضه فقتله، ﴿والمتردية﴾ وهي التي تسقط من موضع عال كسطح وجبل فتموت ﴿والنطيحة﴾ التي تنطحها غيرها فتموت بذلك، وما أكله ذئب أو غيره من السباع؛ وكل هذه المذكورات إذا لم تدرك ذكاتها؛ فإن أدركها حية فذكّاها حلت. لقوله: ﴿إلا ما ذَكَّيتم﴾ وساء غلب على الظن بقاؤه أو تلفه إذا لم يُذَكّ أم لا.

ومن المحرّمات الحشرات وخشاش الأرض من فأرة وحية ووزغ ونحوها من المستخبثة شرعاً وطِبًّا.

ومن المحرمات ما ذُكِّي ذكاة غير شرعية، إما أن الذابح غير مسلم ولا كتابي، وإما أن يذبحها في غير محل الذبح وهي مقدور عليها، وإما أن لا يقطع حلقومها ومريها، وإما أن يذبحها بغير ما ينهر الدم أو بعظم أو ظفر، وما أمر الشارع بقتله أو نهى عن قتله، دل على تحريمه وخبثه.

وكل هذه الأشياء تحريمها في حال السعة، وأما إذا اضطر إليها غير باغ لأكلها قبل أن يضطر ولا متعد إلى الحرام، وهو يقدر على الحلال، فإنه إذا

اضطر إليها غير باغ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم. من رحمته أباح المحرّمات في حال الضرورة.

ومن رحمته وسَّع لعباده طرق الحلال، فأباح الصيد إذا جرح في أي موضع من بدنه، وأباح صيد السهام إذا سمّى الرامي عند رميها، وأباح أيضاً صيد الكلاب المعلّمة والطيور المعلَّمة والتعليم يختلف باختلاف الحيوانات؛ قال العلماء: تعليم الكلب أن يسترسل إذا أرسل وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل من صيده لقوله: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ أي عند إرسالها لقصد الصيد.

فصل
في جوامع الحُكْم والقضايا في الأصول والفروع

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٩]

﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٥]

﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٢]

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة صٓ: الآية ٢٦]

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

الحكم بين الناس بالحق والقسط، هو الحكم بما أنزل الله؛ وهو الرد إلى الله ورسوله؛ فإن هذه الآيات يصدِّق بعضها بعضاً؛ وتدل على أن الحق والعدل لا يخرج عما جاء به الرسول، وأن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام على الإطلاق، أي أعدلها وأقومها وأصلحها وأحسمها للشرور، وأعظم أحكام توسل

بها إلى تحصيل المصالح ودرء المفاسد؛ وأن رد مسائل النزاع والاختلافات الدينية والدنيوية إلى الله والرسول خير في الحال وأحسن عاقبة، وأن كلمات الله تمت وكملت من كل وجه صدقاً في إخبارها، عدلاً في أحكامها وأوامرها ونواهيها، فكل مسألة خارجة عن العدل إلى الظلم، وعن الصلاح إلى الفساد، فليست من الشرع، وقد جاء شرع الله محكم الأصول والفروع، موافقًا للمعقول الصحيح والاعتبار والميزان العادل.

وقد حكم الله ورسوله بأحكام متنوعة متفرعة عن هذا الأصل العظيم؛ وتفصيل لمجمله، فحكم الله بأن إقرار من عليه الحق معتبر في القليل والكثير، كما تقدم التنبيه عليه في آية الدَّين.

وحكم بأن البينة على المدَّعي لإثبات حق، أو المدَّعي براءة الذمة من الحقوق الثابتة، وأن اليمين على من أنكر، وهاتان القاعدتان عليهما مدار جمهور القضايا، اعتبار إقرار من عليه الحق إذا كان جايز التصرف، وتكليف المدَّعين كلهم بالبينات.

والبينة شرعاً اسم جامع لكل ما بيَّن الحق؛ والبيان مراتب بعضها يصل إلى درجة اليقين وبعضها كالقرائن، وشواهد الأحوال توصل إلى غلبة لظن، والترجيحات كثيرة جداً.

وعند تساوي الترجيحات ومقادير الأشياء وكمياتها بالتوسط بينها، إما بقسمتها متساوية وجعل الزيادة والنقص بحسب ذلك، وإلا بالقرعة إذا تعذرت القسمة. ومن أحكام الشارع العادلة إلغاؤه المعاملات الظالمة الجائرة: كأنواع الغَرَرِ والظلم والميل على أحد المتعاملين بغير حق.

ومن أحكامه الكلية اعتباره التراضي بين المتعاملين في عقود المعاوضات وفي عقود التبرعات، وأنه لا يحل مال امرىء مسلم أو معاهد إلا بطيب نفسه.

ومن أحكامه الكلية منع الضرر والإضرار بغير حق في كل معاملة وخلطة وجوار واتصال.

ومن أحكامه الكلية أن على العمال تكميل أعمالهم بغير نقص، وعلى من عمل لهم تكميل أجورهم.

ومن أحكامه الكلية إيجابه الوفاء بالعقود والشروط التي يشترطها أحد المتعاقدين على الآخر في أبواب العقود كلها، مما لكل منهما أو لأحدهما فيه مصلحة، إلا شرطاً أحلّ حراماً أو حرم حلالاً، فهذا قد أهدره الشارع وألغاه وقال: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ.

ومن أحكامه الكلية اعتبار المقاصد والنيات في أبواب المعاملات والأعمال، كما تعتبر في باب العبادات، وبهذا الأصل أبطل جميع الحيل التي يتوسل بها إلى فعل محرم أو إسقاط حق مسلم ونحوها.

ومن أحكامه الكلية أن جميع العقود اللازمة والجائزة: عقود المعاوضة وعقود التبرع، وكذلك الفسوخ تنعقد بما دل عليها من الألفاظ التي يتعارفها المتعاقدان؛ ومن الأفعال الدالة على ذلك.

ومن أحكامه الكلية أنّ تَلَفَ الشيء بيد الظالم كالغاصب ونحوه فيه الضمان، فرّط أو لم يفرِّط، فإن ثبوت يده على وجه الظلم والعدوان، وأن تلف الشيء تحت يد الأمين لا ضمان فيه إن لم يفرِّط أو يتعدَّ.

ومن أحكامه الكلية أن الشيء المشكوك فيه يرجع فيه إلى اليقين في العبادات والمعاملات: فمن ادعى الأصل فقوله مقبول، ومن ادعى خلاف الأصل لم يقبل إلا ببينة، وأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، والأصل براءة الذمة حتى يتيقن اشتغالها، كما أن الأصل بقاء ما كان ثابتاً في الذمة حتى يتيقن البراءة بوفاء أو إسقاط أو سقوط؛ وأن الأصل في عقود المسلمين الصحة والسلامة حتى نعرف أنه جرى ما يفسدها.

ومن أحكامه الكلية أن جميع الأحكام من أصول وفروع لا تتم وتكمل ويحصل مقتضاها إلا باجتماع شروطها وأركانها ومقوِّماتها وانتفاء موانعها ومفسداتها.

ومن أحكامه الكلية وجوب المماثلة في المتلَفات والمضمونات بمثلها إن أمكن المثل، وبالقيمة إن تعذر المثل.

وكذلك الأعمال، فمن عمل لغيره عملاً بعوض لم يُسمَّ، أو سُمِّي تسمية فاسدة، أو جهلت التسمية أو عاوضه معاوضة تعذر معرفة العوض فيها، فإنه يرجع في ذلك إلى أجرة المثل وعوض المثل.

ومن أحكامه الكلية وجوب العدل بين الأولاد والزوجات، ووجوب العدل بين ذوي الحقوق الذي لا مزية لواحد منهم على الآخر، كالعول الداخل على أهل الفروض بالسوية، وكقسمة المال بين الغرماء إذا لم يف بحقوقهم يعطون على قدر حقوقهم إذا لم يكن لأحدهم مزية رهن ونحوه، وكاشتراك الملاّك في الزيادة المترتبة عليها على قدر أملاكهم والنقص على قدر أملاكهم إذا اعتراها نقص، وسواء كان النقص بحق تعلق بها أو بتلف أو خسارة أو وقع ظلماً فإنهم يشتركون في الزيادة والنقص على قدر أملاكهم.

ومن أحكامه الكلية إثبات الخيار في كل عَقد ظهر في العوض المعين أو المعوض عيب ينقصه؛ وأنه إذا لم يمكن الرد تعين الأرش وإسقاط النقص، وعلى الصحيح لا فرق بين البيوع وغيرها، فإن هذا من قاعدة العدل.

ومن أحكامه الكلية جعل المجهول كالمعدوم، ويندرج تحت هذا الأصل الأموال التي جهل ملاكُها أنه يتصدق بها عنهم أو تبذل في المصالح نيابة عنهم، وتملك اللقطة ومن مات لا وارث له بفرض ولا تعصيب ولا رحم: تركته في بيت المال للمصالح العامة جعلاً للمجهول في ذلك كالمعدوم.

ومن أحكامه الكلية الرجوع إلى العرف إذا تعذر التعيين شرعاً ولفظاً، كالرجوع للعرف في نفقة الزوجات والأقارب والأُجَراء، وكالشروط العرفية في المعاملات إذا اطردت بين الناس وكالقبض والحرز ونحوها مما لا يعدّ ولا يحصى.

ومن أحكامه الكلية أن الأصل في العبادات الحظر، فلا يشرَّع منها إلا

ما شرعه الله ورسوله، والأصل في المعاملات والاستعمالات كلها الإباحة؛ فلا يحرَّم منها إلاّ ما حرمه الله ورسوله؛ وعلى هذا جميع أحكام العبادات والمعاملات وغيرها مما لا يمكن إحصاؤه، ولهذا من شرّع في عبادة لم تنقل عن الشارع فهو مبتدع، ومن حرّم من العادات شيئاً لم يرد عن الشارع فهو مبتدع.

ومن أحكامه الكلية حثه على الصلح والإصلاح بين من بينهم حقوق، وخصوصاً عند اشتباهها أو عند تناكرهما، وإذا تعذر استيفاء الحق كله أو تعسّر، فقد شرع في ذلك كله الصلح بالعدل، وسلوك الحالة المناسبة لتلك القضية بما تقتضيه الحال، وفيه من الفوائد والثمرات الطيبة ما لا يعد ولا يحصى.

ومن أحكامه الكلية اعتبار العدالة في الشهود وأن يكونوا ممن يرضي من الشهداء، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فالشارع اعتبر شهادة العدل المرضي من الشهداء وأسقط شهادة الكاذب والقاذف قبل التوبة، وأمر بالتثبت في خبر الفاسق وكذلك المجهول، لأنه اعتبر المرضيَّ العَدْلَ عند الناس، فلا بد من تحقيق هذا الوصف، وأما عدد الشهود ونصابها فذلك يختلف باختلاف المشهود به كما فَصَّله أهل العلم.

ومن أحكامه الكلية أن من سبق إلى مباح فهو أحق به، فيدخل في هذا السبق إلى الجلوس في المساجد والأسواق والأفنية، ويدخل فيه السبق إلى النزول في المساكن والأوقاف التي لا تتوقف على نظر ناظر، ويدخل في ذلك السبق إلى المباحات من الصيود البرية والبحرية وإلى ما يستخرج من البحار والمعادن، وإلى الاحتشاش والاحتطاب وغير ذلك، وإلى إحياء الموات وغيرها من المسائل المتنوعة الداخلة في هذا الأصل.

ومن أحكامه الكلية قبول قول الأمناء على ما في أيديهم مما هم عليه أولياء من قبل الشارع أو قبل المالك بالوكالة أو الوصاية أو النظارة للأوقاف، فكل هؤلاء مقبول قولهم فيما يدعونه من داخل وخارج ومصرف ونحوه إذا كان ذلك ممكناً، وهذا معنى تأمينهم وتوليهم وولايتهم. واعلم أن قبول قول هؤلاء في هذه الأمور لا يمنع محاسبتهم، وطلب الوقوف على كيفية تلك المصارف الداخلية

والخارجية، وتبيين وجه النقص والتلف ونحو ذلك، ليستظهر بذلك على صدقهم وكذبهم. وأما تمكينهم من إطلاق سراحهم بحجة أنهم أمناء مقبول قولهم، فهذا غلط على الشريعة وعلى الحقيقة، فالشارع حاسب عماله واستدرك عليهم، والحقيقة والوقوف عليها مطلوب باتفاق أهل الاعتبار؛ فكم من أمين ظهرت خيانته يقيناً حين استدرك عليه.

ومن أحكامه الكلية أن الواجب يسقط بالعجز عنه بالكلية، وأنه إذا قدر على بعض الواجب وجب عليه ما يقدر عليه منه، وسقط عنه ما يعجز عنه، وهذا مطرد في العبادات والحقوق الواجبة وغيرها، كما أن الضرورة تبيح المحظور وتقدر بقدرها.

ومن أحكامه الكلية أنه أقام البدل مقام مبدله في أحكام العبادات والمعاملات والحقوق وغيرها؛ فمتى كان للشيء بدل وتعذر الأصل، قام هذا مقامه، وحكم له بأحكامه، وأن النماء تابع للأصل.

ومن أحكامه الكلية أن من وجب عليه أمر من الأمور فإنه يجبر عليه بحق. وأن من أتلف شيئاً لدفع أذاه له دفعاً عن نفسه، فلا ضمان عليه، فإن أتلفه للانتفاع به ضمنه.

وأن ما ترتب على المأذون فيه من تلف فغير مضمون، وما ترتب على غير المأذون فإنه مضمون.

ومن أحكامه الكلية أن الاستثناءات والقيود والأوصاف الملحقة بالألفاظ تعتبر وتقيد الكلام، ويرتبط بها بشرط الاتصال لفظاً أو حكماً، ويدخل في هذا ألفاظ العقود والفسوخ والوقف والوصايا والعتق والطلاق والأيمان والإقرارات وغيرها.

ومن أحكامه الكلية أن الشركاء في الأملاك والمنافع يلزمون بكل ما يعود إلى حصول المنافع الضرورية ودفع المضار، ويجبر الممتنع منهما من ذلك من المصارف والنفقات والضرائب التي تلحق الأملاك هم فيها شركاء على كل منهم بقدر ملكه.

ومن أحكامه الكلية أن المباشر لإتلاف الأموال أو المتسبب لذلك ضامن لها متعمداً كان أو ناسياً أو جاهلاً، وأنه إذا اجتمع المباشر والمتسبب كان الضمان على المباشر إلا إن تعذر تضمينه لفقد أو امتناع أو عسر أو نحوه، فيحال الضمان على المتسبب بغير حق.

ومنها أن من أدى عن غيره ديناً واجباً بنية الرجوع، فإنه يرجع ولو لم يأذن له في ذلك.

ومنها أن الوصف في الشيء الذي بيد الغير، وذلك الغير لا يدعيه لنفسه بيِّنة.

ومنها أن من تعجل شيئاً قبل أوانه على وجه محرم عوقب بحرمانه.

ومن أحكامه الكلية أنه إذا تزاحمت المصالح قُدِّم الأعلى منها، وإن تزاحمت المفاسد وكان لا بد من فعل إحداها ارتكب الأخف منها لدفع الأشد مفسدة، وعلى هذا من مسائل الفقه ما لا يُعدُّ ولا يحصى، لأن الشارع شرع الشريعة لتحصيل المصالح أو تكميلها، ولتقليل المفاسد وتعطيلها بحسب الإمكان.

ومنها أن إطلاق التشريك في الوصايا والهبات والإقرارات، وإيقاع العقود والفسوخ على الأعيان وغير ذلك: كل ذلك يقتضي المساواة بين من شرك بينهم في شيء من ذلك، إلا أن دل دليل على المفاضلة بينهم، وكذلك في الأشياء المشتبهة التي يعلم أنها لهؤلاء الأشخاص، ولا يعلم مقدار ما لكلٍ، فإنهم يتساوون فيها، وأدلة هذه الأصول من الكتاب والسنة ظاهرة، وهي أصول جامعة عظيمة النفع، ينتفع بها الحاكم والمفتي وطالب العلم، وهي من محاسن الشريعة ومن أكبر البراهين على أن ما جاء به الرسول حق من عند الله محكم الأصول متناسب الفروع عدل في معانيه تابـع للحكم والصلاح في مبانيه، فلنقتصر على هذه القواعد إذ غيرها تبـع لها، وهي تغني عن غيرها ولا يغني عنها سواها. والله أعلم.

فصـــول

في ذكر ما قَصَّ الله علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم

قد قص الله علينا في كتابه قصصاً طيبة من أخبار أنبيائه، ووصفها بأنها أحسن القصص. وهذا الوصف من الله العظيم يدل على أنها أصدقها وأبلغها وأنفعها للعباد؛ فمن أهم منافع هذه القصص أن بها يتم ويكمل الإيمان بالأنبياء، صلى الله عليهم وسلم، فإننا وإنْ كنا مؤمنين بجميع الأنبياء على وجه العموم والإجمال، فالإيمان التفصيلي المستفاد من قصصهم، وما وصفهم الله به من الصدق الكامل والأوصاف الكاملة التي هي أعلى الأوصاف، وما لهم من الفضل والفواضل والإحسانْ على جميع نوع الإنسان، بل وصل أحسانهم إلى جميع الحيوانات بما أبدوه للمكلَّفين في الاعتناء بها والقيام بحقها، فهذا الإيمان التفصيلي بالأنبياءء يصل به العبد إلى الإيمان الكامل، وهو من مواد زيادة الإيمان.

فمن ذلك أن في قصصهم تقرير الإيمان بالله وتوحيده وإخلاص العمل له والإيمان باليوم الآخر وبيان حسن التوحيد ووجوبه، وقبح الشرك وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة.

وفي قصصهم أيضاً عبرة للمؤمنين يقتدون بهم في جميع مقامات الدين في مقام التوحيد والقيام بالعبودية، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات التام، وفي مقام الصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات واحتساب الأجر والثواب من الله تعالى، لا يطلبون من الخلق أجراً ولا جزاءاً ولا شكوراً إلا الأمور النافعة للخلق.

وفيها أيضاً عبرة لاتفاقهم على دين واحد وأصول واحدة، ودعوة إلى كل خلق جميل وعمل صالح وإصلاح، وزجرهم عن كل ما يضاد ذلك.

وفيها أيضاً من الفوائد الفقهية والأحكام الشرعية والأسرار الحكمية شيء عظيم لا غنى لكل طالب علم عنها.

وفيها أيضاً من الوعظ والتذكير والترغيب والترهيب، والفرج بعد الشدة وتيسير الأمور بعد تعسرها، وحسن العواقب المشاهدة في هذه الدار، وحسن الثناء والمحبة في قلوب الخلق ـ ما فيه زاد للمتقين وسرور للعابدين وسلوة للمحزونين ومواعظ للمؤمنين، فليس المقصود من قصصهم أن تكون فقط سَمَراً، وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيراً وعِبراً.

واعلم قبل الشروع فيها أن كثيراً من قصصهم صلوات الله وسلامه عليهم أعادها الله في كتابه مرات عديدة بأساليب مناسبة لمقاماتها؛ وربما يكون في موضع منها ما ليس في المواضع الأخر من الزيادات والفوائد، أو يأتي بها بألفاظ غير ألفاظ القصة الأخرى والمعاني متفقة أو متقاربة؛ فعلى حساب أن هذا التعليق مختصر سوف آتي بهذه القصص، وأجمع القصة في موضع واحد وأحرص على ما دلت عليه ألفاظ الكتاب من سياقها من أولها إلى آخرها، وأتبع كل قصة بما يفتح الله به من الفوائد الأصولية والفروعية والأخلاق والآداب والمواضيع المتنوعة، راجياً من الله أن يوفقني بذلك للصواب اللفظي والإخلاص الباطني وموافقة رضاه، وأن يجعل بذلك النفع العام، إنه جواد كريم.

فصل
في قصة آدم، أبي البشر، عليه الصلاة والسلام

لم يزل الله أولاً ليس قبله شيء، ولم يزل فعالاً لما يريد؛ ولا خلا وقت من الأوقات من أفعال وأقوال تصدر عن مشيئته وإرادته بحسب ما تقتضيه حكمة الله الذي هو حكيم في كل ما قدره وقضاه، كما هو حكيم في كل ما شرعه لعباده، فلما اقتضت الحكمة الشاملة والعلم المحيط من الله والرحمة السابغة خلق آدم أبي البشر الذين فضّلهم الله على كثير ممن خلق تفضيلاً، أعلم الملائكة وقال:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠]

يخلف من كان قبلهم من المخلوقات التي لا يعلمها إلا هو.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [تابع الآية]

وهذا منهم تعظيم لربهم وإجلال له عن أنه ربما يخلق مخلوقاً يشبه أخلاق المخلوقات الأول، أو أن الله تعالى أخبرهم بخلق آدم وبما يكون من مجرمي ذريته، قال الله للملائكة:

﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [تابع الآية]

فإنه محيط علمه بكل شيء، وبما يترتب على هذا المخلوق من المصالح والمنافع التي لا تعد ولا تحصى.

فعرّفهم تعالى بنفسه بكمال علمه، وأنه يجب الاعتراف لله بسعة العلم والحكمة التي من جملتها أنه لا يخلق شيئاً عبثاً ولا لغير حكمة، ثم بيّن لهم على وجه التفصيل، فخلقه بيده تشريفاً له على جميع المخلوقات، قبض قبضة من جميع الأرض سهلِها وحزنها، وطيبها وخبيثها، ليكون النسل على هذه الطبائع، فكان تراباً أولاً ثم ألقى عليه الماء فصار طيناً، ثم لما طالت مدة بقاء الماء على الطين تغير ذلك الطين فصار حمأ مسنوناً، طيناً أسود، ثم أيبسه بعدما صوره فصار كالفخار الذي له صلصلة.. وفي هذه الأطوار هو جسدٌ بلا روح، فلما تكامل خلق جسده نفخ فيه الروح فانقلب ذلك الجسد الذي كان جماداً حيواناً له عظام ولحم وأعصاب وعروق وروح هي حقيقة الإنسان، وأعده الله لكل علم وخير، ثم أتم عليه النعمة، فعلّمه أسماء الأشياء كلها.

والعلم التام يستدعي الكمال التام، وكمال الأخلاق، فأراد الله أن يرِيَ الملائكة كمال هذا المخلوق فعرض هذه المسميات على الملائكة وقال لهم:

﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١]

في مضمون كلامكم الأول الذي مقتضاه أن ترك خلقه أوْلَى، هذا بحسب ما بدا لهم في تلك الحال، فعجزت الملائكة عليهم السلام عن معرفة أسماء هذه المسميات وقالوا:

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
[سورة البقرة: الآية ٣٢]

قال الله:

﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٣]

شاهد الملائكة من كمال هذا المخلوق وعلمه ما لم يكن لهم في حساب، وعرفوا بذلك على وجه التفصيل والمشاهدة كمال حكمة الله، وعظّموا آدم غاية التعظيم؛ فأراد الله أن يظهر هذا التعظيم والاحترام لآدم من الملائكة ظاهراً وباطناً، فقال للملائكة:

﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٤]

احتراماً له وتوقيراً وتبجيلاً، وعبادة منكم لربكم وطاعة ومحبة وذلاًّ؛ فبادروا كلهم أجمعون، فسجدوا وكان إبليس بينهم، وقد وجه إليه الأمر بالسجود معهم، وكان من غير عنصر الملائكة؛ كان من الجن المخلوقين من نار السموم، وكان مبطناً للكُفر بالله، والحسد لهذا الإنسان الذي فضله الله هذا التفضيل؛ فحمله كبره وكفره على الامتناع عن السجود لآدم كفراً بالله واستكباراً، ولم يكفه الامتناع حتى باح بالاعتراض على ربه والقدح في حكمته، فقال:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢]

فقال الله له:

﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾
[سورة صۤ: الآية ٧٥]

فكان هذا الكفر والاستكبار والإباء منه وشدة النفار هو السبب الوحيد أن يكون مطروداً ملعوناً، فقال الله له:

﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٣]

فلم يخضع الخبيث لربه ولم يتب إليه، بل بارزه بالعداوة وصمم التصميم التام على عداوة آدم وذريته؛ ووطن نفسه لما علم أنه حتم عليه الشقاء الأبدي أن يدعو الذرية بقوله وفعله وجنوده إلى أن يكونوا من حزبه الذين كتبت لهم دار البوار فقال:

﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٣٦]

فيتفرغ لإعطاء العداوات حقها في آدم وذريته.

ولما كانت حكمة الله اقتضت أن يكون الآدمي مركّباً من طبائع متباينة، وأخلاق طيبة أو خبيثة، وكان لا بد من تمييز هذه الأخلاق وتصفيتها بتقدير أسبابها من الابتلاء والامتحان الذي من أعظمه تمكين هذا العدو من دعوتهم إلى كل شر، أجابه:

﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾
[سورة الحجر: الآيتان ٣٧ و٣٨]

فقال لربه معلناً معصيته وعداوته آدم وذريته:

﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[سورة الأعراف :الآيتان ١٦و١٧]

قال إبليس هذه المقالة ظنًّا منه لأنه عرف ما جبل عليه الآدمي.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾
[سورة سبأ: الآية ٢٠]

فمكنه الله من الأمر الذي يريده إبليس في آدم وذريته، فقال الله له:

﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [سورة الإسراء: الآيتان ٦٣ و٦٤]

أي إن قدرت فاجعلهم منحرفين في تربية أولادهم إلى التربية الضارّة، وفي صرف أموالهم المصارف الضارة وفي الكسب الضارّ؛ وأيضاً شارك منهم من إذا تناول طعاماً أو شراباً أو نكاحاً ولم يذكر اسم الله على ذلك في الأموال والأولاد، وعِدْهم أي مُرْهُم أن يكذبوا بالبعث والجزاء، وأن لا يقدموا على خير، وخوّفهم من أوْليائك وخوّفهم عند الإنفاق النافع بالفحشاء والبخل. وهذا من الله لحكم عظيمة وأسرار. وإنك أيها العدو المبين لا تبقي من مقدورك في أغوائهم شيئاً، فالخبيث منهم يظهر خبثه ويتضح شره، والله لا يعبأ به ولا يبالي به.

وأما خواص الذرية من الأنبياء وأتباعهم من الصديقين والأصفياء وطبقات الأولياء والمؤمنين فإن الله تعالى لم يجعل لهذا العدو عليهم تسلطاً، بل أقام عليهم سوراً منيعاً؛ وهو حمايته وكفايته؛ وزودهم بسلاح لا يمكن عدوهم مقاومتهم بكمال الإيمان بالله وقوة توكّلهم عليه:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

[سورة النحل: الآية ٩٩]

ومع ذلك فأعانهم على مقاومة هذا العدو المبين بأمور كثيرة: أنزل عليهم كتبه المحتوية على العلوم النافعة والمواعظ المؤثرة والترغيب إلى فعل الخيرات والترهيب من فعل الشرور، وأرسل إليهم الرسل مبشرين من آمن بالله وأطاعه بالثواب العاجل، ومنذرين من كفر وكذب وتولى، بالعقوبات المتنوعة، وضمن لمن اتبع هداه الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، وأنه لا خوف عليه ولا حزن يعتريه؛ وأرشدهم في كتبه وعلى ألسنة رسله إلى الأمور التي بها يحتمون من هذا العدو المبين، وبين لهم ما يدعو إليه هذا الشيطان وطرقه التي يصطاد بها الخليقة.

وكما بينها لهم ووضحها فقد أرشدهم إلى الطرق التي ينجون بها من شره وفتنته، وأعانهم على ذلك إعانة قدرية خارجة عن قدرتهم؛ لأنهم لما بذلوا المجهود واستعانوا بالمعبود، سهل لهم كل طريق يوصل إلى المقصود.

ثم إن الله تعالى أتم نعمته على آدم فخلق منه زوجته حواء من جنسه وعلى شكله ليسكن إليها وتتم المقاصد المتعددة من الزواج والالتئام وتنبث الذرية بذلك، وقال له ولزوجته: إن الشيطان عدو لكما فاحذراه غاية الحذر، فلا يخرجنّكما من الجنة التي أسكنكما الله إياها، وأباحكما أن تأكلا من جميع ثمارها وأن تتمتعا بجميع لذاتها إلاّ شجرة معينة في هذه الجنة فحرمها عليهما فقال: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٩]

وقال الله لآدم في تمتيعه بهذه الجنة: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۞ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [سورة طه: الآيتان ١١٨ و ١١٩]

فمكثا في الجنة ما شاء الله على هذا الوصف الذي ذكره الله وعدوُّهما يراقبهما ويراصدهما وينظر الفرصة فيهما؛ فلما رأى سرور آدم بهذه الجنة ورغبته العظيمة في دوامها، جاءه بطريق لطيف في صورة الصديق الناصح، فقال: يا آدم، هل أدلك على شجرة إذا أكلت منها خلدت في هذه الجنة ودام لك الملك الذي لا يبلى؟ فلم يزل يوسوس ويزين ويسوِّل ويَعِدُ ويُمَنِّي ويُلقي عليهما من النصائح الظاهرة، وهي أكبر الغش حتى غرّهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها وحرمها عليهما؛ فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما بعد ما كانا مستورين وطفقا يخصفان على أنفسهما من أوراق تلك الجنة، أي يلزقان على أبدانهما العارية ليكون بدل اللباس. وسقط في أيديهما وظهرت في الحال عقوبة معصيتهما، وناداهما ربهما:

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾
[سورة الأعراف: الآية ٢٢]

فأوقع الله في قلبيهما التوبة التامة والإنابة الصادقة

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٧]

وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٢٣]

فتاب الله عليهما ومحا الذنب الذي أصابا، ولكن الأمر الذي حذّرهما الله منه، وهو الخروج من هذه الجنة إن تناولا منها تحتَّم ومضى؛ فخرجا منها إلى الأرض التي حشي خيرها بشرّها وسرورها بكدرها.

وأخبرهما الله أنه لا بد أن يبتليهما وذريتهما، وأن من آمن وعمل صالحاً كانت عاقبته خيراً من حالته الأولى، ومن كَذَّب وتولَّى فآخر أمره الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي؛ وحذر الله الذرية منه فقال:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٢٧]

وأبدلهم الله بذلك اللباس الذي نزعه الشيطان من الأبوين بلباس يواري السوآت، ويحصل به الجمال الظاهر في الحياة، ولباس أعلى من ذلك وهو لباس التقوى، الذي هو لباس القلب والروح بالإيمان والإخلاص والإنابة والتحلّي بكل خلق جميل والتخلّي عن كل خلق رذيل؛ ثم بثَّ الله من آدم وزوجه رجالاً كثيراً ونساء، ونشرهم في الأرض واستخلفهم فيها لينظر كيف يعملون.

فوائد مستنبطة من هذه القصة أصولية وفروعية وأخلاق وآداب:

فمنها أن هذه القصة العظيمة ذكرها الله في كتابه في مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شك؛ وهي من أعظم القصص التي اتفقت عليها الرسل ونزلت بها الكتب السماوية واعتقدها جميع أتباع الأنبياء من الأولين والآخرين، حتى نبغت في هذه الأزمان المتأخرة فرقة خبيثة زنادقة أنكروا جميع ما جاءت به الرسل، وأنكروا وجود الباري ولم يثبتوا من العلوم إلا العلوم الطبيعية التي وصلت إليها معارفهم القاصرة.

فبناء على هذا المذهب الذي هو أبعد المذاهب عن الحقيقة شرعاً وعقلاً

أنكروا آدم وحواء وما ذكره الله ورسوله عنهما، وزعموا أن هذا الإنسان كان حيواناً قرداً أو شبيهاً بالقرد، حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة. وهؤلاء اغترُّوا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة، خصوصاً ما جاءتهم به الرسل، وصَدَق عليهم قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

وهؤلاء أمرهم ظاهر لجميع المسلمين ولجميع المثبتين وجود الباري، يعلمون أنهم أضل الطوائف، ولكن تسرب على بعض المسلمين من هذا المذهب الدهري بعض الآثار والفروع المبنية على هذا القول، إذ فسر طائفة من العصريين سجود الملائكة لآدم أن معناه تسخير هذا العالم للآدميين، وأن المواد الأرضية والمعدنية ونحوها قد سخرها الله للآدمي، وأن هذا هو معنى سجود الملائكة. ولا يستريب مؤمن بالله واليوم الآخر أن هذا مستمد من ذلك الرأي الأفن، وأنه تحريف لكتاب الله، لا فرق بينه وبين تحريف الباطنية والقرامطة، وأنه إذا أولت هذه القصة إلى هذا التأويل توجه نظير هذا التحريف لغيرها من قصص القرآن. وانقلب القرآن بعد ما كان تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة ـ رموزاً يمكن كل عدو للإسلام أن يفعل بها هذا الفعل، فيبطل بذلك القرآن وتعود هدايته إضلالاً، ورحمته نقمة. سبحانك هذا بهتان عظيم.

والمؤمن في هذا الموضع يكفيه لإبطال هذا القول الخبيث أن يتلو ما قصّه الله علينا من قصة آدم وسجود الملائكة، فيعلم أن هذا مناف لما قصد الله ورسوله غاية المنافاة، وإن زخرفه أصحابه ولووا له العبارات ونسبوه إلى بعض من يحسن بهم الظن، فالمؤمن لا يترك إيمانه ولا كتاب ربه لمثل هذه الترويجات المغَرِّرة أو المغرور أصحابها.

ومنها فضيلة العلم وأن الملائكة لما تبين لهم فضل آدم بعلمه عرفوا بذلك كماله وأنه يستحق الإجلال والتوقير.

ومنها أن من منّ الله عليه بالعلم عليه أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن يقول كما قالت الملائكة والرسل: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، وأن يتوقى التكلم بما لا يعلم، فإن العلم أعظم المنن وشكر هذه النعمة الاعتراف لله بها والثناء عليه بتعليمها وتعليم الجهال، والوقوف على ما علمه العبد والسكوت عما لم يعلمه.

ومنها أن الله جعل هذه القصة لنا معتبراً، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد، فكبر إبليس وحسده لآدم صيّره إلى ما ترى، وحرص آدم وزوجه حملهما على تناول الشجرة، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلى الهلاك، ولكن رحمة الله تكمل الناقص وتجبر الكسير وتنجي الهالك وترفع الساقط.

ومنها أنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص وإنابة صادقة؛ فما قص الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدي بهما فنفوز بالسعادة وننجو من الهلكة؛ وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان من توعدنا وعزمه الأكيد على أغوائنا بكل طريق إلا لنستعد لهذا العدو الذي تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة، والله يحب منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته، وفعل الأسباب التي يخشى منها الوقوع في شباكه، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة والأذكار القلبية والتعوذات المتنوعة، ومن السلاح المهلك له من صدق الإيمان وقوة التوكل على الله ومراغمته في أعمال الخير ومقاومة وساوسه والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلب كل وقت بما يضادها ويبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة.

ومنها أن فيها دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله ما أثبته لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات كلها، لا فرق بين صفات الذات ولا بين صفات الأفعال.

ومنها إثبات اليدين لله كما هو في قصة آدم صريحاً: لما خلقت بيدي. فله يدان حقيقة، كما أن ذاته لا تشبهها الذوات، فصفاته تعالى لا تشبهها الصفات.

قصة نوح ﷺ

مكث البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على الهدى، ثم اختلفوا وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة، فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم فجاءهم الشيطان فأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتسلوا بها وليتذكروا بها أحوالهم، فكان هذا مبتدأ الشر؛ فلما هلك الذين صوروهم لهذا المعنى جاء من بعدهم وقد اضمحل العلم، فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء وَدًّا وسُواعاً ويَغُوث ويَعُوق ونَسرا؛ قد كان أوَّلوكم يدعونهم ويستشفعون بهم، وبهم يسقون الغيث وتزول الأمراض، فلم يزل بهم حتى انهمكوا في عبادتهم على رغم نصح الناصحين؛ ثم بعث الله فيهم نوحاً ﷺ يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه، فقال:

﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٩]

ورغبهم في خير الدنيا والآخرة فقال:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [سورة نوح: الآيات ٢ ــ ٤]

فلما باداهم بالأمر بالإخلاص لله وتسفيه آرائهم وتخويفهم بعقوبات الدنيا والآخرة قالوا:

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾[سورة هود: الآية ٢٧]

وطلبوا منه أن يطرد من كان معه من المؤمنين استكباراً منهم واستنكافاً على الحق وعلى الخلق، فبيَّن لهم أنه ليس به ضلال، وإنما به تزول الضلالة عن الخلق، وأنه رسول أمين على بينة من ربه وبراهين واضحة، وأن المؤمنين لا يحل طردهم، بل حقهم الإكرام والاحترام، وأنه لا يدعي لهم طوراً يزاحم فيه الرب فقال:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ [سورة هود: الآية ٣١]

فلم يزل يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً وإعراضاً وتواصياً منهم على الإقامة على ما هم عليه من عبادة غير الله والتمسك بها فقال نوح:

﴿رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا * وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا * وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [سورة نوح: الآيات ٢١ ـ ٢٣]

فلما رأى أن التذكير لا ينفع فيهم بوجه من الوجوه؛ وأنه كلما جاء قرن كان أخبث مما قبله، قال:

﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [سورة نوح: الآيتان ٢٦ و٢٧]

فأجاب الله دعوته وأمره أن يصنع الفلك برعاية منه وحسن نظر وتعليم من الله له هذه الصنعة التي امتن الله بها على العباد، وصار نوح له الفضل والابتداء بهذه الصناعة التي حصل بها من المنافع الدينية والدنيوية في جميع الأوقات ما لا يعد ولا يحصى؛ وأخبره الله بتحتم إغراقهم، وأنه لا يخاطب ربه فيهم فإنهم ظالمون؛ وجعل يصنع الفلك، وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه فقال لهم: إن تسخروا منا اليوم فإنا نسخر منكم إذا وقع الهلاك بكم. وأوحى الله إليه أنه إذا جاء ذلك الوقت وفار التنور، أي جعلت الأرض كلها تتفجر عيوناً من كل جانب حتى المواضع البعيدة عن النار عادة، وأمره أن يحمل من البهائم من كل زوجين اثنين، ذكر وأنثى، ليبقى نسلها لأنه يتعذر حملها كلها، والحكمة تقتضي إبقاء هذه الحيوانات التي خلقها الله مسخرة لمصالح البشر، ويحمل معه جميع من آمن من رجال ونساء، والحال أنه ما آمن

معه إلا قليل؛ وأمره أن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول بالهلاك؛ فلما أركب جميع من أُمر بهم قال لهم: سموا الله كلما جرت وكلما رست. لأن الأسباب مهما عظمت فهي من لطف الله، ولا تمام لها إلا بالله.

فحينئذ فجر الله الأرض عيوناً، وأمر السماء أن تصب الماء المنهمر الكثير، فالتقت مياه السماء بمياه الأرض، وساحت على الأماكن المنخفضة، ثم ارتفعت شيئاً فشيئاً على كل المرتفعات حتى خفيت قمم الجبال الشاهقة، والسفينة تجري بهم في موج كالجبال تضرب يميناً وشمالاً. وفي تلك الحال المزعجة رأى نوح ابنه الكافر الذي كان على دين قومه وقد اعتزل أباه حتى في هذه الحال، فرآه مثل سائر قومه قد فرَّ هارباً من المياه الجارفة، فناداه نوح مترقفاً فقال:

﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة هود: الآية ٤٢]

فتمادى به الغرور في تلك الحال التي تنقشع فيها الغياهب إلا عن القلوب المحجوبة؛ فقال:

﴿ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾ [سورة هود: الآية ٤٣]

لم يخطر ببالهم أن المياه سترتفع فوق رؤوس الجبال، فقال له نوح:

﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ ﴾ [من الآية]

فلا يعصم جبل ولا حصن ولا غير ذلك إلا من رحم الله، ورحمته في تلك الحال متعينة في ركوب السفينة مع نوح

﴿ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ ﴾ [من الآية]

فكان ذلك الابن من المغرقين.

فأغرق الله جميع الكافرين ونجّى نوحاً ومن معه أجمعين، وكان في ذلك آية على أن ما جاء به نوح من التوحيد والرسالة والبعث والدين حق، وأن من خالفه فإنه مبطل، ودليل على الجزاء في الدنيا لأهل الإيمان بالنجاة والكرامة، ولأهل الكفر بالهلاك والإهانة.

فلما حصل هذا المقصود العظيم أمر الله السماء أن تقلع عن الماء، والأرض أن تبلع ما فيها وغيض الماء، أي نقص شيئاً فشيئاً، واستوت السفينة بعد غيض الماء على الجودي، وهو جبل شامخ معروف في نواحي الموصل.

وهذا دليل على أن جميع الجبال قد غمرتها المياه وجاوزها الطوفان، وحزن نوح على ابنه فقال منادياً ربه مترقفاً متضرعاً يا رب:

﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة هود الآية ٤٥]

أن أحمل معي أهلي وأنت أرحم الراحمين، فقال له ربه:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦]

أي الموعود بنجاتهم، لأن الله قيد ذلك بقوله:

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [سورة هود: الآية ٤٠]

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [سورة هود: الآية ٤٦]

أي هذا الدعاء لابنك الذي على دين قومه بالنجاة

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [تتمة الآية]

وهذا عتاب منه لنوح وتعليم له وموعظة عن مثل هذا الدعاء الذي إنما حمله عليه الشفقة الأبوية، وإنما الواجب في الدعاء أن يكون الحامل له العلم والإخلاص في طلب رضى الله تعالى فقال نوح:

﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
[سورة هود: الآيتان ٤٧ و٤٨]

فهبط وبارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين؛ فكان أولاده يافث ملأ المشرق من الذرية، وحام ملأ المغرب من النسل، وسام ملأ ما بين ذلك،

ومكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومكث بعد هلاكهم ما شاء الله، وكان من أولي العزم من المرسلين، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم القيامة، وهو أول الرسل إلى الناس، وهو الأب الثاني للبشر، ﷺ تسليماً.

يستفاد من هذه القصة أمور:

منها: أن جميع الرسل، من نوح إلى محمد، صلى الله عليهم وسلم، متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهي عن الشرك؛ فنوح وغيره أول ما يقولون لقومهم: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة.

ومنها: آداب الدعوة وتمامها، فإن نوحا دعا قومه ليلاً ونهاراً، وسرًّا وجهاراً.. بكل وقت وبكل حالة يظن فيها نجاح الدعوة، وأنه رغّبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب، وبالتمتيع بالأموال والبنين، وإدرار الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل؛ وحذرهم من ضد ذلك، وصبر على هذا صبراً عظيماً كغيره من الرسل، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصل للمطلوب، وأقام الآيات وبيّن البراهين.

ومنها: أن الشُّبَه التي قدح فيها أعداء الرسل برسالتهم من الأدلة على إبطال قول المكذبين فإن الأقوال التي قالوها، ولم يكن عندهم غيرها، ليس لها حظ من العلم والحقيقة عند كل عاقل. فقول قوم نوح: ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل، بل نظنكم كاذبين﴾ تأمل جملها تجدها تمويهات دالَّة على أنهم مبطلون مكابرون للحقيقة، فقولهم: ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ فهل في كون الحق جاء على يد بشر شيء من الشبهة تدل على أنه ليس بحق، ومضمون هذا الكلام أن كل قول قاله البشر من أي مصدر يكون باطلاً. وهذا قدح منهم في جميع العلوم البشرية المستفادة من البشر؛ ومعلوم أن هذا يبطل العلوم كلها، فهل عند البشر علوم إلا مستفيدها بعضهم من بعض وهي متفاوتة، فأعظمها وأصدقها وأنفعها ما تلقاه الناس عن الرسل الذين علومهم عن وحي إلهي.

وكذلك قولهم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أي نحن وأنتم بشر، وقد أجابت الرسل كلهم عن هذه المقالة فقالوا:

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾
[سورة إبراهيم: الآية ١١]

فمنَّ الله على الرسل وخصَّهم بالوحي والرسالة، مع أن إنكارهم عليهم من هذه الجهة من أكبر الجهل وأعظم القدح في نعمة الله، فإن رحمة الله وحكمته اقتضت أن يكون الرسل من البشر ليتمكن العباد من الأخذ عنهم، وتتيسر عليهم هذه النعمة ويسهِّل الله لهم طرقها، فهؤلاء المكذِّبون كفروا بأصل النعمة وبالطريق المستقيم النافع الذي جاءتهم به.

وكذلك قولهم: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ من المعلوم لكل أحد عاقل أن الحق يعرف أنه حق بنفسه لا بمن تبعه، وأن هذا القول الذي قالوه صدر عن كبر وتيه، والكبر أكبر مانع للعبد من معرفة الحق ومن اتباعه.

وأيضاً قولهم: ﴿أراذلنا﴾ إن أرادوا الفقر، فالفقر ليس من العيوب، وإن أرادوا أراذلنا في الأخلاق، فهذا كذب معلوم بالبديهة، وإنما الأراذل الذين قالوا هذه المقالة، فهل الإيمان بالله ورسله وطاعة الله ورسله والانقياد للحق والسلامة من كل خصلة ذميمة، هل هذا الوصف رذيلة وأهله أراذل؟ أم الرذيلة بضده... من ترك أفرض الفروض توحيد الله وشكره وحده وامتلاء القلب من التكبر على الحق وعلى الخلق؟ هذا والله أرذل الرذائل، ولكن القوم مباهتون فما نقموا من هؤلاء الأخيار إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.

وقولهم: ﴿بادي الرأي﴾ أي مبادرة منهم إلى الإيمان بك يا نوح، لم يشاوروا ولم يتأنوا ويترووا لو فرض أن هذا حقيقة فهذا من أدلة الحق، فإن الحق عليه من البراهين والنور والجلالة والبهاء والصدق والطمأنينة ما لا يحتاج إلى مشاورة أحد باتباعه، وإنما التي تحتاج إلى مشاورة هي الأمور الخفية، التي لا تعلم حقيقتها ولا منفعتها؛ أما الإيمان الذي هو أجلى من الشمس في نورها، وأحلى من كل شيء، فما يتأخر عنه إلا كل متكبر جبار أمثال هؤلاء الطغاة البغاة.

وقولهم: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ هل في هذا الكلام شيء من الإنصاف بوجه، لأنهم يخبرون عن أنفسهم، وكلامهم يحتمل أنه الذي في قلوبهم، ويحتمل أنهم يقولون ما لا يعتقدون. وعلى كلا الأمرين فالحق يجب قبوله، سواء أقاله الفاضل أو المفضول، الحق أعلى من كل شيء.

وكذلك قولهم: ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ معلوم أن الظن أكذب الحديث؛ ثم لو قالوا: بل نعلمكم كاذبين. فهذه كل مبطل يقدر أن يقولها، ولكن بأي شيء استدللتم أنهم كاذبون؟ فهذه أدلتهم وبراهينهم أبطلت نفسها بنفسها كما ترى، فكيف وقد قابلها الرسل بالأدلة والبراهين المتنوعة التي لا تبقى ريب لأحد في بطلانها.

ومنها أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم إخلاصهم التام لله تعالى في عبوديتهم لله القاصرة وفي عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق، كالدعوة والتعليم وتوابع ذلك، ولذلك يبدون ذلك ويعيدونه على أسماع قومهم كل منهم يقول:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[سورة هود:الآية ٢٩]

ولهذا كان من أجلِّ الفضائل لأتْباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا.

ومنها أن القدح في نيات المؤمنين وفيما منَّ الله عليهم به من الفضائل والتألي على الله أنه لا يؤتيهم من فضله من مواريث أعداء الرسل، فلهذا قال نوح لقومه حين تألوا على الله وتوسلوا في ذم المؤمنين به بذلك، فقال: ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم﴾.

ومنها أنه ينبغي الاستعانة بالله، وأن يذكر اسمه عند الركوب والنزول وفي جميع التقلبات والحركات، وحمد الله والإكثار من ذكره عند النعم لا سيما النجاة من الكربات والمشقات، كما قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ﴾ [سورة هود: الآية ٤١]

وقال: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢٨]

وأنه ينبغي أيضاً الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة؛ كالمنازل في إقامات السفر وغيره، والمنازل المستقرة: كالمساكن والدور لقوله:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢٩]

وفي ذلك كله من استصحاب ذكر الله، ومن القوة على الحركات والسكنات، ومن قوة الثقة بالله ومن نزول بركة الله التي خير ما صحبت العبد في أحواله كلها ما لا غنى للعبد عنه طرفة عين.

ومنها أن تقوى الله والقيام بواجبات الإيمان من جملة الأسباب التي تُنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان ـ وإن كان لذلك أيضاً أسباب أُخر. وهي السبب الوحيد الذي ليس هناك سبب سواه في نيل خير الآخرة والسلامة من عقابها.

ومنها أن النجاة من العقوبات العامة الدنيوية هي للمؤمنين، وهم الرسل وأتباعهم، وأما العقوبات الدنيوية العامة فإنها تختص بالمجرمين ويتبعهم توابعهم من ذرية وحيوان، وإن لم يكن لها ذنوب، لأن الوقائع التي أوقع الله بأصناف المكذِّبين شملت الأطفال والبهائم؛ وأما ما يذكر في بعض الإسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد الله إهلاكهم أعقم الأرحام حتى لا يتبعهم في العقوبة أطفالهم فهذا ليس له أصل، وهو مناف للأمر المعلوم، وذلك مصداق لقوله تعالى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾

[سورة الأنفال: الآية ٢٥]

قصة هود عليه الصلاة والسلام

بعث الله هوداً عليه الصلاة والسلام إلى قومه عـاداً الأولى المقيمين بالأحقاف ـ من رمال حضرموت ـ لما كثر شرهم وتجبروا على عباد الله وقالوا:

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [سورة فصلت: الآية ١٥]

مـع شركهم بالله وتكذيبهم لرسل الله، فأرسله الله إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن الشرك والتجبر على العباد، ويدعوهم بكل وسيلة ويذكرهم ما أنعم الله عليهم به من خير الدنيا والبسطة في الرزق والقوة، فردوا دعوته وتكبَّروا عن إجابته وقالوا:

﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٥٤]

وهم كاذبون في هذا الزعم، فإنه ما من نبـي إلا أعطاه الله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر؛ ولو لم يكن من آيات الرسل إلا أن نفس الدين الذي جاءوا به أكبر دليل أنه من عند الله لإحكامه وانتظامه للمصالـح في كل زمان بحسبه وصدق أخباره، وأمره بكل خير ونهيه عن كل شر، وأن كل رسول يصدق من قبله ويشهد له، ويصدقه من بعده ويشهد له.

ومن آيات هود الخاصة أنه متفرد وحده في دعوته وتسفيه أحـلامهم وتضليلهم والقدح في آلهتهم، وهم أهل البطش والقوة والجبروت، وقد خوَّفوه بآلهتهم إن لم ينته أن تمسه بجنون أو سوء، فتحدَّاهم علناً وقال لهم جهاراً:

﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآيات ٥٤ ـ ٥٦]

فلم يصلوا إليه بسوء.

فأي آية أعظم من هذا التحدي لهؤلاء الحريصين على إبطال دعوته بكل

طريق؟ فلما انتهى طغيانهم تولَّى عنهم وحذَّرهم نـزول العذاب، فجـاءهم العذاب معترضاً في الأفق، وكان الوقت وقت شدة عظيمة وحاجة شديدة إلى المطر، فلما استبشروا وقالوا:

﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٤]

قال الله: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٤]

بقولكم فاءتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين:

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأحقاف: الآيتان ٢٤ و٢٥]

تمر عليه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [سورة الحاقَّة: الآية ٧]

﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

[سورة الأحقاف: الآية ٢٥]

فبعدما كانت الدنيا لهم ضاحكة، والعز بليـغ، ومطالب الحياة متوفرة، وقد خضع لهم من حولهم من الأقطار والقبائل، إذ أرسل الله إليهم ريحًا صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون:

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [سورة هود: الآية ٦٠]

ونجى الله هوداً ومن معه من المؤمنين، إن في ذلك لآيـة على كمال قدرة الله وإكرامه الرسل وأتباعهم، ونصرهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وآية على إبطال الشرك، وأن عواقبه شر العواقب وأشنعها، وآية على البعث والنشور.

فوائد من هذه القصة:

فيها ما تقدم في قصة نوح من الفوائد المشتركة بين الرسل؛ ومنها أن الله

بحكمته يقص علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب وما حولها؛ لأن القرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير، والله تعالى صرف فيه التذكيرات تصريفاً نافعاً، ولا ريب أن الأقطار النائية عنا في مشارق الأرض ومغاربها قد بعث الله إليهم رسلاً، ولهم معهم نظير ما للمذكورين من إجابة ورَدٍّ وإكرام وعقوبة، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولاً، ولكن نفعنا بتذكيرنا بما حولنا وما نتناقله جيلاً بعد جيل، بل نشاهد آثارهم ونمر بديارهم كل وقت ونفهم لغاتهم، وطبائعهم أقرب إلى طبائعنا، لا ريب أن نفع هذا عظيم، وأنه أولى من تذكيرنا بأمم لم نسمع لهم بذكر ولا خبر، ولا نعرف لغاتهم، ولا تتصل إلينا أخبارهم بما يطابق ما يخبرنا الله به؛ فيؤخذ من هذا أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم وأنسب لأحوالهم وأدخل في مداركهم وأنفع لهم من غيره أولى من التذكيرات بطرق أخرى وإن كانت حقاً، لكن الحق يتفاوت، والمذكِّر والمعلِّم إذا سلك هذا الطريق واجتهد في إيصال العلم والخبر إلى الناس بالوسائل التي يفهمونها، ولا ينفرون منها أو تكون أقرب لإقامة الحجة عليهم نفع وانتفع، وأشار الباري إلى هذا في آخر قصة عاد، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾

[سورة الأحقاف: الآية ٢٧]

أي نوعناها بكل فن ونوع

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٧]

أي ليكون أقرب لحصول الفائدة.

ومنها أن اتخاذ المباني الفخمة للفخر والخيلاء والزينة وقهر العباد بالجبروت من الأمور المذمومة الموروثة عن الأمم الطاغية، كما قال الله في قصة عاد وإنكار هود عليهم، قال:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾

[سورة الشعراء: الآيتان ١٢٨ و١٢٩]

وبالجملة فالبنايات للقصور والحصون والدور وغيرها من الأبنية:

إما أن تتخذ مساكن للحاجة إليها، والحاجات تتنوع وتختلف، فهذا النوع من الأمور المباحة، وقد يتوسل به بالنية الصالحة إلى الخير.

وإما أن تكون البنايات حصوناً واقية لشرور الأعداء، وثغوراً تحفظ بها البلاد ونحوها مما ينفع المسلمين ويقيهم الشر، فهذا النوع يدخل في الجهاد في سبيل الله، وهو داخل في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء.

وإما أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله وتبذير الأموال التي يتعين صرفها في طرق نافعة، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره الله على عاد وغيرهم.

ومنها أن العقول والأذهان والذكاء وما يتبع ذلك من القوة المادية، وما ترتب عليها من النتائج والآثار وإن عظمت وبلغت مبلغاً هائلاً، فإنها لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها الإيمان بالله ورسله.

وأما الجاحد لآيات الله المكذب لرسل الله، فإنه وإن استُدرج في الحياة وأُمهل فإن عاقبته وخيمة، وسمعه وبصره وعقله لا يغني عنه شيئاً إذا جاء أمر الله، كما قال الله عن عاد:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

وفي الآية الأخرى:

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [سورة هود: الآية ١٠١]

قصة صالح عليه الصلاة والسلام

كانت ثمود ــ وهي عاد الثانية ــ يسكنون في الحجر وما حولها، وكانوا أهل مواش كثيرة وأهل حروث وزروع، وتواصلت عليهم النعم فكانوا يتخذون من السهول قصوراً مزخرفة، ومن الجبال بيوتاً منحوتة متقنة، فبطروا النعم وكفروها، وعبدوا غير الله، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحاً من قبيلتهم، يعرفون نسبه وحسبه، وفضله وكماله، وصدقه وأمانته، فدعاهم إلى الله وإلى إخلاص الدين له، وترك ما كانوا يعبدون من دونه، وذكرهم بنعم الله وبأيامه بالأمم المجاورة لهم، فلم يتبعه إلا القليل.

وحين ذكرهم وأقام الأدلة والبراهين على وجوب توحيد الله اشمأزوا ونفروا واستكبروا وقالوا:

﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ [سورة هود: الآية ٦٢]

أي قد كنا قد تخايلنا فيك أن تفضلنا جميعاً لكمالك وكمال أخلاقك، وآدابك الطيبة.

وهذا اعتراف منهم له بهذه الأمور قبل أن يقول ما قال، فما نزله عن هذه المرتبة عندهم إلا أنه دعاهم إلى عبادة الخالق من عبادة العبيد، وإلى السعادة الأبدية، وما ذنبه إلا أنه خالف آباءهم الضالين، وهم كانوا أضل منهم، ثم أقام لهم بينة عظيمة وبرهاناً ونعمة على جميع القبيلة بأسرها وقال: هذه ناقة الله ــ التي لا يشبهها شيء من النوق في ذاتها وشرفها ومنافعها لكم ــ آية على صدقي وعلى سعة رحمة ربكم، فذروها تأكل في أرض الله على الله رزقها ولكم نفعها ترد الماء يوماً فترد القبيلة بأسرها على ضرعها كل يصدر عن ضرعها قد ملأ آنيته، ثم تردون أنتم في اليوم الثاني، فمكثت على هذا ما شاء الله.

وكان في مدينتهم تسعة رهط من شياطينهم قد قاوموا ما جاء به صالح أشد المقاومة، يصدون عن سبيل الله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان صالح قد حذرهم من عقر الناقة لما رأى من كبرهم وردهم الحق؛ فأول ما فعل

أولئك الملأ الأشرار أن عقدوا مجلساً عاماً ليتفقوا على عقر الناقة، فاتفقوا، فانتدب لذلك أشقى القبيلة، ولهذا قال الله تعالى:

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ١٢]

أي بعد اتفاقهم وندبهم إياه بعثوه لذلك، فانبعث واستعد وتكفل لهم بعقرها؛ وهم جميعهم راضون بل آمرون؛ فعقرها، فكان هذا العقر مؤذناً بهلاك القبيلة بأسرها.

فلما شعر صالح بالأمر ورأى منظراً فظيعاً علم أن العذاب قد تحتم لا محالة، لأن الجريمة قد تفاقمت، ولم يبق حالة يرجى فيها لهم تقويم. فقال لهم صالح: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام. ذلك وعد غير مكذوب، ونبَّه بهذا الكلام دانيهم وقاصيهم؛ ففي أثناء هذه المدة اتفق هؤلاء الرهط التسعة على أمر أغلظ من عقر الناقة؛ على قتل نبيهم صالح، وتعاهدوا وتعاقدوا وحلفوا الأَيْمان المغلظة، وكتموا أمرهم خشية من مَنَعِ أهل بيته، لأنه في بيت عز وشرف، وقالوا: لنبيتنه وأهله، ثم إذا ظن بنا أننا قتلناه حلفنا لأوليائه أننا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون. فدبروا هذا المكر العظيم، ولكنهم يمكرون ويمكر الله لنبيه صالح. فحين كمنوا في أصل جبل لينظروا الفرصة في صالح، بدأ الله بعقوبتهم، فكانوا سلفاً مقدَّماً لقومهم إلى نار جهنم، فأرسل الله صخرة من أعلى الجبل فشدختهم وقتلوا أشنع قتلة، ثم لما تمت ثلاثة هذه الأيام جاءتهم صيحة من فوقهم ورجفة من أسفل منهم فأصبحوا خامدين، ونجى الله صالحاً ومن معه من المؤمنين، وتولى عنهم وقال:

﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٧٩]

فوائد تتعلق بهذه القصة:

منها أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة، وأن من كذَّب واحداً منهم فقد كذَّب الجميع، لأنه يكذِّب الحق الذي جاء به كل واحد منهم، ولهذا يقول في

كـل قصة: كـذبت قوم نـوح المـرسلين، كـذبت عـاد المـرسلين، كـذبت ثمود المرسلين.

ومنها أن عقوبات الله للأمم الطاغية عند تناهي طغيانها وتفاقم جرائمها، فكُفْرهم وتكذيبهم موجب للهلاك، ولكن تحتم الإهلاك عند تناهي الشرور، ولهذا أرجى ما يكون لوقوع العقوبة بالظالمين المجرمين عند تناهي إجرامهم، لأن الله تعالى بالمرصاد فيمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومنها أن العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عمن يحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق، والحال أنها ليست في العير ولا في النفير، ولا لها مقام في الحجج الصحيحة الدالَّة على الحقائق، فلهذا أكبر ما رد به قوم صالح لدعوته أن قالوا: أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا. وقالت جميـع الأمم المكذبة رادِّين لدعوة الرسل:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾

[سورة الزخرف: الآية ٢٣]

وهذا سبيل لا يـزال معموراً بـالسالكـين من أهل البـاطـل، نهجته الشياطين ليصدوا به العباد عن سبيل الله، ومن المعلوم أن طريق الرسل هي طريق الهدى والحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال..

قصة إبراهيم خليل الرحمن ﷺ

قد ذكر الله في كتابه سيرة وأخباراً كثيرة من سيرة إبراهيم، فيها لنا الأسوة بالأنبياء عموماً، وبه على وجه الخصوص؛ فإن الله أمر نبينا وأمرنا باتباع ملته، وهي ما كان عليه من عقائد وأخلاق وأعمال قاصرة ومتعدية، فقد آتاه الله رشده وعلَّمه الحكمة منذ كان صغيراً، وأراه ملكوت السموات والأرض، ولهذا كان أعظم الناس يقيناً وعلماً وقوة في دين الله ورحمته بالعباد. وكان قد بعثه الله إلى قوم مشركين يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وهم فلاسفة الصابئة الذين هم من أخبث الطوائف وأعظمهم ضرراً على الخلق، فدعاهم بطرق شتى،

فأول ذلك دعاهم بطريقة لا يمكن صاحب عقل أن ينفر منها، ولما كانوا يعبدون السبع السيارات التي منها الشمس والقمر، وقد بنوا لها البيوت وسموها الهياكل، قال لهم ناظراً ومناظراً: هلم يا قوم ننظر هل يستحق منها شيء الإلهية والربوبية:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٦]

والمناظرة تخالف غيرها في أمور كثيرة.

منها أن المُناظِر يقول الشيء الذي لا يعتقده ليبني عليه حجته، وليقيم الحجة على خصمه، كما قال في تكسيره الأصنام لما قالوا له:

﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٢]

فأشار إلى الصنم الذي لم يكسره فقال:

﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣]

ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة، وقد حصلت.

فهنا يسهل علينا فهم معنى قوله: ﴿هذا ربي﴾ أي إن كان يستحق الإلهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي، مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق من الربوبية والإلهية مثقال ذرة، ولكن أراد أن يلزمهم بالحجة:

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٦]

أي غاب

﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٦]

فإن من كان له حال وجود وعدم، أو حال حضور وغيبة، قد علم كل عاقل أنه ليس بكامل، فلا يكون إلهاً. ثم انتقل إلى القمر، فلما رآه بازغاً

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٧]

يريهم صلوات الله وسلامه عليه، وقد صور نفسه بصورة الموافق لهم، لكن على وجه التقليد، بل يقصد إقامة البرهان على إلهية النجوم والقمر، فالآن وقد أفلت، وتَبين بالبرهان العقلي مع السمعي بطلان إلهيتها، فأنا إلى الآن لم يستقر لي قرار على رب وإله عظيم، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا أكبر من النجوم ومن القمر، فإن جرى عليها ما جرى عليهما كانت مثلهما؛ فلما أفلت وقد تقرر عند الجميع فيما سبق أن عبادة من يأفل من أبطل الباطل، فحينئذ ألزمهم بهذا الإلزام ووجه عليهم الحجة فقال:

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ – أي ظاهري وباطني – لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾
[سورة الأنعام: الآيتان ٧٨ و٧٩]

هذا برهان عقلي واضح أن الخالق للعالم العلوي والسفلي هو الذي يتعين أن يُقْصد بالتوحيد والإخلاص، وأن هذه الأفلاك والكواكب وغيرها مخلوقات مدبَّرات ليس لها من الأوصاف ما تستحق العبادة لأجلها؛ فجعلوا يخوفونه آلهتهم أن تمسه بسوء، وهذا دليل على أن المشركين عندهم من الخيالات الفاسدة والآراء الرديئة ما يعتقدون أن آلهتهم تنفع من عَبَدها وتُضر من تركها أو قدح فيها، فقال لهم مبيناً لهم أنه ليس عليه شيء من الخوف، وإنما الخوف الحقيقي عليكم فقال:

﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾
[سورة الأنعام: الآية ٨١]

أجاب الله هذا الاستفهام جواباً يعم هذه القصة وغيرها في كل وقت فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ – أي بشرك – أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٢]

فرفع الله خليله إبراهيم بالعلم وإقامة الحجة، وعجزوا عن نصر باطلهم؛ ولكنهم صمموا على الإقامة على ما هم عليه، ولم ينفع فيهم الوعظ والتذكير وإقامة الحجج، فلم يزل يدعوهم إلى الله وينهاهم عما كانوا يعبدون نهياً عامًّا وخاصًّا، وأخص من دعاه أبوه آزر؛ فإنه دعاه بعدة طرق نافعة، ولكن

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [سورة يونس: الآيتان ٩٦ و٩٧]

فمن جملة مقالاته لأبيه إذ قال لأبيه:

﴿ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [سورة مريم: الآيتان ٤٢ و٤٣]

انظر إلى حسن هذا الخطاب الجاذب للقلوب: لم يقل لأبيه إنك جاهل؛ لئلا ينفر من الكلام الخشن؛ بل قال له هذا القول: ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ۝ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾[سورة مريم: الآيات ٤٣ـ ٤٥]

فانتقل بدعوته من أسلوب لآخر لعله ينجع فيه أو يفيد، ولكنه مع ذلك قال له أبوه:

﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾

[سورة مريم: الآية ٤٦]

هذا وإبراهيم لم يغضب ولم يقابل أباه ببعض ما قال؛ بل قابل هذه الإساءة الكبرى بالإحسان فقال:

﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ ﴾ [سورة مريم: الآية ٤٧]

أي لا أتكلم معك إلا بكلام طيب لا غلظة فيه ولا خشونة، ومع ذلك

فلست بآيس من هدايتك ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾
[سورة مريم: الآية ٤٧]

أي بَراً رحيماً قد عودني لطفه وأجراني على عوائده الجميلة ولم يزل لدعائي مجيباً.

فلم يزل إبراهيم مع قومه في دعوة وجدال، وقد أفحمهم وكسر جميع حججهم وشُبَهَهُم، فأراد ﷺ أن يقاومهم بأعظم الحجج وأن يصمد لبطشهم وجبروتهم وقدرتهم وقوتهم، غير هائب ولا وجل، فلما خرجوا ذات يوم لعيد من أعيادهم وخرج معهم فنظر نظرة في النجوم فقال: إني سقيم، لأنه خشي إن تَخَلَّف لغير هذه الوسيلة، لم يدرك مطلوبه لأنه تظاهر بعداوتها والنهي الأكيد عنها وجهاد أهلها. فلما برزوا جميعاً إلى الصحراء كرَّ راجعاً إلى بيت أصنامهم فجعلها جذاذاً كلها إلا صنماً كبيراً أبقى عليه ليلزمهم بالحجة. فلما رجعوا من عيدهم بادروا إلى أصنامهم صبابة ومحبة، فرأوا فيها أفظع منظر رآه أهلها فقالوا:

﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾

[سورة الأنبياء: الآيتان ٥٩ و٦٠]

أي يعيبها ويذكرها بأوصاف النقص والسوء

﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٠]

فلما تحققوا أنه الذي كسرها:

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[سورة الأنبياء: الآية ٦١]

أي بحضرة الخلق العظيم. ووبخوه أشد التوبيخ ثم نكلوا به، وهذا الذي أراد إبراهيم، ليظهر الحق بمرأى الخلق ومسمعهم؛ فلما جمع الناس وحضروا، وحضَّروا إبراهيم قالوا:

﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾
[سورة الأنبياء: الآيتان ٦٢ و٦٣]

مشيـرًا إلى الصنم الذي سلم من تكسيره، وهم في هذه بين أمرين، إما أن يعترفوا بالحق وأن هذا لا يدخل عقل أحد أن جماداً معروفاً أنه مصنوع من مواد معروفة لا يمكن أن يفعل هذا الفعل؛ وإما أن يقولوا: نعم هو الذي فعلها وأنت سالم ناج من تبعتها؛ وقد علم أنهم لا يقولون الاحتمال الأخير، قال: فاسألوهم إن كانوا ينطقون. وهذا تعليق بالأمر الذي يعترفون أنه محال، فحينئذ ظهر الحق وبان واعترفوا هم بالحق فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم، أي ما كان اعترافهم ببطلان إلهيتها إلا وقتاً قصيراً ظهرت الحجة مباشرة التي لا يمكن مكابرتها، ولكن ما أسرع ما عادت عليهم عقائدهم الباطلة التي رسخت في قلوبهم وصارت صفات ملازمة، إن وجد ما ينافيها، فإنه عارض يعرض ثم يزول

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾

[سورة الأنبياء: الآية ٦٥]

فحينئذ وبخهم بعد إقامة الحجة التي اعترف بها الخصوم على رؤوس الأشهاد، فقال لهم:

﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآيتان ٦٦ و٦٧]

فلو كان لكم عقول صحيحة لم تقيموا على عبادة ما لا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه من يريده بسوء. فلما أعيتهم المقاومة بالبراهين والحجج عدلوا إلى استعمال قوتهم وبطشهم وجبروتهم في عقوبة إبراهيم فقالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. فأوقدوا ناراً عظيمة جداً فألقوه بها، فقال وهو في تلك الحال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال الله للنار:

﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٩].

فلم تضره بشيء، وأرادوا به كيداً لينصروا آلهتهم ويقيموا لها في قلوبهم وقلوب أتباعهم الخضوع والتعظيم، فكان مكرهم وبالاً عليهم، وكان انتصارهم

لآلهتهم نصراً عظيماً عند الحاضرين والغائبين والموجودين والحادثين عليهم. وانتصر الخليل على الخواص والعوام والـرؤساء والمرؤوسين حتى إن ملكهم حاجَّ إبراهيم في رَبِّه بغياً وطغياناً، أن آتاه الله الملك فقال إبراهيم:

﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٥٨]

فألزمه الخليل بطرد دليله بالتصرف المطلق، فقال:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٨]

فصـــل

ثم خرج من بين أظهرهم مهاجراً وزوجته وابن أخيه لوط إلى الديار الشامية، وفي أثناء مدة إقامته بالشام ذهب إلى مصر بزوجته سارة، وكانت أحسن امرأة على الإطلاق، فلما رآها ملك مصر وكان جباراً عنيداً لم يملك نفسه حتى أرادها على نفسها، فدعت الله عليه، فكاد أن يموت ثم أطلق ثم عاد ثانية، وكلما أرادها دعت عليه فصرع، ثم دعت له فأطلق، فكفاهما الله شره، ووهب لها هاجر جارية قبطية، وكانت سارة عاقراً منذ كانت شابة فوهبت هذه الجارية لإبراهيم ليتسررها لعل الله يرزقه منها ولداً، فأتت هاجر بإسماعيل على كبر إبراهيم ففرح به فرحاً شديداً ولكن سارة، رضي الله عنها أدركتها الغيرة فحلفت أن لا يساكنها بها، وذلك لما يريده الله. وهذا من جملة الأسباب لذهابه بها إلى موضـع البيت الحرام، وإلا فهو متقرر عنده ذلك عليه السلام.

فذهب بها وبابنها إسماعيل إلى مكة، وهي في ذلك الوقت ليس فيها سكن ولا مسكن ولا ماء ولا زرع ولا غيره، وزودهما بسقاء فيه ماء وجراب فيه تمر، ووضعهما عند دوحة قريبة من محل بئر زمزم ثم قفى عنهما؛ فلما كان في الثنية بحيث يشرف عليهما، دعا الله تعالى فقال:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٧] إلى آخر الدعاء.

ثم استسلمت لأمر الله وجعلت تأكل من ذلك التمر وتشرب من ذلك الماء حتى نفدا، فعطشت ثم عطش ولدها، فجعل يتلوى من العطش؛ ثم ذهبت في تلك الحال لعلها ترى أحداً أو تجد مغيثاً، فصعدت أدنى جبل منها وهو الصفا، وتطلعت فلم تر أحداً؛ ثم ذهبت إلى المروة فصعدت عليه فتطلعت، فلم تر أحداً؛ ثم جعلت تتردد في ذلك الموضع وهي مكروبة مضطرة مستغيثة بالله لها ولابنها، وهي تمشي وتلتفت إليه خشية السباع عليه، فإذا هبطت الوادي سعت حتى تصعد من جانبه الآخر لئلا يخفى على بصرها ابنها.

والفرج مع الكرب، والعسر يتبعه اليسر؛ فلما تمت سبع مرات تسمعت حس الملك فبحث في الموضع الذي فيه زمزم فنبع الماء، فاشتد فرح أم إسماعيل به فشربت منه وأرضعت ولدها، وحمدت الله على هذه النعمة الكبرى، وحوطت على الماء لئلا يسيح. قال النبي ﷺ «رحم الله أم إسماعيل: لو تركت ماء زمزم ــ أي لم تحوطه ــ لكانت زمزم عيناً معيناً» ثم عثر بها قبيلة من قبائل العرب يقال لهم جرهم، فنزلوا عندها وتمت عليها النعمة.

وشب إسماعيل شباباً حسناً وأعجب القبيلة بأخلاقه وعلو همته وكماله؛ فلما بلغ تزوج منهم امرأة، ففي أثناء هذه المدة ماتت أمه رضي الله عنها، وجاء إبراهيم بغيبة إسماعيل يتصيد فدخل على امرأته فسألها عن زوجها وعن عيشهم، فأخبرته أن زوجها قد ذهب يتصيد وأن عيشهم عيش الشدة، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السلام وقولي له يغير عتبة بابه. ورجع من فوره لحكمة أرادها الله، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً. فسأل امرأته فأخبرته أنه جاءهم شيخ بهذا الوصف وأنه سأل عنك فأخبرته. وسألنا عن عيشنا

فأخبرته إننا في شدة، وأنه يقرأ عليك السلام، ويقول لك: غيِّر عتبة بابك. فقال: ذاك أبي، وأنت العتبة إلحقي بأهلك. ثم تزوج إسماعيل غيرها.

ثم جاء إبراهيم مرة أخرى وإسماعيل أيضاً في الصيد، فدخل على امرأته فسألها عن إسماعيل فأخبرته، وسألها عن عيشهم فأخبرته أنهم في نعمة وخير. وكانت امرأة طيبة شاكرة لله وشاكرة لزوجها، ثم قال لها: إذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام وقولي له: يثبت عتبة بابه، ثم رجع أيضاً من فوره قبل مواجهة إسماعيل لحكمة أرادها الله تعالى؛ فلما رجع إسماعيل من صيده قال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: جاءنا شيخ بهذا الوصف. فقال: هل قال لكم من شيء؟ فقالت: سألنا عنك فأخبرته، وسألنا عن عيشنا فأخبرته إنا في نعمة، وأثنيت على الله. فقال: فما قال؟ قالت: هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. فقال: ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.

ثم عاد إبراهيم المرة الثالثة فوجد إسماعيل يبري نبلاً عند زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد الشفيق والولد الشفيق، فقال: يا إسماعيل إن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً يكون معبداً للخلق إلى يوم القيامة: قال سأعينك على ذلك، فجعلا يرفعان القواعد من البيت، إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩]

فلما تمَّ بنيانه وتمَّ للخليل هذا الأثر الجليل أمره الله أن يدعو الناس ويؤذن فيهم بحج هذا البيت، فجعل يدعو الناس وهم يفدون إلى هذا البيت من كل فجٍّ عميق ليشهدوا منافع دنياهم وأخراهم ويسعدوا ويزول عنهم شقاؤهم. وفي هذه الأثناء، حين تمكن حب إسماعيل من قلبه، وأراد الله أن يمتحن

إبراهيم لتقديم محبة ربه وخلته التي لا تقبل المشاركة والمزاحمة، فأمره في المنام أن يذبح إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي من الله. فقال لإسماعيل:

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾

أي خضعا لأمر الله وانقادا لأمره ووطنا أنفسهما على هذا الأمر المزعج الذي لا تكاد النفوس تصبر على عشر معشاره.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ نزل الفرج من الرحمن الرحيم

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾

[سورة الصافات: الآيات ١٠٢ ــ ١٠٥]

فحصل توطين النفس على هذه المحنة والبلوى الشاقة المزعجة، وحصلت المقدمات والجزم المصمم وتم لهما الأجر والثواب، وحصل لهما الشرف والقرب والزلفى من الله، وما ذلك من ألطاف الرب بعزيز. قال تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ * وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾

[سورة الصافات: الآيات ١٠٥ ــ ١٠٧]

وأي ذِبْحٍ أعظم من كونه حصل به مقصود هذه العبادة التي لا يشبهها عبادة، وصار سنة في عقبه إلى يوم القيامة يتقرب به إلى الله ويدرك به ثوابه ورضاه:

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾

[سورة الصافات: الآيتان ١٠٨ و١٠٩]

فصل

ثم إن الله أتم النعمة على إبراهيم، ورحم زوجته سارة على الكبر والعقم واليأس بالبشارة بالابن الجليل وهو إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فحين

أرسل الله لوطاً إلى قومه، وتمرَّدوا عليه وحتَّم الله عقوبتهم، وكان لوط عليه السلام تلميذاً لإبراهيم، ولإبراهيم عليه حقوق كثيرة، فمرت الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط بإبراهيم بصورة آدميين؛ فلما دخلوا عليه وسلموا ردَّ عليهم السلام، بادرهم بالضيافة، وكان الله قد أعطاه الرزق الواسع والكرم العظيم، وكان بيته مأواً للأضياف، فبالحال راغ إلى أهله بسرعة وخفية منهم، فجاء بعجل سمين محنوذ مشوي على الرضف فقربه إليهم، فقال:

﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٧]

فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، إذ ظن أنهم لصوص:

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [سورة هود: الآية ٧٠]

وكانت سارة قائمة في خدمتهم، وبشره بغلام عليم، فصرخت سارة وصكت وجهها متعجبة ومستبشرة ومترددة ومتحيرة وقالت:

﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [سورة هود: الآية ٧٢]

وقبل ذلك كنت عقيماً، وهذا بعلي شيخاً، إن هذا لشيء عجيب؛ قالوا: أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد، فبشراهما بإسحاق وأنه يعيش ويولد له يعقوب ويدركانه. ولهذا حمد الله إبراهيم على تمام نعمته وقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٩]

فصـــل
فيما في قصة الخليل من الفوائد

ليعلم أن جميع ما قصه الله علينا من سيرة إبراهيم الخليل ﷺ فإننا مأمورون به أمراً خاصاً قال تعالى:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨] أي الزموها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٣]

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ الآية [سورة الممتحنة: الآية ٤]

فما هو عليه في التوحيد والأصول والعقائد والأخلاق وجميع ما قص علينا من نبأه؛ فإن اتباعنا إياه من ديننا؛ ولهذا لما كان هذا أمراً عاماً لأحواله كلها استثنى الله حالة من أحواله فقال:

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [سورة الممتحنة: الآية ٤]

أي فلا تقتدوا به في هذه الحال بالاستغفار للمشركين، فإن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

ومنها أن الله اتخذه خليلاً، والخلة أعلى درجات المحبة، وهذه المرتبة لم تحصل لأحد من الخلق إلا للخليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

ومنها ما أكرمه الله به من الكرامات المتنوعة، جعل في ذريته النبوة والكتاب، وأخرج من صلبه أمتين هما أفضل الأمم: العرب وبنو إسرائيل؛ واختاره الله لبناء بيته الذي هو أشرف بيت وأول بيت وضع للناس؛ ووهب له الأولاد بعد الكبر واليأس، وملأ بذكره ما بين الخافقين وامتلأت قلوب الخلق من محبته وألسنتهم من الثناء عليه.

ومنها أن الله رفعه بالعلم واليقين وقوة الحجج، قال جل ذكره:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٥]

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣]

ومن شوقه إلى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أن سأل ربه:

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠]

ومنها أن من عزم على فعل الطاعات وبذل مقدوره في أسبابها، ثم حصل مانع يمنع من إكمالها، أن أجره قد وجب على الله، كما قال الله ذلك في المهاجر الذي يموت قبل أن يصل إلى مهاجره، وكما ذكره الله في قصة الذبح، وأن الله أتمَّ الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسلما لله وأذعنا لأمره، ثم رفع عنهما المشقة وأوجب لهما الأجر الدنيوي والأخروي.

ومنها ما في قصصه من آداب المناظرة: طرقها ومسالكها النافعة وكيفية إلزام الخصم بالطرق الواضحة التي يعترف بها أهل العقول، وإلجاؤه الخصم الألد إلى الاعتراف ببطلان مذهبه وإقامة الحجة على المعاندين وإرشاد المسترشدين.

ومنها أن من نعمة الله على العبد هبة الأولاد الصالحين، وأن عليه في ذلك أن يحمد الله ويدعو الله لذريته كما فعل الخليل ﷺ في قوله:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٩] إلى آخر الدعاء.

وقال جلَّ ذكره في الثناء عموماً على من يدعو الله بصلاح ذريته:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ١٥]

فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلاَّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

ومنها أن المشاعر ومواضع الأنساك من جملة الحكم فيها، أن فيها تذكيرات بمقامات الخليل وأهل بيته في عبادات ربهم، وإيمان بالله ورسله، وحث على الاقتداء بهم في كل أحوالهم الدينية وكل أحوال الرسل دينية، لقوله تعالى:

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥]

ومنها الأمر بتطهير المسجد الحرام من الأنجاس ومن جميع المعاصي القولية والفعلية، تعظيماً لله وإعانة وتنشيطاً للمتعبدين فيه، ومثله بقية المساجد لقوله عز وجل:

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

[سورة الحج: الآية ٢٦]

وقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾

[سورة النور: الآية ٣٦]

ومنها أن أفضل الوصايا على الإطلاق ما وصَّى به إبراهيم بنيه ويعقوب؛ وهو الوصية بملازمة القيام بالدين وتقوى الله والاجتماع على ذلك، وهي وصيته تعالى للأولين والآخرين، إذ بها السعادة الأبدية والسلامة من شرور الدنيا والآخرة.

ومنها أن العامل ـ كما عليه أن يتقن عمله ويجتهد في ايقاعه على أكمل الوجوه ـ فعليه مع ذلك أن يكون بين الخوف والرجاء، وأن يتضرع إلى ربه في قبوله وتكميل نقصه والعفو عما وقع فيه من خلل أو نقص، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت وهما بهذا الوصف الكامل.

ومنها أن الجمع بين الدعاء لله بمصالح الدنيا والدين من سبيل أنبياء الله، وكذلك السعي في تحصيلهما الدين هو الأصل والمقصود الذي خلق له

الخلق والدنيا وسيلة ومعونة عليه لدعاء الخليل لأهل البيت الحرام بالأمرين، وتعليله الدعاء بالأمور الدنيوية أنه وسيلة إلى الشكر فقال:

﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٧]

ومنها ما اشتملت عليه قصة إبراهيم من مشروعية الضيافة وآدابها، فإن الله أخبر عن ضيفه أنهم مكرمون، يعني أنهم كرماء على الله؛ وأيضاً إبراهيم أكرمهم بضيافته قولاً وفعلاً، فإكرام الضيف من الإيمان، وأنه خدمهم بنفسه وبادر بضيافتهم قبل كل شيء، وأتى بأطيب ماله: عجل حنيذ سمين، وقرَّبه إليهم ولم يحوجهم إلى الذهاب إلى عمل آخر وعرض عليهم الأكل بلفظ رقيق فقال: ألا تأكلون؟

ومنها مشروعية السلام، وأن المبتدىء فيه هو الداخل وهو الماشي، وأنه يجب رده ومشروعية الوقوف على اسم من يتصل بك من صاحب ومعامل وضيف لقوله:

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٥]

أي لا أعرفكم فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، وهذا ألطف من قوله أنكرتكم ونحوه.

ومنها الترغيب في أن يكون أهل الإنسان ومن يتولى شؤون بيته حازمين مستعدين لكل ما يراد منهم من الشؤون والقيام بمهمات البيت، فإن إبراهيم في الحال بادر إلى أهله فوجد طعام ضيوفه حاضراً لا يحوج إلا إلى تقديمه.

ومنها أن إتيان الولد والبشارة به من سارة، وهي عجوز عقيم، يعد معجزة لإبراهيم وكرامة لسارة ففيه معجزة نبي وكرامة ولي، ونظيره بشارة الملائكة لمريم بعيسى: وبشارتهم بيحيى لزكريا وزوجته، وكون زكريا جعل الله آية وجود المبشر به أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام؛ وهو سويٌّ لا آفة فيه إلا بالرمز والإشارة، وكل هذا وما أشبهه من آيات الله، وأعجب من هذا إيجاده آدم من تراب. فسبحان من هو على كل شيء قدير.

ومنها ثناء الله على إبراهيم أنه أتى ربه بقلب سليم، وقد قال:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[سورة الشعراء: الآيتان ٨٨ و٨٩]

والجامع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أسبابها، ملآن من الخير والبرّ والكرم، سليم من الشبهات القادحة في العلم واليقين، ومن الشهوات الحائلة بين العبد وبين كماله، سليم من الكبر ومن الرياء والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وسليم من الغل والحقد، ملآن بالتوحيد والإيمان والتواضع للحق وللخلق، والنصيحة للمسلمين والرغبة في عبودية الله وفي نفع عباد الله.

ومنها ما ذكره في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون والياس

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٧٩]

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٠٩]

يتبعها بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٠٥]

فوعد الباري أن كل محسن في عبادته محسن إلى عباده أن الله يجزيه الثناء الحسن والدعاء من العالمين بحسب إحسانه، وهذا ثواب عاجل وآجل، وهو من البشرى في الحياة الدنيا ومن علامات السعادة.

قصة لوط عليه السلام

وقصة لوط عليه السلام تبع لقصة إبراهيم، لأنه تلميذه وقد تعلَّم من إبراهيم، وكان له بمنزلة الابن، فنبأه الله بحياة الخليل وأرسله إلى قرى سدوم من غور فلسطين، وكانوا مع شِركهم بالله يلوطون بالذكور، ولم يسبقهم أحد إلى هذه الفاحشة الشنعاء، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وحذرهم من هذه الفاحشة؛ فلم يزدادوا إلا عتواً وتمادياً فيما هم فيه. ولما أراد الله هلاكهم أرسل الملائكة لذلك فمروا بطريقهم على إبراهيم وأخبروه بذلك؛ فجعل إبراهيم يجادل في إهلاكهم ــ وكان رحيماً حليماً ــ وقال:

﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ ﴾
[سورة العنكبوت: الآية ٣٢]

فقيل: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ [سورة هود: الآية ٧٦]

ولما ذهب الملائكة إلى لوط بصورة أضياف آدميين شباب، ساء لوطاً ذلك

﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾ [سورة هود: الآية ٧٧]

لعلمه بما عليه قومه من هذه الجراءة الشنيعة؛ ووقع ما خاف منه، فجاءه قومه يهرعون إليه يريدون فعل الفاحشة بأضياف لوط، فقال:

﴿ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ ﴾ [سورة هود: الآية ٧٨]

لعلمه أنه لا حق لهم فيهن، كما عرض سليمان للمرأتين حين اختصمتا في الولد فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما. ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك، وهذا مثله. ولهذا قال قومه:

﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [سورة هود: الآية ٧٩]

وأيضاً يريد بعض العذر من أضيافه، وعلى هذا التأويل لا حاجة إلى العدول إلى قول بعض المفسرين ﴿هؤلاء بناتي﴾ يعني زوجاتهم، يعني لأن النبي أب لأمته، فإن هذا يمنعه أمران:

أحدهما: قوله ﴿هؤلاء بناتي﴾ يشير إليهن إشارة الحاضر.

ثانياً: هذا الإطلاق على زوجاتهم لا نظير له؛ وأيضاً النبي إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به، لا للكفار، والمحذور الذي توهموه يزول بما ذكرنا، وأنه يعلم أنه لا حق لهم فيهن، وإنما يريد مدافعتهم بكل طريق، فاشتد الأمر بلوط وقال:

﴿ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٠]

أي لدافعتكم، فلما رآهم جازمين على مرادهم الخبيث قال لقومه:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾

[سورة هود: الآية ٧٨]

فاستلجوا في طغيانهم وسكرهم، فحينئذ أخبرته ملائكة الرحمن بأمرهم وأنهم أرسلوا لإهلاكهم، فصدم جبريل أو غيره من الملائكة الذين يعالجون الباب ليدخلوا على لوط فطمس بهذه الصدمة أعينهم، فكان هذا عذاباً معجلاً وأنموذجاً لمن باشروا مراودة لوط على أضيافه، وأمروا لوطاً أن يسري بأول الليل بأهله ويلح في السير حتى يخلف ديارهم وينجو من معرة العذاب؛ فخرج بهم فلما أصبح الصباح حتى خلفوا ديارهم وقلب الله عليهم ديارهم فجعل أعلاها أسفلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين الذين يعملون عملهم ببعيد.

وفي هذه القصة أكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح، وأنها توجب العقاب الشديد، وأن من ابتلي بهذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح، فاستحسن ما كان قبيحاً ونفر من الطيب، وذلك دليل على انحراف الأخلاق.

وفيها وفي قصة إبراهيم جواز التعريض، أما قصة إبراهيم ففي قوله:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ *﴾

[سورة الصافات: الآيتان: ٨٨ و٨٩]

وأما لوط ففي قوله: ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ والتعريض يكون في الأقوال ويكون في الأفعال، وهو أن يقصد المتكلم أو العامل لعمل أمر من الأمور التي لا بأس بها ويوهم السامع والرائي أمراً آخر ليستجلب منفعة أو يدفع مضرة.

ومنها أن من علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدد في أقواله وأفعاله، ومن ذلك أنه ينصر المظلومين ويفرج الكرب عن المكروبين ويأمر بالخير وينهى عن

الشر، هذا هو الرشيد حقيقة، فلهذا قال لوط: أليس منكم رجل رشيد. أي فيأمر بمعروف وينهى عن منكر ويدفع أهل الشر والبغي.

ومنها الحث على السعي في الأعوان على أمور الخير ودفع الشر، ولو كان المعاون على ذلك من أهل الشر، فإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم عند الله، ولهذا قال لوط: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ وأكثر الأنبياء يبعثهم الله في أشراف قومهم ويحصل بذلك من تأييد الحق وقمع الباطل والتمكن من الدعوة ما لا يحصل لو لم يكن كذلك؛ واعتبر هذا بحال شعيب وقول قومه له:

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [سورة هود: الآية ٩١]

وكذلك نبينا محمد بعث في أشرف بيت في قريش وأعزه؛ وقد رماه قومه بالعداوة البليغة وعقدوا المجالس المتعددة في إبطال قوله ودينه، بل وفي كيفية الفتك به؛ ومن الأسباب التي أوقفتهم عند حدهم خوفهم من قبيلته؛ وانظر إلى حالته في تضييقهم عليه بالشعب وانحياز قبيلته معهم ــ مسلمهم وكافرهم ــ ولم يخطر ببالهم أنهم يصلون إلى الفتك بشخصه الكريم حتى مكروا ذلك المكر العظيم، إذ اتفق رأيهم على أن ينتدب لقتله من كل قبيلة رجل ليتفرق دمه في القبائل فيعجز قومه عن الأخذ بثأره؛ ولكنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

قصة شعيب عليه السلام

نبَّأه الله وأرسله إلى أهل مدين، وكانوا مع شركهم يبخسون المكاييل والموازين، ويغشون في المعاملات وينقصون الناس أشياءهم، فدعاهم إلى توحيد الله ونهاهم عن الشرك به وأمرهم بالعدل في المعاملات، وزجرهم عن البخس في المعاملات، وذكَّرهم الخير الذي أدره الله عليهم، والأرزاق المتنوعة، وأنهم ليسوا بحاجة إلى ظلم الناس في أموالهم، وخَوَّفَهم العذاب المحيط في الدنيا قبل الآخرة، فأجابوه ساخرين وردوا عليه متهكمين فقالوا:

﴿ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٧]

أي فنحن جازمون على عبادة ما كان آباؤنا يعبدون، وجازمون على أننا نفعل في أموالنا ما نريد من أي معاملة تكون، فلا ندخل تحت أوامر الله وأوامر رسله؛ فقال لهم:

﴿ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ ﴾

أي أغناني الله.

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨]

أي ما نهيتكم عن المعاملات الخبيثة وظلم الناس فيها، إلّا وأنا أول تارك لها، مع أن الله أعطاني ووسَّع عليَّ وأنا محتاج إلى المعاملة ولكني متقيد بطاعة ربي، إن أريد في فعلي وأمري لكم إلا الإصلاح، أي أن تصلح أحوالكم الدينية والدنيوية ما استطعت:

﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨]

ثم خوفهم أخذات الأمم التي حولهم في الزمان والمكان فقال:

﴿ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٩]

ثم عرض عليهم التوبة ورغبهم فيها فقال: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ [سورة هود: الآية ٩٠]

فلم يفد فيهم. فقالوا: ﴿ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ ﴾

ـ وهذا لعنادهم وبغضهم البليغ للحق ـ. ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ * قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾

[ثم لما رأى عتوهم قال:]

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾

[سورة هود: الآيات ٩١ ــ ٩٤]

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

[سورة هود: الآية ٥٨]

فأرسل الله عليهم حراً أخذ بأنفاسهم حتى كادوا يختنقون من شدته، ثم في أثناء ذلك أرسل سحابة باردة فأظلتهم فتنادوا إلى ظلها غير الظليل، فلما اجتمعوا فيها التهبت عليهم ناراً فأحرقتهم وأصبحوا خامدين معذّبين مذمومين ملعونين في جميع الأوقات.

وفي قصة شعيب فوائد متعددة:

منها أن بخس المكاييل والموازين خصوصاً، وبخس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.

ومنها أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب، والكبر من الفقير أقبح من الغني، والسرقة ممن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج. لهذا قال شعيب لقومه:

﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ [سورة هود: الآية ٨٤]

أي بنعم كثيرة، فأي أمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة.

ومنها قوله:

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [سورة هود: الآية ٨٦]

فيه الحث على الرضا بما أعطى الله والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس.

ومنها فيه دلالة على أن الصلاة سبب لفعل الخيرات وترك المنكرات وللنصيحة لعباد الله، وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء، إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾

[سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

ومن هنا تعرف حكمة الله ورحمته في أنه فرض علينا الصلوات تتكرر في اليوم والليلة لعظم وقعها وشدة نفعها وجميل آثارها، فلله على ذلك أتم الحمد.

ومنها أن العبد في حركات بدنه وتصرفاته، وفي معاملاته المالية، داخل تحت حجر الشريعة، فما أبيح له منها فعله؛ وما منعه الشرع تعين عليه تركه؛ ومن يزعم أنه في ماله حر له أن يفعل ما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة، فهو بمنزلة من يرى أن عمل بدنه كذلك، وأنه لا فرق عنده بين الكفر والإيمان، والصدق والكذب، وفعل الخير والشر الكل مباح. ومن المعلوم أن هذا هو مذهب الإباحيين الذين هم شر الخليقة، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا. لأنهم أنكروا على شعيب لما نهاهم عن المعاملات الظالمة، وأباح لهم سواها، فردوا عليه أنهم أحرار في أموالهم، لهم أن يفعلوا فيها ما يريدون، ونظير هذا قول من قال: إنما البيع مثل الربا، فمن سَوَّى بين ما أباحه وبين ما حرمه الله فقد انحرف في فطرته وعقله بعد ما انحرف في دينه.

ومنها أن الناصح للخلق الذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس لقوله: أنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له، وإذا نهاهم عن شيء

كان أول التاركين. لقول شعيب: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

ومنها أن الأنبياء جميعهم بُعثوا بالإصلاح والصلاح، ونهوا عن الشرور والفساد؛ فكل صلاح وإصلاح ديني ودنيوي فهو من دين الأنبياء، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ، فإنه أبدى وأعاد في هذا الأصل، ووضع للخلق الأصول النافعة التي يجرون عليها في الأمور العادية والدنيوية، كما وضع لهم كلأصول في الأمور الدينية، وأنه كما أن على العبد السعي والاجتهاد في فعل الصلاح والإصلاح، فعليه أن يستمد العون من ربه على ذلك، وأن يعلم أنه لا يقدر على ذلك ولا على تكميله إلا بالله لقول شعيب: ﴿إن أُريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أُنيب﴾.

ومنها أن الداعي إلى الله يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك، وأن لا يُحْفِظه أذى الخلق ولا يصده عن شيء من دعوته؛ وهذا الخلق كماله للرسل صلوات الله عليهم وسلم، فانظر إلى شعيب عليه السلام وحسن خلقه مع قومه ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعونه الأقوال السيئة ويقابلونه المقابلة الفعلية، وهو ﷺ يحلم عليهم ويصفح، ويتكلم معهم كلام من لم يصدر منهم له وفي حقه إلا الإحسان، ويهون هذا الأمر أن هذا خُلُقٌ من ظفر به وحازه فقد فاز بالحظ العظيم، وأن لصاحبه عند الله المقامات العالية والنعيم المقيم، ويهونه أنه يعالج أمماً قد طبعوا على أخلاق إزالتها وقلعها أصعب من قلع الجبال الرواسي، ومرنوا على عقائد ومذاهب بذلوا فيها الأموال والأرواح، وقدموها على جميع المهمات عندهم، أفتظن مع هذا أن أمثال هؤلاء يقتنعون بمجرد القول بأن هذه مذاهب باطلة وأقوال فاسدة، أم تحسبهم يغتفرون لمن نالها بسوء؟... كلا والله، إن هؤلاء يحتاجون إلى معالجات متنوعة بالطرق التي دعت إليها الرسل، يذكرون بنعم الله وأن الذي تفرد بالنعم يتعين أن يفرد بالعبادة، ويذكر لهم من تفاصيل النعم ما لا يعد ولا يحصى، ويذكرون بما في مذاهبهم من الزيغ والفساد والاضطراب والتناقض المزلزل للعقائد الداعي إلى تركها، ويذكرون بما بين أيديهم وما خلفهم من أيام الله ووقائعه بالأمم المكذبة للرسل، المنكرة للتوحيد، ويذكرون بما في الإيمان بالله وتوحيده ودينه من

المحاسن والمصالح والمنافع الدينية والدنيوية، الجاذبة للقلوب المسهلة لكل مطلوب، ومع هذا كله فيحتاج الخلق إلى الإحسان إليهم وبذل المعروف، وأقل ذلك الصبر على أذاهم وتحمل ما يصدر منهم ولين الكلام معهم، وسلوك كل سبيل حكمة معهم، والتنقل معهم في الأمور بالاكتفاء ببعض ما تسمح به أنفسهم ليستدرج بهم إلى تكميله، والبداءة بالأهم فالأهم، وأعظمهم قياماً بهذه الأمور وغيرها سيدهم وخاتمهم وإمام الخلق على الإطلاق: محمد ﷺ.

قصة موسى وهارون عليهما السلام

قد ذكر الله لموسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام سيرة طويلة، وساق قصصه في مواضع من كتابه بأساليب متنوعة واختصار أو بسط يليق بذلك المقام. وليس في قصص القرآن أعظم من قصة موسى، لأنه عالج فرعون وجنوده، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل؛ وشريعته وكتابه التوراة، هو مرجع أنبياء بني إسرائيل وعلمائهم وأتباعه أكثر أتباع الأنبياء غير أمة محمد ﷺ. وله من القوة العظيمة في إقامة دين الله والدعوة إليه والغيرة العظيمة ما ليس لغيره، وقد ولد في وقت قد اشتد فيه فرعون على بني إسرائيل: فكان يذبح كل مولود ذكر يولد من بني إسرائيل ويستحيي النساء للخدمة والامتهان؛ فلما ولدته أمه خافت عليه خوفاً شديداً، فإن فرعون جعل على بني إسرائيل من يرقب نساءهم ومواليدهم، وكان بيتها على ضفة نهر النيل فألهمها الله أن وضعت له تابوتاً إذا خافت أحداً ألقته في اليم، وربطته بحبل لئلا تجري به جرية الماء ومن لطف الله بها أنه أوحى لها أن لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين.

فلما ألقته ذات يوم انفلت رباط التابوت، فذهب الماء بالتابوت الذي في وسطه موسى، ومن قدر الله أن وقع في يد آل فرعون وجيء به إلى امرأة فرعون آسية. فلما رأته أحبته حباً شديداً، وكان الله قد ألقى عليه المحبة في القلوب وشاع الخبر ووصل إلى فرعون فطلبه ليقتله، فقالت امرأته: لا تقتلوه... قرة عين لي ولك عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، فنجا بهذا السبب من قتلهم،

وكان هذا الأثر الطيب والمقدمة الصالحة من السعي المشكور عند الله، فكان هذا من أسباب هدايتها وإيمانها بموسى بعد ذلك.

أما أم موسى فإنها فزعت وأصبح فؤادها فارغاً، وكاد الصبر أن يغلب فيها إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته قصيه وتحسسي عنه، وكانت امرأة فرعون قد عرضت عليه المراضع فلم يقبل ثدي امرأة، وعطش وجعل يتلوى من الجوع وأخرجوه إلى الطريق لعل الله أن ييسر له أحداً، فحانت من أخته نظرة إليه وبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون بشأنها، فلما أقبلت عليه وفهمت منهم أنهم يطلبون له مرضعاً قالت لهم: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؛ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن. ثم ذكر الله في هذه السورة قصة مفصلة واضحة، وكيف تنقلت به الأحوال، قراءتها كافية عن شرح معناها لوضوحها وتفصيلاتها، والله تعالى ما فصّل لنا إلا ما ننتفع به ونعتبر، ولكن في قصته من العبر والفوائد شيء كثير ننبه على بعضها.

ذكر الفوائد المستنبطة نصاً أو ظاهراً أو تعميماً أو تعليلاً من قصة موسى ﷺ:

منها: لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها، ثم تلك البشارة من الله لها بردِّه إليها، التي لولاها لقضى عليها الحزن على ولدها، ثم رده إليها بإلجائه إليها قدراً بتحريم المراضع عليه. وبذلك وغيره يعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول، ولا تعبر عنها العبارات، وتأمل موقع هذه البشارة وأنه أتاها ابنها ترضعه جهراً وتأخذ عليه أجراً وتسمى أمه شرعاً وقدراً، وبذلك اطمأن قلبها وازداد إيمانها، وفي هذا مصداق لقوله تعالى:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة وآثاره الطيبة.

ومنها: أن آيات الله وعبره في الأمم السابقة؛ إنما يستفيد منها ويستنير بها

المؤمنون؛ والله يسوق القصص لأجلهم، كما قال تعالى في هذه القصة:

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
[سورة القصص: الآية ٣]

ومنها: أن الله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدريج لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي أن يستولي عليها الكسل عن السعي في حقوقها ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله بني إسرائيل على ضعفها واستعبادها لفرعون وملئه منهم، ومكنهم في الأرض وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تطالب بحقها لا يقوم لها أمر دينها كما لا يقوم لها أمر دنياها.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص لقوله:

﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة القصص: الآية ١٠]

والمراد بالإيمان هنا زيادته وزيادة طمأنينته.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على العبد تثبيت الله له عند المقلقات والمخاوف، فإنه كما يزداد به إيمانه وثوابه فإنه يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب، ويبقى رأيه وأفكاره ثابتة؛ وأما من لم يحصل له هذا الثبات، فإنه لقلقه وروعه يضيع فكره ويذهل عقله ولا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق، وأن وعد الله نافذ لا بد منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع، فإن الأسباب والسعي فيها من قدر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك لما التقطه

آل فرعون سعت بالأسباب وأرسلت أخته لتقصه وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال إذا انتفى المحذور، كما صنعت أخت موسى وابنتا صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، كما فعلت أم موسى، فإن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد من شرعنا ما ينسخه.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، فإن موسى ندم على قتله القبطي واستغفر الله منه وتاب إليه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين المفسدين في الأرض؛ ولو كان غرضه من ذلك الإرهاب، ولو زعم أنه مصلح حتى يرد الشرع بما يبيح قتل النفس.

ومنها: أن إخبار الغير بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شر يقع به لا يكون نميمة، بل قد يكون واجباً، كما ساق الله خبر ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى محذِّراً لموسى على وجه الثناء عليه.

ومنها: إذا خاف التلف بالقتل بغير حق في إقامته في موضع، فلا يلقي بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك، بل يفرّ من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى.

ومنها: إذا كان لا بد من ارتكاب إحدى مفسدتين تعين ارتكاب الأخف منهما، الأسلم دفعاً لما هو أعظم وأخطر؛ فإن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو ذهابه إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير هداية ربه، ومعلوم أنها أرجى للسلامة، لا جرم آثرها موسى.

ومنها: فيه تنبيه لطيف على أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلم به، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه ويسأله أن

يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب من هذه حاله، كما جرى لموسى لما قصد تلقاء مدين ولا يدري الطريق المعين إليها قال:

﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٢]

وقد هداه الله وأعطاه ما رجاه وتمناه.

ومنها: أن الرحمة والإحسان على الخلق، من عرفه العبد ومن لا يعرفه، من أخلاق الأنبياء؛ وأن من جملة الإحسان الإعانة على سقي الماشية، وخصوصاً إعانة العاجز، كما فعل موسى مع ابنتي صاحب مدين حين سقى لهما، لما رآهما عاجزتين عن سقي ماشيتهما قبل صدور الرعاة.

ومنها: أن الله كما يحب من الداعي أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه العامة والخاصة، فإنه يحب منه أن يتوسل إليه بضعفه وعجزه وفقره وعدم قدرته على تحصيل مصالحه ودفع الأضرار عن نفسه كما قال موسى:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٤]

لما في ذلك من إظهار التضرع والمسكنة والافتقار لله الذي هو حقيقة كل عبد.

ومنها: أن الحياء والمكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم الصالحين.

ومنها: أن العبد إذا عمل العمل لله خالصاً ثم حصل به مكافأة عليه بغير قصده فإنه لا يلام على ذلك ولا يخل بإخلاصه وأجره، كما قبل موسى مكافأة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يطلبه ولم يستشرف له على معاوضة.

ومنها: جواز الإجارة على كل عمل معلوم في نفع معلوم أو زمن مسمى، وأن مرد ذلك إلى العرف، وأنه تجوز الإجارة وتكون المنفعة البضع، كما قال صاحب مدين:

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٧]

وأنه يجوز للإنسان أن يخطب الرجل لابنته ونحوها ممن هو ولي عليها ولا نقص في ذلك، بل قد يكون نفعاً وكمالاً، كما فعل صاحب مدين مع موسى.

ومنها قوله:

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٦]

هذان الوصفان بهما تمام الأعمال كلها، فكل عمل من الولايات أو من الخدمات أو من الصناعات أو من الأعمال التي القصد منها الحفظ والمراقبة على العمال والأعمال إذا جمع الإنسان الوصفين، أن يكون قوياً على ذلك العمل بحسب أحوال الأعمال، وأن يكون مؤتمناً عليه، تم ذلك العمل وحصل مقصوده وثمرته، والخلل والنقص سببه الإخلال بهما أو بأحدهما.

ومنها: من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومعامل وغيرهم، ومن ذلك تخفيف العمل عن العامل لقوله:

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٧]

وفيه أنه لا بأس أن يرغب المعامل في معاملته بالمعاوضات والإجارات بأن يصف نفسه بحسن المعاملة بشرط أن يكون صادقاً في ذلك.

ومنها: جواز عقد المعاملات من إجارة وغيرها بغير إشهاد لقوله:

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٨]

وتقدم أن الإشهاد تنحفظ به الحقوق، وتقل المنازعات، والناس في هذا الموضع درجات متفاوتة وكذلك الحقوق.

ومنها: الآيات البينات التي أيدّ الله بها موسى من انقلاب عصاه التي كان يعرفها:

﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢٠]

ثم عودها سيرتها الأولى، وأن يده إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها صارت بيضاء من غير سوء للناظرين؛ ومن رحمة الله وحمايته لموسى وهارون من فرعون وملئه، ومن انفلاق البحر لما ضربه موسى بعصاه فصار اثني عشر طريقاً وسلكه هؤلاء فنجوا، وقوم فرعون فهلكوا؛ وغير ذلك من الآيات المتتابعات التي هي براهين وآيات لمن رآها وشاهدها، وبراهين لمن سمعها، فإنها نقلتها معظم مصادر اليقين، الكتب السماوية، ونقلتها القرون كلها، ولم ينكر مثل هذه الآيات إلا جاهل مكابر زنديق، وجميع آيات الأنبياء بهذه المثابة.

ومنها: أن آيات الأنبياء وكرامات الأولياء وما يخرقه الله من الآيات ومن تغيير الأسباب أو منع سببيتها أو احتياجها إلى أسباب أُخر أو وجود موانع تعوقها هي من البراهين العظيمة على وحدانية الله، وأنه على كل شيء قدير، وأن أقدار الله لا يخرج عنها حادث جليل ولا حقير، وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييرات لا تنافي ما جعل الله في هذه المخلوقات من الأسباب المحسوسة والنظامات المعهودة، وإنك لا تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً؛ فإن سنن الله في جميع الحوادث السابقة واللاحقة قسمان:

أحدهما: وهو جمهور الحوادث والكائنات والأحكام الشرعية والقدرية وأحكام الجزاء: لا تتغير ولا تتبدل عما يعهده الناس ويعرفون أسبابه؛ وهذا القسم أيضاً مندرج في قدرة الله وقضائه، ويستفاد من هذا العلم بكمال حكمة الله في خلقه وشرعه، وأن الأسباب والمسببات من سلك طرقها على وجه كامل أفضت به إلى نتائجها وثمراتها؛ ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه ناقص لم يحصل له الثمرات التي رتبت على الأعمال شرعاً ولا قدراً، وهذه توجب للعبد أن يجد ويجتهد في الأسباب الدينية والدنيوية النافعة مع استعانته بالله والثناء على ربه في تيسيرها وتيسير أسبابها وآلاتها وكل ما تتوقف عليه.

والقسم الثاني: حوادث معجزات الأنبياء التي تواترت تواتراً لا يتواتر مثله في جميع الأخبار وتناقلتها القرون كلها، وكذلك ما يكرم الله به عباده من إجابة

الدعوات وتفريج الكربات وحصول المطالب المتنوعة ودفع المكاره التي لا قدرة للعبد على دفعها، والفتوحات الربانية والإلهامات الإلٓهية والأنوار التي يقذفها الله في قلوب خواص خلقه فيحصل لهم بذلك من اليقين والطمأنينة والعلوم المتنوعة ما لا يدرك بمجرد الطلب وفعل السبب، ومن نصره للرسل وأتباعهم وخذلانه لأعدائهم وهو مشاهد في كثير من الأوقات: فهذا القسم ليس عند الخلق اهتداء إلى أسباب هذه الحوادث ولا جعل لهم في الأصل وصول إلى حقيقتها وكنهها، وإنما هي حوادث قدرها الرب العظيم الذي هو على كل شيء قدير بأسباب وحكم وسنن لا يعقلها الخلق، ولا لحواسهم وتجاربهم وصول إليها بوجه من الوجوه، وبها آمن الرسل من أولهم إلى آخرهم وأتباعهم، الأولون منهم والآخرون، وبها يعرف عظمة الباري، وأن نواصي العباد بيده، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويعرف بذلك صحة ما جاءت به الرسل، كما يعرف أيضاً بالقسم الأول، وكما أنه لا سبيل إلى العباد في هذه الدار إلى إدراك كنه صفات اليوم الآخر وكنه ما في الجنة والنار، وإنما يعلمون منها ما علمتهم به الرسل ونزلت به الكتب، ولا سبيل إلى أهل هذا الكون الأرضي للوصول إلى العالم السماوي، ولا سبيل لهم إلى إحياء الموتى وإيجاد الأرواح في الجمادات، فكذلك هذا النوع العظيم من حوادث الكون، وإنما أطلنا الكلام على هذه المسألة، وإن كانت تستحق من البسط أكثر من هذا، لأمرين:

أحدهما: أن الزنادقة المتأخرين الذين أنكروا وجود الباري وأنكروا جميع ما أخبرت به الرسل والكتب السماوية من أمور الغيب، ولم يثبتوا من العلوم إلا ما وصلت إليه حواسهم وتجاربهم القاصرة على بعض علوم الكون، وأنكروا ما سوى ذلك، وزعموا أن هذا العالم وهذا النظام الموجود فيه لا يمكن أن يغيره مغير، أو يغير شيئاً من أسبابه، وأنه وجد صدفة من غير إيجاد موجد، وأنه آلة تمشي بنفسها وطبيعتها، ليس لها مدبر ولا رب ولا خالق، وهؤلاء جميع أهل الأديان يعرفون مكابرتهم ومباهتتهم لأنهم كما عدموا الدين بالكلية فقد اختلت عقولهم الحقيقة، إذ أنكروا أجلى الحقائق وأوضحها، وأعظمها براهين وآيات، وتاهوا بعقولهم القاصرة وآرائهم الفاسدة، هؤلاء أمرهم معلوم ولكن. . .

الأمر الثاني: أن بعض أهل العلم العصريين الذين يتظاهرون بنصر الإسلام، والدخول مع هؤلاء الزنادقة في الجدال عنه يريدون باجتهادهم أو اغترارهم أن يطبقوا السنن الإلٓهية؛ وأمور الآخرة على ما يعرفه العباد بحواسهم ويدركونه بتجاربهم، فحرفوا لذلك المعجزات، وأنكروا الآيات البينات، ولم يستفيدوا إلا الضرر على أنفسهم وعلى من قرأ كتاباتهم في هذه المباحث؛ إذ ضعف إيمانهم بالله بتحريفهم لمعجزات الأنبياء تحريفاً يؤول إلى إنكارها، وإنكارهم هذا النوع العظيم من قضاء الله وقدره، وضعف إيمان من وقف على كلامهم ممن ليست له بصيرة ولا عنده من العلوم الدينية ما يبطل هذا النوع، ولم يحصل ما زعموه من جلب الماديين إلى الهدى والدين، بل زادوهم إغراء في مذاهبهم، لما رأوا أمثال هؤلاء يحاولون إرجاع النصوص الدينية ومعجزات الأنبياء وأمور الغيب إلى علوم هؤلاء القاصرة على التجارب والمدركات بالحواس، فيا عظم المصيبة ويا شدة الجرم المزوق؛ ولكن ضعف البصيرة والإعجاب بزنادقة الدهريين أوجب الخضوع لأقوالهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ومنها: أم من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إماماً في الشر وداعياً إليه؛ كما أن من أعظم نعم الله على العبد أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً، قال تعالى في فرعون وملئه:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [سورة القصص: الآية ٤١]

وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧٣]

ومنها: ما في هذه القصة من الدلالة على رسالة محمد ﷺ إذ أخبر بهذه القصة وغيرها خبرًا مفصَّلاً مطابقاً وتأصيلاً موافقاً، قصه قصًّا صدق به المرسلين وأيد به الحق المبين، وهو لم يحضر في شيء من تلك المواضع، ولا درس شيئاً عرف به أحوال هذه التفصيلات، ولا جالس وأخذ عن أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم، ووحي أنزله عليه الكريم المنان لينذر به العباد أجمعين. ولهذا يقول في آخر هذه القصة:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [سورة القصص: الآية ٤٦]

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾

[سورة القصص: الآية ٤٤]

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [سورة القصص الآية ٤٥]

وهذا نوع من أنواع براهين رسالته.

ومنها: ذكر كثير من أهل العلم أنه يستفاد من قوله تعالى: عن جواب موسى لربه لما سأله عن العصا فقال:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ [سورة طه: الآية ١٨]

استحبابُ استصحاب العصا لما فيه من هذه المنافع المعينة والمجملة في قوله:

﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٨]

وأنه يستفاد منها أيضاً الرحمة بالبهائم والإحسان إليها والسعي في إزالة ضررها. ومنها: أن قوله جلّ ذكره:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤]

أي إن ذكر العبد لربه هو الذي خُلِق له العبد وبه صلاحه وفلاحه، وأن المقصود من إقامة الصلاة إقامة هذا المقصود الأعظم؛ ولولا الصلاة التي تتكرر على المؤمنين في اليوم والليلة لتذكِّرهم بالله، ويتعاهدون فيها قراءة القرآن والثناء على الله ودعائه والخضوع له الذي هو روح الذكر، لولا هذه النعمة لكانوا من الغافلين.

وكما أن الذكر هو الذي خلق الخلق لأجله، والعبادات كلها ذكر لله، فكذلك الذكر يعين العبد على القيام بالطاعات وإن شَقَّت، ويهون عليه الوقوف بين يدي الجبابرة، ويخفف عليه الدعوة إلى الله، قال تعالى في هذه القصة:

﴿ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا * وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ [سورة طه: الآيتان ٣٣ و ٣٤]

وقال: ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴾ [سورة طه: الآية ٤٢]

ومنها: إحسان موسى ﷺ على أخيه هارون، إذ طلب من ربه أن يكون نبياً معه، وطلب المعاونة على الخير والمساعدة عليه إذ قال:

﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾

[سورة طه: الآيات ٢٩ ـ ٣٢]

ومنها: أن الفصاحة والبيان مما يعين على التعليم وعلى إقامة الدعوة، لهذا طلب موسى من ربه أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وأن اللثغة لا عيب فيها إذا حصل الفهم للكلام، ومن كمال أدب موسى مع ربه أنه لم يسأل زوال اللثغة كلها؛ بل سأل إزالة ما يحصل به المقصود.

ومنها: أن الذي ينبغي في مخاطبة الملوك والرؤساء ودعوتهم وموعظتهم: الرفق والكلام اللين الذي يحصل به الإفهام بلا تشويش ولا غلظة، وهذا يحتاج إليه في كل مقام، لكن هذا أهم المواضع. وذلك لأنه الذي يحصل به الغرض المقصود، وهوقاله:

﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [سورة طه: الآية ٤٤]

ومنها: أن من كان في طاعة الله مستعيناً بالله واثقاً بوعد الله راجياً ثواب الله، فإن الله معه؛ ومن كان الله معه فلا خوف عليه، لقوله تعالى:

﴿ لَا تَخَافَآۖ [ثم علله بقوله] إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾

[سورة طه: الآية ٤٦]

وقال تعالى: ﴿ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾

[سورة التوبة: الآية ٤٠]

ومنها: أن أسباب العذاب منحصرة في هذين الوصفين:

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٨]

أي كذب خبر الله وخبر رسله، وتولى عن طاعة الله وطاعة رسله، ونظيرها قوله تعالى:

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة الليل: الآيتان ١٥و ١٦]

ومنها: أن قوله تعالى:

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨٢]

استوعب الله بها الأسباب التي تدرك بها مغفرة الله.

أحدها: التوبة، وهو الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً، وهي تجبّ ما قبلها من الذنوب صغارها وكبارها.

الثاني: الإيمان، وهو الإقرار والتصديق الجازم العام بكل ما أخبر الله به ورسوله، الموجب لأعمال القلوب، ثم تتبعها أعمال الجوارح؛ ولا ريب أن ما في القلب من الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر الذي لا ريب فيه، أصلُ الطاعات وأكبرها وأساسها؛ ولا ريب أنه بحسب قوته يدفع السيئات، يدفع ما لم يقع فيمنع صاحبه من وقوعه، ويدفع ما وقع بالإتيان بما ينافيه وعدم إصرار القلب عليه؛ فإن المؤمن ما في قلبه من الإيمان ونوره لا يجامع المعاصي.

الثالث: العمل الصالح، وهذا شامل لأعمال القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، والحسنات يذهبن السيئات.

الرابع: الاستمرار على الإيمان والهداية والازدياد منها، فمن كمل هذه الأسباب الأربعة فليُبْشِرْ بمغفرة الله العامة الشاملة. ولهذا أتى فيه بوصف المبالغة فقال: ﴿وإني لغفار﴾ ولنكتف من قصة موسى بهذه الفوائد، مع أن فيها فوائد كثيرة للمتأملين.

قصة يونس ﷺ

وهو من أنبياء بني إسرائيل العظام، بعثه الله إلى أهل نينوى ــ من أرض الموصل ــ فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه، ثم كرر عليهم الدعوة فأبوا، فوعدهم العذاب وخرج من بين أظهرهم ولم يصبر الصبر الذي ينبغي، ولكنه أَبَقَ مغاضباً لهم. وهم لما ذهب نبيهم ألقي في قلوبهم التوبة إلى الله والإنابة بعد ما شاهدوا مقدمات العذاب، فكشف الله عنهم العذاب.

والظاهر أن يونس علم انكشاف العذاب عنهم واستمر في ذهابه عنهم، ولهذا قال تعالى:

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٧]

وقال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٤٠]

فركب في سفينة موقرة من الركاب والأحمال، فلما توسطوا البحر شارفت على الغرق ودار الأمر بين أن يبقوا جميعاً فيها فيهلكوا وبين أن يلقوا بعضهم بمقدار ما تخف السفينة فيسلم الباقون، فاختاروا الأخير لعدلهم وتوفيقهم فاقترعوا فأصابت القرعة أناساً منهم، ومنهم يونس ﷺ، ولهذا قال:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٤١]

أي المغلوبين في القرعة، فألقوا فابتلعه حوت في البحر ابتلاعاً، لم يكسر له عظماً ولم يمضغ له لحماً.

فلما صار في جوف الحوت، في تلك الظلمات نادى:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[سورة الأنبياء: الآية ٨٧]

فأمر الله الحوت أن تلقيه بالعراء. فخرج من بطنها كالفرخ الممعوط من البيضة في غاية الضعف والوهن، فلطف الله به وأنبت عليه شجرة من يقطين، فأظلته بظلها الظليل حتى قوي واشتد، وأمره الله أن يرجع إلى قومه فيعلمهم

ويدعوهم، فاستجاب له أهل بلده مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا فمتعناهم إلى حين.

وفي هذه القصة عتاب الله ليونس ﷺ اللطيف، وحبسه في بطن الحوت ليكون كفارة وآية عظيمة وكرامة ليونس. ومن نعمة الله عليه أنه استجاب له هذا العدد الكثير من قومه فكثرة أتباع الأنبياء من جملة فضائلهم.

وفيها استعمال القرعة عند الاشتباه في مسائل الاستحقاق والحرمان إذا لم يكن مرجح سواها، وفي عمل أهل السفينة هذا العمل دليل على القاعدة المشهورة أنه يرتكب أخف الضررين لدفع الضرر الذي هو أكبر منه، ولا ريب أن إلقاء بعضهم وإن كان فيه ضرر؛ فعطب الجميع إذا لم يلق أحد أعظم.

وفيها أن العبد إذا كانت له مقدمة صالحة مع ربه وقد تعرف إلى ربه في حال الرخاء، أن الله يشكر له ذلك، ويعرفه في حال الشدة بكشفها بالكلية أو تخفيفها، ولهذا قال في قصة يونس:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

[سورة الصافات: الآيتان ١٤٣ و١٤٤]

وفيها ما قاله النبي ﷺ: دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلاَّ فرَّج الله عنه ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

وفيها أن الإيمان ينجي من الأهوال والشدائد لقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٨]

أي إذا وقعوا فيها لإيمانهم.

قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

وكانا من أعظم أنبياء بني إسرائيل، وجمع الله لهما بين النبوة والحكمة والملك العظيم القوي؛ أما داود ﷺ فكان من جملة العسكر الذين مع طالوت الذي اختاره أحد أنبياء بني إسرائيل ملكاً على بني إسرائيل لشجاعته وقوته

وعلمه في السياسة ونظام الجيوش، كما قال تعالى:

﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٧]

ولما برزوا لجالوت وجنوده وصبر عسكر طالوت واستعانوا بالله تفوق داود ﷺ على الجميع بالشجاعة العظيمة، فباشر بنفسه قتل ملكهم جالوت، وحصلت الهزيمة على بقيتهم، ونصر الله بني إسرائيل ذلك النصر: نبّأ الله داود وأعطاه الحكمة والملك القوي، كما قال تعالى:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة صۤ: الآية ٢٠]

وكان قد أعطاه الله قوة في العبادة وبصيرة، ووصفه الله بهذين الوصفين اللذين بهما كمال العبد فقال:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾

[سورة صۤ: الآية ١٧]

فوصفه بالقوة العظيمة على ما أمر الله، وبأنه أوَّاب لكمال معرفته بالله.

وكان الله تعالى قد سخر له الطير والجبال تسبِّح الله معه، وكان قد أُعطي من حسن الصوت ورخامته ما لم يؤت أحد من العالمين. وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان إذا لاقى العدو رأى الخلق من شجاعته ما يعجب الناظرين، وقد ألان الله له الحديد وعلَّمه صنعة الدروع الواقية في الحروب، وهو أول من صنع الدروع السردية ذوات الحلق التي يحصل فيها الوقاية وهي خفيفة المحمل؛ وقد عاتبه الله بسبب ذنب أذنبه بأن أرسل إليه ملكين بصورة خصمين، فدخلوا عليه وهو في محرابه ففزع منهم؛ لأنهم دخلوا عليه في وقت لا يدخل عليه فيه أحد وتسوروا المحراب وقالوا:

﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [سورة صۤ: الآية ٢٢]

ثم قص عليه أحدهما القصة فقال: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة

ـ والمراد بها المرأة ـ ولي نعجة واحدة، فقال أكفلنيها؛ وعزني في الخطاب، أي صار خطابه أقوى مني فغلبني. فقال داود عليه السلام: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وعلم داود أنه هو المراد بهذه القضية فانتبه لذلك:

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [سورة ص: الآيتان ٢٤ و٢٥]

فمحا الله عنه الذنب وعاد به بعد التوبة أحسن مما كان قبل ذلك: حصل له القرب العظيم من ربه وحسن العاقبة؛ وقال الله له:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [سورة صۤ: الآية ٢٦].

وأما سليمان بن داود ﷺ فإن الله أعطاه النبوة وورث أباه: علمَه ونبوته وملكَه. وزاده الله ملكاً عظيماً لم يحصل لأحد قبله ولا بعده: سخر الله له الريح تجري بأمر وتدبيره برخاء؛ أي بسهولة حيث أراد، غدوها شهر ورواحها شهر؛ وسخر الله له الجن والشياطين والعفاريت يعملون له الأعمال الفخمة بحسب إرادته؛ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات، وتذهب وتجيء بأمره إلى حيث أراد؛ وسخر له من الجنود من الإنس والجن والطير، فهم يوزعون بتدبير عجيب ونظام غريب؛ وعلَّمه الله منطق الطير وسائر الحيوانات، فكانت تخاطبه ويفهم ما تكلم به، ولهذا خاطب الهدهد وراجعه تلك المراجعة، وسمع النملة إذ نادت في قومها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة النمل: الآية ١٨].

فحذرت وأمرت بما يقي من الخطر واعتذرت عن سليمان وجنوده؛ فلهذا

ابتسم سليمان ضاحكاً من قولها وقال:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة النمل: الآية ١٩]

ومن حسن نظامه وحزمه أنه يتفقد الجنود بنفسه، مع أنه قد جعل لهم مدبرين، فإن قوله:

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٣].

دليل على ذلك، حتى أنه تفقد الطيور لينظر هل هي لازمة لمراكزها فقال:

﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٠]

وليس الأمر كما يقول كثير من المفسرين أنه طلبه لينظر له الأرض وبعد مائها، فإن هذا خلاف اللفظ القرآني، فإن الله لم يقل وطلب الهدهد، بل وقال:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٠]

ثم توعده لمخالفته لأمره؛ ولما كان ملكه مبنياً على كمال العدل استثنى فقال:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة النمل: الآيات ٢١ ـ ٢٦]

ففي هذه المدة القصيرة جاء الهدهد بهذه المعلومات العظيمة. أخبر سليمان عن ملك الديار اليمانية وأن ملكتهم امرأة، وأنها قد أعطيت من كل

شيء يحتاج الملك إليه وأن لها عرشاً عظيماً، ومع فهمه لملكهم وقوتهم فهم أيضاً دينهم، وأنهم مشركون يعبدون الشمس، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار.

هذا من الأدلة على أن الحيوانات تعرف ربها وتسبِّحه وتوحِّده، وتحب المؤمنين وتدين ربها بذلك، وتبغض الكفار المكذبين، وتدين بذلك، فقال له سليمان:

﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ * ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٢٨]

فذهب بالكتاب فألقاه في حجر المرأة: ملكة سبأ؛ فلما قرأته عظمته جداً وأُرعبت منه فزعاً وجمعت رؤساء قومها فقالت:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل: الآيات ٢٩ ـ ٣١]

كتاب مختصر جامع فيه المقصود كله، قالت:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [سورة النمل: الآية ٣٢].

أي أشيروا علي، وهذا من حزمها وحسن تدبيرها استعملت المشورة مع رؤساء قومها

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [سورة النمل: الآيتان ٣٢ و٣٣]

أي مستعدون لما تقولين حرباً وسلماً، وأرجعنا الأمر إلى ما تختارين؛ فمن عزمها وحزمها وبعد نظرها عدلت عن الحرب واختارت السلم، لكن بصورة حازمة، فقالت سأهدي له هدية حاضرة

﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٣٥]

إن كان من الملوك الذين ليس لهم هم إلا الدنيا، فربما أن الهدية كسرت سورته، وفلَّت عزيمته، وسالمنا وسالمناه من بعيد؛ وإن كان غير ذلك بان لنا الأمر.

فأرسلت أناساً ذوي عقل وحزم وخبرة ومعرفة، فلما جاءوا لسليمان بالهدية قال:

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾
[سورة النمل: الآية ٣٦]

فبين لهم أنه لا غرض له في الدنيا، وإنما غرضه إقامة الدين ودخول عباد الله في الإسلام.

ثم وصَّى الرسل واستغنى بذلك عن الكتاب، وقال للرسول:

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾
[سورة النمل: الآية ٣٧]

وعلم سليمان أنهم سينقادون ويسلمون، فقال لأهل مجلسه:

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [سورة النمل: الآيتان ٣٨ و٣٩]

وسليمان بالديار الشامية وبينه وبينها مسافة شهرين ذهاباً وشهرين إياباً: ثم قال الذي عنده علم من الكتاب:

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٠]

يحتمل أنه كما قال أكثر المفسرين إنه رجل صالح قد أُعطي الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وأنه دعا الله فأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه؛ ويحتمل أن الذي عنده علم من الكتاب عنده من الأسباب التي يسخرها الله لسليمان أسباب يحصل بها تقريب المواصلات وجلب الأشياء البعيدة.

وعلى كلٍّ فهذا ملك عظيم بلحظة يحضر له هذا العرش العظيم؛ ولهذا

لما رآه مستقراً عنده حمد الله على ذلك، قال:

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

ثم خاطب من حوله: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي غيروا فيه وزيدوا وأنقصوا

﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النمل: الآيتان ٤٠ و٤١]

وكان قد مُدِح له رأيها وعقلها فأحبَّ أن يقف على الحقيقة، فلما جاءت قيل:

﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢]

وعرض عليها، فلما رأته عرفته ورأت ما فيه من التنكير فأنكرته فقالت مرددة للاحتمالين:

﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢]

لم تقل: هو؛ لما فيه من التغيير، ولم تنف أنه هو؛ لما كانت تعرفه، فأتت بلفظ صالح للأمرين، فعرف سليمان رجاحة عقلها.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٢]

إن كان هذا من كلام سليمان فمعناه إننا أُخبرنا عن عقلها، وعلمنا بذلك قبل هذه الحالة فتحققناها لما سبرناها؛ وإن كان الكلام كلام ملكة سبأ، فإنه تقول: ﴿وأوتينا العلم﴾ عن ملك سليمان، وأنه ملك نبوة ورسالة وقوة هائلة من قبل هذه الحالة ﴿وكنا مسلمين﴾ مذعنين لما قاله سليمان بعدما تحققنا أمره؛ فكأنه قيل: مع عقلها هذا ورأيها السديد فكيف كانت تعبد غير الله، وكيف اجتمع العقل وعبادة من لا ينفع ولا يضر، وإنما يضر من عبده.

حاصل الجواب قوله:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

[سورة النمل: الآية ٤٣]

أي العقائد التي نشأت عليها، والمذاهب الفاسدة تسيطر على عقل العاقل وتذهب لب اللبيب حتى يقيض له من الأسباب المباركة ما يبين له الحق ويمن عليه باتباعه.

وكان له صرح من قوارير أجرى تحته الأنهار، فكان من ينظر إليه يظنه ماء يجري، لأن الزجاج شفاف، فلما قيل لها ادخلي الصرح. فرأته لجة وكشفت عن ساقيها. قال إنه صرح ممرد من قوارير. قالت:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[سورة النمل: الآية ٤٤]

فأسلمت لله واتبعها قومها، فيقال إن سليمان تزوجها، فالله أعلم.

ولما كانت الشياطين زمن سليمان قد سخرهم الله له، وبلَّغه أنهم باجتماعهم بالإنس يعلمونهم السحر، فجمعهم وتوعَّدهم وأخذ كتبهم ودفنها؛ فلما توفي سليمان جاءت الشياطين للناس وقالوا: إن ملك سليمان مشيد على السحر، واستخرجوا الكتب التي دفنها، وأشاعوا من إغوائهم للناس أنها مأخوذة من سليمان، وأن سليمان ساحر، وروج ذلك طائفة من اليهود، فبرأ الله سليمان من هذا الأمر وبين أن السحر من العلوم الضارة فقال تعالى:

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾

أي بتعليم السحر والرضاء به.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ الآية،

[سورة البقرة: الآية ١٠٢]

وهذا من عظمة القرآن أنه يأمر الخلق بالإيمان بجميع الرسل، ويذكرهم بأوصافهم الجميلة وينزِّههم عما قاله الناس فيهم مما ينافي رسالتهم.

وكان الله قد ابتلى سليمان وألقى على كرسيه جسداً، أي شيطاناً عتاباً له على بعض الهفوات وإرجاعاً له إلى كمال الخضوع لربه، ولهذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [سورة صٓ: الآية ٣٤]

إلى الله بقلبه ولسانه وبدنه بظاهره وباطنه فقال:

﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾
[سورة صٓ: الآية ٣٥]

فاستجاب الله له دعاءه وأعطاه ما طلبه من مغفرة الذنب، وأعطاه جميع ما طلب كما تقدم.

وقد أثنى الله على داود وسليمان بالعلم والحكم، وخص سليمان بزيادة الفهم فقال:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾
[سورة الأنبياء: الآية ٧٨]

أي دخلت الغنم بستانهم ليلاً فرعت زرعه وأشجاره؛ فحكم داود بحسب اجتهاده وتقديره أن الغنم تكون لصاحب الحرث، لظنه أن الذي تلف من الحرث يقابل قيمتها. ثم رفعت القضية إلى سليمان، فحكم على صاحب الغنم أن يقوم على حرث صاحب البستان بالسقي والتعمير والملاحظة حتى يعود كما كان قبل نفشها، ويدفع له صاحب الغنم الغنم ينتفع بدرها ولبنها ودهنها وصوفها ومغلها مقابلة ما كان بصدد أن ينتفع بحرثه في هذه المدة؛ فكان هذا الحكم من سليمان أقرب إلى الصواب وأنفع لصاحب الغنم والحرث، فلهذا قال تعالى:

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧٩]

ونظير هذه القضية حكم داود وسليمان بين المرأتين اللتين خرجتا ومع كل واحدة ابنها فعدا الذئب على ابن الكبرى، فادعت الكبرى على الصغرى أن

الذئب أكل ابن الصغرى، وأن الذي سلم من الذئب ابنها، والمرأة الصغرى أنكرت وقالت: بل الذئب أكل ابن الكبرى فتحاكما إلى داود فلم ير لكل منهما بينة إلا قولها. رأى أن يحكم به للكبرى اجتهاداً ورحمة بها لكبرها، وأن الصغرى في مستقبل عمرها سيرزقها الله ولداً بدله. ثم رفعت القضية إلى سليمان فقال لهما: ائتوني بالسكين أشقه بينكما. فرضيت الكبرى. وقالت الصغرى: لما دار الأمر بين تلفه أو بقائه بيد غيرها وهو أهون الأمرين عليها: هو ابنها يا نبي الله؛ فعلم سليمان بهذا الأمر الطبيعي الذي هو من أقوى البينات أنه ليس ابناً للكبرى لكونها رضيت بشقه وإتلافه، وأن دعواها على الأخرى إنما حملها عليه الحسد، وأنه ابن الصغرى حين فزعت من شقه إلى التنازل عن دعواها، فقضى به سليمان للصغرى. ولا ريب أن استخراج الصواب في القضايا بالبينات والقرائن وشواهد الأحوال، من الفهم الذي يخص الله به من يشاء.

فصـــل
في بعض الفوائد المستنبطة
من قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها أن الله يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله لتثبيت فؤاده وتطمين نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوق إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذي تنافسوا في قربه والصبر على أذى قومه، ولهذا ذكر تعالى في أول سورة (صٓ) ما قاله المكذبون لمحمد ﷺ وما آذوه به، قال بعدها:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾

[سورة صٓ: الآية ١٧]

ومنها أن قوله: ﴿ذا الأيدي إنه أواب﴾ مدح عظيم من الله لهذين الوصفين، قوة القلب والبدن على طاعة الله والإنابة، باطناً وظاهراً، إلى الله المستلزمة لمحبته وكمال معرفته، وأن هذين الوصفين للأنبياء على وجه الكمال ولمن بعدهم من أتباعهم على حسب اتباعهم، والثناء من الله عليهما يقتضي

الحث على جميع الأسباب التي تعين على القوة والإنابة؛ وأن يكون العبد رجَّاعاً إلى الله في حال السَّراء والضَّراء، وفي جميع الأحوال.

ومنها ما أكرم الله به نبيه داود ﷺ من حسن الصوت ورخامته، وأن الجبال والطيور تسبح الله معه وتجاوبه، وذلك من زيادة درجاته ومقاماته العالية.

ومنها أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع ويعرف الحكم بين الناس في المقالات والمذاهب، وفي الخصومات والمشاحنات. كما قال تعالى: ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾.

ومنها كمال اعتناء المولى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الهفوات بفتنة إياهم وابتلائهم بما يزول عنهم المحذور حتى يعودوا أكمل من أحوالهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان.

ومنها أن الأنبياء معصومون فيما يبلغون عن الله. فإن الله أمر بطاعتهم مطلقاً، ومقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك؛ وقد يجري منهم أحياناً بعض مقتضيات الطبيعة من المخالفات، ولكن الله تعالى يبادرهم بلطفه ويتداركهم بالتوبة والإنابة.

ومنها أن داود في أغلب أوقاته ملازماً محرابه لخدمة ربه وله وقت يجلس فيه لحوائج الخلق، فقد أتم القيام بحق الله وحق عباده.

ومنها أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الناس، خصوصاً الحكام والرؤساء؛ فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة فير معتادة، ومن غير الباب فزع منهم، واشتد عليه ذلك؛ ورآه غير لائق بالحال.

ومنها أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها كمال حلم داود؛ فإنه ما غضب منهما حين جاءاه بغير استئذان، ولا انتهرهما ولا وبخهما.

ومنها جواز قول المظلوم لمن ظلمه أنت ظلمتني؛ أو: يا ظالم؛ ونحوه؛ أو: يا باغي لقوله: ﴿بغى بعضنا على بعض﴾.

ومنها أن المنصوح ولو كان كبير القدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادر بقبول النصيحة والشكر لمن نصحه، ويحمد الله إذ قيض له النصيحة على يد الناصح، فإن داود لم يشمئز من قول الخصمين: ﴿فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾ بل حكم بالحق الصرف.

ومنها أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب والمعاملين وكثرة التعلقات الدنيوية المالية موجبة للتعادي، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن هذا الداء العضال إلا التقوى والصبر بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها إكرام الله لداود وسليمان بالزلفى عنده وحسن المآب، فلا يتوهم أحد أن ما جرى منهما منقص لدرجتهما عند الله؛ وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال عنهم أثر الذنوب، أزال الآثار المترتبة عليها حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ وما ذلك على فضل الكريم بعزيز.

ومنها أن مرتبة الحكم بين الناس مرتبة دينية تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن على القائم بها الحكم بالحق وأن لا يتبع الهوى؛ فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الأحكام الشرعية الكلية، فالجاهل بواحد من هذه الأمور لا يحل له الإقدام على الحكم بين الناس.

ومنها أن سليمان يعد من فضائل داواد ومن منن الله عليه، قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة صٓ: الآية ٣٠]

وهذا أعظم تزكية وأكبر فخر لسليمان.

ومنها كثرة خير الله وفضله على عبيده الأخيار يمنُّ عليهم بالأخلاق الجميلة

والأعمال الصالحة، ثم يثني عليهم بها ويرتِّب عليها من الثواب أنواعاً منوعة، وهو المتفضل بالأسباب ومسبباتها.

ومنها أن سليمان قدَّم محبة الله على محبة كل شيء، وأتلف الخيل التي ألهته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب.

ومنها أن كل ما أشغل العبد عن طاعة مولاه فهو مشؤوم فليفارقه، وليقبل على ما هو أنفع له.

ومنها أنه يؤخذ من أن سليمان لما أتلف الخيل الجياد ــ التي ألهته عن طاعة الله ــ سخَّر الله له الريح والشياطين: أن من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه.

ومنها أن تسخير الشياطين، وتسخير الريح على الوجه الذي سخرت لسليمان لا تكون لأحد بعد سليمان، ولهذا لما رأى النبي ﷺ أن يأخذ الشيطان الذي تفلَّت عليه ليلةً فيربطه في سارية المسجد قال: «ذكرت دعوة أخي سليمان فتركته».

ومنها أن سليمان كان ملكاً نبياً مباح له أن يفعل ما يريد، ولكنه لكماله لا يريد إلا الخير والعدل، وهذا بخلاف النبي العبد، فإنه لا يكون له إرادة مستقلة، بل إرادته تابعة لمراد الله منه فلا يفعل ولا يترك إلا تبعاً للأمر، كحال نبينا محمد ﷺ.

ومنها أن الله أعطى سليمان ملكاً عظيماً، فيه أمور لا يمكن أن تدرك بالأسباب، وإنما هي من تقدير الملك الوهاب، مثل تسخير الريح تبعاً لأمره، وتسخير الشياطين، وكون جنوده من الإنس والجن والطير، وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة يرسلها للجهات توصل منه الأخبار وتأتيه بأخبار تلك الجهات؛ وقد أعطاها الله من الفهم ومعرفة أحوال الآدميين ما قص الله علينا نبأه في هذه القصة، وكذلك الذي عنده علم من الكتاب حين استعد أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه؛ وهذه آيات أنبياء، فلهذا مهما بلغ

الخلق في الترقي في علوم الطبيعة والمهارة بالمخترعات فلن يصلوا إلى ما أُعطيه سليمان.

ومنها أنه ينبغي للملوك والرؤساء أن يسألوا عن أحوال الأمراء والرؤساء والرجال المتميزين ولا يكتفوا بمجرد السؤال، بل يختبرونهم ويختبرون معرفتهم للأمور وعقولهم؛ كما فعل سليمان مع ملكة سبأ: امتحنها ليستدل على كمال عقلها ورجاحته ولم يكتف بالسؤال، وهذا فيه للملوك فوائد عظيمة، وهم محتاجون لهذا أشد الحاجة، وتمام الملك أن يدير دفته الرجال الكاملون.

قصة أيوب عليه الصلاة والسلام

كان أيوب من أنبياء بني إسرائيل ومن الأصفياء الكرام؛ وقد ذكره الله في كتابه وأثنى عليه بالخصال الحميدة عموماً، وبالصبر على البلاء خصوصاً؛ فإن الله تعالى ابتلاه بولده وأهله وماله، ثم بجسده، فأصابه من البلاء ما لم يصب أحداً من الخلق، فصبر لأمر الله ولم يزل منيباً لله.

ولما تطاول به المرض العظيم، ونسيه الصاحب والحميم نادى ربه:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٣]

فقيل له:

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [سورة صٓ: الآية ٤٢]

فركض، فنبعت بركضته عين ماء بارد، فقيل له: اشرب منها واغتسل: ففعل ذلك فأذهب الله ما في باطنه وظاهره من البلاء، ثم أعاد الله له أهله وماله وأعطاه من النعم والخيرات شيئاً كثيراً؛ وصار بهذا الصبر قدوة للصابرين وسلوة للمبتلين وعبرة للمعتبرين، وكان في مرضه قد وجد على زوجته المرأة البارة الرحيمة في بعض شيء، فحلف أن يجلدها مائة جلدة فخفف الله عنه وعنها، وقيل له: خذ بيدك ضغثاً حزمة حشيش أو علف أو شماريخ أو نحوها فيها مائة عود فاضرب به ولا تحنث، أي ينحل بذلك يمينك. وفي هذا دليل على أن كفارة اليمين لم تشرع لأحد من قبل شريعتنا؛ وأن اليمين عندهم بمنزلة النذر الذي

لا بد من وفائه، وفي هذا دليل على أن من لا يحتمل إقامة الحد عليه لضعفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك، لأن الغرض التنكيل ليس الإتلاف والإهلاك.

قصة الخضر مع موسى، ومحلها في أثناء قصص موسى

وذلك أن موسى ﷺ قام ذات يوم في بني إسرائيل مقاماً عظيماً، علّمهم فيه علوماً جمة؛ وأعجب الناس بكمال علمه، فقال له قائل: يا نبي الله، هل يوجد، أو هل تعلم في الأرض أحداً أعلم منك؟ فقال: لا، بناءاً على ما يعرفه، وترغيباً لهم في الأخذ عنه؛ فأخبره الله أن له عبداً في مجمع البحرين عنده علوم ليست عند موسى، وإلهامات خارجة عن الطور المعهود؛ فاشتاق موسى إلى لقياه رغبة في الازدياد من العلم، فطلب من الله أن يأذن له في ذلك وأخبره بموضعه وتزودا حوتاً وقيل له: إذا فقدت الحوت فهو في ذلك المكان، فذهب فوجده، وكان ما قص الله من نبأهما في سورة الكهف:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا [إلى قوله] ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

[سورة الكهف: الآيات ٦٠ ـ ٨٢]

وفي هذه القصة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير ننبه على بعضه بعون الله، ونذكر المهمّ منه.

فمنها ما اشتملت عليه القصة من فضيلة العلم وشرفه ومشروعية الرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى رحل في طلبه مسافة طويلة ولقي في ذلك النصب، وترك الإقامة عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة في العلم بالأهم فالأهم، فإن زيادة علم الإنسان بنفسه أهم من ترك ذلك اشتغالاً بالتعليم فقط، بل يتعلم ليعلم.

ومنها: جواز أخذ الخادم في السفر والحضر لكفاية المؤن وطلب الراحة، كما فعل موسى ﷺ.

ومنها: أن المسافر بطلب العلم أو الجهاد أو غيرهما من أسفار الطاعة، بل وكذلك غيرهما إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين مراده، فإنه أكمل من كتمه؛ فإن في إظهاره من فوائد الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة والإعلان بالترغيب لهذه العبادة الفاضلة لقول موسى: ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً﴾ ولما غزا ﷺ تبوك أخبر الناس بمقصده، مع أنه كان في الغالب إذا أراد غزوة ورى بغيرها تبعاً للمصلحة في الحالتين.

ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، وكذلك النقص، لقول فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما يجده مما هو مقتضى الطبيعة البشرية، من نصب أو جوع أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخّط، وكان صدقاً لقوله: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾.

ومنها: أنه ينبغي أن يتخذ الإنسان خادماً ذكياً فطناً كيِّساً ليتم له أمره الذي يريد.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله: ﴿آتنا غداءنا﴾ أنه للجميع. ومنها أن المعونة تنزل على العبد بحسب قيامه بالأمر الشرعي، وأن ما وافق رضا الله يعان عليه ما لا يعان على غيره لقوله: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول فلم يشتك منه مع طوله.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه ليس نبيًّا، بل هو عبد صالح عالم ملْهَم، لأن الله ذكره بالعلم والعبودية الخاصة والأوصاف الجميلة، ولم يذكر معها أنه نبي أو رسول، وأما قوله في آخر القصة: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، وذلك يكون لغير الأنبياء، قال تعالى:

﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨]

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [سورة القصص: الآية ٧]

ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله للعبد نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بطلبه وجدّه، وعلم إلهي لدنيٍّ، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده، لقوله:

﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥]

فالخضر أعطي من هذا النوع الحظ الأوفر. ومنها التأدب مع المعلم والتلطف في خطابه لقول موسى:

﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٦]

فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنك هل تأذن لي أم لا؟ وإظهار حاجته إلى المعلم وأنه يتعلم منه ومشتاق إلى ما عنده، بخلاف حال أهل الكبر والجفاء الذين لا يظهرون حاجتهم إلى علم المعلم، فلا أنفع للمتعلم من إظهار الحاجة إلى علم المعلم وشكره على تعليمه.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممن هو دونه، فإن موسى بلا ريب أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم درجات؛ فإن موسى من أكابر أولي العزم من الرسل، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلوم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا اشتد حرصه على التعلم منه.

ومنها: أنه يتعين إضافة العلم وغيره من الفضائل إلى فضل الله ورحمته، والاعتراف بذلك وشكر الله عليه لقوله: ﴿تعلمن مما علمت رشداً﴾؟

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير؛ وكل علم فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة إلى ذلك، فإنه من العلم

النافع، وما سوى ذلك فإما أن يكون ضارًّا أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أن تعلمن مما علمت رشداً﴾.

ومنها: أن من ليس له صبر على صحبة العالِم، ولا قوة على الثبات على طريقة التعلم، فإنه قاصر ليس بأهلٍ لتلقي العلم؛ فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى إليه، فإن الخضر اعتذر عن موسى أنه لا يصبر على علمه الخاص.

ومنها: أن مما يعين على الصبر على الأشياء إحاطة العبد بها علماً وبمنافعها وثمراتها ونتائجها؛ فمن لا يدري هذه الأمور يصعب عليه الصبر لقوله: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾؟.

ومنها: الأمر بالتأنّي والتثبت وعدم المبادرة على الحكم على الأشياء حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود.

ومنها: مشروعية تعليق إيجاد الأمور المستقبلة على مشيئة الله لقوله: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ وإن العزم على الشيء ليس بمنزلة فعله، فموسى عزم على الصبر ولكن لم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى من المصلحة أن يخبر المتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصراً أو نهاه عن التدقيق الشديد أو الأسئلة التي لا تتعلق بالموضوع. ومنها جواز ركوب البحر إذا لم يكن في ذلك خطر.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ، لا في حق الله ولا في حق العباد، إلا إن ترتب على ذلك إتلاف مال، ففيه الضمان حتى على الناسي لقوله: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون أو يشق عليهم أو يرهقهم، فإن هذا داع إلى النفور، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في كل شيء، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرق السفينة وقتل الغلام بحسب أحكامها العامة، ولم يلتفت إلى الأصل الذي أصّلاه، هو والخضر، أنه لا يسأله ولا يعترض عليه حتى يكون الخضر هو المبتدىء.

ومنها: فيه تنبيه على القاعدة المشهورة الكبيرة، وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الخفيف، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما؛ فإن قتل الغلام الصغير شر، ولكن بقاءه حتى يبلغ ويفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً؛ وبقاء الغلام من دون قتل وإن كان في ظاهر الحال أنه خير، فالخير ببقاء أبويه على دينهما خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر بعدما ألهمه الله الحقيقة، فكان إلهامه الباطني بمنزلة البينات الظاهرة في حق غيره.

ومنها: القاعدة الكبيرة الأخرى، وهي: أن عمل الإنسان في مال غيره ـ إذا كان على وجه المصلحة ودفع المضرة ـ يجوز بلا إذن، حتى ولو ترتب عليه إتلاف بعض المال، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم؛ وتحت هاتين القاعدتين من الفوائد ما لا حصر له.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر، لقوله: ﴿يعملون في البحر﴾.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته وما يتعلق به، لقوله: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ وأن خدمة الصالحين وعمل مصالحهم أفضل من غيرهم لأنه علّل أفعاله بالجدار بقوله: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾.

ومنها: استعمال الأدب مع الله حتى في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ وأما الخير فأضافه إلى الله لقوله: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك﴾ وقال إبراهيم:

وقال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٠]

وقالت الجن:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

[سورة الجن: الآية ١٠]

مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته، بل يفي له بذلك حتى لا يجد للصبر محلًّا، وأن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكُّدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

قصة ذي القرنين

وكان ذو القرنين ملكاً صالحاً، وقد أعطاه الله من القوة أسباب الملك والفتوح ما لم يكن لغيره، فذكر الله من حسن سيرته ورحمته وقوة ملكه وتوسعه في المشارق والمغارب ما يحصل به المقصود التام من سيرته ومعرفة أحواله، ولهذا قال:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾

[سورة الكهف: الآية ٨٣]

أي من بعض أخباره. ومن المعلوم أن ما قصه الله في كتابه هو أحسن وأنفع ما يقص على العباد، فأخبر أنه أعطاه من كل شيء سبباً يحصل به قوة الملك وعلم السياسة وحسن التدبير والسلاح المُخضِع للأمم وكثرة الجنود وتسهيل المواصلات وجميع ما يحتاجه؛ ومع ذلك فقد عمل بالأسباب التي أعطيها، فما كل أحد يعطَى الأسباب النافعة، ولا كل من أُعطيها يتبعها ويعمل بها.

أما ذو القرنين فإنه تَمّ له الأمران: أعطي سبباً فأتبع سبباً، فغزا بجيوشه الجرارة أدنى أفريقية وأقصاها حتى بلغ البحر المحيط الغربي فوصل إلى محل إذا غربت الشمس

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٦]

أي رآها في رؤية العين كأنها تغرب في البحر، والبحر لونه أسود كالحمئة. والقصد أنه وصل إلى حيث منتهى الخف والحافر من بلاد أفريقية، ووجد في ذلك المحل وتلك الأقطار قوماً، منهم المسلم والكافر، والبر والفاجر، بدليل قوله:

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

[سورة الكهف: الآية ٨٦]

إما أن القائل له نبي من أنبياء الله أو أحد العلماء، أو أن المعنى أنه بسبب قدرته كان مخيَّراً قدراً؛ وإلا فمن المعلوم أن الشرع لا يسوِّي بين الأمرين المتفاوتين في الإحسان والإساءة.

فقال:

﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾

[سورة الكهف: الآيتان ٨٧ و٨٨]

وهذا يدل على عدله وأنه ملك صالح، وعلى حسن تدبيره

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٩]

أي ثم عمل بالأسباب التي أوتيها بعدما أخضع أهل المغارب رجع يفتح الأرض قطراً قطراً حتى وصل إلى مطلع الشمس من بلاد الصين وشواطىء البحر المحيط الهادي. وهذا منتهى ما وصل إليه الفاتحون

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٠]

أي لا ستر لهم عن الشمس، لا ثياب ينسجونها ويلبسونها، ولا بيوت يبنونها ويأوون إليها؛ أي وجد هؤلاء القوم الذين في أقصى المشرق بهذه الصفة والوحشية بمنزلة الوحوش التي تأوي إلى الغياض والغيران والأسراب منقطعين

عن الناس، وكانوا في ذلك الوقت على هذه الحالة التي وصف الله، والمقصود من هذا أنه وصل إلى ما لم يصل إليه أحد.

ثم كر راجعاً واتبع سبباً؛ يمكنه من مناهج البلاد وتخضيع العباد قاصداً نحو الشمال

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٣]

أي بلغ محلًّا متوسطاً بين السَّدَّين الموجودين منذ خلق الله الأرض، وهما سلاسل جبال عظيمة شاهقة متواصلة من تلك الفجوة، وهي الريع إلى البحار الشرقية والغربية وهي في بلاد الترك، على هذا اتفق المفسرون والمؤرخون وإنّما اختلفوا: هل هي سلاسل جبال القفقاس أم دون ذلك في أذربيجان، أم سلاسل جبال ألتاي، أم الجبال المتصلة بالسور الصيني في بلاد منغوليا وهو الظاهر؟. وعلى الأقوال كلها، فوجد عند تلك الفجوة التي بين سلاسل هذه الجبال قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، من بُعد لغتهم وثقل فهمهم للغات الأمم:

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾
[سورة الكهف: الآية ٩٤]

وهم أمم عظيمة من نسل يافث بن نوح من العناصر التركية وغيرهم، كما هو مذكور مفصل من أحوالهم ومشروح من صفاتهم،

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى﴾

[سورة الكهف: الآيتان ٩٤ و٩٥]

من القوة والأسباب والاقتدار خير فأعينوني بقوة؛ أي إن هذا بناء عظيم يحتاج في الإعانة عليه إلى مساعدة قوية في الأبدان

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٥]

ولم يقل سداً، لأن الذي بنى فقط هو تلك الثنية والريع الواقع بين

السدين الطبيعيين، أي بين سلاسل تلك الجبال، فدبرهم على كيفية آلاته وبنيانه فقال:

﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٦]

أي اجمعوا لي جميع قطع الحديد الموجودة من صغار وكبار ولا تدعوا من الموجود شيئاً واركموه بين السدين، ففعلوا ذلك حتى كان الحديد تلولاً عظيمة موازنة للجبال، ولهذا قال:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٦]

أي الجبلين المكتنفين لذلك الردم قال:

﴿ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾
[سورة الكهف: الآية ٩٦]

أي أمر بالنحاس فأذيب بالنيران وجعل يسيل بين قطع الحديد فالتحم بعضها ببعض وصارت جبلاً هائلاً متصلاً بالسدين؛ فحصل بذلك المقصود من عيث يأجوج ومأجوج، ولهذا قال:

﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ [أي يصعدوا ذلك الردم] وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا * قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [سورة الكهف: الآيتان ٩٧ و٩٨]

أي ربي الذي وفقني لهذا العمل الجليل والأثر الجميل، فرحمكم إذ منعكم من ضرر يأجوج ومأجوج بهذا السبب الذي لا قدرة لكم عليه.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٨]

أي هذا العمل والحيلولة بينكم وبين يأجوج ومأجوج مؤقت إلى أجل، فإذا جاء ذلك الأجل قدر الله للخلق من أسباب القوة والقدرة والصناعات والاختراعات الهائلة ما يمكن يأجوج ومأجوج من وطء بلادكم أيها المجاورون، بل ومن وطء مشارق الأرض ومغاربها وأقطارها، كما قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾
[سورة الأنبياء: الآية ٩٦]

أي من كل مكان مرتفع، سواء مثل هذه السدود والبحار وجو السماء ﴿ينسلون﴾ أي يسرعون فيها غير مكترثين ولا حاجز يحجزهم، فلفظة «من كل حدب»، تشمل جميع المواضع والأقطار: سهلها وصعبها، منخفضها ومرتفعها؛ وإنما نص الله على المرتفعات لأن السهول والأماكن المنخفضة من باب أولى وأحرى.

وقد ورد في صفاتهم أحاديث في الصحيحين تؤيد ما في هذه الآيات من صفاتهم وأورد أصحاب السير والتواريخ الأول من صفاتهم وهيئاتهم آثاراً لا خطام لها ولا زمام، شوشت أفكار أكثر الناس ومنعتهم من الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية وتطبيقها على الواقع، فعليك بلزوم ما دل عليه الكتاب والسنة، ودع ما سوى ذلك، فإن فيه الهدى والرشد والنور.

قصة عيسى وأمه، وزكريا ويحيى عليهم السلام

كانت زوجة عمران ــ وهو من أكابر بني إسرائيل ورؤسائهم وذوي المقامات العالية عندهم ــ نذرت حين ظهر حملها أن تحرر ما في بطنها لبيت المقدس، يكون خادماً لبيت الله مُعَدًّا لعبادة الله، ظناً أن الذي في بطنها ذكر، فلما وضعتها قالت معتذرة إلى الله شاكية إليه الحال:

﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ [أي أن الذكر الذي له القوة والقدرة على ما يراد منه من القيام بخدمة بيت المقدس] وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣٦]

فحصنتها بالله من عدوها هي وذريتها. وكان هذا أول حفظ وحماية من الله لها ولهذا استجاب الله لها في هذه الدنيا:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ [أي أن الله جبر أمها وصار لها عند ربها من القبول أعظم مما للذكور] وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾
[سورة آل عمران: الآية ٣٧]

فجمع الله لها بين التربية الجسدية والتربية الروحية، حيث قدر أن يكون كافلها أعظم أنبياء بني إسرائيل في ذلك الوقت؛ فإن أمها لما جاءت بها لأهل بيت المقدس تنازعوا أيهم يكفلها لأنها ابنة رئيسهم، فاقترعوا وألقوا أقلامهم، فأصابت القرعة زكريا رحمة به وبمريم، فكفلها أحسن كفالة، وأعانه على كفالتها بكرامة عظيمة منه، فكانت قد نشأت نشأة الصالحات الصديقات، وعكفت على عبادة ربها ولزمت محرابها، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، قال: أنَّى لك هذا؟ فإنه ليس لها كافل غير زكريا. قالت:

﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
[سورة آل عمران: الآية ٣٧]

أي رزقه تعالى يأتي بطرق معهودة وبطرق أخرى، والله على كل شيء قدير.

فحين رأى هذه الحالة ذكره ذلك لطف ربه ورجاه إلى رحمته، فدعا الله أن يهب له ولداً يرثه علمه ونبوته ويقوم بعده في بني إسرائيل، في تعليمهم وهدايتهم:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ [أي بعيسى عليه السلام] وَسَيِّدًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣٩]

أي عظيماً عند الله وعند الخلق لما جبله الله عليه من الأخلاق الحميدة والعلوم العظيمة، والأعمال الصالحة

﴿وَحَصُورًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣٩]

أي ممنوعاً بعصمة الله وحفظه ووقايته من مواقعة المعاصي؛ فوصفه الله

بالتوفيق لجميع الخيرات والحماية من السيئات والزلات، وهذا غاية كمال العبد. فتعجب زكريا من ذلك وقال:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [سورة مريم: الآيتان ٨ و ٩]

وهذا أعجب من حملها وهي عاقر على كبرك، فمن فرحه ورغبته العظيمة في طمأنينة قلبه قال:

﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً [تدلني على وجود الولد] قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٠]

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

[سورة آل عمران: الآية ٤١]

وهذه آية كبرى، يمنع من الكلام الذي هو أسهل ما يقدر عليه الإنسان، وهو سويّ، فلا يقدر أن يكلم أحداً إلا بالإشارة، ومع ذلك لسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه وتحميده، فحينئذ تمت له البشارة من الله وعرف أنه لا بد أن يكون، فولدت زوجته يحيى، وأنشأه الله نشأة عجيبة، فتعلم وهو صغير، ومهر في العلم وهو صغير، ولهذا قال:

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا [حتى قيل إن الله نبأه وهو صغير، وكما أعطاه الله العلم العظيم فقد منّ عليه بأكمل الصفات فقال] وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: الآيات ١٢ ــ ١٥]

ومضمون هذا وصفه بالقيام بحقوق الله وحقوق والديه وحقوق الخلق، وأن الله سيحسن له العواقب في أحواله كلها.

وأما مريم فإنها انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. متجردة لعبادة ربها:

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧]

لئلا يشغلها أحد عما هي بصدده؛ فأرسل الله لها الروح الأمين جبريل في صورة بشر سوي من أكمل الرجال وأجملهم، فظنت أنه يريدها بسوء، فقالت:

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٨]

فتوسلت بالله في حفظها وحمايتها، وذكرته وجوب التقوى على كل مسلم يخشى الله، فكان هذا الورع العظيم منها في هذه الحالة التي يخشى منها الوقوع في الفتنة، ورفع الله بذلك مقامها ونعتها بالعفة الكاملة، وأنها أحصنت فرجها، فقال لها جبريل:

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا * قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٌ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ [به وبك وبالناس] وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا﴾

[سورة مريم: الآيات ١٩ ـ ٢١]

فلا تعجبي مما قدره وقضاه.

﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ [أي ابتعدت به عن الناس] مَكَانًا قَصِيًّا [خشية الاتهام والأذية منهم] فَأَجَآءَهَا [أي ألجأها] ٱلۡمَخَاضُ [أي الطلق] إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا﴾ [سورة مريم: الآيتان ٢٢ و٢٣]

لما تعرفه مما هي متعرضة له من الناس، وأنهم لا يصدقونها، ولم تدر ما الله صانع لها.

﴿فَنَادَىٰهَا [الملك] مِن تَحۡتِهَآ﴾ [سورة مريم: الآية ٢٤]

وكانت في مكان مرتفع، وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين

﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا [أي نهراً جارياً] وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ

ٱلنَّخْلَةِ [من دون أن تحوجك إلى صعود] تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا [أي طرياً ناضجاً] فَكُلِي [من الرطب] وَٱشْرَبِي [من السَّريِّ] وَقَرِّي عَيْنًا [بولادة عيسى، وليذهب روعك وخوفك] فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا [أي سكوتاً، وكان معهوداً عندهم أنهم يتعبدون بالصمت في جميع النهار، ولهذا فسره بقوله:] فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [سورة مريم: الآيات ٢٤ ــ ٢٦]

فاطمأن قلبها وزال عنها ما كانت تجد.

ثم لما تعالت من نفاسها وأصلحت من شأنها وقويت بعد الولادة

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ [سورة مريم: الآية ٢٧]

علناً غير هائبة ولا مبالية، فلما رآه قومها وقد علموا أنه لا زوج لها، جزموا أنه من وجه آخر فقالوا:

﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا * يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة مريم: الآيات ٢٧ ــ ٢٩]

كما أمرت بذلك. فقالوا منكرين عليها مقالتها لهم:

﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [سورة مريم: الآية ٢٩]

فقال، وهو في تلك الحال له أيام يسيرة بعد ولادته:

﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾
[سورة مريم: الآيات ٣٠ ــ ٣٣]

فكان هذا الكلام منه في هذه الحال من آيات الله وأدلة رسالته، وأنه عبد الله لا كما يزعمه النصارى، وحصل لأمه البراءة العظيمة مما يظن بها من السوء، لأنها لو أتت بألف شاهد على البراءة وهي على هذه الحال ما صدقها الناس،

ولكن هذا الكلام من عيسى وهو في المهد جلا كل ريب يقع في القلوب، فانقسم الناس فيه بعد هذا ثلاثة أقسام:

قسم آمنوا به وصدقوه في كلامه هذا وفي الانقياد له بعد النبوة، وهم المؤمنون حقيقة.

وقسم غلوا فيه وهم النصارى، فقالوا فيه المقالات المعروفة ونزلوه منزلة الرب، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وقسم كفروا به وجفوه ــ وهم اليهود ــ ورموا أمه بما برأها الله منه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة مريم: الآية ٣٧]

ولما أرسله الله إلى بني إسرائيل، آمن به من آمن، وكفر به من كفر، وجعل يريهم الآيات والعجائب، فكان يصور الطين فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله وينبئهم عن كثير مما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، ومع ذلك فتكالبت عليه أعداؤه وأرادوا قتله، فألقى الله شبهه على واحد من الحواريين أصحابه أو من غيرهم، ورفعه الله إليه وطهّره من قتلهم، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وباءوا بالإثم العظيم والجرم الجسيم، وصدقهم النصارى أنهم قتلوه وصلبوه، ونزّهه الله من هذه الحالة فقال:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٧]

وقد قام عيسى في بني إسرائيل فبشّر وأعلن برسالة محمد ﷺ، فلما جاءهم محمد الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم قالوا:

﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة النمل: الآية ١٣]

كما قالوا في عيسى: ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

[سورة المائدة: الآية ١١٠]

وفي هذه القصة من الفوائد أمور:

منها أن النذر ما زال مشروعاً في الأمم السابقة؛ والنبـي ﷺ قال فيه كلمة جامعة للصحيـح النافذ منه للباطل فقال: «من نذر أن يطيـع الله فليطعه؛ ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

ومنها: أن من نعمة الله على العبد أن يكون في كفالة الصالحين الأخيار؛ فإن المربـي والكافل له الأثر الأعظم في حياة المكفول وأخلاقه وآدابه، ولهذا أمَرَ الله المربين بالتربية الطيبة المشتملة على الحث على الأخلاق الجميلة، والترهيب من مساوىء الأخلاق.

ومنها: إثبات كرامات الأولياء؛ فإن الله كرم مريم بأمور: يسّر لها أن تكون في كفالة زكريا بعدما حصل الخصام في شأنها، وأكرمها بأن كان رزقُها يأتيها من الله بلا سبب؛ وأكرمها بوجود عيسى وولادتها إياه وبخطاب الملك لها بما يطمّن قلبها، ثم بكلامه في المهد، فهذه الأخيرة جمعت كرامة وليّ ومعجزة نبـي.

ومنها: الآيات العظيمة التي أجراها الله على يد عيسى بن مريم: من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ونحوهما.

ومنها: ما أكرم الله به عيسى بأن جعل له حواريين وأنصاراً في حياته وبعد مماته في بث دعوته والنصر لدينه، ولذلك كـثر تابعـوه، ولكن منهم المستقيم؛ وهو الذي آمن به حقيقة، وآمن بجميـع الرسل؛ ومنهم المنحرف؛ وهم الذين غلوا فيه، وهم جمهور من يدعي أنه من أتباعه وهم أبعد الناس عنه.

ومنها: أن الله أثنى على مريم بالكمال بالصديقية، وأنها صدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين، وهذا وصف لها بالعلم الراسـخ والعبادة الدائمة والخشوع لله، وأنه اصطفاها وفضلها على نساء العالمين.

ومنها: أن إخبار النبـي ﷺ بهذه القصة وغيرها مفصلة مطابقة للحقيقة من أدلة رسالته وآيات نبوته لقوله:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٤]

قصة يوسف ويعقوب عليهما الصلاة والسلام

هذه القصة من أعجب القصص، وذكرها الله جميعاً، وأفردها بسورة مطولة مفصلة تفصيلاً واضحاً، قراءتها تغني عن التفسير، فإن الله ساق فيها حالة يوسف من ابتداء أمره إلى آخره، وما بين ذلك من التنقلات واختلاف الأحوال، وقال فيها:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧]

فلنذكر ما يستنبط من هذه القصة العظيمة من الفوائد، فنقول مستعينين بالله:

ذكر ما فيها من الفوائد:

منها أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها، لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنة، ومن ذل إلى عز، ومن أمن إلى خوف وبالعكس، ومن ملك إلى رق وبالعكس؛ ومن فرقة وشتات إلى انضمام وائتلاف وبالعكس، ومن سرور إلى حزن وبالعكس، ومن رخاء إلى جدب وبالعكس، ومن ضيق إلى سعة وبالعكس، ومن وصول إلى عواقب حميدة، فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولي الألباب.

ومنها: ما فيها من أصول تعبير الرؤيا المناسبة، وأن علم التعبير علم مهم يعطيه الله من يشاء من عباده، وأن أغلب ما تبنى عليه المناسبات وضرب الأمثال والمشابهة في الصفات.

فوجه مناسبة رؤيا يوسف: أنه رأى الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له، أن هذه زينة للسماء، وفيها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء والأصفياء زينة الأرض، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بالأنوار السماوية، ولأن أباه وأمه أصل، وإخوته فرع عنهما، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجرماً من الفرع، فلذلك كانت الشمس أمه أو أبوه، والقمر الآخر منهما، والكواكب إخوته، ومن المناسب أن الساجد محترم لمن سجد له، والمسجود له

معظم محترم، فدل ذلك على أن يوسف يصير معظماً محترماً لأبويه وإخوته، ولا يتم هذا إلا بمقدمات تقتضي الوصول إلى هذا: من علوم وأعمال واجتباء من الله، فلهذا قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾

[سورة يوسف: الآية ٦]

ومنها: المناسبة في رؤيا الفتيين، حيث عبر رؤيا من رأى أنه يعصر خمراً، أن الذي يعمل هذا العمل يكون في العادة خادماً لغيره، وأيضاً العصر مقصود لغيره والخادم تابع لغيره ويؤول أيضاً إلى السقي الذي هو خدمته، فلذلك أوّله بما يؤول إليه، وأما تعبيره لرؤيا من رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأنه يقتل ويصلب مدة حتى تأكل الطير من مخ رأسه الذي هو يحمل.

وعبر رؤيا الملك بالبقرات والسنبلات: بأنها السنين المخصبة والمجدبة، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أمور الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد، فهذه نسبته إذ رأى هو الرؤيا، وكذلك السنون بخصبها وجدبها تنتظم أمور المعاش أو تختل، والبقر هي آلة حرث الأرض واستخراج مغلها، والمغل هو الزرع؛ فرأى السبب والمسبب، فرؤيته السبع السمان من البقر ثم السبع العجاف، والسبع السنبلات الخضر، ثم السبع اليابسات. أي لا بد أن تتقدم السبع السنين المخصبات، ثم تتلوها المجدبات، وتأكل ما حصل فيها من غلال، ولا تبقي إلا شيئاً يحصنونه عنها وإلا فهي بصدد أكلها كلها.

فإن قيل من أين أخذ قوله:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾

[سورة يوسف: الآية ٤٩]

فإن بعض المفسرين قال: هذه زيادة من يوسف في التعبير بوحي أوحي إليه.

فالجواب ليس الأمر كذلك وإنما أخذها من رؤيا الملك، فإن السنين

المجدبة سبع فقط، فدل على أنه سيأتي بعدها عام الخصب، كثير البركات، يزيل الجدب العظيم الحاصل من السنين المجدبة التي لا يزيلها عام خصب عادي، بل لا بد فيه من خصب خلاف العادة؛ وهذا واضح وهو من مفهوم العدد.

ومنها: ما فيها من الأدلة والبراهين على نبوة نبينا محمد ﷺ، حيث قص عليه هذه القصة المفصلة المبسوطة الموافقة للواقع التي أتت بالمقصود كله، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً كما هو معلوم لقومه، وهو بنفسه أُمي لا يقرأ ولا يكتب، ولهذا قال:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٢]

ومنها: أنه ينبغي للعبد البعد عن أسباب الشر وكتمان ما تخشى مضرّته، لقول يعقوب ليوسف:

﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥]

ومنها: ذكر الإنسان بما يكره على وجه الصدق والنصيحة له أو لغيره لقوله: ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾. ومنها؛ أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به ويتصل من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، فإنه لا بد أن يصلهم ويشملهم منها جانب لقوله:

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦]

أي بما يحصل لك؛ ولهذا لما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين والسرور وزوال المكروه وحصول المحبوب ما ذكر الله في آخر القصة.

ومنها: أن النعم الكبيرة الدينية والدنيوية لا بد أن يتقدمها أسباب ووسائل إليها؛ لأن الله حكيم وله سنن لا تتغير، قضى بأن المطالب العالية لا تنال إلا بالأسباب النافعة، خصوصاً العلوم النافعة وما يتفرّع عنها من

الأخلاق والأعمال؛ فلهذا عرف يعقوب أن وصول يوسف إلى تلك الحالة التي يخضع له فيها أبوه وأمه وإخوته، مقام عظيم ومرتبة عالية، وأنه لا بد أن ييسر الله ليوسف من الوسائل ما يوصله إليها، ولهذا قال: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك﴾.

ومنها: أن العدل مطلوب في جميع الأمور الصغار والكبار، في معاملة السلطان لرعيته، ومعاملة الوالدين للأولاد، والقيام بحقوق الزوجات، وغير ذلك في المحبة والإيثار ونحوها؛ وأن القيام بالعدل في ذلك تستقيم الأمور صغارها وكبارها به ويحصل للعبد ما أحب، وفي الإخلال بذلك تفسد الأحوال ويحصل للعبد المكروه من حيث لا يشعر؛ لهذا لما قدم يعقوب عليه السلام يوسف في المحبة، وجعل وجهه له جرى منهم على أبيهم وأخيهم من المكروه ما جرى.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، فكم من ذنب واحد استتبع ذنوباً كثيرة وتسلسل الشر المؤسس على الذنب الأول؛ وانظر إلى جرم إخوة يوسف، فإنهم لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه الذي هو من أعظم الجرائم، احتالوا على ذلك بعدة حيل، وكذبوا عدة مرات، وزوّروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي صفة حالهم حين أتوا عشاء يبكون؛ ولا بد أن الكلام في هذه القضية تسلسل وتشعب، بل ربما أنه اتصل إلى الاجتماع بيوسف، وكلما بحث في هذا الموضوع فهو بحث كذب وزور مع استمرار أثر المصيبة على يعقوب، بل وعلى يوسف، فليحذر العبد من الذنوب، خصوصاً الذنوب المتسلسلة، وضد ذلك بعض الطاعات تكون طاعة واحدة، ولكن يتسلسل نفعها وبركتها حتى تستتبع طاعات من الفاعل وغيره، وهذا من أعظم آثار بركة الله للعبد في علمه وعمله.

ومنها: أن العبرة للعبد في حال كمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليهم السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر من الجرائم المتنوعة، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والاعتراف التام، والعفو التام عنهم من يوسف ومن أبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة؛ وإذا سمح العبد

بحق فالله أولى بذلك وهو خير الراحمين الغافرين، ولهذا في أصح الأقوال إن الله جعلهم أنبياء لمحو ما سبق منهم، وكأنه ما كان، ولقوله:

﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

وهم أولاد يعقوب الإثناء عشر وذريتهم؛ ومما يؤيد هذا أن في رؤيا يوسف أنهم هم الكواكب التي فيها النور والهداية، وهي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء عباد.

ومنها: ما منّ الله به على يوسف من العلم والحلم والأخلاق الكاملة والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتمّم ذلك بأن أخبرهم أنه لا يثرب عليهم بعد هذا العفو، ثم بره العظيم بأبيه وأمه وإحسانه على إخوته، وإحسانه على عموم الخلق، كما هو بيّن في سيرته وقصته.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف لما قالوا:

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ [سورة يوسف: الآية ٩]

وقال قائل منهم:

﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠]

كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الأكبر، وهو من جملة الأسباب التي قدر الله ليوسف في وصوله إلى الغاية التي يريد.

ومنها: أن الشيء، إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يعلم المعاملون أنه على غير وجه الشرع، فلا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف باعه إخوته بيعاً محرَّماً عليهم، واشترته السيارة بناءاً على أنه عبد لإخوة يوسف البائعين، ثم ذهبوا به إلى مصر

فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً وسماه الله سيداً، وكان عندهم بمنزلة الرقيق المكرم، وسمى الله شراء السيارة وشراءه في مصر معاملة لما ذكرنا.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء الأجنبيات، وخصوصاً اللاتي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها؛ فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحُّدها بيوسف وحبها الشديد له الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه فسجن ذلك السجن الطويل.

ومنها: أن الهم الذي همّ به يوسف ثم تركه لله ولبرهان الإيمان الذي وضعه الله في قلبه مما يرقّيه إلى الله زلفى، لأن الهم داع من دواعي النفس الأمّارة بالسوء، وهو طبيعة طبع عليها الآدمي، فإذا حصل الهم بالمعصية ولم يكن عند العبد ما يقاوم ذلك من الإيمان والخوف من الله وقع الذنب، وإن كان العبد مؤمناً كامل الإيمان، فإن الهم الطبيعي إذا قابله ذلك الإيمان الصحيح القوي منعه من ترتب أثره، ولو كان الداعي قوياً، ولهذا كان يوسف من أعلى هذا النوع، قال تعالى:

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [بدليل قوله] ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٤]

لاستخلاص الله إياه وقوة إيمانه وإخلاصه، خلّصه الله من الوقوع في الذنب، فكان ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، ومن أعلى السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فذكر ﷺ منهم رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. فهمّها لما كان لا معارض له استمرت في مراودته، وهمه عارض عرض ثم زال في الحال ببرهان ربه.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه استنار بمعرفة ربه ونور الإيمان به، وكان مخلصاً لله في كل أحواله، فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وإخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه؛ لأن الله علّل صرف هذه الأمور عن يوسف بقوله: ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ على قراءة من

قرأها بكسر اللام؛ ومن قرأها بالفتح، فإن من أخلصه الله واجتباه فلا بد أن يكون مخلصاً، فالمعنيان متلازمان.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا ابتلي بالوقوع في محل فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر ويهرب غاية ما يمكنه ليتمكن من التخلص من ذلك الشر، كما فر يوسف هارباً للباب، وهي تمسك بثوبه وهو مدبر عنها.

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه في الدعاوي، وذلك أن الشاهد الذي شهد، أي حكم على يوسف وعلى المرأة اعتبر القرينة فقال:

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٦]

إلى آخر القضية، وصار حكمه هذا موافقاً للصواب، ومن القرائن وجود الصواع في رحل الأخ؛ وقد اعتبر هذا وهذا.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الباهر ظاهراً وباطناً؛ فإن جماله الظاهر أوجب لامرأة العزيز ما أوجب من الحب المفرط والمراودة المستمرة؛ ولما لامها النساء دعتهن

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾
[سورة يوسف: الآية ٣١]

وأما جماله الباطن فهو العفة العظيمة منه، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع السوء منه، ولكن الإيمان ونوره والإخلاص وقوته لا يشذ عنهما فضيلة ولا تجامعهما رذيلة؛ وقد بينت امرأة العزيز للنساء من يوسف الأمرين؛ فإنها لما رأتهن جماله الظاهر الذي اعترفن أن هذا الجمال لا يوجد في الآدميين قالت:

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٢]

وقالت بعد ذلك: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥١]

ومنها: أن يوسف ﷺ اختار السجن على المعصية، فهكذا إذا ابتلي العبد بأحد أمرين، إما أن يلجأ إلى فعل المعصية، وإما أن يعاقب عقوبة دنيوية، فعليه أن يختار العقوبة الدنيوية التي فيها الثواب من هذا الوجه بعدة أمور: ثواب من جهة اختياره الإيمان على السلامة من العقوبة الدنيوية، وثواب من جهة أن هذا من باب التخليص للمؤمن والتصفية؛ وهو يدخل في الجهاد في سبيل الله، وثواب من جهة المصيبة التي نالته والألم الذي أصابه؛ فسبحان من ينعم ببلائه ويلطف بأصفيائه، وهذا أيضاً عنوان الإيمان وعلامة السعادة.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجيء إلى ربه ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته لقول يوسف:

﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾

[سورة يوسف: الآية ٣٣]

فالعبد الموفق يستعين ربه على دفع المعاصي وأسبابها، كما يستعين به عند فعل الطاعات والخيرات والله كافي المتوكلين.

ومنها: أن العلم والعقل الصحيح يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى ضد ذلك لقوله: ﴿أصبُ إليهن وأكنْ من الجاهلين﴾ أي الجاهلين بالأمور الدينية، والجاهلين بالحقائق النافعة والحقائق الضارة.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لربه في حال رخائه، فعليه عبودية في حال الشدة؛ فيوسف ﷺ لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن استمر على ذلك ودعا من يتصل به من أهل السجن ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك؛ ومن كمال رأيه وحكمته أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حين احتاجا إليه في تعبير رؤياهما وقالا له:

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٦]

رأى ذلك فرصة، فدعاهما إلى الله قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أقرب إلى حصول المطلوب، وبيّن لهما أن الذي أوصله إلى هذه الحال التي رأياه فيها من

الكمال والعلم إيمانه وتوحيدُه وتركُه لملة المشركين؛ وهذا دعاء لهما بالحال ثم دعاهما بالمقال، وبرهن لهما على حسن التوحيد ووجوبه، وعلى قبح الشرك وتحريمه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشدّ أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله؛ فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه؛ فإن يوسف لما سأله الفتيان عن رؤياهما، وكانت حاجتهما إلى التوحيد والإيمان أعظم من كل شيء، قدّمها.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه بفعله أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون نقصاً ولا شكوى إلى المخلوق ممنوعة، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض فيها. ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج منهما:

﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٢]

ومنها: أنه يتعين على المعلم والداعي إلى الله استعمال الإخلاص التام في تعليمه ودعوته، وأن لا يجعل ذلك وسيلة إلى معاوضة في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف قد وصّى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسي؛ فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف ولا وبّخه، بل ولا قال له: لِم لم تذكرني عند ربك، وأجابه جواباً تاماً من جميع الوجوه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول إذا أجاب السؤل أن يدل السائل على الأمر الذي ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وجزالة رأيه وحسن إرشاده؛ فإن يوسف لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم مع ذلك وأشار عليهم بما يصنعونه في تلك السنين المخصبات من الإكثار من الزراعة وحسن الحفظ والجباية.

ومنها: أنه لا يلام العبد على دفـع التهمة عن نفسه بل ذلك مطلوب كما امتنـع يوسف من الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ومنها فضيلة العلم، علم الشرع والأحكام، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، وعلم السياسة، فإن يوسف ﷺ إنما حصلت له الرفعة في الدنيا والآخرة بسبب علمه المتنوع، وفيه أن علم التعبير داخل في الفتوى، فلا يحل لأحد أن يجزم بالتعبير قبل أن يعرف ذلك، كما ليس له أن يفتي في الأحكام بغير علم، لأن الله سماها فتوى في هذه السورة.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من الصفات الكاملة، من العلم وغيره، إذا كان في ذلك مصلحة وسلم من الكذب، ولم يقصد به الرياء، لقول يوسف:

﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٥]

وكذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولي لها يقوم بما يقدر عليه من إقامة الشرع وإيصال الحقوق إلى أهلها، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أهلاً وأعظم كفاءة من غيره، وإنما المذموم إذا لم يكن فيه كفاءة أو كان موجوداً من هو أمثل منه أو مثله، أو لم يرد بها إقامة أمر الله بل أراد الترأس والمأكلة المالية.

ومنها أن الله واسـع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان لا ثالث لهما: الإيمان بكل ما أوجب الله الإيمان به، والتقوى التي هي امتثال الأوامر الشرعية واجتناب النواهي، وأن خير الآخرة خير من ثواب الدنيا وملكها، وأنه ينبغي للعبد أن يدعو نفسه ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت لذات الدنيا ورياساتها وهي عاجزة عنها، بل يسليها بالثواب الأخروي ليخف عليها عدم حصول الدنيا، لقول يوسف:

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٧]

ومنها أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر

يلحقهم لا بأس به، بل ذلك مطلوب، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات للاستعداد به للسنين المجدبات، وقد حصل به الخير الكثير.

ومنها حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها، فنهض بالزراعة حتى كثرت الغلال جداً، فصار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها عندما فقدوا ما عندهم، لعلمهم بوفورها في مصر، ومن عدله وتدبيره وخوفه أن يتلاعب بها التجار أنه لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله، وظاهر حاله هذا أنه لا يعطي أهل البلد إلا أقل من ذلك بكثير لحضورهم عنده.

ومنها مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين وإكرام الضيف، لقول يوسف:

﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٩]

ومنها أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرَّم؛ فإن يعقوب قال لأولاده:

﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾
[سورة يوسف: الآية ٦٤]

وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٣]

فهم في الأخيرة، وإن لم يكونوا مفرطين؛ فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن يقول ما قال من غير لوم عليه.

ومنها أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء الله وقدره، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر؛ لقول يعقوب:

﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾
[سورة يوسف: الآية ٦٧]

ومنها جواز استعمال الحيل والمكائد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وأما الحيل التي يراد بها إسقاط واجب أو فعل محرم فإنها محرمة غير نافذة.

ومنها أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يحب بيانه له أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حين ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها منه موهماً أنه سارق، وليس في ذلك تصريح بسرقته، وإنما استعمل المعاريض، ومثل هذا قوله:

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾
[سورة يوسف: الآية ٧٩]

ولم يقل من سرق متاعنا.

ومنها أنه لا يجوز أن يشهد إلا بما علمه وتحققه برؤية أو سماع لقولهم:

﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [سورة يوسف: الآية ٨١]

وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٦]

ومنها هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، إذ قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ويحزنه أشد الحزن، فتم لهذه الفرقة مدة طويلة ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، ثم ازداد به الأمر حين اتصل فراق الابن الثاني بالأول، وهو في ذلك صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله، وقد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا ريب أنه وفي بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله:

﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٦]

فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين؛ ولا ريب أن الله رفعه بهذه المحنة درجات عالية ومقامات سامية، لا تنال إلّا بمثل هذه الأمور.

ومنها أن الفرج مع اشتداد الكرب، فإنه لما تراكمت الشدائد المتنوعة وضاق العبد ذرعاً بحملها، فرجها فارج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين؛ وهذه عوائده الجميلة، خصوصاً لأوليائه وأصفيائه، ليكون لذلك الوقع الأكبر والمحل الأعظم، وليجعل من المعرفة بالله والمحبة له ما يوازن ويرجح بما جرى على العبد بلا نسبة.

ومنها جواز إخبار العبد بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر غيرهما على غير وجه التسخُّط، لقول يعقوب:

﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٤].

وقول إخوة يوسف:

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [سورة يوسف: الآية ٨٨].

وأقرهم يوسف.

ومنها فضيلة التقوى والصبر، وإن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وإن عاقبة أهلهما أحسن العواقب لقوله:

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٩٠]

ومنها أنه ينبغي للعبد إذا أنعم عليه بنعمة بعد ضدها أن يتذكر الحالة السابقة ليعظم وقع هذه النعمة الحاضرة ويكثر شكره لله تعالى، ولهذا قال يوسف:

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٠].

ومنها ما في هذه القصة من الألطاف المتنوعة المسهِّلة للبلاء: منها رؤيا يوسف السابقة؛ فإن فيها روحاً ولطفاً بيوسف وبيعقوب، وبشارة بالوصول إلى تأويلها، ولطف الله بيوسف إذ أوحى إليه وهو في الجب لتنبئنهم بأمرهم هذا،

وهو لا يشعرون؛ وتنقلاته من حال إلى حال، فإن فيها ألطافاً ظاهرة وخفية؛ ولهذا قال في آخر الأمر:

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٠]

يلطف به في أحواله الداخلية، ويلطف له في الأمور الخارجية ويوصله إلى أعلى المطالب من حيث لا يشعر.

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يلح دائماً على ربه في تثبيت إيمانه وأن يحسن له الخاتمة وأن يجعل خير أيامه آخرها، وخير أعماله خواتمها، فإن الله كريم جواد رحيم.

قصة أصحاب الكهف

وهم فتية وفقهم الله وألهمهم الإيمان، وعرفوا ربهم وأنكروا ما عليه قومهم من عبادة الأوثان، وقاموا بين أظهرهم معلنين فيما بينهم عقيدتهم، خائفين من سطوة قومهم فقالوا:

﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا﴾

[أي إن دعونا غيره]

﴿شَطَطًا﴾

[أي زورًا وبهتاناً وظلماً]

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [سورة الكهف: الآيتان ١٤ و١٥]

فلما اتفقوا على هذا الأمر، وعرفوا أنهم لا يمكنهم إظهار ذلك لقومهم سألوا الله أن يسهل أمرهم فقالوا:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

[سورة الكهف: الآية ١٠]

فأووا إلى غار يسره الله غاية التيسير، واسـع الفجوة، بابه نحو الشمال لا تدخله الشمس، لا في طلوعها ولا في غروبها، فناموا في كهفهم بحفظ الله ورعايته ثلاث مئة سنة وازدادوا تسعاً، وقد ضرب الله عليهم نطاقاً من الرعب على قربهم من مدينة قومهم؛ ثم إنه في الغار تولى حفظهم بقوله:

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [سورة الكهف: الآية ١٨]

وذلك لئلا تُبلي الأرضُ أجسادهم، ثم أيقظهم بعد هذه المدة الطويلة:

﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾

[وليقفوا في آخر الأمر على الحقيقة:]

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [سورة الكهف: الآية ١٩] إلى آخر القصة.

ففيها آيات بينات وفوائد متعددة:

منها أن قصة أصحاب الكهف وإن كانت عجيبة فليست من أعجب آيات الله، فإن لله آيات عجيبة وقصصاً فيها عبرة للمعتبرين.

ومنها أن من أوى إلى الله أواه الله ولطف به وجعله سبباً لهداية الضالين؛ فإن الله لطف بهم في هذه القومة الطويلة إبقاءً على إيمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقتلهم، وجعل هذه النومة من آياته التي يستدل بها على كمال قدرة الله وتنوع إحسانه، وليعلم العباد أن وعد الله حق.

ومنها الحث على تحصيل العلوم النافعة والمباحثة فيها، لأن الله بعثهم لأجل ذلك، وببحثهم ثم بعلم الناس بحالهم حصل البرهان والعلم بأن وعد الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

ومنها الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عـالمه، وأن يقف عند ما يعرف.

ومنها صحة الوكالة في البيع والشراء وصحة الشركة في ذلك، لقولهم: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيُّها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾. ومنها جواز أكل الطيبات والتخير من الأطعمة ما يلائم الإنسان ويوافقه، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه، لقوله: ﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾.

ومنها الحث والتحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكتمان الذي يدرأ عن الإنسان الشر.

ومنها بيان رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة في دينهم، وتركهم لأوطانهم وعوائدهم في الله.

ومنها ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة طريقة المؤمنين.

ومنها أن قوله:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

[سورة الكهف: الآية ٢١]

فيه دليل على أن هؤلاء القوم الذين بعثوا في زمانهم، أناس أهل تدين، لأنهم عظَّموهم هذا التعظيم حتى عزموا على اتخاذ مسجد على كهفهم؛ وهذا وإن كان ممنوعاً ـ وخصوصاً في شريعتنا، فالمقصود بيان أن ذلك الخوف العظيم من أهل الكهف وقت إيمانهم ودخولهم في الغار أبدلهم الله به بعد ذلك أمناً وتعظيماً من الخلق؛ وهذه عوائد الله فيمن تحمل المشاق من أجله أن يجعل له العاقبة الحميدة.

ومنها أن كثرة البحث وطوله في المسائل التي لا أهمية لها لا ينبغي الانهماك به لقوله:

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٢]

ومنها أن سؤال من لا علم له في القضية المسئول فيها أو لا يوثق به منهي عنه لقوله:

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٢]

قصة خاتم النبيين وإمام المرسلين ومن أنزل عليه القرآن هدى ورحمة للمؤمنين

اعلم أن سيرة نبينا محمد ﷺ أعظم عون على معرفة تفسير كتاب الله؛ والقرآن إنما كان ينزل تبعاً لمناسبات سيرته، وما يقوله للخلق، وجواب ما يقال له، وما يحصل به تحقيق الحق الذي جاء به، وإبطال المذاهب التي جاء لإبطالها؛ وهذا من حكمة إنزاله مفرقاً، كما ذكر الله هذا المعنى بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآيتان ٣٢ و٣٣]

وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٠]

فلنشر من سيرته ﷺ على الأحوال المناسبة لنزول الآيات المعينات، أو لجنس النوع من علوم القرآن ليكون عوناً في هذا المقام.

فأول مقاماته في إنزال القرآن عليه أنه كان قبل البعثة قد بغضت إليه عبادة الأوثان، وبغض إليه كل قول قبيح وفعل قبيح. وفطر ﷺ فطرة مستعدة متهيئة لقول الحق علماً وعملاً؛ والله تعالى هو الذي طهر قلبه وزكاه وكمّله، فكان من رغبته العظيمة فيما يقرب إلى الله أنه كان يذهب إلى غار حراء الأيام ذوات العدد، ويأخذ معه طعاماً يطعم منه المساكين ويتعبّد ويتحنث فيه، فقلبه في غاية التعلق بربه، ويفعل من العبادات ما وصل إليه علمه في ذلك الوقت الجاهلي الخالي من العلم، ومع ذلك فهو في غاية الإحسان إلى الخلق. فلما تم

عمره أربعين سنة وتمت قوته العقلية وصلح لتلقي أعظم رسالة أرسل الله بها أحداً من خلقه، تبدَّى له جبريل ﷺ فرأى منظراً هاله وأزعجه، إذ لم يتقدم له شيء من ذلك، وإنما قدَّم الله له الرؤيا، التي كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

فأول ما أنزل الله عليه

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [سورة العلق: الآية ١]

فجاءه بها جبريل وقال له: اقرأ. فأخبره أنه ليس بقارىء ـ أي لا يعرف أن يقرأ ـ كما قال تعالى:

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [سورة الضحى: الآية ٧]

وتفسيرها الآية الأخرى:

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢]

فغطه جبريل مرتين أو ثلاثاً ليهيئه لتلقي القرآن العظيم، ويتجرد قلبه وهمته وظاهره وباطنه لذلك، فنزلت هذه السورة التي فيها نبوته، وأمره بالقراءة باسم ربه، وفيها أصناف نعمه على الإنسان بتعليمه البيان العلمي والبيان اللفظي والبيان الرسمي، فجاء بها إلى خديجة ترعد فرائصه من الفرَق، وأخبرها بما رآه وما جرى عليه، فقالت خديجة رضي الله عنها: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق، أي ومن كانت هذه صفته، فإنها تستدعي نعماً من الله أكبر منها وأعظم، وكان هذا من توفيق الله لها ولنبيه، ومن تهوين القلق الذي أصابه.

وبهذه السورة ابتدأت نبوته ثم فتر عنه الوحي مدة ليشتاق إليه وليكون أعظم لموقعه عنده؛ وكان قد رأى الملك على صورته فانزعج، فجاء إلى خديجة أيضاً ترعد فرائصه فقال: «دثروني دثروني» فأنزل الله عليه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾
[سورة المدّثر: الآيات ١ ــ ٥]

فكان في هذا: الأمر له بدعوة الخلق وإنذارهم. فشمر ﷺ عن عزمه وصمم على الدعوة إلى ربه مع علمه أنه سيقاوم بهذا الأمر البعيد والقريب، وسيلقى كل معارضة من قومه ومن غيرهم وشدة، ولكن الله أيَّده وقوَّى عزمه وأيَّده بروح منه وبالدين الذي جاء به، وجاءته سورة الضحى في فترة الوحي لما قال المكذبون: إن رب محمد قلاه. قال:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ إلى آخرها.
[سورة الضحى: الآيات ١ ــ ٣ وما بعدها]

وهذا اعتناء عظيم من الله برسوله، ونفي لكل نقص؛ وبشارة بأن كل حالة له أحسن مما قبلها وخير منها؛ وأن الله سيعطيه من النصر والأتباع والعز العظيم وانتشار الدين ما يرضيه. فكان أعظم مقامات دعوته: دعوته إلى التوحيد الخالص والنهي عن ضده؛ دعا الناس لهذا، وقرره الله في كتابه وصرفه بطرق كثيرة واضحة تبين وجوب التوحيد وحسنه، وتعينه طريقاً إلى الله وإلى دار كرامته؛ وقرار إبطال الشرك والمذاهب الضارة بطرق كثيرة احتوى عليها القرآن، وهي أغلب السور المكية، فاستجاب له في هذا الواحد بعد الواحد على شدة عظيمة من قومه، وقاومه قومه وغيرهم وبغوا له الغوائل، وحرصوا على إطفاء دعوته بجهدهم وقولهم وفعلهم، وهو يجادلهم ويتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهم يعلمون أنه الصادق الأمين، ولكنهم يكابرون ويجحدون آيات الله، كما قال تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾
[سورة الأنعام: الآية ٣٣]

ولهذا لما كان استماعهم للقرآن على وجه الكفر والجحد والتكذيب، وتوطين نفوسهم على معاداته، أخبر الله تعالى أنه جعل على قلوبهم أكنة أن

يفقهوه، وفي آذانهم وقراً؛ وأنهم لا يهتدون بسبب ما أسسوا من هذا الأصل الخبيث المانع لصاحبه من كل خير وهدى؛ وهذا مما يعلم به حكمة الباري في إضلال الضالين، وأنهم لما اختاروا لأنفسهم الضلال ورغبوا فيه، ولَّاهم الله ما تولوا لأنفسهم وتركهم في طغيانهم يعمهون؛ وأنهم لما ردوا نعمة الله عليهم حين جاءتهم، قلب الله أفئدتهم وأصم أسماعهم وأعمى أبصارهم وأفئدتهم، وهذا الوصف الذي أشرنا إليه قد ذكره الله في كتابه عنهم، وهو يعينك على فهم آيات كثيرة يخبر الله فيها بضلالهم وانسداد طرق الهداية عليهم، وعدم قبول محالهم وقلوبهم للهدى، والذنب ذنبهم وهم السبب في ذلك؛ قال تعالى:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٠]

وبضده تعرف الحكمة في هدايته للمؤمنين، وأنهم لما كانوا منصفين ليس غرضهم إلا الحق، ولا لهم قصد إلا طلب رضا ربهم، هداهم الله بالقرآن، وازدادت به علومهم ومعارفهم وإيمانهم وهدايتهم المتنوعة. قال تعالى:

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[سورة المائدة: الآية ١٦]

وهذا الوصف الجليل للمؤمنين هو الأساس لهدايتهم وزيادة إيمانهم وانقيادهم، وبه ينفتح لك الباب في فهم الآيات في أوصاف المؤمنين وسرعة انقيادهم للحق: أصوله وفروعه.

ومن مقامات النبي ﷺ مع المكذبين له أنه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويدعوهم أفراداً ومتفرقين، ويذكرهم بالقرآن ويتلوه في الصلاة وخارجها؛ وكانوا إذا سمعوه صموا آذانهم، وقد يسبونه ويسبون من أنزله، فأنزل الله على رسوله آيات كثيرة في هذا المعنى يبين حالهم مع سماع القرآن وشدة نفورهم كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، وأن شياطينهم ورؤساءهم في الشر فكروا وقدروا ونظروا فيما يقولون عن القرآن

ويصفونه به لينفروا عنه الناس، حتى قر قرار رئيسهم الوليد بن المغيرة الذي سماه الله وحيداً فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر، ولكن أبى الله إلا أن يعلو هذا الكلام كلَّ كلام، ويزهق هذا الحق كل باطل، وكانوا من إفكهم يقولون في القرآن الأقوال المتناقضة، يقولون إنه سحر، إنه كهانة، إنه شعر، إنه كذب، إنه أساطير؛ فجعلوا القرآن عضين، كل هذا أثر البغض الذي أحرق قلوبهم، حتى قالوا فيه مقالة المجانين، وكلما قالوا قولاً من هذه الأقوال، أنزل الله آيات يبطل بها ما قالوا، ويبين زورهم وافتراءهم وتناقضهم.

وكان من الأدلة والبراهين على رسالة محمد ﷺ، وأن القرآن من عند الله، مقابلة المكذبين له. فإن من نظر إليها علم أنها سلاح عليهم؛ وأكبر دليل على أنهم مقاومون للحق ساعون في إبطاله، وأنهم على الباطل الذي ليس له حظ من العقل، كما ليس له حظ من الدين، وكانوا أيضاً يقولون في النبي ﷺ الأقوال التي ليس فيها دلالة على ما كانوا يعتقدون، وليس فيها نقص بالنبي ﷺ. يقولون: لو أن محمداً صادق لأنزل الله ملائكة يشهدون له بذلك، ولأغناه الله عن المشي في الأسواق وطلب الرزق كما يطلبه غيره، ولجعل له كذا وكذا مما توحي إليه عقولهم الفاسدة، ويذكرها الله في القرآن في مواضع متعددة، تارة يصورها للعباد فقط، لأن من تصورها عرف بطلانها وأنها ليست من الشُّبَهِ القادحة، فضلاً عن الحجج المعتبرة؛ وتارة يصورها ويذكر ما يبطلها من الأمور الواضحة، وهذا كثير في القرآن.

ومن مقاماتهم مع النبي ﷺ أنهم يسعون أشد السعي أن يكف عن عيب آلهتهم والطعن في دينهم ويحبون أن يتاركهم ويتاركوه، لعلمهم أنه إذا ذكر آلهتهم ووصفها بالصفات التي هي عليه من النقص، وأنه ليس فيها شيء من الصفات يوجب أن تستحق شيئاً من العبادة، يعرفون أن الناس يعرفون ذلك ويعترفون به، فلا أحب إليهم من التزوير وإبقاء الأمور على علاتها من غير بحث عن الحقائق، لأنهم يعرفون حق المعرفة أن الحقائق إذا بانت ظهر للخلق بطلان ما هم عليه: وهذا الذي منه يفرون؛ وهذا المقام أيضاً ذكره الله في آيات متعددة، مثل قوله:

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [سورة القلم: الآية ٩] ونحوها من الآيات.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٨]

فهذا إذا ترتب على السب المذكور سبهم لله، فإنه يترك لما يترتب عليه من الشر.

ومن مقاماتهم المتنوعة مع النبي ﷺ أنهم كانوا يقترحون الآيات بحسب أهوائهم، ويقولون: إن كنت صادقاً فاءتنا بعذاب الله، أو بما تعدنا، أو أزل عنا جبال مكة واجعل لنا فيها أنهاراً وعيوناً. وحتى يحصل لك كذا وكذا مما ذكره الله عنهم فيجيبهم الله عن هذه الأقوال بأن رسوله ﷺ قد أيده الله بالآيات والله أعلم بما ينزل من آياته، وأعلم بما هو أنفع لهم، وأنه قد حصل المقصود من بيان صدقه وقامت الأدلة والبراهين على ذلك. فقول الجاهل الأحمق: لو كان كذا وكذا... جهل منه وكبر ومشاغبة محضة، وتارة يخبرهم أنه لا يمنعه من الإتيان بها إلا الإبقاء عليهم وأنها لو جاءت لا يؤمنون، فعند ذلك يعاجلهم الله بالعقاب. وتارة يبين لهم أن الرسول إنما هو نذير مبين، ليس له من الأمر شيء، ولا من الآيات شيء، وأن هذا من عند الله، فطلبهم من الرسول محض الظلم والعدوان، وهذه المانى في القرآن كثيرة بأساليب متعددة.

وأحياناً يقدحون في الرسول قدحاً يعترضون فيه على الله، وأنه لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، ومحمد ليس كذلك؛ وأنك يا محمد لست بأولى بفضل الله منا؛ فلأي شيء تفضل علينا بالوحي... ونحوه من الأقوال الناشئة عن الحسد؛ فيجيبهم الله بذكر فضله، وأن فضله يؤتيه من يشاء، وأنه أعلم حيث يجعل رسالته والمحل اللائق بها، ويشرح لهم من صفات رسوله التي يشاهدونها رأي عين ما يعلمون هم وغيرهم أنه أعظم رجل في العالم، وأنه ما وجد ولن يوجد أحد يقاربه في الكمال، مؤيداً ذلك بالأمور المحسوسة والبراهين المسلمة، وقد أبدى الله هذه المعاني وأعادها معهم في مواضع كثيرة.

ومن مقاماته ﷺ مع المؤمنين الرأفة العظيمة والرحمة لهم والمحبة التامة والقيام معهم في كل أمورهم، وأنه لهم أرحم وأرأف من آبائهم وأمهاتهم، وأحنى عليهم من كل أحد، كما قال تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨]

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

فلم يزل يدعو إلى التوحيد وعقائد الدين وأصوله، ويقرر ذلك بالبراهين والآيات المتنوعة، ويحذر من الشرك والشرور كلها منذ بعث إلى أن استكمل بعد بعثته، نحو عشر سنين، وهو يدعو إلى الله على بصيرة.

ثم أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه من آياته، وعرج به إلى فوق السموات السبع، وفرض الله عليه الصلوات الخمس بأوقاتها وهيئاتها، وجاءه جبريل على أثرها فعلَّمه أوقاتها وكيفيّاتها، وصلى به يومين، اليوم الأول صلَّى الصلوات الخمس في أول وقتها. واليوم الثاني في آخر الوقت، وقال: الصلاة ما بين هذين الوقتين؛ ففرضت الصلوات الخمس قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، ولم يفرض الأذان في ذلك الوقت ولا بقية أركان الإسلام، وانتشر الإسلام في المدينة وما حولها. ومن جملة الأسباب: أن الأوس والخزرج كان اليهود في المدينة جيراناً لهم، وقد أخبروهم أنهم ينتظرون نبياً قد أظل زمانه، وذكروا من أوصافه ما دلهم عليه؛ فبادر الأوس والخزرج لما اجتمعوا بالنبي ﷺ في مكة وتيقنوا أنه رسول الله، وأما اليهود فاستولى عليهم الشقاء

والحسد، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به. وكان المسلمون في مكة في أذى شديد من قريش فأذن لهم النبي ﷺ في الهجرة أولاً إلى الحبشة، ثم لما أسلم كثير من أهل المدينة صارت الهجرة إلى المدينة.

وحين خاف أهل مكة من هذه الحال اجتمع ملأهم ورؤساؤهم في دار الندوة يريدون القضاء التام على النبي ﷺ؛ فاتفق رأيهم أن ينتخبوا من قبائل قريش من كل قبيلة رجلاً شجاعاً فيجتمعون ويضربونه بسيوفهم ضربة واحدة. قالوا: لأجل أن يتفرق دمه في القبائل، فتعجز بنو هاشم عن مقاومة سائر قريش فيرضون بالدية، فهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. فجاء الوحي إلى النبي ﷺ وعزم على الهجرة، وأخبر أبا بكر بذلك وطلب منه الصحبة فأجابه إلى ذلك وخرج في تلك الليلة التي اجتمعوا على الإيقاع به، وأمر علياً أن ينام على فراشه وخرج هو وأبو بكر إلى الغار، فلم يزالوا يرصدونه حتى برق الفجر، فخرج إليهم عليّ فقالوا: أين صاحبك؟ قال لا أدري.

ثم ذهبوا يطلبونه في كل وجهة، وجعلوا الجعالات الكثيرة لمن يأتي به؛ وكان الجبل الذي فيه الغار قد امتلأ من الخلق يطلبون رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا. فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ وأنزل الله تعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: الآية ٤٠]

فهاجر إلى المدينة واستقر بها وأذن له في القتال بعدما كان قبل الهجرة ممنوعاً لحكمة مشاهدة، فقال:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

[سورة الحج: الآية ٣٩]

وجعل يرسل السرايا، ولما كانت السنة الثانية فرض الله على العباد الزكاة والصيام، فآيات الصيام والزكاة إنما نزلت في هذا العام وقت فرضها، وأما قوله تعالى:

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [سورة فصلت: الآيتان ٦ و٧]

فإن المراد زكاة القلب وطهارته بالتوحيد وترك الشرك.

وفي السنة الثانية أيضاً كانت وقعة بدر. وسببها أن عيراً لقريش تحمل تجارة عظيمة من الشام، خرج النبي ﷺ بمن خف من أصحابه لطلبها، فخرجت قريش لحمايتها وتوافوا في بدر على غير ميعاد، فالعير نجت والنفير التقوا مع الرسول وأصحابه، وكانوا ألفاً كاملي العدد والخيل؛ والمسلمون ثلثمائة وبضعة عشر على سبعين بعيراً يعتقبونها، فهزم الله المشركين هزيمة عظيمة، قتلت سرواتهم وصناديدهم، وأسر من أسر منهم، وأصاب المشركين مصيبة ما أصيبوا بمثلها؛ وهذه الغزوة أنزل الله فيها وفي تفاصيلها سورة الأنفال. وبعدما رجع إلى المدينة منها مظفراً منصوراً ذل من بقي ممن لم يُسلم من الأوس والخزرج، ودخل بعضهم في الإسلام نفاقاً، ولذلك جميع الآيات نزلت في المنافقين إنما كانت بعد غزوة بدر.

ثم في السنة الثالثة كانت غزوة أُحد. غزا المشركون وجيشوا الجيوش على المسلمين حتى وصلوا إلى أطراف المدينة، وخرج إليهم رسول الله ﷺ بأصحابه وعبأهم ورتبهم والتقوا في أُحُد عند الجبل المعروف شمالي المدينة، وكانت الدائرة في أول الأمر على المشركين، ثم لما ترك الرماة مركزهم الذي رتبهم فيه رسول الله ﷺ وقال لهم لا تبرحوا عنه، ظهَرنا أو غُلبنا، وجاءت الخيل مع تلك الثغرة وكان ما كان، حصل على المسلمين في أُحد مقتلة أكرمهم الله بالشهادة في سبيله، وذكر الله تفصيل هذه الغزوة في سورة آل عمران، وبسط متعلقاتها، فالوقوف على هذه الغزوة من كتب السير يعين على فهم الآيات الكثيرة التي نزلت فيها كبقية الغزوات.

ثم في السنة الرابعة تواعد المسلمون والمشركون فيها ــ في بدر ــ فجاء

المسلمون لذلك الموعد وتخلف المشركون معتذرين أن السنة مجدبة، فكتبها الله غزوة للمسلمين،

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٤]

ثم في سنة خمس كانت غزوة الخندق. اتفق أهل الحجاز وأهل نجد وظاهرهم بنو قريظة من اليهود على غزو النبي ﷺ وجمعوا ما يقدرون عليه من الجنود، فاجتمع نحو عشرة آلاف مقاتل وقصدوا المدينة؛ ولما سمع بهم النبي ﷺ خندق على المدينة، وخرج المسلمون نحو الخندق، وجاء المشركون كما وصفهم الله بقوله:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٠]

ومكثوا محاصرين المدينة عدة أيام، وحال الخندق بينهم وبين اصطدام الجيوش، وحصل مناوشات يسيرة بين أفراد من الخيل. وسبب الله عدة أسباب لانخذال المشركين، ثم انشمروا إلى ديارهم، فلما رجعوا خائبين لم ينالوا ما كانوا جازمين على حصوله، تفرغ النبي ﷺ لبني قريظة الذين ظاهروا المشركين بقولهم وتشجيعهم على قصد المدينة، ومظاهرتهم الفعلية ونقضهم ما كان بينهم وبين النبي ﷺ فحاصرهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم. وفي هذه الغزوة أنزل الله صدر سورة الأحزاب من قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ [إلى قوله] وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآيات ٩ ــ ٢٧]

ثم في سنة ست من الهجرة اعتمر ﷺ وأصحابه عمرة الحديبية؛ وكان

البيت لا يُصدُّ عنه أحد، فعزم المشركون على صد النبي ﷺ عنه؛ ولما بلغ الحديبية ورأى المشركين قد أخذتهم الحمية الجاهلية جازمين على القتال دخل معهم في صلح لحقن الدماء في بيت الله الحرام، ولما في ذلك من المصالح، وصار الصلح على أن يرجع النبي ﷺ عامه هذا ولا يدخل البيت، ويكون القضاء من العام المقبل، وتضع الحرب أوزارها بينهم عشر سنين؛ فكره جمهور المسلمين هذا الصلح حين توهموا أن فيه غضاضة على المسلمين، ولم يطلعوا على ما فيه من المصالح الكثيرة، فرجع ﷺ عامه ذلك وقضى هذه العمرة في عام سبع من الهجرة، فأنزل الله في هذه القضية سورة الفتح بأكملها:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [سورة الفتح: الآية ١]

فكان هذا الفتح لما فيه من الصلح الذي تمكن فيه المسلمون من الدعوة إلى الإسلام ودخول الناس في دين الله حين شاهدوا ما فيه من الخير والصلاح والنور. وقد تقدم أن قصة بني قريظة دخلت في ضمن قصة الخندق، أما قبيلة بني النضير من اليهود فإنها قبل ذلك، حين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وكانوا على جانب المدينة غزاهم ﷺ واحتموا بحصونهم ووعدهم المنافقون حلفاؤهم بنصرتهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، وأنزلهم رسول الله ﷺ على أن يجلوا عن ديارهم ولهم ما حملت إبلهم، ويدعوا الأرض والعقار وما لم تحمله الإبل للمسلمين؛ فأنزل الله في هذه القضية أول سورة الحشر:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾

إلى آخر القصة. [سورة الحشر: الآية ٢]

وفي سنة ثمان من الهجرة، وقد نقضت قريش العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ غزا مكة في جند كثيف من المسلمين يقارب عشرة آلاف، فدخلها فاتحاً لها، ثم تمّمها بغزو حنين على هوازن وثقيف، فتم بذلك نصر الله لرسوله وللمسلمين، وأنزل الله في ذلك أول سورة التوبة.

وفي سنة تسع من الهجرة غزا تبوك وأوعب المسلمون معه، ولم يتخلف إلا أهل الأعذار وأناس من المنافقين، وثلاثة من صلحاء المؤمنين: كعب بن

مالك وصاحباه. وكان الوقت شديداً والحر شديداً والعدو كثيراً والعسرة مشتدة، فوصل إلى تبوك ومكث عشرين يوماً ولم يحصل قتال فرجع إلى المدينة؛ فأنزل الله في هذه الغزوة آيات كثيرة من سورة التوبة، يذكر تعالى تفاصيلها وشدتها، ويثني على المؤمنين، ويذم المنافقين وتخلفهم، ويذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، ويدخل معهم الثلاثة الذين خلفوا بعد توبتهم وإنابتهم.

وفي مطاوي هذه الغزوات يذكر الله آيات الجهاد وفرضه وفضله وثواب أهله، وما للناكلين عنه من الذل العاجل والعقاب الآجل، كما أنه في أثناء هذه المدة ينزل الله الأحكام الشرعية شيئاً فشيئاً بحسب ما تقتضيه حكمته.

وفي سنة تسع من الهجرة أو سنة عشر فرض الله الحج على المسلمين، وكان أبو بكر حج بالناس سنة تسع ونبذ إلى المشركين عهودهم، وأتم عهود الذين لم ينقضوا، ثم حج النبي ﷺ بالمسلمين سنة عشر واستوعب المسلمين معه، وأعلمهم بمناسك الحج والعمرة بقوله وفعله، وأنزل الله الآيات التي في الحج وأحكامه، وأنزل الله يوم عرفة:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾
[سورة المائدة: الآية ٣]

فلم يبق من العلوم النافعة علم إلا بيّنه لهم، فإن القرآن تبيان لكل شيء، فعلوم الأصول وعلوم الفروع والأحكام، وعلوم الأخلاق والآداب، وعلوم الكون، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم إلى أن تقوم الساعة، ففي القرآن بيانه والإرشاد إليه وهو الذي إليه المرجع في جميع الحقائق الشرعية والعقلية، ومحال وممتنع أن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض شيئاً مما جاء به القرآن؛ فإنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم:

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤]

فهذه الآية جمعت بين نوعي العلوم، فإن العلوم وسائل ومقاصد، وهو الحق الذي يقوله الله في كتابه وعلى لسان رسوله، ونوع وسائل، وهو الهداية إلى السبيل إلى كل علم وعمل، كما أن قوله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

جمعت الكمال في ألفاظه ومعانيه؛ فألفاظه أوضح الألفاظ وأبلغها وأحسنها تفسيراً لكل ما تفسره من الحقائق، بوضوحها وأحكامها وقوامها؛ ومعانيه كلها حق، وذلك أنه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، صدقاً في أخبارها؛ وعدلاً في أحكامها: أوامرها ونواهيها:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

فأحكامه على الإطلاق أحسن الأحكام وأنفعها للعباد، فهذا في شرعه ودينه ونظيره في خلقه، الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين.

وقد جمع الله في كتابه بين المتقابلات العامة، وذلك لكمال هذا الكتاب وأحكامه كالأمثلة السابقة، وكما في قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

فإن البر اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد والأخلاق والأعمال، والتقوى اسم جامع لما يجب اتقاؤه من جميع المآثم والمضار، ولهذا قال:

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

فالإثم المعاصي المتعلقة بحقوق الله، والعدوان البغي على الخلق في الدماء والأموال والأعراض والحقوق.

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٧]

فجمع بين زاد سفر الدنيا، وزاد سفر الآخرة بالتقوى.

وكذلك قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٦]

فهذا اللباس الحسي الضروري والكمالي، ثم قال:

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٦]

فهذا اللباس المعنوي، وإن شئت قلت عن الأول إنه لباس البدن، وعن لباس التقوى إنها لباس القلب والروح.

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ١١]

جمع لهم بين نعيم الظاهر بالنضرة والحسن والبهاء ونعيم الباطن بكمال الفرح والسرور.

وكذلك قوله في صفة نساء الجنة:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٧٠]

فوصفهن بجمال الباطن بحسن الخلق الكامل، وجمال الظاهر بأنهن حسان الوجوه وجميع الظاهر.

ولما ذكر السير الحسي ذكر السير المعنوي، فقال:

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [سورة النحل: الآية ٩]

وكذلك قوله:

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ [أي أفراداً بدليل قوله] أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾
[سورة النساء: الآية ٧١]

وكذلك قوله:

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة الليل: الآيتان ١٥ و ١٦]

كذب الخبر وتولى عن الطاعة «التكذيب»: انحراف الباطن، «والتولي»: انحراف الظاهر؛ ونظيره قوله:

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٨]

وضد ذلك ما رتب الله على الإيمان والعمل الصالح من خير الدنيا والآخرة؛ فإن الإيمان ضد التكذيب، والتولي ضده الاستقامة والعمل الصالح.

وكذلك قوله:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

فاعبده وتوكل عليه تجمع جميع ما يراد من العبد؛ فالعبادة حق الله على العبد، والإعانة من ربه إسعافه بما استعان عليه من عبودية ربه وغيرها من منافعه؛ فالعبد في عبادة لله واستعانة به.

وكذلك قوله:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

فجمع للمؤمن العامل للصالحات بين طيب الحياة في الدنيا والآخرة، ونظيره:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [سورة النحل: الآية ٣٠]

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤١]

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٠١]

وكذلك قوله: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٧٧]

في مواضع نفي جميع المكروه الماضي ينفي الحزن والمستقبل بنفي الخوف.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾[سورة الواقعة: الآية ٨٩]

فالروح اسم جامع لنعيم القلب، والريحان اسم جامع لنعيم الأبدان؛ وجنة نعيم تجمع الأمرين.

وكذلك قوله:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى [أي القرآن الذي أنزله] فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ١٢٤]

جمع له بين عذاب الدنيا وعذاب البرزخ وعذاب دار القرار.

وكذلك قوله:

﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٣٥]

أي متكبر على الحق جبار على الخلق. ومثله:

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ١٢]

أي معتد في البغي على عباد الله ﴿أثيم﴾ أي متجرىء على محارم الله.

وكذلك قوله في مواضع:

﴿مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٨]

فالولي الذي يجلب لموليه المنافع ﴿والنصير﴾ الذي يدفع عنه المضار.

فوائد منثورة منوعة غير مرتبة

الأمّة: جاء في القرآن لعدة معاني، جاء بمعنى الإمام الجامع لخصال الخير، مثل قوله:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٠]

وبمعنى الطائفة:

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٤]

وهذا المعنى كثير، وبمعنى الملة والدين:

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٥٢]

وبمعنى المدة الطويلة:

﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٥]

السلطان: أكثر استعماله في القرآن بمعنى الحجة، مثل قوله:

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ [سورة يونس: الآية ٦٨]

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٠]

ويأتي بمعنى الملك، مثل قوله:

﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [سورة الحاقّة: الآية ٢٩]

ويأتي بمعنى التسلط والسيطرة مثل قوله:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾

[سورة النحل: الآيتان ٩٩ و ١٠٠]

اللسان: ورد في القرآن لعدة معاني؛ ورد بمعنى الجارحة:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [سورة القيامة: الآية ١٦]

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ [سورة الفتح: الآية ١١]

وهو كثير، وبمعنى اللغة:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٤]

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء: الآية ١٩٥]

وبمعنى الثناء الحسن:

﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٤]

«استوى» وردت في القرآن على ثلاثة أوجه، تارة تُعدّى بعلى فتدل على العلو والارتفاع؛ مثل:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤]

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [سورة الزخرف: الآية ١٣]

وتعدى بإلى فتدل على القصد، مثل:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩]

وتأتي بلا تعدية بحرف فتدل على الكمال، ومنه قوله:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [سورة القصص: الآية ١٤]

أي كمل في عقله وأحواله كلها.

التأويل: أكثر وروده في القرآن بمعنى عاقبة الشيء وما يؤول إليه ووقت وقوعه، مثل قوله:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٣]

أي وقوع المخبر به من العذاب:

﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٠]

أي هذا ما آلت إليه وهذا وقوعها. وقد يأتي بمعنى التفسير وهو قليل، ومنه على أحد التفسيرين:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧]

أي تفسيره، وعلى القول الآخر يكون من المعنى الأول، أي وما يعلم حقيقة المخبر عنه إلا الله وحده، فعلى هذا المعنى يتعين الوقوف على ﴿الله﴾ وعلى المعنى الأول الذي بمعنى التفسير يعطف عليه ﴿والراسخون في العلم﴾ أي ما يعلم تفسير المتشابه الذي يتشابه فهمه على أذهان أكثر الناس إلا الله وإلا أهل العلم، فإنهم يعلمون تأويله بهذا المعنى.

الغافل: ورد في القرآن بمعنى الجاهل، مثل قوله:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة يسٓ: الآية ٦]

وبمعنى النسيان لذكر الله وذكر طاعته، كقوله:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٥]

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨]

فـائدة: إخبار الله أنه مع عباده يرد في القرآن على أحد معنيين:

أحدهما: المعية العامة، كقوله:

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧]

أي هو معهم بعلمه وإحاطته.

الثاني: المعية الخاصة، وهي أكثر وروداً في القرآن، وعلامتها أن يقرنها الله بالاتصاف بالأوصاف التي يحبها والأعمال التي يرتضيها، مثل قوله:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٤]

مع المحسنين مع الصابرين

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠]

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٦]

وهذه المعية تقتضي العناية من الله والنصر والتأييد والتسديد، بحسب قيام العبد بذلك الوصف الذي رتبت عليه المعية.

ونظير هذا التقسيم وصف العباد بأنهم عبيد لله يرد في القرآن على نوعين: نوع عام، مثل قوله:

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾

[سورة مريم: الآية ٩٣]

أي معبداً مملوكاً لله؛ والنوع الثاني العبودية الخاصة، وهي تقتضي أن العبد بمعنى العابد المتعبد لربه القائم بعبوديته، وذلك مثل قوله:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣]

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [سورة الفرقان: الآية ١]

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

فبحسب قيام العبد بعبودية ربه تحصل له كفاية الله.

ونظير هذا القنوت؛ يرد في القر آن على قسمين: قنوت عام، مثل قوله:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٦]

أي الكل عبيد خاضعون لربوبيته وتدبيره. النوع الثاني: وهو الأكثر في القرآن: القنوت الخاص، وهو دوام الطاعة لله على وجه الخشوع؛ مثل قوله:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [سورة الزمر: الآية ٩]

﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨]

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٣]

﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

ونحوها.

فائدة: طغيان الرئاسة وطغيان المال يحملان صاحبهما على الكبر والبطر والبغي على الحق وعلى الخلق، برهان ذلك قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٥٨]

وقوله:

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [سورة العلق: الآيتان ٦ و٧]

فعلل هذا التجرؤ والطغيان بحصول الملك ورؤيته لنفسه الاستغناء؛ أما الموفقون الأصفياء فإنهم في هذه الأحوال يخضعون لله ويعترفون له بالنعمة ويزداد تواضعهم؛ ولهذا لما رأى سليمان عليه السلام من ملكه ملكاً كبيراً، ورأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده لم يطغ ويقل هذا من حولي وقوتي ونحوه، بل قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر. وقال قبل ذلك: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

فائدة: من الحكمة استعمال اللين في معاشرة المؤمنين، وفي مقام الدعوة للكافرين، كما قال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وقال:

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [سورة طه: الآية ٤٤]

فأمر باللين في هذه المواضع، وذكر ما يترتب عليه من المصالح؛ كما أن من الحكمة استعمال الغلظة في موضعها. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾
[سورة التحريم: الآية ٩]

لأن المقام هنا مقام لا تفيد فيه الدعوة، بل قد تعين فيه القتال، فالغلظة فيه من تمام القتال، وقد جمع الله بين الأمرين في قوله في وصف خواص الأمة:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩]

والفرق بين قوله:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [سورة القصص: الآية ٥٦]

وبين قوله:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢]

أن هداية الإرشاد والتعليم والبيان هي التي أثبتها لرسوله، بل ولكل من له تعليم وإرشاد للخلق؛ كما قال:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧٣]

وقال:

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [سورة الرعد: الآية ٧]

وأما هداية التوفيق ووضع الإيمان في القلوب، فإنها مختصة بالله، فكما لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ويميت إلا الله، فلا يهدي إلّا الله.

والفرق بين التبصرة والتذكرة في مثل قوله:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سورة قٓ: الآية ٨]

أن التبصرة هي العلم بالشيء والتبصر فيه، والتذكرة هي العمل بالعلم اعتقاداً وعملاً؛ وتوضيح هذا أن العلم التام النافع يفتقر إلى ثلاثة أمور:

التفكر أولاً في آيات الله المتلوّة والمشهودة؛ فإذا تفكر أدرك ما تفكر فيه بحسب فهمه وذكائه فعرف ما تفكر فيه وفهمه، وهذا هو التبصر؛ فإذا علمه عمل به، فإن كان اعتقاداً وإيماناً صدقه بقلبه وأقرّ به واعترف. وإن اقتضى عملاً قلبياً أو قولياً أو بدنياً عمل به، وهذا هو التذكر وهو التذكرة، وحاصل ذلك هو معرفة الحق واتباعه، ومعرفة الباطل واجتنابه.

والفرق بين المواضع التي ورد في القرآن أن الناس لا يتساءلون ولا يتكلمون، والمواضع التي ذكر فيها احتجاجهم وتكلمهم وخطاب بعضهم لبعض من وجهين أوجههما تقييد هذه المواضع بقوله:

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[سورة النبأ: الآية ٣٨]

فإثبات الكلام المتعدد من الخلق يوم القيامة تبع لإذن الله لهم في ذلك، ونفي التساؤل والكلام في الحالة التي لم يؤذن لهم. الوجه الثاني: ما قاله كثير من المفسرين: إن القيامة لها أحوال ومقامات، ففي بعض الأحوال والمقامات يتكلمون وفي بعضها لا يتكلمون، وهذا الوجه لا ينافي الأول، فيقال: هذه الأحوال والمقامات تبع لإذن الله لهم أو عدمه.

والفرق بين إثبات الله في القرآن الأنساب بين الناس في مواضع كثيرة، ونفيها في مواضع: إن المواضع المنفية المراد بها أن الأنساب لا تنفع، كما أن جميع الأسباب لا تنفع يوم القيامة إلا سبب واحد، وهو الإيمان والعمل الصالح، كما ذكره في كتابه في مواضع؛ وأما المواضع المثبتة فهو المطابق للحقيقة، ويذكر في كل مقام بحسبه.

ففي مقامات الفضل والثواب يذكر الله فضله على الجميع بإلحاق الناقص من المؤمنين بالكامل من غير نقص لدرجة الكامل، مثل قوله:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [سورة الطور: الآية ٢١]

أي ما نقصناهم، ومثل:

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٣]

ونحوها.

وفي مقامات العدل والعقوبة، يذكر الأنساب وأنها لا تنفع؛ وأن الأمر أعظم من أن يلتفت الإنسان إلى أقرب الناس إليه، مثل قوله:

﴿ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴾ [سورة المعارج: الآيات ١١ ــ ١٣]

ومثل:

﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾ [سورة عبس: الآيات ٣٤ ــ ٣٧]

ونظير هذا الإخبار عن المجرمين أنهم يُسألون عن أعمالهم، وذلك على وجه إظهار العدل والتوبيخ والتقريع لهم والفضيحة، وفي بعض المواضع مثل:

﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٣٩]

أي لا يحتاج في علم ذلك وجزائه عليه إلى سؤاله سؤال استعلام، لأنها مُسطَّرة عليهم قد حفظت بالشهود من الملائكة والجوارح والأرض وغيرها.

فـائدة: النفي المحض لا يكون كمالاً، ولهذا في مقامات المدح كل نفي في القرآن فإنه يفيد فائدتين: نفي ذلك النقص المصرح به وإثبات ضده ونقيضه؛ فيدخل في هذا أشياء كثيرة أعظمها أنه أثنى على نفسه بنفي أمور كثيرة تنافي كماله؛ نفى الشريك في مواضع متعددة فيقتضي توحُّده بالكمال المطلق، وأنه لا شريك له في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وسبح نفسه في مواضع، وأخبر في مواضع عن تسبيح المخلوقات، والتسبيح تنزيه الله عن كل نقص وعن أن يماثله أحد، وذلك يدل على كماله. ونفى عن نفسه الصاحبة والولد

ومكافأة أحد ومماثلته، وذلك يدل على كماله المطلق وتفرّده بالوحدانية والغنى المطلق والملك المطلق. ونفى عن نفسه السِّنَةَ والنوم والموت، لكمال حياته وقيوميته. ونفى كذلك الظلم في مواضع كثيرة وذلك يدل على كمال عدله وسعة فضله. ونفى أن يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء أو يعجزه شيء، وذلك لإحاطة علمه وكمال قدرته؛ ونفى العبث في مخلوقاته وفي شرعه، وذلك لكمال حكمته، وهذه فائدة عظيمة فاحفظها في خزانة قلبك، فإنها خير الكنوز وأنفعها.

وكذلك نفى عن كتابه القرآن الريب والعوج والشك ونحوها؛ وذلك يدل على أنه الحق في أخباره وأحكامه، فأخباره أصدق الأخبار وأحكمها وأنفعها للعباد، وأحكامه كلها محكمة في كمال العدل والحسن والاستقامة على الصراط المستقيم.

وقال عن نبيه ﷺ:

﴿مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَاغَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٢]

فنفى عنه الضلال من جميع الوجوه، وهو عدم العلم أو قلته أو نقصه أو عدم جودته ﴿والغيّ﴾ وهو سوء القصد، فيدل ذلك أنه أعلم الخلق على الإطلاق، وأهداهم وأعظمهم علماً ويقيناً وإيماناً؛ وأنه أنصح الخلق للخلق، وأعظمهم إخلاصاً لله وطلباً لما عنده، وأبعدهم عن الأغراض الرديئة؛ وكذلك نفى عنه كل نقص قاله أعداؤه فيه، وأنه في الذروة العليا من الكمال المضاد لذلك النقص.

وكذلك نفى الله عن أهل الجنة الحزن والكدر والنصب واللغوب والموت وغيرها من الآفات، فيدل ذلك على كمال سرورهم وفرحهم واتصال نعيمهم وكماله، وكمال حياتهم وقوة شبابهم وكمال صحتهم وتمام نعيمهم الروحي والقلبي والبدني من كل وجه؛ وأنه لا أعلى منه حتى يطلب عنه حولاً.

وعكس هذا ما نفى القرآن عنه صفات الكمال، فإنه يثبت له ضد ذلك من النقص؛ كما نفى عن آلهة المشركين جميع الكمالات القولية والفعلية

والذاتية، وذلك يدل على نقصها من كل وجه وأنها لا تستحق من العبادة مثقال ذرة.

فـائدة: قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٤٧]

أي القوة والشجاعة في هذه الآية، على أن الملك إذا اجتمعت فيه هاتان الخصلتان: العلم بالولاية والسياسة وحسن التدبير والشجاعة والقوة، فهو الذي يصلح للولاية والملك، وإن لم يكن من بيت الملك ولا ذا مال، فإن العبرة بجميع الولايات إمكان إقامتها والنهوض بها على أكمل الحالات، وولاية الملك لا تتم إلا بالعلم والشجاعة القلبية والبدنية.

فـائدة: قوله تعالى:

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٩]

يؤخذ من عمومها اللفظي والمعنوي أن كل مطلوب من المطالب المهمة ينبغي أن يؤتى من بابه، وهو أقرب طريق ووسيلة يتوصل بها إليه، وذلك يقتضي معرفة الأسباب والوسائل معرفة تامة ليسلك الأحسن منها والأقرب والأسهل، والأقرب نجاحاً، لا فرق بين الأمور العلمية والعملية، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية، ولا بين الأمور المتعدية والقاصرة، وهذا من الحكمة.

فـائدة: لما ذكر الله الأنبياء وأثنى عليهم قال:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠]

تدل على اتباع جميع الأنبياء في جميع هداهم، والله هداهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم، فكل أمر أثنى الله فيه على أحدٍ من أنبيائه من عقد أو خلق أو عمل، فإننا مأمورون بالاقتداء بهم، وذلك من هداهم وهو أيضاً من شريعتنا، فإن الله أمرنا بذلك، كما أمرنا بالأوصاف العامة التي تدخل فيها مفردات كثيرة.

فـائدة: إذا أمرنا الله في كتابه بأمر كان آمراً بذلك، وبكل أمر لا يتم إلا به. فالأمر مثلاً بالصلاة أمر بالطهارة وستر العورة واجتناب النجاسة واستقبال القبلة وبجميع شروطها وأركانها؛ وكذلك هو أمر بمعرفتها ومعرفة ما لا تتم إلا به، وهذا من أعظم الأدلة على وجوب طلب العلم؛ فإن المأمورات يتوقف تكميلها على معرفتها؛ وكذلك إذا نهانا الله عن شيء كان نهياً عن كل وسيلة توصل إليه، والأمر بالجهاد أمر به وبكل ما يتوقف عليه في كل زمان ومكان؛ والأمر بتبليغ الشريعة أمر بكل ما يحصل به التبليغ ويتم ويكمل ويشمل؛ ويدخل في هذا إيصال الأحكام الشرعية وتبليغها للناس بجميع المقربات الحادثة.

فـائدة: قد أخبر الله في عدة آيات بهدايته الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم، وتوبته على كل مجرم، وأخبر في آيات أُخر أنه:

﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [سورة البقرة: الاية ٢٥٨]

﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٨]

فما الجمع بينهما؟ فيقال قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [سورة يونس: الآيتان ٩٦ و٩٧]

هي الفاصلة بين من هداهم الله ومن لم يهدهم، فمن حقت عليه كلمة العذاب ـ لعنادهم، ولعلم الله أنهم لا يصلحون للهداية، بحيث صار الظلم والفسق وصفاً لهم، ملازماً غير قابل للزوال، ويعلم ذلك بظاهر أحوالهم وعنادهم ومكابرتهم للحقائق ـ فهؤلاء يطبع الله على قلوبهم فلا يدخلها خير أبداً، والجرم جرمهم، فإنهم رأوا سبيل الرشد فزهدوا فيه، ورأوا سبيل الغي فرغبوا فيه، واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.

فـائدة: ورد في كثير من الآيات إضافة الأمور إلى قدرة الله ومشيئته وعموم خلقه، وفي آيات كثيرة إضافتها إلى عامليها وفاعليها، وهذه الآيات

المتنوعة تنزل على الأصل العظيم المتفق عليه بين سلف الأمة، والذي دل عليه العقل والنقل، وهو أن جميع الأمور واقعة بقضاء الله وقدره: أعيانها وأوصافها وأفعالها وجميع ما حدث ويحدث، لا يخرج شيء منه عن قضائه وقدره. ومع ذلك فقد جعل الله الحوادث تبعاً لأسبابها ولإرادة الفاعلين لها وقدرتهم عليها، فالآيات المتعددة المضافة إلى عموم قدرة تدل على الأصل الأول، والآيات المتعددة المضافة إلى فاعليها تدل على الأصل الثاني، ولا منافاة بينهما، فإن أعمال العباد مثلاً تقع بفعلهم وإرادتهم وقدرتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم وخالق السبب التام خالق للمسبب، ومع ذلك فقد جعلهم في أفعالهم وتروكهم مختارين غير مجبورين.

فـائدة: يختم الله كثيراً من الآيات عندما يبين للعباد الأصول والأحكام النافعة بقوله:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٣]

وهذا يدل على أمور:

منها: أن الله يحب منا أن نعقل أحكامه وإرشاداته وتعليماته، فنحفظها ونفهمها ونعقلها بقلوبنا، ونؤيد هذا العقل ونثبته بالعمل بها.

ومنها: أنه كما يحب منا أن نعقل هذا الحكم الذي بينه بيانًا خاصاً، فإنه يحب أن نعقل بقية ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة، وأن نعقل آياته المسموعة وآياته المشهودة.

ومنها: أن في هذا أكبر دليل على أن معرفة ما أنزل الله إلينا من أعظم ما يربي عقولنا ويجعلها عقولاً تفهم الحقائق النافعة والضارة، وترجح هذه على هذه، ولا تميل بها الأهواء والأغراض والخيالات والخرافات الضارة المفسدة للعقول.

وإذا أردت معرفة مقادير عقول الخلق على الحقيقة، فانظر إلى عقول المهتدين بهداية القرآن والسنة وإلى عقول المنحرفين عن ذلك تجد الفرق العظيم؛ ولا تحسبن العقل هو الذكاء وقوة الفطنة والفصاحة اللفظية وكثرة القيل

والقال، وإنما العقل الصحيح أن يعقل العبد في قلبه الحقائق النافعة، عقلاً يحيط بمعرفتها ويميز بينها وبين ضدها، ويعرف الراجح من الأمور فيؤثره، والمرجوح أو الضار فيتركه، وبعبارة أخرى مختصرة نقول: العقل هو الذي يعقل به العلوم النافعة ويعقل صاحبه ويمنعه من الأمور الضارة.

فائدة: ورد في القرآن آيات عامة عطف عليه بعض أفرادها الداخلة فيها، وذلك يدل على فضيلة المخصوص وآكديته، وأن له من المزايا ما أوجب النص عليه؛ مثل قوله:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٩٨]

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [سورة القدر: الآية ٤]

وهو جبريل

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٨]

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٠]

دخل فيه الدين كله ثم قال:

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٠]

ومثله:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

أي اتبعه، ويدخل في ذلك جميع الشرائع، ثم قال:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

وذكر السبب في ذلك، إلى غير ذلك من الآيات التي إذا تأملت المخصوص من العام علمت أن ذلك لشرفه وآكديته وما يترتب عليه من الثمرات الطيبة.

فـائدة لطيفة: في عدة آيات من القرآن إذا ذكر الله الحكم لم ينص على نفس الحكم عليه، بل يذكر من أسمائه الحسنى ما إذا علم ذلك الاسم وعلمت آثاره، عُلم أن ذلك الحكم من آثار ذلك الاسم؛ وهذا إنهاض من الله لعباده أن يعرفوا أسماءه حق المعرفة، وأن يعلموا أنها الأصل في الخلق والأمر، وأن الخلق والأمر من آثار أسمائه الحسنى، وذلك مثل قوله:

﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٧]

فيستفاد أن الفيئة يحبها الله وأنه يغفر لمن فاء ويرحمه، وأن الطلاق كريه إلى الله، وأما المؤلي إذا طلق فإن الله تعالى سيجازيه على ما فعل من السبب، وهو الإيلاء، والمسبب، وهو ما ترتب عليه، ومثل هذا قوله تعالى:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٤]

أي فإنكم إذا علمتم ذلك رفعتم عنه العقوبة المتعلقة بحق الله، وهذا كثير؛ وقد يصرح الله بالحكم ويعلله بذكر الأسماء الحسنى المناسبة له.

فـائدة: قوله تعالى:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١]

جمع الله فيها أموراً كثيرة نافعة في الدين والبدن والحال والمآل، فالأمر بالأكل والشرب يدل على الوجوب، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعاً، كما لا يتمكن من ذلك قدراً ما دام عقله معه، وأن الأكل والشرب مع نية امتثال أمر الله يكون عبادة، وأن الأصل في جميع المأكولات والمشروبات الإباحة، إلا ما نص الشارع على تحريمه لضرره لإطلاق ذلك، وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسبه ويليق به ويوافق لغناه وفقره، ويوافق لصحته ومرضه ولعادته وعدمها، لأنه حذف المأكول. والآية ساقها الله لإرشاد العباد إلى منافعهم، وهي تدل على ذلك كله، وعلى أن أصل صحة البدن تدبير الغذاء بأن يأكل ويشرب

ما ينفعه ويقيم صحته وقوته؛ وعلى الأمر بالاقتصاد في الغذاء والتدبير الحسن؛ لأنه لما أمر بالأكل والشرب نهى عن السرف، وعلى أن السرف منهي عنه، وخصوصاً في الأطعمة والأشربة، فإن السرف يضر الدين والعقل والبدن والمال.

أما ضرره الديني، فكل من ارتكب ما نهى الله ورسوله عنه فقد انجرح دينه، وعليه أن يداوي هذا الجرح بالتوبة والرجوع.

وأما ضرره العقلي، فإن العقل يحمل صاحبه أن يفعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ويوجب له أن يدبر حياته ومعاشه؛ ولهذا كان حسن التدبير في المعاش من أبلـغ ما يدل على عقل صاحبه، فمن تعدى الطور النافـع إلى طور الإسراف الضارّ، فلا ريب أن ذلك لنقص عقله، فإنه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير.

وأما ضرره البدني، فإن من أسرف بكثرة المأكولات والمشروبات انضر بدنه واعتراه أمراض خطرة؛ وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الإسراف في الغذاء؛ ثم إنه ينضرّ أيضاً من وجه آخر، فإن من عوَّد بدنه شيئاً اعتاده، فإذا عوّده كثرة الأكل أو أكل الأطعمة المتنوعة فربما تعذرت في بعض الأحوال لفقر أو غيره، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتاداً له فتنحرف صحته.

وأما ضرره المالي فظاهـر، فإن الإسراف يستدعي كثرة النفقات، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٩]

أي تلام على ما فعلت، لأنه في غير طريقه، ﴿محسوراً﴾ فارغ اليد. وإخباره أنه لا يحب المسرفين، دليل على أنه يحب المقتصدين؛ ففي هذه الآية إثبات صفة المحبة لله، وأنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمـال والأحوال كلها، فسبحان من جعل كتابه كنوزاً للعلوم النافعة المتنوعة.

فـائدة: ذكر الله في كتابه عدة آيات فيها وصف القلوب بالمرض وبالعمى وبالقسوة، وبجعـل الموانـع عليهـا من الران، والأكنـة والحجاب، وبمـوتها

وبحيرتها؛ فاعلم أن القلب يكون صحيحاً ويكون مريضاً، ويجتمع فيه المرض والموانع من وصول الصحة، وقد يكون ليناً وقد يكون قاسياً.

فأما القلب الصحيح فهو السليم من جميع هذه الآفات، وهو القلب الذي صحت وقويت قوته العلمية، وقوته العملية الإرادية، وهو الذي عرف الحق فاتبعه بلا تردد، وعرف الباطل فاجتنبه بلا توقف، فهذا هو القلب الصحيح الحي السليم، وصاحبه من أولي النُّهى وأولي الحِجى وأولي الألباب وأولي الأبصار؛ والمُخْبت لله والمنيب إليه.

وأما القلب المريض فهو الذي انحرفت إحدى قوتيه العلمية أو العملية أو كليهما.

فمرض الشبهات والشكوك الذي هو مرض المنافقين لما اختل علمهم وبقيت قلوبهم في شكوك واضطراب ولم تتوجه إلى الخير، كان مرضها مهلكاً.

ومرض الشهوات، الذي هو ميل القلب إلى المعاصي، مخل بقوة القلب العملية، فإن القلب الصحيح لا يريد ولا يميل إلاّ إلى الخير أو إلى ما أباحه الله له، فمتى رأيت القلب ميالاً إلى المعاصي سريع الانقياد لها، فهو مريض، وهو سريع الافتتان عند وجود أسباب الفتنة، كما قال تعالى:

﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٢]

وأما القلب القاسي، فهو الذي لا يلين لمعرفة الحق، وإن عرفه لا يلين للانقياد له، فتأتيه المواعظ التي تلين الحديد وقلبه لا يتأثر بذلك، إما لقسوته الأصلية أو لعقائد منحرفة اعتقدها ورسخ قلبه عليها وصعب عليه الانقياد للحق إذا خالفها؛ وقد يجتمع الأمران؛ وأما الرّان والأكنة والأغطية التي تكون على القلوب، فإنها من آثار كسب العبد وجرائمه، فإذا أعرض عن الحق وعارض الحق، وجاءه الحق فردّه وفتح الله له أبواب الرشد فأغلقها عن نفسه، عاقبه الله بهذا العمل بأن سدّ عنه طرق الهداية التي كانت مفتوحة له ومتيسرة فتكبَّر عنها وردَّها، فطبع على قلبه وختم عليه وأحاطت به الجرائم ورانت عليه

الذنوب وغطت قلبه وجعلت بينه وبين الحق حجاباً وأقفلت القلب؛ فهذه المعاني التي أكثر الله من ذكرها في كتابه، إذا عرفت هذه الضوابط المذكورة في هذه الفائدة اتضحت لك معانيها، وعرفت بذلك حكمة الله وعدله في عقوبة هذه القلوب، وأن الله ولاهم ما تولوه لأنفسهم ورضوه لها.

فـائدة: قوله تعالى:

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾
[سورة الفتـح: الآية ٩]

جمـع الله فيها الحقوق الثلاثة: الحق المختص بالله الذي لا يصلـح لغيره، وهو العبادة في قوله: ﴿وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ والحق المختص بالرسول، وهو التوقير والتعزير، والحق المشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله.

فـائدة: ذكر الله اليقين في مواضـع كثيرة من القرآن في المحل العالي من الثناء، أخبر أن اليقين هو غاية الرسل بقوله:

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٥]

وأنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين وأن الآيات إنما ينتفـع بها الانتفاع الكامل ﴿الموقنون﴾ فحقيقة اليقين هو العلم الثابت الراسـخ التام المثمر للعمل القلبـي والعمل البدني.

أما آثار اليقين العلمية فثلاث مراتب: علم اليقين. وهي العلوم الناتجة عن الأدلة والبراهين الصادقة الخبرية، كجميـع علوم أهل اليقين الحاصلة عن خبر الله وخبر رسوله وأخبار الصادقين. وعين اليقين وهي مشاهدة المعلومات بالعين حقيقة، كما طلب الخليل إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيـي الموتى، فأراه الله ذلك بعينه، وغرضه عليه السلام الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين؛ وحق اليقين: وهي المعلومات التي تحقق بالذوق، كذوق القلب لطعم الإيمان، والذوق باللسان للأشياء المحسة.

وأما آثاره القلبية، فسكون القلب وطمأنينته، كما قال إبراهيم:

﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٠]

وقال ﷺ: البر ما اطمأن إليه القلب. وفي لفظ: الصدق ما اطمأن إليه القلب. فإن العبد إذا وصل إلى درجة اليقين في علومه اطمأن قلبه لعقائد الإيمان كلها، واطمأن قلبه لحقائق الإيمان وأحواله التي تدور على محبة الله وذكره، وهما متلازمان، قال تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٨]

فتسكن القلوب عند الأخبار فلا يبقى في القلب شك ولا ريب في كل خبر أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله، بل يفرح بذلك مطمئناً عالماً أن هذا أعظم فائدة حصّلتها القلوب. ويطمئن عند الأوامر والنواهي مكملاً للمأمورات تاركاً للمنهيات راجياً لثواب الله واثقاً بوعده.

ويطمئن أيضاً عند المصائب والمكاره فيتلقاها بانشراح صدر واحتساب، ويعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم، فيخف عليه حملها ويهون عليه ثقلها، وقد علم بذلك آثارها البدنية، فإن الأعمال البدنية مبنية على أعمال القلوب، فأهل اليقين هم أكمل الخلق في جميع صفات الكمال، فإن اليقين روح الأعمال والأخلاق وحاملها، والله هو الموفق الواهب له ولأسبابه.

فائدة: الظن ورد في القرآن على وجهين، وجه محمود ووجه مذموم:

أما المحمود ففي كل مقام مدح وجزاء بالخير والثواب، فإنه بمعنى العلم واليقين مثل قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٦]

أي يتيقنون لذلك، ومثل قوله:

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [سورة الحاقّة: الآية ٢٠]

وأما المذموم، ففي أغلب الآيات الواردة في الظن، مثل:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٦]

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [سورة يونس: الآية ٣٦]

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٨]

وهو كثير، فهذا وما أشبهه فيمن قدم الظنون الكاذبة على الأخبار الصادقة، لأن الظن في الأصل يحتمل الصدق والكذب، ولكنه إذا ناقض الصدق قطعنا بكذبه.

فائدة: قوله تعالى:

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٦]

وقوله:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٣٩]

تدل الآيتان على أن الزيادة من المحرمات، وخصوصاً المكاسب المحرّمة، نقص في البركة، وقد ينسحت المال بذاته عاجلاً أو آجلاً، وعلى أن من أخرج شيئاً لله أو فعل شيئاً لله، فإن الله يزيده وينزل له البركة، فإن المال وإن نقص حساً بما يخرج منه لله، فإنه يزداد معنى ووصفاً؛ وقد يفتح للعبد بسبب ذلك أبواب من الرزق أو يدفع عن العبد من أسباب النقص ما كان بصدد أن يصيبه.

فائدة: الفرح ورد في القرآن محموداً مأموراً به في مثل قوله:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة يونس: الآية ٥٨]

فهذا فرح بالعلم والعمل بالقرآن والإسلام، وكذلك قوله:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٠]

فهذا فرح بثواب الله.

وورد منهياً عنه مذموماً، مثل الفرح بالباطل وبالرياسات والدنيا المشغلة عن الدين في مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [سورة هود: الآية ١٠]

وقوله عن قارون:

﴿قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٦]

وما أشبه ذلك، فصار الفرح تبعاً لما تعلق به؛ إن تعلق بالخير وثمراته فهو محمود، وإلا فهو مذموم.

فـائدة: ورد السعي في القرآن في آيات كثيرة، والمراد به الاهتمام والجد في العمل، مثل قوله:

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٩]

وقوله:

﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾
[سورة الجمعة: الآية ٩]

وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ٤]

وآيات كثيرة كلها بمعنى الاهتمام للعمل، إلا في مثل قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [سورة القصص: الآية ٢٠]

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [سورة يس: الآية ٢٠]

فالمراد بذلك العَدْوُ؛ وهو يتضمن الأول وزيادة.

فـائدة: أمر الله بالصدق وأثنى على الصادقين، وذكر جزاء الصادقين في آيات كثيرة، والمراد بالصدق أن يكون العبد صادقاً في عقيدته، صادقاً في خلقه، صادقاً في قوله وعمله، فهو الذي يجيء بالصدق في ظاهره وباطنه، ويصدق بالصدق لمن جاء به، كما قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾
[سورة الزمر: الآية ٣٣]

ولما كان من هذا وصفه هو أعلى الخلق في كل حالة، ذكر جزاءه أعلى الجزاء وأفضله فقال:

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾
[سورة الزمر: الآيتان ٣٤ و ٣٥]

وخواص أهل هذا الوصف هم الصدِّيقون الذين ليس بعد درجة النبوة أعلى منهم، قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٩]

والمراد الإيمان الكامل، كما قال النبي ﷺ لما ذكر لأصحابه الغرف العالية التي يتراآها أهل الجنة من علوها وارتفاعها ونورها كالكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، فقالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ فقال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وهؤلاء هم الهداة المهديون كما قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾
[سورة السجدة: الآية ٢٤]

فالصديقية شجرة أصلها العلوم الصحيحة والعقائد السلفية المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله، وقوامها وروحها الإخلاص الكامل لله والإنابة إليه،

والرجوع إليه في جميع الأحوال رغبة ورهبة ومحبة وتعظيماً وخضوعاً وذلاً لله، وثمراتها الأخلاق الحميدة والأقوال السديدة والأعمال الصالحة والإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان، وجهاد جميع أصناف المنحرفين؛ فهي في الحقيقة القيام بالدين ظاهراً وباطناً وحالاً ودعوة إلى الله، والله هو الموفق وهو المعين لكل من استعان به صدقاً.

فـائدة: قوله تعالى في المصطفين الذين أورثهم الله الكتاب:

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾

[سورة فاطر: الآية ٣٢]

اشترك هؤلاء الثلاثة في أصل الإيمان، وفي اختيار الله لهم من بين الخليقة وفي أنه منّ عليهم بالكتاب، وفي دخول الجنة، وافترقوا في تكميل مراتب الإيمان، وفي مقدار الاصطفاء من الله وميراث الكتاب، وفي منازل الجنة ودرجاتها بحسب أوصافهم.

أما الظالم لنفسه، فهو المؤمن الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئاً؛ وترك من واجبات الإيمان ما لا يزول معه الإيمان بالكلية، وهذا القسم ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: من يرد القيامة وقد كفر عنه السيئات كلها. إما بدعاء أو شفاعة أو آثار خيرية ينتفع بها في الدنيا أو عذب في البرزخ بقدر ذنوبه، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله، فهذا من أعلى هذا القسم وهو الظالم لنفسه.

القسم الثاني: من ورد القيامة وعليه سيئات؛ فهذا توزن حسناته وسيئاته ثم هم بعد هذا ثلاثة أنواع:

أحدها: من ترجح حسناته على سيئاته، فهذا لا يدخل النار، بل يدخل الجنة برحمة الله وبحسناته، وهي من رحمة الله.

ثانيها: من تساوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء هم أصحاب الأعراف،

وهي موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه، وفيه ما شاء الله، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة، كما وصف ذلك في القرآن.

ثالثها: من رجحت سيئاته على حسناته فهذا قد استحق دخول النار، إلا أن يمنع من ذلك مانع، من شفاعة الرسول له، أو شفاعة أحد أقاربه أو معارفه ممن يجعل الله لهم في القيامة شفاعة لعلو مقاماتهم على الله وكرامتهم عليه؛ أو تدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة، وإلاَّ فلا بد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه، ثم مآله إلى الجنة؛ ولا يبقى في النار أحد في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها.

وأما المقتصد فهو الذي أدى الواجبات وترك المحرمات، ولم يكثر من نوافل العبادات، وإذا صدر منه بعض الهفوات بادر إلى التوبة فعاد إلى مرتبته، فهؤلاء أهل اليمين، وأما من كان من أصحاب اليمين:

﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٩١]

فهؤلاء سلموا من عذاب البرزخ وعذاب النار، وسلم الله لهم إيمانهم وأعمالهم فأدخلهم بها الجنة، كل على حسب مرتبته.

وأما السابق إلى الخيرات فهو الذي كمل مراتب الإسلام وقام بمرتبة الإحسان، فَعَبَدَ الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه؛ وبذل ما استطاع من النفع لعباد الله، فكان قلبه ملآناً من محبة الله والنصح لعباد الله، فأدى الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات المنقصة لدرجته، فهؤلاء هم صفوة الصفوة، وهم المقربون في جنات النعيم إلى الله، وهم أهل الفردوس الأعلى، فإن الله كما أنه رحيم واسع الرحمة، فإنه حكيم ينزل الأمور منازلها ويعطي كل أحد بحسب حاله ومقامه، فكما كانوا هم السابقين في الدنيا إلى كل خير، كانوا في الآخرة في أعلى المنازل؛ وكما تخيروا من الأعمال أحسنها، جعل الله لهم من الثواب أحسنه؛ ولهذا كانت عين التسنيم أعلى أشربة

أهل الجنة، يشرب منها هؤلاء المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً في بقية أشربة الجنة، التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كما قال تعالى:

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾

[سورة المطففين: الآيتان ٢٧ و٢٨]

وهكذا بقية ألوان وأصناف نعيم الجنة لهؤلاء السابقين منه أعلاه وأكمله وأنفسه، وإن كان ليس في نعيم الجنة دني ولا نقص ولا كدر بوجه من الوجوه، بل كل من تنعم بأي نعيم من نعيمها لم يكن في قلبه شيء أعلى منه؛ فإن الله أعطاهم وأرضاهم، وخيار هؤلاء الأنبياء على مراتبهم، ثم الصديقون على مراتبهم، ولكل درجات مما عملوا، فسبحان من فاوت بين عباده هذا التفاوت العظيم، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فائدة: ورد في القرآن ﴿الظلم﴾ بمعنى الكفر والشرك الأكبر، كما قال تعالى:

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٤]

وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٣] ونحوهما.

وورد كثيراً بمعنى الجرائم التي دون الشرك كما سبق في الظالم لنفسه؛ ومثل:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١١٠].

وورد أيضاً عدة آيات يدخل فيها هذا وهذا. ومثل هذا ﴿الفسق﴾ والمعصية والذنب والسيئة والجرم والخطيئة ونحوها، فإنها وردت في القرآن لكل واحد من هذه الثلاثة، فتفسر في كل مقام بما يناسب ذلك المقام.

فائدة: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾

[سورة الليل: الآيات ٥ ـ ٧]

جمعت السعادة وجميع الأسباب التي تنال بها السعادة، وهي ثلاثة أشياء: فعل المأمور، واجتناب المحظور، وتصديق خبر الله ورسوله. فهذه الثلاثة يدخل فيها الدين كله، وذلك أن قوله ﴿أعطى﴾ أي جميع ما أمر به من قول وعمل ونية ﴿واتقى﴾ جميع ما نهي عنه من كفر وفسوق وعصيان، ﴿وصدق بالحسنى﴾ بما أخبر الله به ورسوله من الجزاء، فصدَّق بالتوحيد وحقوقه وجزاء أهله... فمن جمع ثلاثة الأمور يسَّره الله لليسرى، أي لكل حالة فيها تيسير أموره وأحواله كلها، ومقابل هذا قوله:

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ [سورة الليل: الآية ٨]

أي ترك ما أمر به ـ ليس خاصاً بالنفقة ـ بل معنى البخل المنع، فإذا منع الواجبات المتوجهة إليه، القولية أو الفعلية أو المالية، فقد بخل

﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ٨]

أي رأى نفسه غير مفتقر إلى ربه، وذلك عنوان الكبر والتجرؤ على محارم الله

﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ٩]

أي بلا إله إلا الله وحقوقها وجزاء المقيمين لها والتاركين لها،

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [سورة الليل: الآية ١٠]

أي لكل حالة عسرة في معاشه ومعاده.

فائدة: خطابات القرآن للناس خبراً وأمراً ونهياً قسمان:

أحدهما: وهو الأكثر جدًّا خطاب عام يخاطب به جميع الناس، ويتعلق الخبر أو الحكم فيهم في حالة واحدة، مثل الخبر عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومثل الأمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والبر والصلة والعدل والنهي عن ضد ذلك، وهذا لأن القرآن هداية وبيان للناس، وهم مستوون في تعلق تلك الأحكام فيهم ما لم يمنع مانع عجز عن بعض الواجبات فيرتب عليه حكمه.

القسم الثاني: الخطاب العام من جهة، الخاص من جهة أخرى، وذلك كالخطاب المتعلق بالعبادات المعلقة على أوقاتها، كالأمر بـالصلوات الخمس لأوقاتها، كقوله:

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾

[سورة الإسراء: الآية ٧٨]

وبالإمساك عن المفطرات، مثل قوله:

﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

فمن جهة أنه موجه إلى جميع المكلفين فإنه خطاب عام، جميع أهل المشارق والمغارب مخاطبون بذلك؛ ومن جهة أن لكل موضع حكماً بنفسه، فإنه معلوم أن الوقت الذي تطلع فيه الشمس على هؤلاء أو تغرب، أو يطلع الفجر أو تزول الشمس غير الوقت الذي توجد فيه هذه الأمور عند الآخرين، فكل يخاطب بحسب حاله وحسب الموضع الذي فيه بلا ريب؛ ونظير هذا الأمر باستقبال القبلة للصلاة موجه إلى جميع أهل الأرض ومع ذلك فكل قطر ومحل فلهم جهة يتوصلون بها إلى الكعبة، ولهذا صرح الله بهذا المعنى بقوله:

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٤]

فالمقصود واحد، والطرق والوسائل إلى هذا المقصود متباينة، وكل أحد مأمور بطريقه الخاص.

ونظير ذلك الإخبارات بطلوع الشمس والقمر والكواكب وغروبها: لو تحذلق جاهل فقال إن مثل قوله:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾

[سورة الكهف: الآية ٨٦]

أي في البحر برؤية العين، وقوله:

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٠]

ينافي المعلوم، أن الشمس والقمر والكواكب لا تغرب عن الدنيا بالكلية، فيقال هذا من الجهل والعجمة بمكان سحيق عن الحقائق، وذلك أن الله لم يقل وجدها تغرب عن جميع الأرض أو تطلع على جميع الأرض حتى يكون لهذا الجاهل اعتراض، بل أخبر عن غروبها وطلوعها عن ذلك الموضع وذلك القطر، كما يفهم الناس كلهم سابقاً ولاحقاً، ولا فرق بين الإخبارات والأحكام بوجه، ومن المعلوم أن لكل أهل قطر مطلعاً ومغرباً، فهذه الخطابات في الأحكام والإخبارات في غاية الإحكام التي لا يتطرق إليها اعتراضات المعترض، ومن اعترض على شيء من ذلك عرف الناس أن ذلك من آثار جهله وحمقه؛ وهذا واضح لا يحتاج إلى كل هذا، يفهمه الذكي والبليد، وهذا مقتضى كون القرآن عربياً، أنزله الله بما يعقله العباد.

فـائدة: ورد في القرآن عدة آيات فيها ذكر الخلود في النار على ذنوب وكبائر ليست بكفر مثل قوله تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ٩٣]

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤]

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٨١]

فما الجمع بينها وبين النصوص المتواترة من الكتاب والسنة أنه لا يخلد في النار إلا الكفار، وأن جميع المؤمنين مهما عملوا من المعاصي التي دون الكفر فإنهم لا بد أن يخرجوا منها، فهذه الآيات قد اتفق السلف على تأويلها وردها إلى هذا الأصل المجمع عليه بين سلف الأمة، وأحسن ما يقال فيها إن ذكر الخلود

على بعض الذنوب التي دون الشرك والكفر أنها من باب ذكر السبب، وأنها سبب للخلود في النار لشناعتها، وأنها بذاتها توجب الخلود إذا لم يمنع من الخلود مانـع، ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الإيمان مانـع من الخلود، فتنزل هذه النصوص على الأصل المشهور، وهو أنه لا تتم الأحكام إلا بوجود شروطها وأسبابها وانتفاء موانعها، وهذا واضـح ولله الحمد؛ مـع أن بعض الآيات المذكورة فيها ما يدل على أن الخطيئة المراد بها الكفر، لأن قوله: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ دليل على ذلك، لأن المعاصي التي دون الكفر لا تحيط بصاحبها، بل لا بد أن يكون معه إيمان يمنـع من إحاطتها، وكذلك قوله:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [سورة النساء: الآية ١٤]

فالمعصية تطلق على الكفر وعلى الكبائر وعلى الصغائر؛ ومن المعلوم أنه إذا دخل فيها الكفر زال الإشكال.

فـائدة: ورد في القرآن آيات كثيرة فيها مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها، وورد أيضاً آيات أُخر فيها مضاعفة أكثر من ذلك، فما وجه ذلك.

فيقال: أما مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها فلا بد منها في كل عمل صالـح كما قال تعالى:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٠].

وأما مضاعفة العمل أكثر من ذلك فله أسباب، إما متعلقة بنفس العامل أو بالعمل ومزيته أو نتائجه وثمراته أو بزمانه أو مكانه.

فمن أعظم أسباب مضاعفة العمل إذا حقق العبد في عمله الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول فمضاعفة الأعمال تبـع لما يقوم بقلب العامل من قوة الإخلاص وقوة الإيمان.

وكذلك من الأسباب إذا كان العمل ناشئاً عن عقيدة صحيحة سلفية

خالصة متلقاة من الكتاب والسنة، فهذا العبد يكون اليسير من عمله أبرك من الكثير من عمل من ليس كذلك.

ومن ذلك ترك ما تهواه النفوس من الفواحش، مع قوة الداعي إليها لبرهان الإيمان والتوكل والإخلاص.

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العمل فيه نفع للمسلمين وغناء، وذلك كالجهاد في سبيل الله، الجهاد بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان، كما قال تعالى في نفقات أهل هذا الصنف:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٦١]

ويدخل في هذا سلوك طريق التعليم والتعلم للعلوم الشرعية وما يعين عليها؛ وفي الحديث: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة».

ومن ذلك العمل والسعي في المشاريع الخيرية التي ينتفع بها المسلمون في دينهم ودنياهم ويتسلسل نفعها، ومن ذلك العمل الذي إذا عمله العبد كثر مشاركوه والمقتدون به فيه.

ومن ذلك إذا كان العمل له وقع عظيم ونفع كبير، كإنجاء المضطرين، وكشف كربات المكروبين، فكم من عمل من هذا النوع هدم الله به ذنوب العبد كلها وأوصله به إلى رضوانه؛ وقصة البغيِّ التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش شاهدة بذلك.

ومن ذلك علو مقام العامل عند الله ورفعة درجته، كما قال تعالى:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٣٢]

وقوله قبلها: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣١]

ومن ذلك الصدقة من كسب طيب وقوة إخلاص.

ومن ذلك العمل الواقع في زمان فاضل أو مكان فاضل.

ومن أهم وأعظم ما يضاعف به العمل تحقيق مقام الإحسان في القيام بعبودية الله؛ وفي الحديث: «ليس لك من صلاتك إلاّ ما عقلت منها» فالصلاة والقراءة والذكر وغيرها من العبادات إذا كانت بقوة حضور قلب وإيمان كامل، فلا ريب أن بينها وبين عبادة الغافل درجات تنقطع دونها أعناق المطي.

وأسباب مضاعفة الثواب كثيرة، ولكن نبهنا على أصولها.

ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في جميع الأوقات بقوة الإخلاص لله والنصح لعباد الله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وبقية الأعمال تبع لها، فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم.

فـائدة: قد أمر الله في كتابه بالتفكر والتدبر والنظر والتبصر، وغيرها من الطرق التي تنال بها العلوم، وأثنى على أهلها، وأخبر أن كتابه أنزل لهذه الحكم، وأثنى على العلم واليقين ومدح أهلها ونهج جميع طريق يوصل إليها.

فاعلم أن الذي يجمع أشتات هذه الطرق وأنواعها وأجناسها ثلاثة طرق كلية. أحدها طريق الإخبارات الصادقة. والثاني طريق الحس. والثالث طريق العقل. ووجه الحصر أن المعلومات إما أن تدرك بحاسة السمع أو البصر أو اللمس أو الذوق؛ وإما أن تدرك بالعقل، وإما أن تنال بالإخبار. وكل واحد من هذه الثلاثة قد يقارن الآخر، وخصوصاً العقل والأخبار الصادقة فإنها لا يتفارقان.

وقد يكون العلم ضرورياً بديهياً يضطر الإنسان إلى علمه والتصديق به من غير حاجة إلى زيادة نظر وتفكر. وقد يكون نظرياً يحتاج إلى ذلك.

ثم العلم بهذه الأمور مراتب متفاوتة.

وأعلى درجات العلم واليقين وأوضحها وأنفعها للعباد خبر الله وخبر رسله، فإنه لا أصدق من الله قيلاً، ولا أصدق منه حديثاً:

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤]

فكل ما قاله الله وقاله رسوله فهو الحق والصدق؛ وماذا بعد الحق إلا الضلال، وهو يهدي إلى كل دليل عقلي ونقلي، وفي خبر الله وخبر رسله من البيان العظيم والتفصيلات لجميع أجناس العلوم النافعة ما لا تصل إليه علوم الخلائق كلهم، أولهم وآخرهم.

وإذا أردت أن تعرف أن الحق الصحيح هو ما قاله الله وقاله رسوله، وأن ما ناقضه ونافاه فهو باطل بلا ريب مبني على جهالات ومواد فاسدة... فانظر إلى أصول الدين وقواعده وأسسه كيف اتفقت عليها الأدلة النقلية والعقلية والحسية.. انظر إلى توحيد الله ووجوب تفرده وإفراده بالوحدانية وتوحده بصفات الكمال، كيف كانت الكتب السماوية مشحونة منها، بل هي المقصود الأعظم منها، وخصوصاً القرآن الذي هو من أوله إلى آخره يقرر هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها.

وانظر كيف اتفقت جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ على تقرير توحيد الله وتفرده بالوحدانية، وسعة الصفات وعظمتها: من سعة العلم والحكمة، وعموم القدرة والإرادة، وشمول الحمد والملك والمجد والجلال والجمال والحسن، والإحسان في أسمائه وصفاته وأفعاله، ثم انظر إلى هذا الأصل العظيم في قلوب سادات الخلق أولي الألباب الكاملة والعقول التامة كيف تجده أعظم من كل شيء، وأقوى وأكبر من كل شيء، وأوضح من كل شيء، وأنه مقدم عندهم على الحقائق كلها، وأنهم يعلمونه

علماً ضرورياً بديهيًّا قبل الأدلة النظرية، ويعلمون أن كل ما عارضه فهو أبطل الباطل.. ثم انظر إلى كثرة البراهين المنقولة والمعقولة والمحسوسة الشاهدة لله بالوحدانية.

ففي كـل شـيء لـه آيـة تـدل عـلى أنـه واحـد

فوجود جميع الأشياء في العالم العلوي والسفلي وبقاؤها وما هي عليه من الأوصاف المتنوعة، كل ذلك من الأدلة والبراهين على وجود مبدعها ومعدها وممدها بكل ما تحتاج إليه؛ ومن أنكر هذا فقد باهت وكابر وأنكر أجلى الأمور وأعظم الحقائق.

ومن ههنا تعلم أن الماديين الملحدين أضل الخلق وأجهلهم وأعظمهم غرورًا واغتراراً حيث اغتروا حين وقفوا على بعض علوم الكون الأرضي المادي الطبيعي، وقفت عقولهم القاصرة عندها واستولت عليهم الحيرة وتكبروا بمعارفهم الضئيلة وقالوا: نثبت ما وصلت إليه معارفنا وننفي ما سواه، فتعرف بهذا أن نفيهم هذا جهل وباطل باتفاق العقلاء، فإن من نفى ما لا يعرفه فقد برهن على كذبه وافترائه، فكما أن من أثبت شيئاً بلا علم فهو ضال غاوٍ، فكذلك من نفى شيئاً بلا علم. وتعرف أيضاً أن إثباتهم لعلوم الطبيعة التي عرفوها وانتهت إليها معارفهم أن هذا الإثبات منهم قاصر لم يصلوا إلى غايته وحقيقته، فلم يصلوا بذلك إلى خالق الطبيعة ومبدعها، ولم يعرفوا المقصود من نظامها وسببيتها؛ بل عرفوا ظاهراً منها وهم عن النافع غافلون، فأثبتوا بعض السبب وعموا عن المقصود، وهم في علمهم هذا حائرون، لا تثبت لهم قدم على أمر من الأمور، ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمة؛ فهم دائماً في خلط وخبط وتناقض، وكلما جاءهم من البراهين الحق ما يبطل قولهم قالوا: هذا من فلتات الطبيعة، وكلما برز مبرز من فحولهم وأذكيائهم ابتكر له طريقة غير طريقة إخوانه؛ فصدق عليهم قوله تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [سورة ق: الآية ٥]

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

والمقصود أن هذا الأصل العظيم قد دلت عليه جميع الأدلة بأجناسها وأنواعها، ودل عليه الشرع المحكم والقدر العام المنظم، ولم يقدح فيه إلاَّ هؤلاء الضُّلَّال الذين كان قدحهم فيه أسقط اعتبارهم وبرهن على فساد عقولهم.

وانظر إلى الأصل الثاني وهو إثبات الرسالة، وأن الله قد أقام على صدق رسله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر، وخصوصاً محمد ﷺ، فإن آيات نبوته وأدلة رسالته وصدقه متنوعة: سيرته وأخلاقه وما جاء به من الدين القويم، وحثُّه على كل خلق كريم وعمل صالح ونفع وإحسان وعدل، ونهيه عن ضد ذلك، وما جاء به من الوحي: الكتاب والسنة، كله جملة وتفصيلاً براهين على نبوته وصدقه، مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم وإظهار دينه على الأديان كلها، ومن إجابة الدعوات وحلول أنواع البركات التي لا تعد أنواعها فضلاً عن أفرادها، وهذا بقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة، وعن عجز المعارضين له في مقامات التحدي كلها وعجزهم عن نصر باطلهم.

ولا يزال الباطل بين يدي ما جاء به الرسول مخذولاً راهقاً، بحيث أن القائمين بما جاء به الرسول القائمين بمعرفة دينه يتحدُّون جميع أهل الأرض أن يأتوا بصلاح أو فلاح أو رقي حقيقي أو سعادة حقيقية بجميع وجوهها، وأنه محال أن يتوصل إلى شيء من ذلك بغير ما جاء به الرسول وأرشد إليه ودل الخلق عليه؛ ولولا الجهل بما جاء به الرسول، والتعصبات الشديدة من الأعداء والمقاومات العنيفة، وإقامة الحواجز المتعددة العنيفة لمنع الجماهير والدهماء من رؤية الحق الصريح والدين الصحيح، لم يبق على وجه الأرض دين سوى دين محمد ﷺ لدعوته وإرشاده وحثه على كل صلاح وإصلاح وخير ورشد؛ ولكن مقاومات الأعداء ونصر القوة للباطل بالتمويهات والتزويرات وتقاعد أهل الدين عن القيام به ونصرته هي التي منعت أكثر الخلق من الوقوف على حقيقته.

ثم انظر إلى الأصل الثالث، وهو إثبات المعاد والجزاء كيف اتفقت الكتب

السماوية والرسل العظام وأتباعهم على اختلاف طبقاتهم وتباين أقطارهم وأزمانهم وأحوالهم على الإيمان به والاعتراف التام به، وكم أقام الله عليه من الأدلة النقلية والعقلية، وكذلك الحسية المشاهدة ما يدل أكبر دلالة عليه، وكم أشهد عباده في هذه الدار أنموذجاً من الثواب والعقاب، وأراهم حلول المثلات بالمكذبين، وأنواع العقوبات الدنيوية بالمجرمين؛ كما أراهم نجاة الرسل ومن تبعهم من المؤمنين وإكرامهم في الدنيا قبل الآخرة، وكم أبطل الله كل شبهة يقدح بها المكذبون بالمعاد، كما أقام الأدلة على إبطال الشبه الموجهة من المكذبين إلى توحيده وصدق رسله، وبين سفههم وفساد عقولهم، وأنه ليس لهم من المستندات على إنكار ذلك إلا استبعادات مجردة؛ وقياس قدرة رب العالمين على قدر المخلوقين.

والمقصود أن هذه الأصول العظيمة قد قامت البراهين القواطع عليها من كل وجه وبكل اعتبار، وجميع الحقائق الصحيحة غيرها لم يقم على ثبوتها وعلمها عشر معشار ما قام على هذه الأصول من البراهين المتنوعة؛ ففي هذا دليل على أن كل من أثبت معلوماً أو حقيقة من الحقائق بطريق عقلي أو خبري أو حسي، ثم نفى مع ذلك واحدًا من هذه الأصول الثلاثة التي هي أساس الدين، فقد كابر عقله وحسه وعلمه، ونادى على نفسه بالتناقض العظيم؛ لأن الطرق التي دلته على إثبات معلوماته هي ــ وأضعافها وأضعاف أضعافها وما هو أقوى منها وأوضح ــ قد دلت على التوحيد والرسالة والمعاد.

واعلم أن المعلومات بخبر الله وخبر رسله عامة يدخل فيها الأخبار عن الله وعن ملائكته وعن الغيوب كلها وأمور الشرع والقدر، وهي الأخبار المعصومة الصادقة التي يعلم كذب ما خالفها وبطلانه. ولنكتف بهذا الأنموذج من الأمثلة، والله أعلم.

وبعد هذا إخبار الصادقين عن المواضع والحوادث والوقائع التي شاهدوها، وهذا النوع بحسب صدق المخبرين، وتواتر خبرهم يفيد العلم القطعي. وكذلك إخبار الصادقين عن العلوم التي سمعوها والألفاظ التي نقلوها، وأصدق الناقلين هنا حملة الشريعة المحمدية، لشدة عنايتهم وكمال صدقهم وقوة

دينهم، وأنهم بالخصوص حفظوا عن الخطأ العمومي، والاتفاق على غير الصواب.

ومن الأمور التي تعلم بالعقل أن العقول الصحيحة التي لم تغير فطرتها، ولم تفسد بالعقائد الفاسدة، تعلم علماً يقيناً حسن التوحيد والإخلاص لله، كما تعلم قبح الشرك، وتعلم حسن الصدق والعدل والإحسان إلى المخلوقين، كما تعلم قبح ضده، وتعلم وجوب شكر المنعم ووجوب بر الوالدين وصلة الأقارب، والقيام بحق من له حق عليك، وتستحسن كل صلاح وإصلاح، وتستقبح كل فساد وضرر، ومن أشرف ما يعلم بالعقل أنه مركوز في العقول أن الكمال المطلق لله وحده، وأن له الحكمة التامة في خلقه وشرعه، وأنه لا يليق به أن يترك خلقه سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون. ومن المعلوم بالحس ما يدرك بالحواس، كسمع الأصوات وإبصار الأعيان وهو من أتم المعارف، فإنه ليس الخبر كالمعاينة، ومما يدرك بالحس ما يدرك بالشم، كشم الروائح الطيبة والخبيثة، وما يدرك باللمس، كالحرارة والبرودة، وما يدرك بتحليل الأشياء والوقوف على موادها وجواهرها وصفاتها، كل هذا من مدركات الحس. وبالجملة فطرق العلم إلى المعلومات كثيرة جداً، وكلما كان الشيء أعظم ومعرفته أهم، كانت الطرق الموصلة إليه أكثر وأوضح وأصح وأقوى؛ كما تقدمت الإشارة إلى التوحيد والرسالة والمعاد، والله أعلم.

فائدة: لما ذكر الباري نعمته على العباد بتيسير الركوب للأنعام والفلك قال:

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾

[سورة الزخرف: الآيتان ١٣ و١٤]

ذكر فيها أركان الشكر الثلاثة: وهي الاعتراف والتذكر لنعمة الله، والتحدث بها والثناء على الله بها، والخضوع لله والاستعانة بها على عبادته، لأن المقصود من قوله: ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ الاعتراف بالجزاء والاستعداد له،

وأن المقصود من هذه النعم أن تكون عوناً للعبد على ما خلق له من طاعة الله، وفي قوله: ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ تقييدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة؛ لأن كثيراً من الخلق تسكرهم النعم وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم الأشر والبطر. فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، فإنه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعم الله، وأن أصولها وتيسيرها وتيسير أسبابها وبقائها ودفع ما يضادها أو ينقصها كله من فضل الله وإحسانه ليس من العبد شيء، خضع لله وذلّ وشكره وأثنى عليه، وبهذا تدوم النعمة ويبارك الله فيها، وتكون نعمة حقيقية؛ فأما إذا قابلها بالأَشَر والبطر، ونسي المنعم، وربما تكبر بها على عباد الله، فهذه نقمة في صورة نعمة، وهي استدراج من الله للعبد سريعة الزوال وشيكة بالعقاب عليها والنكال، نسأل الله أن يوزعنا شكر نعمه.

فـــائدة

بل فوائد عظيمة في ذكر شيء من الأسباب التي ذكرها الله في كتابه موصلة إلى المطالب العالية

لا ريب أن من حكمة الله ورحمته أنه جعل العباد مفتقرين إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية وإلى دفع المضار الدينية والدنيوية، فاقتضت حكمته وسنته التي لا تتبدل أن هذه المنافع المتنوعة ـ وخصوصاً الأمور العظام ـ لا تحصل إلا بالسعي بأسبابها الموصلة إليها، وكذلك المضار لا تندفع إلا بالسعي بالأسباب التي تدفعها؛ وقد بين في كتابه غاية التبيين هذه الأسباب وأرشد العباد إليها، فمن سلكها فاز بالمطلوب ونجا من كل مرهوب.

فأصل الأسباب كلها الإيمان والعمل الصالح، جعل الله خيرات الدنيا والآخرة وحصولها بحسب قيام العبد بهذين الأمرين، وقد ذكر الله في القرآن من هذا شيئاً كثيراً جداً، وقد تقدم في هذا الكتاب شيء من ذلك عند ذكر فوائد الإيمان.

وجعل الله القيام بالعبودية والتوكل سبباً لكفاية الله للعبد جميع مطالبه، شاهده قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٣]

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

أي بمن يقوم بعبوديته ظاهراً وباطناً.

وجعل الله التقوى والسعي والحركة سبباً للرزق، شاهده قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

[سورة الطلاق: الآيتان ٢ و٣]

وقوله: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [سورة الملك: الآية ١٥]

وجعل الله التقوى والإيمان وتكرار دعوة ذي النون سبباً للخروج من كل كرب وضيق وشدة، شاهده الآية السابقة، وكذلك قوله:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآيتان ٨٧ و٨٨]

وجعل الله الدعاء والطمع في فضله سبباً لحصول جميع المطالب، دليله قوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]

وقوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

[سورة الأعراف: الآية ٥٦]

وجعل الله الإحسان في عبادة الخالق والإحسان إلى الخلق سبباً يدرك به فضله وإحسانه العاجل والآجل، شاهده الآية السابقة: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ وقوله:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [سورة الرحمن: الآية ٦٠]

﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٥]

ومن أحبه الله نال جميع ما يطلب.

وجعل الله التوبة والاستغفار والإيمان والحسنات والمصائب مع الصبر عليها أسباباً لمحو الذنوب والخطايا، شاهده قوله تعالى:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨٢]

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [سورة هود: الآية ١١٤]

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾
[سورة يوسف: الآية ٩٠]

وجعل الله الصبر سبباً وآلة تدرك بها الخيرات ويستدفع بها الكريهات، شاهده الآية السابقة وقوله:

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥]

أي على جميع أموركم. ولما ذكر الله ما وصل إليه أهل الجنة من كمال النعيم وزوال كل محذور، ذكر أن هذا أثر صبرهم؛ فقال:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٤]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٥]

ومنه أنه جعل الصبر واليقين تنال بهما أعلى مقامات، وهي الإمامة في الدين، دليله قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾
[سورة السجدة: الآية ٢٤]

وجعل الله مفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإنصات والتعلم والتقوى وحسن القصد؛ شاهده قوله تعالى:

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠١]

وقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾

[سورة الأنفال: الآية ٢٩]

أي نوراً وعلماً تفرقون به بين الحقائق كلها، وقوله:

﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾

[سورة المائدة: الآية ١٦]

وقوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩]

وجعل الله الاستعداد للأعداء بكل مستطاع من القوة، وأخذ الحذر منهم سبباً لحصول النصر والسلامة من شرورهم، شاهده قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

وقوله:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وجعل الله اليسر يتبع العسر، والفرج عند اشتداد الكرب، شاهده قوله تعالى:

﴿ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴾ [سورة الشرح: الآية ٦]

﴿ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [سورة النمل: الآية ٦٢]

وجعل الله الشكر سبباً للمزيد منها ومن غيرها، وكفران النعم سبباً لزوالها، شاهده قوله تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

[سورة إبراهيم: الآية ٧]

وجعل الله الصبر والتقوى سبباً للعواقب الحميدة والمنازل الرفيعة؛ شاهده قوله تعالى:

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢٨]

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[سورة يوسف: الآية ٩٠]

وجعل الله الجهاد سبباً للنصر وحصول الأغراض المطلوبة من الأعداء والوقاية من شرورهم شاهده قوله تعالى:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾

[سورة التوبة: الآية ١٤]

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة النساء: الآية ٨٤]

وجعل الله لمحبته التي هي أعلى ما ناله العباد أسباباً، أهمها وأعظمها متابعة رسوله محمد ﷺ في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال، قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١]

ومن أسبابها ما ذكره بقوله:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٦]

﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٤]

﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٦]

﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾

[سورة الصف: الآية ٤]

وجعل الله النظر إلى النعم والفضل الذي أعطيه العبد وغض النظر مما لم يعطه سبباً للقناعة؛ شاهده قوله تعالى:

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٤]

وجعل الله القيام بالعدل في الأمور كلها سبباً لصلاح الأحوال، وضده سبباً لفسادها واختلافها، شاهده قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمن: الآيات ٧ ـ ٩]

وجعل الله كمال إخلاص العبد لربه سبباً يدفع به عنه المعاصي وأسبابها وأنواع الفتن، شاهده قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

[سورة يوسف: الآية ٢٤]

وجعل الله قوة التوكل عليه مع الإيمان حصناً حصينًا يمنع العبد من تسلط الشيطان؛ خصوصاً إذا انضم إلى ذلك الإكثار من ذكر الله والاستعاذة بالله من الشيطان، شاهده قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

[سورة النحل: الآية ٩٩]

وقال:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [سورة الفلق: الآية ١]

و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [سورة الناس: الآية ١]

إلى آخرهما.

وجعل الله مفتاح الإيمان واليقين التفكر في آيات الله المتلوة، وآياته المشهودة، والمقابلة بين الحق والباطل بحسن فهم وقوة بصيرة؛ شاهده قوله تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾
[سورة صٓ: الآية ٢٩]

والأمر بالتفكر بالمخلوقات في عدة آيات، وقوله:

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الحجر: الآية ٧٧]

فهي سبب للإيمان، والإيمان موجب للانتفاع بها.

وجعل الله القيام بأمور الدين سبباً لتيسير الأمور، وعدم القيام بها سبباً للتعسير، شاهده قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [سورة الليل: الآيات ٥ ــ ١٠]

وجعل الله العلم النافع للرفعة في الدنيا والآخرة، شاهده قوله تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾
[سورة المجادلة: الآية ١١]

وجعل الله كون العبد طيباً في عقيدته وخلقه وعمله سبباً لدخول الجنة، وللبشارة عند الموت، شاهده قوله تعالى:

﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣]

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [سورة النحل: الآية ٣٢]

وجعل الله مقابلة المسيء بالإحسان، وحسن الخلق سبباً يكون به العدو صديقاً، وتتمكن فيه صداقة الصديق؛ دليله قوله تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٤]

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وبذلك تحصل الراحة للعبد ويتيسر له كثير من أحواله.

وجعل الله الإنفاق في محله سبباً للخلف العاجل والثواب الآجل؛ شاهده قوله تعالى:

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

[سورة سبأ: الآية ٣٩]

وجعل الله لرزقه أبواباً وأسباباً متنوعة، فمتى انغلق عن العبد باب منها فلا يحزن، فإن الله يفتح له غيره، وقد يكون أقوى منه وأحسن، وقد يكون مثله ودونه؛ شاهده قوله تعالى:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٠]

وقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

[سورة التوبة: الآية ٢٨]

وجعل الله التحرز والبعد عن الموبقات المهلكة والحذر من وسائلها طريقاً سهلاً هيِّناً لتركها؛ شاهده قوله تعالى:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ [أي محارمه] فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧]

أي لا تفعلوها ولا تحوموا حولها فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه؛ وإذا قيل مثل هذه الآية: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ كان المراد بالحدود المحارم؛ وأما إذا قيل:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٩]

فهذه الحدود التي حددها الله للمباحات، فعلى العبد أن لا يتجاوزها، لأنه إذا تجاوز المباح وقع في المحرّم، فافهم الفرق بين الأمرين.

وجعل الله السبب الوحيد القوي المثمر للثمرات الجليلة للدعوة إلى سبيله هو ما تضمنته هذه الآية:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥]

فالحكمة وضع الدعوة في موضعها، ودعاية كل أحد بحسب ما يليق بحاله ويناسبه ويكون أقرب لحصول المقصود منه ﴿والموعظة الحسنة﴾ البالغة في الحسن مبلغاً، يصير لها من التأثير وسرعة الانقياد ما يناسب مقتضى الحال؛ فالموعظة بيان الأحكام مع ذكر ما يقترن بها من الترغيب في ذكر مصالحها ومنافعها وخيراتها الحاملة عليها، وذكر ما يقترن بها من الترهيب على فاعل المحرمات أو تارك الواجبات من العقوبات والخسران والحسرات وحرمان الخير العاجل والآجل.

«والمجادلة بالتي هي أحسن» بالعبارات الواضحة والبراهين البينة التي تحقق الحق وتبطل الباطل، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشاتمة.

وقد علم الله مع ذلك أن الناس ثلاثة أقسام؛ كل يدعى بالطريق التي تناسبه:

القسم الأول: المنقادون الملتزمون الراغبون في الخير، الراهبون من الشر، فهؤلاء لما عندهم من الاستعداد لفعل المأمورات وترك المنهيات والاشتياق إلى الاعتقاد الصحيح، فقط يكتفى ببيان الأمور الدينية لهم والتعليم المحض.

والقسم الثاني: الذين عندهم غفلة وإعراض واشتغال بأمور صادّة عن الحق، فهؤلاء مع هذا التعليم يدعون بالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، لأن النفوس لا تلتفت إلى منافعها، ولا تترك أغراضها الصادّة لها عن الحق علماً وعملاً إلّا مع البيان لها أن ترغب وترهب بذكر ما يترتب على الحق من المنافع وعلى الباطل من المضار، والموازنة بين الأمور النافعة والضارة.

والقسم الثالث: المعارضون أو المعاندون المكابرون، المتصدون لمقاومة الحق ونصرة الباطل، فهؤلاء لا بد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتي هي أحسن، بحسب ما يليق بالمجادِل والمجادَل وبتلك المقالة وما يقترن بها، وإذا أردت تطبيق هذه الأمور الثلاثة تماماً فانظر إلى دعوات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم التي حكاها الله في كتابه مع أممهم المستجيبين، والمعرضين والمعارضين، تجدها محتوية على غاية الحسن في كل أحوالها.

ثم انظر إلى دعوة سيدهم وإمامهم محمد ﷺ، وما سلك من الطرق المتنوعة في دعاية الخلق عموماً وخصوصاً، على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وبحسب أحوالهم، وبحسب الأقوال والأحكام التي يدعو إليها، تجدْهُ قد فاق في ذلك الأولين والآخرين، والآثار أكبر دليل على قوة المؤثر.

وجعل الله السبب لفصل الخصام المرضي للمتشاجرين المنصفين في جميع المقالات، الذي هو خير في الحال وأحسن في المآل، ردها إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ شاهده قوله تعالى:

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

وجعل الله صلة ما أمر به أن يوصل من البر وصلة الأرحام والقيام بحق من له حق عليك سبباً تنال به مكارم الأخلاق ويتبوء به المنازل العالية في جنات النعيم، شاهده قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ

* . . . جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ [سورة الرعد: الآيات ٢١ ـ ٢٣]

وجعل الله السوابق الحميدة للعبد وتعرفه لربه في حال الرخاء سبباً للنجاة من الشدائد وحصول أعظم الفوائد؛ شاهده قوله تعالى:

﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾

[سورة الصّافّات: الآيتان ١٤٣ و١٤٤]

وقول أهل الجنة فيها:

﴿ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [سورة الطور: الآيات ٢٦ ـ ٢٨]

وجعل الله لشرح الصدر ونعيمه وطمأنينته أسباباً متعددة: اليقين والإيمان والإكثار من ذكر الله وقوة الإنابة إليه، والقناعة بما أعطى من الرزق، وحصول العلم النافع، وترك الذنوب والمبادرة بالتوبة مما وقع منها؛ وشواهد هذا كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾

[سورة الرعد: الآية ٢٨]

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾

[سورة الزمر: الآية ٢٢]

﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴾ [سورة الانفطار: الآية ١٣]

وشمول هذا النعيم لنعيم القلوب في الدنيا ظاهر:

﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾

[سورة المطففين: الآيتان ١٤ و١٥]

وجعل الله ضرب الأمثال في كتابه طريقاً عظيماً من طرق التعليم الذي تتبين وتتوضح به المطالب العالية والعقائد الصحيحة والفاسدة؛ كما مثل كلمة التوحيد والعقيدة الحقة الصحيحة

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ [في قلب المؤمن] وَفَرْعُهَا [من الأعمال والأخلاق] فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا [أي منافعها] كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤ و ٢٥]

ومثل ضد ذلك بالشجرة الخبيثة التي لا لها أصل ثابت ولا فرع نافع. ومثل المشرك بربه كالعبد الذي يتنازعه شركاء متشاكسون، والموحد المخلص لله السالم من تعلقه بغيره.

وكذلك مثّل الشرك والمشرك واتخاذه ولياً من دون الله يتعزز به وينتصر:

﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤١]

ومثل وحيه بمنزلة الغيث النافع، وقلوب الخلق بمنزلة الأراضي الطيبة القابلة والخبيثة، وبيّن ذلك، وهي أمثلة محسوسة يوضح الله بها المطالب النافعة، وهو يُقْسم تعالى على أصول الدين التي يجب على الخلق الإيمان بها: كالتوحيد والرسالة والمعاد وما يتفرع عنها؛ وضرب الأمثال من تصريف الله الآيات لعباده بأعلى أساليب الكلام المؤثرة الموضحة للحقائق؛ فتأمل إقسامات القرآن تجدها كذلك، ولذلك حثّ الله عليها ومدح من يتفكر فيها ويعقلها، فقال:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[سورة الحشر: الآية ٢١]

وفي الآية الأخرى

﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٣]

فصــل
في ذكر حدود ألفاظ كثر مرورها في القرآن أمراً بها أو نهياً عنها أو مدحاً لها أو ذماً لها

فالله تعالى أثنى على من عرف حدود ما أنزل على رسوله، وذَمَّ من جهلها؛ وهذه ألفاظ جليلة يتعين على طالب العلم معرفة حدودها، ليعرف ما يدخل فيها وما يخرج منها. وتتفق الألفاظ المأمور بها في كثير من الأمور، وقد يكون بينها فروق، وكذلك المنهيات؛ وهذا من إحكام القرآن، وأنه يصدق بعضه بعضاً:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾

[سورة النساء: الآية ٨٢]

الإسلام والإيمان: أما الإسلام فهو استسلام القلب لله وإنابته، والقيام بالشرائع الظاهرة والباطنة؛ وأما الإيمان فهو التصديق التام والاعتراف بأصوله التي أمر الله بالإيمان بها، ولا يتم ذلك إلا بالقيام بأعمال القلوب وأعمال الجوارح، ولهذا سمى الله كثيرا من الشرائع الظاهرة والباطنة إيماناً، وبعض الآيات يذكر أنها من لوازم الإيمان فعلى هذا: الإيمان عند الإطلاق يدخل فيه الإسلام، وكذلك بالعكس؛ وإذا جمع بين الإيمان والإسلام، فسر الإيمان بما في القلب من التصديق والاعتراف وما يتبع ذلك، وفسر الإسلام بالقيام بعبودية الله كلها، الظاهرة والباطنة.

الإحسان: قسمان. إحسان في عبادة الخالق، وهو بذل الجهد في إكمالها وإتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة. وإحسان إلى المخلوقين بإيصال جميع ما يستطيعه العبد من نفع علمي وبدني ومالي للخلق، ونصيحة دينية أو دنيوية ومساعدة وحض على الخير؛ ولهذا كان المحسنون يتفاوتون تفاوتاً عظيماً بحسب قيامهم بالإحسان المتنوع إلى الخلق، برّهم وفاجرهم، حتى الحيوان البهيم، كما قال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» الحديث.

الهدى والهداية: نوعان. هداية العلم والإرشاد والتعليم، وهداية التوفيق وجعل الهدى في القلب، وهذان يطلبان من الله تعالى، إما على وجه الإطلاق

كقول العبد: اللهم اهدني، أو اللهم إني أسألك الهدى؛ وإما على وجه التقييد بطريقها النافع، كقول المصلِّ: اهدنا الصراط المستقيم. ومن حصلت له الهداية سمي مهتدياً، وأعظم ما تحصل به الهداية القرآن، ولهذا سماه الله هدى مطلقاً، وقال:

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٢]

وقال:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[سورة الإسراء: الآية ٩]

ويشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية النافعة.

العلم واليقين: فالعلم هو تصور المعلومات على ما هي عليه، ولهذا يقال: العلم ما قام عليه الدليل، والعلم النافع ما كان مأخوذاً عن الرسول، واليقين أخص من العلم بأمرين. أحدهما: أنه العلم الراسخ القوي الذي ليس عرضة للريب والشك والموانع؛ ويكون علم يقين إذا ثبت بالخبر، وعين يقين إذا شاهدته العين والبصر، ولهذا يقال ليس الخبر كالمعاينة، وحق يقين إذا ذاقه العبد وتحقق به.

الأمر الثاني: أن اليقين هو العلم الذي يحمل صاحبه على الطمأنينة بخبر الله، والطمأنينة بذكر الله، والصبر على المكاره، والقوة في أمر الله؛ والشجاعة القولية والفعلية، والاستحلاء للطاعات وأن يهون على العبد في ذات الله المشقات وتحمل الكريهات، فهذه الآثار الجميلة ـ التي هي أعلى وأحلى من كل شيء ـ من آثار اليقين.

الصبر: حبس النفس على المشقات طلباً لرضا الله؛ وينقسم إلى ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وخصوصاً الطاعات الشاقة، حتى يؤديها على وجه الكمال، وصبر عن معصية الله، خصوصاً المعصية التي تدعو النفس إليها دعاءاً قوياً، حتى يجاهد نفسه فيتركها لله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، خصوصاً إذا عظمت المصيبة، حتى لا يتسخطها، وربما وصلت به الحال إلى الرضا عن الله.

الشكر لله: هو الاعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة، العامة والخاصة، والتحدث بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم دون معصيته، ولا بد أن يقترن هذا بالخضوع للمنعم ومحبته، فبهذه الأركان الخمسة يكون الشكر تاماً:

البر والتقوى لله: إذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر، فإنه اسم جامع للقيام بكل ما يحبه الله ورسوله ظاهراً وباطناً، وترك ما يكرهه الله ورسوله ظاهراً وباطناً، وإذا جمع بينهما نحو:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

فسر البر بالقيام بعقائد الإيمان وأخلاقه؛ وأعمال البر كلها القاصرة والمتعدية وفسرت التقوى باتقاء ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان.

الصدق والكذب: الصدق هو استواء الظاهر والباطن على الاستقامة على الصراط المستقيم، فالصدق في العقائد أن تكون عقيدة العبد صادقة سلفية متلقاة عن كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم؛ والصدق في الأخلاق أن يكون القلب ملآناً من الإيمان والإخلاص والرغبة والنصيحة لعباد الله ومحبة الخير لهم؛ والصدق في الأقوال أن يكون قائلاً للصدق مصدقاً به، والصدق في الأعمال الاجتهاد في تكميلها وإتقانها؛ والكذب ما ناقض ذلك كله، ولذلك كان الصدق والكذب مراتب، ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.

العدل والظلم: العدل هو سلوك الطريق المستقيم المعتدل في العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال كما يقال في الصدق، والظلم ما ناقض ذلك، ولهذا انقسم الظلم إلى ثلاثة أقسام كلها منافية للعدل ـ الظلم في التوحيد بالإشراك بالله؛ قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٣]

وظلم الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وظلم العبد نفسه

فيما دون الشرك، ولا يتم للعبد العدل الكامل حتى يدع جميع هذه الأقسام، ويتوب إلى ربه مما وقع منه، ويخرج من حق العباد إليهم، ولهذا كان القيام بالدين كله من العدل والقسط.

«العبادة والعبودية لله»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، فكل ما يقرب إلى الله من الأفعال والتروك فهو عبادة؛ ولهذا كان تارك المعصية لله متعبداً متقرباً إلى ربه بذلك. ولا تتم العبادة إلا بالإخلاص: «الإخلاص لله وحده»: بأن يقصد العبد وجه الله ورضاه وثوابه في أعماله الظاهرة والباطنة؛ وضده العمل للرياء والسمعة ولأجل عرض الدنيا وميزان هذا قوله تعالى عن خيار الخلق:

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

وقوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه. وجميع الأعمال على هذا النمط، وقد يراد بالهجرة هنا الهجرة العامة التي قال فيها النبي ﷺ: والمهاجر من هجر ما نهى الله ورسوله عنه.

«الخوف والخشية والخضوع والإخبات والوجل»: معانيها متقاربة فالخوف يمنع العبد عن محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله. وأما الخضوع والإخبات والوجل: فإنها تنشأ عن الخوف والخشية لله، فيخضع العبد لله ويخبت إلى ربه منيباً إليه بقلبه ويحدث له الوجل؛ وأما الخشوع فهو حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله وسكون ظاهره وباطنه، فهذا خشوع خاص. وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ومراقبته فيستولي ذلك على القلب كما تستولي المحبة.

«القنوت»: ورد في القرآن على أحد معنيين: معنى خاص بمعنى الخشوع، ومعنى عام وهو قنوت المخلوقات كلها لخلق الله وتدبيره وتصريفه.

«الذكرلله» الذي ورد في القرآن الأمر به والثناء على أهله، وما رتب عليه من الجزاء يطلق على جميع الطاعات الظاهرة والباطنة، القولية والفعلية؛ فكلُّ ما تصوره القلب أو أراده أو فعله العبد أو تكلم به مما يقرب إلى الله فهو ذكر الله؛ والله تعالى شرع العبادات كلها لإقامة ذكره، فهي ذكر الله. ويطلق على ذكر الله باللسان بذكر أوصافه وأفعاله والثناء عليه بنعمه وتسبيحه وتكبيره وتحميده والتهليل والصلاة على النبي ﷺ. ومن ذكره ذكر أحكامه ـ تعلمها وتعليمها، ولهذا مجالس التعلم والتعليم يقال لها مجالس الذكر. وأفضل أنواع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان.

«حدود الله»: يراد بها ما حرمه ومنعه عباده، فيقال فيها: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾. ويراد بها كذلك ما أباحه وأحله لعباده وقدره وفرضه، فيقال فيها: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ أي لا تجاوزوا ما أحل الله إلى ما حرم الله، ولا تتجاوزوا ما قدره الله للعباد إلى ما يخالف تقديره.

«الأمانة»: هي الأمور التي يؤتمن عليها العبد، فيشمل الأمانة التي بينه وبين الله، فإنه ائتمن عبده على إقامة الواجبات وترك المحرمات؛ فالقيام بذلك أداء للأمانة ومراعاة لها، وترك بعض الواجبات وخصوصاً السرية التي لا يطلع عليها إلا الله أو التجرؤ على بعض المحرمات ترك للأمانة واتصاف بالخيانة؛ ويشمل أيضاً الأمانات التي بينك وبين الخلق في الدماء والأموال والحقوق فمن قام بها فقد أدى الأمانة وحفظها، ومن تعدى فيها أو فرط أو خان فقد تجرأ على الخيانة.

«العهد والعقد»: يشمل العهود والعقود التي بين العبد وبين ربه؛ فإن الله عقد بينه وبين المكلفين عقداً وعاهدهم عهداً بإقامة ما خلقوا له من عبادته والقيام بحقوقه؛ فإقامة ذلك وفاء لهذا العقد والعهد، وإهماله نقض للعهد والعقد والثقة. وكذلك العهود والعقود التي بينه وبين الخلق يتعين الوفاء بها، ويشمل ذلك عقود المعاملات كلها من دون استثناء.

«الشجاعة والجبن والتهور»: أثنى الله في كتابه على الشجاعةومدح أهلها

وأمر بها، وذم الجبن والتهور، فالشجاعة قوة القلب وثباته وإقدامه على الأقوال والأفعال في موضع الإقدام بحكمة وحنكة، فإن أقدم عليها في حال لا يحل له الإقدام قيل لذلك تهور وجراءة وحمق وإلقاء بالنفس إلى التهلكة؛ وأما الجبن فهو ضد الشجاعة ضعف القلب وخوره، ويتبع ذلك خور الأعمال والخوف مما لا يخاف وهيبة من لا يهاب؛ فالشجاعة خلق فاضل جليل بين خلقين ذميمين رذيلين: بين التهور، الذي هو غلو وزيادة عن الحد، وبين الجبن، الذي هو تفريط وتقصير وضعف وخور، ونظير ذلك (القوام والبخل والتبذير) في تصريف الأموال، بذلها فيما ينبغي من واجب ومستحب ونافع على الوجه الذي ينبغي، يقال لذلك قوام واعتدال وتوسط واقتصاد؛ فإن منع الواجبات فهو البخل، وصاحبه بخيل؛ وإن أسرف وزاد في النفقة عما ينبغي قيل لذلك إسراف وتبذير؛ قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾
[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

«الاستقامة»: هي لزوم الصراط المستقيم، بأن يستقيم العبد على الإيمان بالله وأداء فرائضه وترك محارمه، مداوماً لذلك، تائباً مما أخل به من حقوقها، ولهذا قال:

﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [سورة فصلت: الآية ٦]

أي مما وقع منكم من الخلل في الاستقامة.

«التوبة والاستغفار»: أما التوبة فهي الرجوع إلى الله مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً ندماً على ما مضى وتركاً في الحال وعزماً على أن لا يعود؛ والاستغفار طلب المغفرة من الله، فإن اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذي رتبت عليه المغفرة، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب. وهو بنفسه عبادة من العبادات، فهو دعاء عبادة ودعاء مسألة.

«التوكل على الله والاستعانة به»: بمعنى واحد هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية، الخاصة والعامة، مع الثقة بالله في ذلك المطلوب.

«المحبة لله والإنابة إلى الله»: هي قوة الود لله لكماله ونعمه الظاهرة والباطنة، وانجذاب القلب إلى الله تألهاً ورغبة ورهبة في كل المطالب، وطمأنينة القلب بذكره واللهج بدعائه والرجوع إليه في الأمور الدينية والدنيوية الجليلة والحقيرة، فمن كان قلبه منيباً إلى الله فهو محب لله، والمنيب هو الأوّاه الرجاع إلى الله الأوّاب إليه.

«المعروف والمنكر»: متقابلان، فالمعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً، والمنكر ضده.

«الخبيث والطيب»: متقابلان، فالطيب ما كان طيب الصفات كثير المنافع، والخبيث بالعكس.

«حسن الخلق وسوء الخلق»: يكون مع الله ومع خلقه؛ فحسن الخلق مع الله القيام بعبوديته ظاهراً وباطناً، مع قوة محبته والطمأنينة إليه واللهج بذكره وقوة الثقة به؛ ومع الخلق بذل الإحسان لهم ومنع الأذى لهم واحتمال الأذى منهم، وسوء الخلق بعكس ذلك كله.

«الشرك والكفر»: الكفر أعم من الشرك، فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه بلا تأويل فهو الكافر من أي دين يكون، سواء كان صاحبه معانداً أو جاهلاً ضالاً؛ والشرك نوعان: شرك في ربوبيته كشرك الثنوية الذين يثبتون خالقاً مع الله، وشرك في ألوهيته كشرك سائر المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون غيره، ويشركون بينه وبين المخلوقين؛ ويسوونهم في الله في شيء من خصائص إلهيته. وقد يكون هذا الشرك أكبر جلياً، كأن يصرف العبد نوعاً من أنواع العبادة لغير الله، وقد يكون أصغر. كوسائل الشرك من الرياء والحلف بغير الله، نحو ذلك.

«النفاق»: هو أن يظهر الخير ويبطن الشر. وهو نوعان: نفاق أكبر، كأن يظهر الإيمان بالله ورسوله وقلبه منطو على الكفر؛ ونفاق أصغر، كالكذب وإخلاف المواعيد والفجور في الخصومة.

«الكبر والتواضع»: فسر النبي ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس، يعني وضده التواضع للحق: قبوله حيث كان ومع من كان ولين الجانب والتواضع للخلق.

فهذه الحدود ينبغي أن تعتبرها في كل ما يمر عليك من نصوص الكتاب والسنة لتهتدي إلى معرفة ما يدخل في الأمور التي حكم الله عليها بالأحكام المتنوعة، وما لا يدخل، فيحصل لك الفرقان والرشاد والبيان، فنسأل الله أن يهدينا إلى الصراط المستقيم، وهو العلم بالحق والعمل به ويجنبنا الطرق المخالفة لذلك.

وقد يسر الله تتميم هذا التعليق المبارك في ثالث شوال من شهور سنة ثمان وستين بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة النبوية، فكان على اختصاره وإيجازه ووضوحه فيه معونة عظيمة على فهم كلام رب العالمين، وأن كلام الله كفيل ببيان كل شيء ينتفع به العباد في معاشهم ومعادهم، وإرشادهم إلى كل ما فيه مصالحهم المتنوعة ومنافعهم المتعددة، وأنه يتعذر الصلاح والإصلاح للأحوال كلها إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها هذا القرآن في أصول الدين وفروعه، وفي الأخلاق والآداب، وفي الأمور الداخلية والخارجية، والحمد لله الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، بخط الفقير إلى الله من كافة الوجوه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين، ووقع الفراغ من نقله من خط المؤلف في سابع من الشهر المذكور والسنة المذكورة بقلم الفقير إلى ربه محمد السليمان العبد العزيز البسام، غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين.

* * *

محتويات المجلد

فهرس كتاب
القواعد الحِسان لتفسير القرآن

الموضوع			الصفحة

الموضوع		الصفحة
القاعدة الخمسون	: آيات الرسول من الله وحده	١٢٤
القاعدة الحادية والخمسون	: دعاء العبادة والمسألة	١٢٧
القاعدة الثانية والخمسون	: وضوح الحق يبطل المعارضة	١٣٠
القاعدة الثالثة والخمسون	: الأجر على قدر المشقة	١٣٢
القاعدة الرابعة والخمسون	: نفي الشيء لعدم وجود فائدته	١٣٤
القاعدة الخامسة والخمسون	: ثواب من أحصر عن العمل	١٣٨
القاعدة السادسة والخمسون	: تحصيل المصالح على قدر الوسع والطاقة	١٤٠
القاعدة السابعة والخمسون	: الاستدلال بالسنن الكونية على التوبة	١٤١
القاعدة الثامنة والخمسون	: الكمال إنما يظهر إذا قرن بضده	١٤٢
القاعدة التاسعة والخسمون	: هداية القرآن للتي هي أقوم	١٤٦
القاعدة الستون	: أنواع التعليم القصصي في القرآن	١٤٧
القاعدة الحادية والستون	: الانتفاح بالأوقات بحفظها وضبطها	١٥٠
القاعدة الثانية والستون	: الصبر أكبر عون على النجاح	١٥١
القاعدة الثالثة والستون	: العبرة بصدق الإيمان وصلاح الأعمال	١٥٣
القاعدة الرابعة والستون	: لا قرار للشبهات التي تعرض للحق المتيقن	١٥٤
القاعدة الخامسة والستون	: المنع من المباح المفضي إلى ترك واجب	١٥٧
القاعدة السادسة والستون	: أعظم الأصول توحيد العبادة والإلهية	١٥٨
القاعدة السابعة والستون	: الرجوع إلى الأمر المحقق للخروج من المشتبه فيه	١٦٠
القاعدة الثامنة والستون	: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه	١٦٢
القاعدة التاسعة والستون	: مقاومة القرآن جميع المفسدين	١٦٢
القاعدة السبعون	: جوامع المعاني في القرآن	١٦٤
خاتمة للمصحح		

* * *

فهرس كتاب تيسير اللطيف المنّان
في خلاصة تفسير القرآن

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *